

تألیف العلامذ کشیخ محرحب ال لدین العت سیم راجعه وحقق انمادیثه طائفة من الجامعیین

كتاب الاحبكاء اعظم ماالفه المصنفون في العظ والارشاد في توم أثيره ، وعميت سوه وسرعة فعلد في توجيد النفوس واصلاحها ولارما في من بعض المجازفات والاجاديث غيرالصحيحة والوولي مرة في هذه الطبعة نقدمة محققاً موجزاً ، اشتراعلي المزايا، وخلام لعثرات .

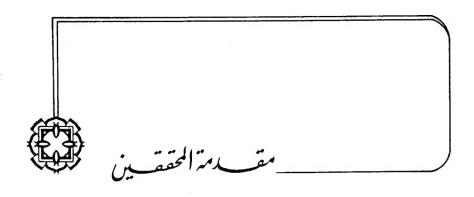
انجزءالاول

دار ا*بن القب* للهنشر والستوزيع نساله المجردي

من يرداسد به خسيرًا تفقهه في الدين من يرداسد به خسيرًا تفيين

تنبب مُوْعِظِمُ الْمُؤْمِنِينَ مِن إحيثاء علوم الدِين

دار ابن لقت الله المستوزيع الدمام من ۱۹۰۰ ما ۱۳۹۶ ما ۱۳۹۵ ما ۱۹۷۵ ما ۱۹۷۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما الما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما الما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما الما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸۵ ما ۱۹۸ ما ۱۹۸



الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله، أما بعد فإن من أهم الكتب التي ينبغي أن تكون بأيدي الجماهير: كتاباً في الوعظ والإرشاد يشجع القراء على مطالعته، فيدلهم على موضع الداء ويصف الدواء، ويجمع إلى الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة تحليلاً وإيضاحاً مع بعض آثار العلماء الصالحين وأحوالهم. ورقائقهم، ونفحات الشعراء، وما اشتملت عليه من روحانية تهز مشاعر القراء، وترضي عواطفهم. كل ذلك في سبيل تحقيق غايتنا الأولى بغية تكوين شخصية المسلم ليحمل راية الإسلام، ويتصف بمبادئه بقوة وحماسة وتضحية من أجل كسب رضاء الله تعالى، ثم السير في طريق الجمال والحق والخير، نحو الحياة الفاضلة القوية الكريمة...

ومثل هذا الكتاب ضروري أيضاً حتى للعالم المرشد، فيسهل مهمته في اجتذاب الجماهير ونصهم وتوجههم ووعظهم في مساجد الله، سواء في الدروس العامة، أو في خطب الجمعة وغيرها.

وقد بحثنا عن كتاب يحقق الأهداف السابقة ويجمع إلى الصحة، القدرة على معالجة النفوس واصلاحها، بدراسة أمراضها وعيوبها، بالدخول إلى بواطنها واقتلاع جذور الشر، وتنمية بذور الخير فيها، عن طريق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة، بالإضافة إلى الشروح التي تثير النفوس

وتلين القلوب، وتشحذ الهمم، وتبدد الأنانيات أساس جميع المفاسد والجرائم...

أجل بحثنا عن كل ذلك، فلم نجد كتاباً يجمع المزايا ويخلو من الآفات.

وهذا فراغ مؤلم ينبغي أن يزول. . .

وقد حاول العلماء والدعاة والوعاظ من قبلنا تحقيق هذا الأمر، فاختاروا كتاب «الإحياء» للإمام الغزالي بعد تنقيته من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ومن العثرات العديدة...

فإن الحق يقال إن هذا الكتاب إذا اختصر وحُقق وهذب، كان أعظم كتاب وضع للوعظ والإرشاد وسرعة التأثير في النفوس. . .

وأول من قام بهذا الصنيع الإمام أبو الفرج ابن الجوزي، وهو العالم اللذي طبقت شهرته الآفاق في قوة تأثيره في هداية الناس، فاختصر هذا «الإحياء» في كتاب أسماه: «منهاج القاصدين» ونقاه من الهفوات قدر المستطاع، فكان بما قاله:

«فاعلم أن في كتاب «الإحياء» آفات لا يعلمها إلا العلماء، وأقلها الأحاديث الباطلة والموضوعة، والموقوفة، وقد جعلها مرفوعة. وإنما نقلها كما اقتراها، لا أنه اقتراها. ولا ينبغي التعبد بحديث موضوع، والاغترار بلفظ مصنوع...

وكيف أرتضي لك أن تصلي صلوات الأيام ولياليها، وليس فيها كلمة قال رسول الله على . .

وكيف أوثر أن يطرق سمعك من كلام (بعض) المتصوفة الذي جمعه وندب إلى العمل به، ما لا حاصل له من الكلام في الفناء، والبقاء، والأمر بشدة الجوع، والخروج إلى السياحة في غير حاجة، والدخول في الفلاة بغير

زاد، إلى غير ذلك مما قد كشفت عن عواره (١) في كتابي المسمى (بتلبيس ابليس) (٢) اهـ باختصار . . .

ثم قام العلامة أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة المقدسي بدوره في اختصاره مرة أخرى وسماه: «مختصر منهاج القاصدين»، وقد طبع عدة طبعات، اطلعنا على إحداها، فوجدناها على الرغم من فائدته، لا يزال يشتمل على كثير من الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والعديد من العثرات والهفوات، فنبهنا أحد القائمين على طبعه بوجوب تحقيقه وتنقيحه في طبعة جديدة، فلم يعبأ بذلك. . فاضطررنا للقيام بهذا المشروع نصرة للإسلام وتسهيلًا لمهمة الخطباء والمدرسين ورغبة في إرشاد المسلمين، وسعياً لتثقيف أنفسهم بأنفسهم، وباشرنا العمل. .

غير أننا بعد ذلك، وجدنا تلخيص علامة الشام جمال الدين القاسمي رحمه الله تعالى وأجزل ثوابه لهذا «الإحياء» في كتابه «موعظة المؤمنين» أقرب إلى روح هذا العصر الذي عاش حوادثه ومشكلاته، وعالجها قدر الطاقة صابراً ومرابطاً ومحتسباً، فآثرناه على غيره.. وإن كنا اقتبسنا أيضاً أهم ما في مختصر الإمامين ابن الجوزي والمقدسي.

عملنا في هذا الكتاب

١ ـ لقد اعتمدنا هذا المختصر في دراستنا وتحقيقنا، وهو مع علو شأن مختصرة، احتوى على العديد من الأحاديث غير الصحيحة، فحذفناها على الغالب لعدم الفائدة من ذكر الأحاديث الضعيفة والموضوعة، ولو بالتعليق عليها، خشية من بلبلة المبتدئين، وحققنا الصحيح من هذه الأحاديث كما هو واجب على كل باحث. وقد اعتمدنا في ذلك غالباً على تحقيق الحافظ

⁽١) العوار بالفتح: العيب.

⁽٢) وهو كتاب مفيد جداً ينبغي لكل مسلم مطالعته ليكون على علم يقيني بدينه وقد طبعته مكتبة «دار البيان» بدمشق طبعة جيدة محققة.

زين الدين العراقي في كتابه القيم «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تغريج ما في الإحياء من الأخبار» كما اعتمدنا أيضاً على المحدث محقق «مشكاة المصابيح» ومحقق «الترغيب والترهيب» (١) واستدركنا على الحافظ العراقي في الأحاديث التي اكتفى بعزوها إلى كتب «السنن» فقط، مع أن فيها العديد من الأحاديث غير الصحيحة..

٢ ـ وكذلك حذفنا العثرات التي أشار إليها الإمام ابن الجوزي، وقد ذكرنا كلامه في أول هذه المقدمة. مع أنه أبقى على بعضها في «مختصره»!

٣ ـ وحذفنا أيضاً من كتاب «موعظة المؤمنين» المسائل المتعلقة بأحكام فقهية عن الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج، كما حذف أكثرها الإمام ابن الجوزي أو المقدسي لأنها مستفيضة في كتب مخصصة لها، وهي موضع خلاف بين المذاهب.

٤ ـ وأثبتنا بعض مباحث وأحاديث وأشعار، رأيناها مفيدة، وقد حذفها الشيخ القاسمي، منها ما نقلناه من «الإحياء» نفسه ومنها ما نقلناه من ختصر الإمامين ابن الجوزي وابن قدامة. فجاء هذا الكتاب مشتملاً على مزايا الكتابين المختصرين.

٥ ـ ومن أهم ما قمنا به، أننا ذكرنا بحثاً في الجهاد، ليأتي الكتاب كاملاً فإن الإمام الغزالي لم يتطرق إلى موضوعه على الرغم من خطورته وعظمته، فهو من أهم أركان الإسلام بعد الإيمان بالله تعالى، وقد لام الغزالي خصومه على هذا الإهمال، وخاصة أنه قد عاش إلى العصر الذي غزا فيه الصليبيون والتتار بلاد المسلمين واحتلوا بعضها وقتلوا وذبحوا الألوف الكثيرة من أهلها...

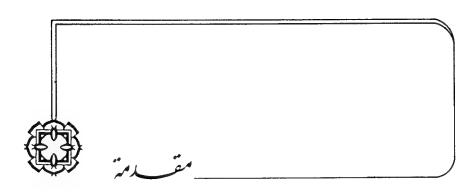
⁽١) رمـز: (مم) في هذا الكتـاب يشـير إلى محقق مشكـاة المصـابيـح. و «مت» إلى محقق التـرغيب والترهيب. و (مج) إلى محقق الجامع الصغير للإمام السيوطي.

٦ - في الطبعة المتداولة كثير من التصحيف والخطأ صححناه في هذه الطبعة.

ولقد جاء هذا الكتاب بعون الله وتوفيقه محققاً للغاية، مؤدياً للغرض، ميسراً للتعليم والتعلم، مشتملاً على المزايا خالياً من الشوائب لأول مرة، فنسأله سبحانه أن يفيد به ويدخر لنا ثوابه: ﴿ يَوْمُ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلاً مَن أَنَى آللَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.





نحمدك ياذا الجلال والإكرام، على ما أكملت لنا من دين الإسلام، ونصلي ونسلم على نبي الهدى والرحمة، المبعوث بالكتاب والحكمة، خاتم النبيين، وإمام المرشدين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وأتباعه أجمعين.

أما بعد، فإن موعظة الناس، والتصدي لإرشادهم في الدروس العامة، من الأمور المهمة، المنوطة بخاصة الأمة، إذ هم أمناء الشرع ونور سراجه، ومصابيح علومه وحفاظ سياجه. وكان السلف يملون مما وقر في صدورهم ما يرونه أمس بحالهم وزمانهم ومكانهم، ولما امتدت الفتوح في الإسلام، ابتدىء بجمع الهدي النبوي للأنام. ثم اتسع العمران وعظمت الحضارة، فأخذ ينمو التفريع والتخريج والانبساط في الفنون على نسبتها في الغزارة، واستبحرت في فنون العلم الأسفار، ودنت لقطف مباحثه الكبار. وصار المعول في بثه عليها، والملجأ في تعرف حقائقه عليها، وتنوعت في كل فن مصنفاته، وزخرت من كل بحث مؤلفاته، حتى حار طالبه في انتقاء الأحسن، واستوقف كثرتها نظره في تخير الأتقن، وأصبح التبصر في أجودها عنوان الذكاء، والوقوف على أنفعها آية النباهة والارتقاء. ولما كانت عظة الناس، بإيقافهم على جواهر دين الإسلام، وإعلامهم محاسنه، وما يأمر به من الأخلاق الكريمة، ويزجر عنه من المساوىء الذميمة، ليرتقوا إلى ما فيه من الأخلاق الكريمة، ويزجر عنه من المساوىء الذميمة، ليرتقوا إلى ما فيه من حسلاحهم ونجاحهم فيفوزوا بما في الاعتصام به سعادتهم وفلاحهم، من

أوجب الواجبات، وآكد المفروضات، لما أخذ الله على العلماء من الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيقف المدعوون على شرائعه تعالى فيها أمر وزجر، ووعد وأوعد، وبشر وأنذر، فلزم الداعي إلى الله تعالى أن يجتهد بفطنته لما يعينه في دعوته، فيجد من المدونات أنفعها، وينتفي من لباب لبابها أرفعها. إذ كثير مما اعتمد في المحافل تدريسه لم يكن على بناء إفادة الجمهور تأسيسه ولا برهان بعد عيان.

موضوع ذكرى الناس موضوع جليل، لا يصلح له إلا كل حكيم نبيل. أتدري من المذكر، أو الواعظ، أو المرشد؟ هو إنسان حافظ لحدود الله، قائم على إرشاد العقول، وتهذيب النفوس، وتثقيف الأذهان، وتنوير المدارك وتصحيح المعتقدات، وإبانة سر العبادات، وإماطة ما غشى الأفهام القاصرة من غياهب الجهالة، وتراث الضلالة.

المذكر وارث محمدي، واقف على مقاصد التشريع وحكمته، عالم بمواضع الخلاف والوفاق، سائس لسامعيه بما يلائمهم من الأحكام. لا يصعد بهم قمم الشدة والتعسير، ولا يهبط بهم إلى حضيض الترخيص غلواً في التيسير، بل يسير بهم على جادة الحق وسواء الطريق.

المذكر ينشر العلم النافع بين الناس، ويحثهم على العمل به، ويخاطبهم على قدر عقولهم، ويتنزل لإرشادهم إلى لغتهم، يعاشرهم بالنصح، ويخالطهم لتأليف قلومهم.

المذكر هو العامل الأكبر في إخراج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور العلم، وتحريرهم من رق الخرافات والوهم. وهو كالسراج، فإذا لم ينتفع بضوئه فلا فائدة في وجوده. وحق ما قيل: «لا يكون العالم عالماً حتى يظهر أثر علمه في قومه، إذ هو ليس مسؤولاً عن نفسه وحدها بل عنها وعن عشيرته وأمته. فمن الواجب عليه أن يعلم ويعظ كما فعل رسول الله

وعلى الجملة فالمذكر لا بد أن يكون كاملًا في علمه، كاملًا في تعليمه،

كاملًا في إرشاده، كاملًا في أخلاقه(١).

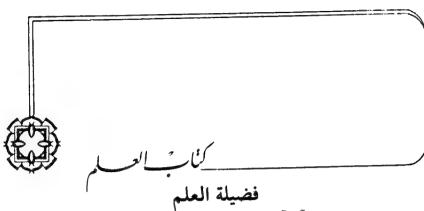
وغير خاف أن مذكر الناس على قـوة ملكته وسعـة مداركـه، يضطر إلى مادة تعينه على ذكراه، وتملد ذاكرته إذا أم مبتغاه. ولكن أين تلك المادة الممدة، فإني لم أر بين المصنفات على كثرتها ما ألف لذكري الجماهير مستوفياً للشروط التامة، بأن يفقهـوا معناه، ويـدركوا منـطوقه ومغـزاه، ويكون وافيــأ بحاجاتهم (٢) آتياً على جميع كمالياتهم، مجرداً عن دقائق المسائل، قريب الأخذ للمتناول. فيستعين بـ المذكر، ويهتدي بـ المستبصر. ولم أزل أترقب من نفحات التوفيق ما يهدىء البال، إلى أن رأيت بعدما بلورت في عالم التدريس، كل كتاب نفيس، الأعوام الطوال: أن أنفع ما يقتبس منه عظة المؤمنين مواضيع تنتخب (من إحياء علوم اللدين) للإمام أبي حامد محمد بن محمد بن محمد الغزالي الطوسي عليه الرحمة والرضوان. ثم اتفق أن تذاكرت مع إمام حكيم (٣) واستطلعت رأيه الصائب في هذا المرام، فقال متأسفاً: «إن هذا الموضوع لم يصنف فيه؛ إلا أن أحسن ما لدينا لذلك هو «الإحياء» بعد تجريده» فعددت ذلك من بدائع الموافقات، وأتـذكر الآن أن أحـد الأعلام في دمشق أشار على من استشاره من المدرسين «بالاحياء» فأخذ المدرس في قراءته بالحرف، عملًا بالأمر الصرف، ثم شكا له ضيق صدره من مباحث لا تفقهها العوام، فأجابه بأن أمره كان لفصول تنتخب منه. وقد تحققت بـذلك كمـال جزأين على الشريطة السالفة، أساير فيهما ترتيب أصله بـلا مخالفـة. والمأمـول أن نحظى بالغاية المتوخاة، والضالة المنشودة. وبالله المستعان، وعليه التكلان.

⁽١) هذا الشرط ليس بالمتيسر غالباً، واشتراطه يبعد العلماء عن الموعظ ويحرم النباس منهم وهو لم يتوفر إلاّ في المعصوم صلوات اللّه عليه وسلامه. قال تعالى: ﴿فَاتَقُوا اللَّهُ مَا استطعتم﴾.

⁽٢) في الأصل حاجياتهم.

 ⁽٣) هوالأستاذ الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية أيام كنا في ضيافته بمصر عام ١٣٢١ واستشرناه فأشار به، عليه الرحمة (القاسمي).





شواهده من القرآن آيات كثيرة، منها قوله عز وجل: ﴿ شَهِدَ آللّهُ أَنّهُ لاَ اللّهَ إِلاَّ هُوَ وَٱلْلَئِكَةُ وَأُولُواْ آلْعِلْمِ قَائِماً بِآلْقِسْطِ ﴾ (آل عمران: ١٨) فانظر كيف بدأ سبحانه وتعالى بنفسه وثنى بالملائكة وثلث بأهل العلم؛ وناهيك بهذا شرفاً وفضلاً. وقال الله تعالى: ﴿ يَرْفَعِ آللّهُ الَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَآلَّذِينَ أُوتُواْ آلْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ (المجادلة: ١١) وقال الله عز وجل: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي آلَّذِينَ أُولِينَ يَعْلَمُونَ ﴾ (الزمر: ٩) وقال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَغْشَى آللّهَ مِنْ عِبَادِهِ آلْعُلَمَنُواْ ﴾ (فاطر: ٢٨) وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى آلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي عِبَادِهِ آلْعُلَمَنُواْ ﴾ (فاطر: ٢٨) وقال تعالى: ﴿ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى آلرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي اللهُ عَلَىٰ اللهُ عَلَىٰ اللهُ تعالى . (النساء: ٣٨) رد حكمة في الواقع إلى استنباطهم، وألحق رتبتهم برتبة الأنبياء في كشف حكم الله تعالى .

وأما الأخبار فقال رسول الله على: «من يسراد الله به خيسراً يفقهه في الدين ويلهمه رشده»(١)، وقال على: «العلماء ورثة الأنبياء»(١) ومعلوم أنه لا رتبة فوق رتبة النبوة، ولا شرف فوق شرف الوراثة لتلك الرتبة، وقال على أدنى تفضيل العلم على العبادة والشهادة: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى

 ⁽١) ولفظ الحديث كما في البخاري ومسلم: «من يرد الله بـه خيـراً يفقـه في الـدين» دون زيـادة
 «ويلهمه رشده» ومعنى يفقه في الدين: أي يعلمه القرآن والسنة.

⁽٢) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وابن حبان في صحيحه من حديث أبي الـدرداء، وإسناده حسن (مم).

رجل من أصحابي ١١٨ فانظر كيف جعل العلم مقارناً لدرجة النبوة، وكيف حط رتبة العمل المجرد عن العلم؛ وإن كان العابد لا يخلو عن علم بالعبادة التي يواظب عليها، ولولاه لم تكن عبادة، وقال رسول الله على: «فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب»(٢) ومن وصايا لقمان لابنه: (يابني! جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله سبحانه يحيي القلوب بنور الحكمة كها يحيي الأرض بوابل السهاء).

قال على بن أبي طالب رضى الله عنه لكميل بن زياد: ياكميل! العلم خير من المال، العلم يحرسك وأنت تحرس المال، والعلم حاكم والمال محكوم عليه، والمال تنقصه النفقة، والعلم يزكو بالانفاق. وقال نظمًّا:

على الحدى لمن استهدى أدلاء الناس موق وأهل العلم أحياء

ما الفخر إلا لأهل العلم إنهم وقدر كل امرىء ما كان يحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداء ففز بعلم تعش حيناً به أبداً

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِضَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلْـدِّينِ﴾ (التوبة ١٢٢) وقوله عزوجل ﴿فَسْتُـلُوٓاْ أَهْـلَ ٱلْـذِّكُـرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (النحل: ٤٣). وأما الأخبار فقوله ﷺ: «من سلك طريقاً يـطلب فيه علماً سلك الله به طريقاً إلى الجنة»(٣).

وقال ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٤) وقال أبو الدرداء:

⁽١) رواه الترمذي من حديث أبي أمامة، قال: حسن صحيح وهو حسن (مم).

⁽٢) من حديث طويل رواه أبو الدرداء رضي الله عنه وإسناده حسن (مم).

⁽٣) من حديث رواه أبو الدرداء وإسناده حسن (مم).

⁽٤) حكى الحافظ العراقي صحته عن بعض الأئمة وحسنه غير واحد.

لأن أتعلم مسألة أحب إلي من قيام ليلة ، وقال أيضاً : العالم والمتعلم شريكان في الخير وسائر الناس همج لا خير فيهم ، وقال الشافعي رضي الله عنه : «طلب العلم أفضل من النافلة» وقال فتح الموصلي رحمه الله : أليس المريض إذا منع الطعام والشراب والدواء يموت؟ قالوا : بلى ، قال : كذلك القلب إذا منع عنه العلم والحكمة يموت . ولقد صدق فإن غذاء القلب العلم والحكمة ؛ وبها حياته ، كما أن غذاء الجسد الطعام ، ومن فقد العلم فقلبه مريض وموته لازم ، ولكنه لا يشعر به ، إذ حب الدنيا وشغله بها أبطل إحساسه . فنعوذ بالله من يوم كشف الغطاء ، فإن الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا . وقال ابن مسعود رضي الله عنه : عليكم بالعلم قبل أن يرفع ، رفعه موت رواته وإن أحداً لم يولد عالماً وإنما العلم بالتعلم .

فضيلة التعلم

أما الآيات فقوله عز وجل: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَهُمْ مَعْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢١) والمراد هـ و التعليم والإرشاد، وقـ وله تعـالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَـٰقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ ﴾ (آل عمران: أَخَذَ اللّهُ مِيثَـٰقَ الّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَـٰبَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَ الْخَقَّ وَمُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البعليم، وقـ وله تعـالى: ﴿وَإِنَّ فَرِيقاً مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْخَقَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ١٤٦) وهـ و تحـريم للكتمـان كـا قـال تعالى في الشهادة: ﴿وَمَنْ يَكْتُمُهَا فَإِنَّهُ عَائِمٌ قَلْبُهُ ﴾ (البقرة ٢٨٣) وقـال تعالى: ﴿وَمَنْ أَخْسَنُ قَـوُلاً مِّمَن دَعَا إِلَى اللّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحـاً ﴾ (فصلت: ٣٣)، ﴿آدْعُ إِلَىٰ اللّهِ وَعَمِلَ صَـٰلِحـاً ﴾ (فصلت: ٣٣)، ﴿آدْعُ إِلَىٰ سَيِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمة وَٱلْمُوعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَمَنْ هُولِكُمْهَ وَٱلْمُوعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ٢٥) وقال تعالى: ﴿وَمُنْ يَكُتُمُهُ الْكِتَابَ وَالْمُوعِظَةِ الْحَسَنَةِ ﴾ (النحل: ٢٨٥) وأما الأخبار فقوله ﷺ لما ﴿وَيُعَلِمُهُ الْكِتَابُ وَالْحِدار فقوله ﷺ لما بعث معاذاً إلى اليمن: ﴿لأن يهدى الله بك رجلًا واحداً خير لك من الدنيا بعث معاذاً إلى اليمن: ﴿لأن يهدى الله بك رجلًا واحداً خير لك من الدنيا

وما فيها»(۱) وقال على: «من علم علماً فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»(۲) وقال على: «إن الله سبحانه وملائكته وأهل سمواته وأرضه حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت في البحر ليصلون على معلم الناس الخبر»(۲) وقال على: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(۱) وقال على الخير كفاعله»(٥).

ومن الآثار ما جاء عن معاذ أنه قال: تعلموا العلم، فإن في تعلمه لله خشية، وطلبه عبادة، ومدارسته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه من لا يعلمه صدقة، وبذله لأهله قربة، وهو الأنيس في الوحدة، والصاحب في الخلوة، والدليل على الدين، والصبر على البأساء والضراء، يرفع الله به أقواماً فيجعلهم في الخير قادة سادة هداة يقتدي بهم، أدلة في الخير، تقتص آثارهم، وترمق أفعالهم، يبلغ العبد به منازل الأبرار والدرجات العلى، والتفكير فيه يعدل بالصيام، ومدراسته بالقيام، به يطاع الله عز وجل، وبه يعبد، وبه يوحد ويمجد، وبه يتورع وبه توصل الأرحام، وبه يعرف الحلال والحرام، وهو إمام والعمل تابعه، يلهمه السعداء، ويحرمه الأشقياء. وقال

⁽١) ولفظ الحديث كما جاء في البخاري ومسلم: «لأن يهدي اللَّه بك رجلًا خير لك من حمر النعم» قال ذلك لعلى رضى اللَّه عنه.

⁽٢) رواه أبو داود وابن ماجة وابن حبان والحاكم وصححه وقال الترمذي: حديث حسن.

⁽٣) الحديث طويـل رواه أبو الـدرداء رضي الله عنه بلفظ: «... وإن المـلائكة لتضع أجنحتها رضى لطالب العلم، وأن العلم يستغفر لـه من في الأرض، والحيتان في جـوف الماء، وإسناده حسن (مم).

⁽٤) رواه مسلم.

⁽٥) رواه مسلم بلفظ: «من دل على خير، فله مثل أجر فاعله».

الحسن رحمه الله: لولا العلماء لصار الناس مثل البهائم. أي إنهم بالتعليم يخرجون الناس من حد البهيمية إلى حد الإنسانية.

آداب المعلم والمتعلم

أما المتعلم فينبغي له تقديم طهارة النفس عن رذائل الأخلاق ومذموم الصفات. إذ العلم عبادة القلب.

وينبغي له قطع العلائق الشاغلة. فإن الفكرة مها توزعت قصرت عن إدراك الحقائق.

وقد كان السلف يؤثرون العلم على كل شيء، وأهديت إلى أبي بكر بن الأنباري جارية. فلم أدخلت عليه تفكر في استخراج مسألة، فغربت عنه. فقال: أخرجوها إلى النخاس! فقالت: هل لي من ذنب؟ قال: لا. إلا أن قلبي اشتغل بك. وما قدر مثلك أن يمنعني علمي.

وقد كان ابن عباس رضي الله عنها يأخذ بركاب زيد بن ثابت رضي الله عنه ويقول: هكذا أمرنا أن نفعل بالعلماء. ومتى تكبر المتعلم أن يستفيد من موصوف بالتقدم فهو جاهل. لأن الحكمة ضالة المؤمن أينها وجدها أخذها.

وينبغي أن يحترز الخائض في العلم في مبدأ الأمر من الإصغاء إلى اختلاف الناس. فإن ذلك يحير عقله ويفتر ذهنه. وينبغي له أن يأخذ من كل شيء أحسنه. لأن العمر لا يتسع لجميع العلوم. ثم يصرف جمام قوته إلى أشرف العلوم. وهو العلم المتعلق بالآخرة الذي به يكتسب اليقين.

وأما المعلم فعليه وظائف أيضاً:

ذلك أنه من علم وعمل - أي بعلمه - فإنه كالشمس تضيء لغيرها، وهي مضيئة في نفسها، وكالمسك الذي يطيب غيره، وهو طيب. والذي يعلم ولا يعمل بعلمه، كالدفتر الذي يفيد غيره وهو خال عن العلم، وكالمسن الذي يشحذ غيره ولا يقطع. والابرة التي تكسو غيرها وهي عارية. وذبالة المصباح تضيء لغيرها وهي تحترق كها مثل:

ما هـو إلا ذبالـة وقـدت تضيء للناس وهي تحـترق وعلى المعلم أن يكون عاملًا بعلمه، فلا يكذب قوله فعله، وقد قيل في المعنى:

لا تنه عن خلق وتأتي مشله عار عليك إذا فعلت عظيم ومن ذلك الشفقة على المتعلمين. وأن يجريهم مجرى بنيه. ولا يطلب على افاضة العلم أجراً. ولا يطلب به جزاء ولا شكراً. بل يعلم لوجه الله تعالى. ولا يرى لنفسه منة على المتعلمين. بل يرى الفضل لهم إذ هيأوا قلوبهم للتقرب إلى الله تعالى بزراعة العلم فيها. فهم كالذي يعير الأرض لمن يزرع فيها. فلا ينبغي أن يطلب المعلم الأجر إلا من الله تعالى. وقد كان السلف يمتنعون من قبول هدية المتعلم!

ومنها: أن لا يدخر من نصح المتعلم شيئاً. وأن ينزجره عن سوء الأخلاق بطريق التعريض مها أمكن. لا على وجه التوبيخ بهتك حجاب الهيبة.

ومنها: أن ينظر في فهم المتعلم ومقدار عقله. فلا يلقي إليه ما لا

يدركه فهمه ولا يحيط به عقله. فقد روي عن النبي على أنه قال: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم»(١).

ومنها: أن يكون المعلم عاملًا بعلمه. ولا يكذب قوله فعله. قال الله تعالى: ﴿ أَتَامُ مُ تَلُونَ النَّاسَ بِ الْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتُلُونَ الْكِتَابَ ﴾ (البقرة: ٤٤) وقال على رضي الله عنه: قصم ظهري رجلان: عالم متهتك. وجاهل متنسك.

بيان العلم الذي هو فرض عين

قال رسول الله ﷺ: «طلب العلم فريضة على كل مسلم» (٢) فمنه ما يدرك به التوحيد ويعلم به ذات الله تعالى وصفاته، ومنه ما تعرف به العبادات والحلال والحرام، وما يحرم من المعاملات وما يحل، ومنه ما تعلم به أحوال القلب: ما يحمد منها كالصبر والشكر والسخاء وحسن الخلق وحسن المعاشرة والصدق والإخلاص، وما تذم كالحقد والحسد والغش والكبر والرياء والغضب والعداوة والبغضاء والبخل. فمعرفة ما تكتسب به الأولى وما تجتنب به الثانية فرض عين كتصحيح المعتقدات والعبادات والمعاملات.

فأما فرض الكفاية: فهو كل علم لا يستغني عنه في قوام أمور الدنيا،

⁽١) له طرق كلها ضعيفة كها جاء في أسنى المطالب بل هـو من كلام عـلي رضي الله عنه. ومثله: حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله، وهو مـوقوف عـلى علي أيضـاً كها جاء في ضعيف الجامع. وفي مقدمة مسلم عن ابن مسعود قال: ما أنت بمحدث قوماً حديثاً لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة.

⁽٢) حسنه العراقي وغيره.

كالطب! وهو ضروري في حاجة بقاء الأبدان على الصحة. والحساب، فإنه ضروري في المعاملات وقسمة الوصايا والمواريث وغيرها (١) وهذه هي العلوم التي لو خلا البلد عمن يقوم بها خرج أهل البلد، وإذا قام بها البعض لكفى وسقط الفرض عن الآخرين.

⁽١) ومثلها بل وفي مقدمتها تعلم صناعة الأسلحة والفنون الحربية. وقد أهمل المسلمون هذا الفرض، فوقعوا في خطر رهيب.



كناب عقيدة احت السنه

في كلمتي الشهادة التي هي أحد مباني الإسلام

عقيدتهم في ذاته تعالى وتقدس أنه إله واحد لا شريك له، لا أول له مستمر الوجود، لا آخر له، أبدي لا نهاية له، دائم لا انصرام له، لم يزل ولا يزال موصوفاً بنعوت الجلال، لا يقضي عليه بالانقضاء والانفصال، بتصرم الآباد وانقراض الآجال؛ بل هو الأول والآخر، والظاهر(١) والباطن(١) وهو بكل شيء عليم. وأنه ليس بجسم مصور، ولا يماثل موجوداً، ولا يماثله موجود ولا تحيط به الجهات، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات.

وأنه مستو على العرش على الوجه الذي قاله. وبالمعنى الذي أراده، وهو فوق العرش والسهاء، وفوق كل شيء ألى تخوم الثرى، رفيع الدرجات عن العرش والشهاء كها أنه رفيع الدرجات عن الأرض والثرى، وهو مع ذلك قريب من كل موجود، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام، كها لا تماثل ذاته الأجسام، وأنه لا يحل في شيء ولا يحل فيه شيء، تعالى عن أن يحويه مكان (٣) كها تقدس عن أن يحده زمان. بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان.

⁽١) النظاهر: العالي. ومنه قوله تعالى: ﴿ فَهَا استطاعوا أَنْ يَنظْهَرُوهُ وَمَا آسْتَطَاعُواْ لَهُ نَقْباً ﴾ (الكهف: ٩٧).

⁽٢) والباطن: الذي لا تدركه الحواس.

⁽٣) قال أحد كبار شيوخ حماة الشيخ محمد الحامد في تعليقه على رسالة والود على الزنادقة _

وأنه في ذاته معلوم الوجود في العقول مرئي الذات بالأبصار في دار القرار نعمة منه ولطفاً بالأبرار واتماماً منه للنعيم، بالنظر إلى وجهه الكريم، وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالإيجاد والإبداع وأنه عالم بجمع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصاء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء ويعلم السر وأخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات السرائر، بعلم قديم أزلي، لم يزل موصوفاً به في أزل الآزال.

وأنه تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت أمر إلا بقضائه وقدره وحكمته ومشيئته، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لأراد لأمره، ولا معقب لحكمه، وأنه تعالى سميع بصير، لا يعزب عن سمعه مسموع وإن خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرضي وإن دق، ولا يحجب سمعه بعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، لا يشبه سمعه وبصره سمع وبصر الخلق، كما لا تشبه ذات الخلق، متكلم آمرناه، واعد متوعد، وأن القرآن والتوراة والانجيل والزبور كتبه المنزلة على رسله عليهم السلام بكلامه الذي هو صفة ذاته لا خلق من خلقه، وأن القرآن كلام الله ليس بمخلوق فيبيد، ولا صفة لمخلوق فينفد.

وأنه سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعله، فائض من عدله، على أحسن الوجوه وأكملها، وأتمها وأعدلها. وأنه حكيم في أفعاله

⁼ والجهمية»: «القول بأن الله _ تعالى _ حال في كل مكان قول باطل عاطل لا يقول به إلا أهـل الحلول الكافرون، وهو والقول بوحدة الوجود من بـاب واحد كـلاهما كفر وزندقــة، والعلماء برآء منهما جميعاً (٧٧).

عادل في أقضيته. فكل ما سواه إنس وجن وملك، وسياء وأرض وحيوان ونبات وجماد، ومدرك ومحسوس حادث اخترعه بقدرته بعد العدم اختراعاً، وأنشأه انشاء بعد أن لم يكن شيئاً، إذ كان في الأزل موجوداً وحده ولم يكن معه غيره فأحدث الخلق بعد ذلك أظهاراً لقدرته، وتحقيقاً لما سبق من إرادته ولما حق في الأزل من كلمته، لا لافتقاره إليه وحاجته.

وأنه متفضل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب، ومتطول بالأنعام والإصلاح لا عن لزوم، فله الفضل والإحسان، والنعمة والامتنان، وأنه عز وجل يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الكرم والوعد لا بحكم اللزوم له، إذ لا يجب عليه لأحد فعل، ولا يتصور منه ظلم، ولا يجب لأحد عليه حق، وأن حقه في الطاعات واجب على الخلق بإيجابه على ألسنة أنبيائه عليهم السلام، لا بمجرد العقل، ولكنه بعث الرسل وأظهر صدقهم بالمعجزات الظاهرة فبلغوا أمره ونهيه ووعيده فوجب على الخلق تصديقهم فيها جاؤوا به.

وأنه بعث النبي الأمي القرشي محمداً على برسالته إلى العرب والعجم والجن والإنس، وأنه ختم الرسالة والنبوة ببعثه، فجعله آخر المرسلين بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وأنزل عليه كتابه الحكيم، وشرح به دينه القويم، وهدى به ألى الصراط المستقيم، وألزم الخلق تصديقه في جميع ما أخبر به، وأن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنه تعالى قد خلق الجنة فأعدها دار خلود لأوليائه وأكرمهم فيها بالنظر إلى وجهه الكريم، وخلق النار فأعدها دار خلود لمن كفر به وألحد في آياته وكتبه ورسله وجعلهم محجوبين عن رؤيته (۱).

أ وندين بأن لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب يرتكبه كالزنا والسرقة وشرب الخمور، وندين بأن لا ننزل أحداً من أهل التوحيد والمتمسكين

⁽١) إلى هنا من كلام الغزالي وما بعده من كتاب «ألابانة» للإمام الأشعري (الفاسمي).

بالإيمان جنة ولا ناراً إلا من شهد له رسول الله على بالجنة! ونرجو الجنة للمذنبين، ونخاف عليهم أن يكونوا بالنار معذبين، ونقول إن الله عز وجل يخرج قوماً من النار بعد أن امتحشوا(۱) بشفاعة رسول الله على تصديقاً لما جاءت به الروايات عن رسول الله على، ونؤمن بعذاب القبر، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف ويحاسب المؤمنين، وندين بحب السلف الذين اختارهم الله عز وجل لصحبة نبيه عليه السلام، ونثني عليهم بما أثنى الله عليهم ونتولاهم أجمعين.

ونقول: إن الإمام الفاضل بعد رسول الله على أبو بكر الصديق رضوان الله عليه، وأن الله أعز به الدين وأظهره على المرتدين، وقدمه المسلمون للإمامة كما قدمه رسول الله على للصلاة، وسموه بأجمعهم خليفة رسول الله عنه، ثم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنه، وأن الذين قاتلوه قاتلوه ظلماً وعدواناً. ثم على بن أبي طالب رضى الله عنه.

فهؤلاء الأئمة بعد رسول الله في وخلافتهم خلافة النبوة، ونتولى سائر أصحاب رسول في ونكف عما شجر بينهم (٢)، ونعول فيما اختلفنا فيه على كتاب ربنا وسنة نبينا وإجماع المسلمين وما كان في معناه، ولا نبتدع في دين الله ما لم يأذن لنا، ولا نقول على الله ما لا نعلم، ونرى الصدقة (٣) عن موق

⁽١) أي احترقوا والمحش احتراق الجلد وظهر العظم، ويروى امتحشوا لما لم يسم فاعله اهـ نهاية (ج).

⁽٢) ننصح القاريء بضرورة دراسة كتاب: «العواصم من القواصم» للإمام القاضي أبي بكر بن العربي بتحقيق الأستاذ محب الدين الخطيب ومراجعتنا، فهو كتاب جليل يدافع عن الصحابة ويبرئهم مما نسبه إليهم المفترون والشعوبيون.

⁽٣) الذين علمه أن الصدقة تنفع من الفروع إلى الأصول أي من الأولاد إلى أبويهم قبال تعالى: ﴿ وَنَكْتُبُمُ قَدْمُوا وَآثَارُهُم ﴾ وأما الصدقة من غير هؤلاء الفروع فلا تصل لقوله ﷺ في حديث رواه مسلم: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ من ثبلاث: صدقة جارية، أو علم _

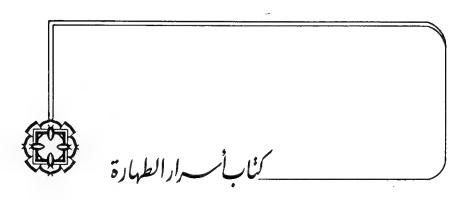
المسلمين والدعاء لهم نافعاً، ونؤمن بأن الله ينفعهم بذلك ونقول: إن الصالحين يجوز أن يخصهم الله بآيات (١) يظهرها عليهم.

⁼ ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له، وجاءت الآية تدل على وصول الدعاء أيضاً من المسلمين إلى المسلمين والله تعالى أعلم.

⁽١) أي كرامات، وهي ثابتة في القرآن والسنة للأولياء الصالحين، وليست لغيرهم!.



كتاب اسرار الطهارة



قال تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ آللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾ (المائدة: ٦) وقال تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالُ يُحبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُواْ وَآللَّهُ يُجبُّ ٱلْمُطَهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨) وقال ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور» (١٠ يُحِبُ المُطَهِّرِينَ ﴾ (التوبة: ١٠٨) وقال ﷺ: «مفتاح الصلاة الطهور» ففطن ذوو البصائر بهذه الظواهر أن أهم الأمور تطهير السرائر إذ يبعد أن يكون المراد بقوله ﷺ: «الطهور نصف الإيمان» (٢) عمارة الظاهر بالتنظيف بإضافة الماء وإلقائه وتخريب الباطن وإبقائه مشحوناً بالأخباث والأقذار، هيهات. والطهارة لها أربع مراتب: (المرتبة الأولى) تظهير الظاهر عن الأحداث وعن الأخباث والفضلات (المرتبة الثانية) تطهير الجوارح عن الجرائم والآثام (المرتبة الثائة) تطهير القلب عن الأخلاق المذمومة والرذائل المحقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عا سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء الممقوتة (المرتبة الرابعة) تطهير السر عا سوى الله تعالى وهو طهارة الأنبياء طلوات الله عليهم والصديقين. ولن ينال العبد الطبقة العالية إلا أن يجاوز الطبقة السافلة، فلا يصل إلى طهارة السر عن الصفات المذمومة وعمارته بالحلق المحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق بالمحمودة ما لم يفرغ من طهارة القلب عن الخلق المذموم وعمارته بالخلق

⁽١) رواه الإمام أحمد في «المسند» وإسناده حسن (مم) وقال الترمذي: وهذا الحديث أصح شيء في

⁽٢) من حديث رواه مسلم بلفظ: «الطهور شطر الإيمان».

المحمود، ولن يصل إلى ذلك من لم يفرغ من طهارة الجوارح عن المناهي وعمارتها بالطاعات.

كلما عز المطلوب وشرف صعب مسلكه وكثرت عقباته، فلا تنظن أن هذا الأمر الرك بالمنى وينال بالهوينا. نعم من عميت بصيرته عن تفاوت هذه الطبقات لم يفهم من مراتب الطهارة إلا الدرجة الأخيرة التي هي كالقشرة الأخيرة الظاهرة بالإضافة إلى اللب المطلوب، فصار يمعن فيها ويستوعب جميع أوقاته في الاستنجاء وغسل الثياب وتنظيف الظاهر وطلب المياه الجارية الكثيرة ظناً منه بحكم الوسوسة وتخيل العقل: إن الطهارة المطلوبة الشريفة هي هذه فقط وجهالة بسيرة الأولين واستغراقهم جميع الهم والفكر في تطهير القلب وتساهلهم في أمر الظاهر حتى أن عمر رضي الله عنه مع علو منصبه توضأ من ماء جرة نصرانية. ولقد كانوا يصلون على أرض المسجد وكانوا يقتصرون على الحجارة في الاستنجاء فكانت عنايتهم كلهم بنظافة الباطن ولم ينقل عن أحد منهم سؤال عن دقائق النجاسات.

وقد انتهت النوبة إلى طائفة يسمون الرعونة نظافة، فأكثر أوقاتهم في تزيينهم الظواهر كفعل الماشطة بعروسها، والباطن خراب مشحون بخبائث الكبر والعجب والجهل والرياء والنفاق ولا يستنكرون ذلك ولا يتعجبون منه، ولو اقتصر مقصر على الاستنجاء بالحجر أو صلى على الأرض من غير سجادة مفروشة أو توضأ من آنية كافر أقاموا عليه القيامة وشددوا عليه النكير ولقبوه بالقذر، فانظر كيف صار المنكر معروفاً والمعروف منكراً وكيف اندرس من الدين رسمه كما اندرست حقيقته وعلمه.



_____كناب السرار الصلاة الشراط الخشوع وحضور القلب فيها

أعلم أن أدلة ذلك كثيرة فمن ذلك قوله تعمالي: ﴿ وَأَقِم الصَّلَوٰةَ لِذِكْرِي﴾ (طه: ١٤) وظاهر الأمر الوجوب، والغفلة تضاد الذكر، فمن غفل في جميع صلاته كيف يكون مقيماً للصلاة لذكره، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) نهي وظاهره التحريم، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (النساء: ٤٣) تعليل لنهى السكران وهو مطرد في الغافل المستغرق الهم بالوسواس وأفكار الدنيا. والتحقيق أن المصلى مناج ربه عز وجل ـ كما ورد به الخبر ـ والكلام مع الغفلة ليس بمناجاة البتة، ولو حلف الإنسان وقال لأشكرن فلاناً وأثنى عليه وسأله حاجة، ثم جرت الألفاظ الدالة على هذه المعاني على لسانه في النوم لم يبر في يمينه ولو جرت على لسانه في ظلمة، وذلك الإنسان حاضر وهو لا يعرف حضوره ولا يراه يصير باراً في يمينه إذ لا يكون كلامه خطاباً ونطقاً معه، ما لم يكن هو حاضراً في قلبه. فلو كان تجري هذه الكلمات على لسانه وهو حاضر إلا أنه في بياض النهار غافل لكونه مستغرق الهم بفكر من الأفكار ولم يكن له قصد بوجه الخطاب إليه عند نطقه لم يصر باراً في يمينه، ولا في أن المقصود من القراءة والأذكار الحم والثناء والتضرع والدعاء والمخاطب هو الله عز وجيل، والقلب بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشهده بل هـو غافـل عن المخاطب واللسان يتحرك بحكم العادة فها أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التي شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الإيمان، وبالجملة فحضور القلب هـو روح الصلاة ومن عرف سر الصلاة علم أن الغفلة تضادها.

بيان المعاني الباطنة التي بها تتميز حياة الصلاة

يجميع تلك المعاني على كثرتها ست جمل: حضور القلب، والتفهم، والتعظيم، والهيبة، والرجاء، والحياء. فلنذكر تفاصيلها، ثم أسبابها، ثم العلاج في اكتسابها.

أما التفاصيل، فالأول: حضور القلب، ونعني به أن يضرغ القلب عن مغير ما هو ملابس له ومتكلم به، فيكون العلم بالفعل، والقلب مقروناً بها ولا يكون الفكر جائلاً في غيرهما، والتفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب وهو اشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ وكم من معان لطيفة يفهمها المصلي في اثناء الصلاة تمنعه عن الفحشاء والمنكر، والتعظيم وراء الحضور والفهم زائد عليها، والهيبة زائدة على التعظيم وهي عبارة عن خوف منشوءة التعظيم والإجلال، والرجاء: الطمع بمثوبته تعالى ويقابله الخوف من عقابه تعالى بتقصيره، والحياء استشعار تقصيره وتوهم ذنب.

(وأما أسباب هذه المعاني الستة) فاعلم أن حضور القلب سببه الهمة فإن قلبك تابع لهمتك فلا يحضر إلا فيها يهمك، ومهها أهمك أمر حضر القلب فيه شاء أم أبى، فهو مجبول على ذلك ومسخر فيه، والقلب إذا لم يحضر في الصلاة لم يكن متعطلاً بل جائلاً فيها الهمة مصروفة إليه من أمور الدنيا فلا حيلة، ولا علاج لإحضار القلب إلا بصرف الهمة إلى الصلاة، والهمة لا تنصرف إليها ما لم يتبين أن القلب المطلوب منوط بها، وذلك هو الإيمان والتصديق بأن الآخرة خير وأبقى، وأن الصلاة وسيلة إليها.

وأما التفهم فسببه بعد حضور القلب إدمان الفكر وصرف الذهن إلى إدراك المعنى، وعلاجه ما تقدم مع الاقبال على الفكر، والتشمير لدفع الخواطر

وعلاج دفعها قطع مواردها أعني النزوع عن تلك الأسباب التي تنجذب الخواطر إليها.

(وأما التعظيم) فهي حالة للقلب تتولد من معرفتين (إحداهما) معرفة جلال الله عز وجل وعظمته، وهو من أصول الإيمان (الثانية) معرفته كون النفس عبداً مسخراً مربوباً حتى يتولد من المعرفتين الاستكانة والانكسار والخشوع لله سبحانه فيعبر عنه بالتعظيم.

(وأما الهيبة والخوف) فحالة للنفس تولد من المعرفة بقدرة الله وسطوته ونفوذ مشيئته فيه مع قلة المبالاة به، وأنه لو أهلك الأولين والآخرين لم ينقص من ملكه ذرة، وكلما زاد العلم بالله زادت الخشبة والهيبة.

(وأما الرجاء) فسببه معرفة لطف الله عز وجل وكرمه وعميم إنعامه ولطائف صنعه ومعرفة صدقه في وعده الجنة بالصلاة فذًا حصل اليقين بوعده والمعرفة بلطفه انبعث من مجموعها الرجاء لا محالة.

(وأما الحياء) فباستشعاره النقصير في العبادة، وعلمه بالعجز عن القيام بعظم حق الله عز وجل، ويقوي ذلك بالمعرفة بعيوب النفس وآفاتها وقلة إخلاصها وميلها ألى الحظ العاجل في جميع أفعالها مع العلم بعظم ما يقتضيه جلال الله عز وجل والعلم بأنه مطلع على السر وخطرات القلب وإن دقت وخفيت، وهذه المعارف إذا حصلت يقيناً انبعث منها بالضرورة حالة تسمى الحياء، فهذه أسباب هذه الصفات، وكل ما طلب تحصيله فعلاجه إحضار سببه، ففي معرفة السبب معرفة العلاج، ورابطة جميع الأسباب الإيمان واليقين.

بيان الدواء النافع في حضور القلب

أعلم أن المؤمن لا بد أن يكون معظماً لله عز وجل وخائفاً وراجياً لـه ومستحيياً من تقصيره، فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانـه وإن كان قـوتها

بقدر قوة يقينه، فانفكاكه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسيم الخاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغفلة عن الصلاة، ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة، فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر، ولا يدفع الشيء إلا بدفع سببه فلتعلم سببه.

وسبب موارد الخواطر: إما أن يكون أمراً خارجاً، أو أمراً باطناً. أما الخارج فها يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يختطف الهم حتى يتبعه وينصرف فيه ثم تنجر منه الفكرة إلى غيره ويتسلل ويكون الإبصار سبباً للافتكار، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه، ولكن الضعيف لا بد وأن يتفرق به فكرة، وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أولاً، ولا يترك بين يديه ما يشغل حسه، ويقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة بصره، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة وعلى الفرش المصبوغة.

وأما الأسباب الباطنة فهي أشد، فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب، فهذا طريقه أن يرد النفس قهراً إلى فهم ما يقرؤه في الصلاة ويشغلها به عن غيره، ويعينه على ذلك أن يستعد له قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله سبحانه وتعالى وهو المطلع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره.

فإن كان لا يسكن هائج أفكاره بهذا الدواء المسكن، فلا ينجه إلا المسهل الذي يقمع مادة الداء من أعمق العروق، وهو أن ينظر الأمور الصارفة عن إحضار القلب، ولا شك أنها إنما صارت مهمات بشهواته، فيعاقب نفسه بالنزوع عن تلك الشهوات وقطع تلك العلائق، كما ورد أنه يعاقب للس الخميصة التي أتاه بها أبو جهم وعليها علم وصلى بها نزعها بعد

صلاته، وقال ﷺ: «اذهبوا بها إلى أبي جهم فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي وائتوني بانبجانية أبي جهم)(١).

وقد روى عثمان بن عفان رضي الله عنه، عن النبي على أنه قال: «ما من امريء تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت له كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأت كبيرة وذلك الدهر كله (٢). وله في حديث أيضاً عن النبي على أنه قال: «من صلى ركعتين لا يحدث فيها نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه» (٣).

وكان ابن الزبير إذا قام في الصلاة كأنه عود من الخشوع، وكان يسجد فتنزل العصافير على ظهره لا تحسبه إلا جذع حائط، وصلى يوماً في الحجر(1). فجاء حجر قذافة(٥). فذهب ببعض ثوبه فها انفتل.

وقال ميمون بن مهران: ما رأيت مسلم بن بشار ملتفتاً في صلاة قط، ولقد انهدمت ناحية من المسجد ففزع أهل السوق لهدمها، وإنه لفي المسجد يصلي فيا التفت. ولما هنيء بسلامته عجب وقال: ما شعرت بها. وكان علي بن الحسين رضي الله عنها إذا توضأ اصفر لونه، فقيل له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فقال: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم!

وقال ابن عباس: ركعتان في تفكر خير من قيام ليلة والقلب ساه.

⁽١) بكسر الباء وقيل بفتحها كساء منسوب إلى منبج بكسر الباء مدينة من أعمال حلب بسورية رواه البخاري ومسلم.

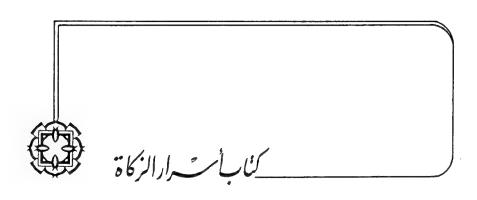
⁽۲) رواه مسلم.

⁽٣) رواه بنحوه أحمد وسنده صحيح (مم).

⁽٤) الحجر: حطيم الكعبة.

⁽٥) القذافة: المنجنيق.





جعل الله تعالى الزكاة إحدى مباني الإسلام وأردف بذكرها الصلاة التي هي أعلى الأعلام فقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ﴾ (النور: ٥٦) وقال على: ﴿بني الإسلام على خس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، وأقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً» وشدد الوعيد على المقصرين فيها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ يكنزُونَ آلذَّهَبَ وَآلْفِضَة وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ آللَّهِ فَبَشِرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ كَنت في نفر من قريش فمر أبو ذر فقال: بشر الكانـزين بكي في ظهـورهم كنت في نفر من قريش فمر أبو ذر فقال: بشر الكانـزين بكي في ظهـورهم يخرج من جباههم. ولهذا التشديد صار يخرج من جنوبهم، وبكي في أقفائهم يخرج من جباههم. ولهذا التشديد صار من مهمات الدين الكشف عن أسرار الزكاة ومعانيها الظاهرة والباطنة.

سر كون الزكاة من مباني الإسلام

في ذلك معان (الأول) أن التلفظ بكلمتي الشهادة التزام للتوحيد وشهادة بإفراد المعبود، والتوحيد باللسان قليل الجدوى، وإنما يمتحن به درجة الحب بمفارقة المحبوب، والأموال محبوبة عند الخلائق لأنها آلة تمتعهم بالدنيا، وبسببها يأنسون بهذا العالم وينفرون عن الموت مع أن فيه لقاء المحبوب، فامتحنوا بتصديق دعواهم في المحبوب واستنزلوا عن المال الذي هو مرموقهم،

ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ آللَّهُ آشْتَرَىٰ مِنَ الْلُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ بِأَنَّ فَمُ آلْجُنَّةَ ﴾ (التوبة: ١١١) وذلك بالجهاد، وهو مسامحة بالمهجة شوقاً إلى لقاء الله عز وجل والمسامحة بالمال أهون.

ولما فهم هذا المعنى في بذل الأموال انقسم الناس إلى ثلاثة أقسام: قسم نزلوا عن جميع أموالهم، فلم يدخروا ديناراً ولا درهماً، كها جاء أبو بكر رضي الله عنه إلى رسول الله على بجميع أمواله. وقسم دون هؤلاء، وهم المسكون أموالهم المراقبون لمواقيت الحاجات ومواسم الخيرات، فيكون قصدهم في الادخار الإنفاق على قدر الحاجة دون التنعم، وصرف الفاضل عن الحاجة إلى وجوه البر مها ظهر وجوهها، وهؤلاء لا يقتصرون على مقدار الزكاة.

وقد ذهب جماعة من التابعين إلى أن في المال حقوقاً سوى الزكاة كالنخعي والشعبي وعطاء ومجاهد. قال الشعبي بعد أن قيل له: هل في المال حق سوى الزكاة؟ قال: نعم، أما سمعت قوله عز وجل: ﴿وَآتَى ٱلمَالَ عَلَيْ حُبِّةٍ ذَوِي القُرْبَىٰ الآية ﴾ (البقرة: ١٧٧) واستدلوا بقوله عز وجل: ﴿وَمِمَا رَزَقْنَهُ مُ يُنفِقُونَ ﴾ (البقرة: ٣) وبقوله تعالى: ﴿أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَكُمْ ﴾ رالبقرة: ٣) فهو في حق المسلم على المسلم، ومعناه أنه يجب على الموسر مها وجد محتاجاً أن يزيل حاجته فضلًا عن مال الزكاة.

والقسم الثالث الذين يقتصرون على أداء الوجوب فلا يزيدون عليه ولا ينتقصون منه وهي أقل المراتب، وقد اقتصر جميع العوام عليه لبخلهم بالمال وميلهم إليه وضعف حبهم للآخرة.

(المعنى الثاني) التطهير من صفة البخل فإنه من المهلكات، قبال تعالى: ﴿ وَمَن يُوقَ شُعَ نَفْسِهِ فَأُوْلَنتكَ هُمْ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (الحشر: ٩) وإنما تزول صفة البخيل بأن تتعود بذل الميال، فحب الشيء لا ينقطع إلا بقهر النفس على مفارقته حتى يصير اعتياداً، والزكاة بهذا المعنى طهرة، أي تبطهر صاحبها من خبث البخل المهلك وإنما طهارته بقدر بذله وبقدر إخراجه واستبشاره بصرفه إلى الله تعالى.

(المعنى الثالث) شكر النعمة فإن الله عز وجل على عبده نعمة في نفسه وماله، فالعبادات البدنية شكر لنعمة البدن، والمالية شكر لنعمة المال، وما أخس من ينظر إلى الفقير، وقد ضيق عليه الرزق وأحوج إليه، ثم لا تسمح نفسه بأن يؤدي شكر الله تعالى على إغنائه عن السؤال وإحواج غيره إليه بربع العشر أو العشر من ماله.

وظائف المزكي

(الأولى) التعجيل عن وقت الوجوب إظهاراً للرغبة في الامتثال بإيصال السرور إلى قلوب الفقراء ومبادرة لعوائق الزمان أن يعوق عن الخيرات، وعلماً بأن في التأخير آفات مع ما يتعرض العبد له من العصيان لو أخر عن وقت الوجوب. ومهما ظهرت داعية الخير من الباطن فينبغي أن يغتنم، فإن ذلك لمة الملك وما أسرع تقلب المؤمن، والشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والمنكر وله لمة عقيب لمة، فليغتنم الفرصة فيه.

(الوظيفة الثانية) الإسرار، فإن ذلك أبعد عن الرياء والسمعة. قال تعالى: ﴿وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقرَآءَ فَهُو خَيْرٌ لِّكُمْ ﴾(البقرة: ٢٧١) وقد بلغ في فضل الإخفاء جماعة حتى اجتهدوا أن لا يعرف القابض المعطي، فكان بعضهم يوصل إلى يد الفقير على يند غيره بحيث لا يعرف المعطي، وكان يستكتم المتوسط شأنه ويوصيه بأن لا يفشيه، كل ذلك توصلاً إلى رضاء الرب واحترازاً من الرياء والسمعة، ومها كانت الشهرة مقصودة له حبط عمله.

(الثالثة) أن يظهر حيث يعلم أن في إظهاره ترغيباً للناس في الاقتـداء، ويحرس سره من داعية الرياء. فقد قـال تعالى: ﴿إِنْ تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمًا

هِيَ (البقرة: ٢٧١) حيث يقتضي الإبداء إما للاقتداء وإما لأن السائل إنما سأل على ملأ من الناس فلا ينبغي أن يترك التصدق خيفة من الرياء في الإظهار بل ينبغي أن يتصدق، ويحفظ سره عن الرياء بقدر الإمكان، وهذا لأن في الإظهار محذوراً ثالثاً سوى المن والرياء وهو هتك ستر الفقير، فإنه ربما يتأذى بأن يرى في صورة المحتاج فمن أظهر السؤال فهو الذي هتك ستر نفسه فلا يحذر هذا المعنى في إظهاره، وقد قال تعالى: ﴿وَأَنفَقُواْ مِمّا رَزَقْنهُمْ سِراً وَعَلاَئِيةً ﴾ (فاطر: ٢٩) ندب إلى العلانية أيضاً لما فيه من فائدة الترغيب، فليكن العبد دقيق التأمل في وزن هذه الفائدة بالمحذور الذي فيه، ومن عرف الفوائد والغوائل ولم ينظر بعين الشهوة اتضح له الأولى والأليق بكل حال.

(الرابعة) أن لا يفسد صدقته بالمن والأذى، قال تعالى: ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِ وَاللَّاذَى ﴾ (البقرة: ٢٦٤) والمن أن يذكرها ويتحدث بها أو يستخدمه بالعطاء أو يتكبر عليه لأجل عطائه، والأذى أن يظهرها أو يعيره بالفقر أو ينتهره أو يوبخه بالمسألة، وأصل المن أن يرى نفسه محسناً إلى الفقير ومنعاً عليه، وحقه أن يرى الفقير محسناً إليه بقبول حق الله عزوجل منه الذي هو طهرته ونجاته من النار، وأنه لو لم يقبله لبقي مرتهناً به، فحقه أن يتقلد منه الفقير، ومها عرف المعاني الثلاثة التي مر ذكرها في الفصل قبل، لم ير نفسه محسناً إلا إلى نفسه إما ببذل ماله إظهاراً لحب الله تعالى، أو تطهيراً لنفسه عن رذيلة البخل أو شكراً على نعمة المال طلباً للمزيد.

وأما الأذى فمنبعه رؤيته أنه خير من الفقير، وهذا جهل لأنه لو عـرف فضل الفقراء العـاملين الصابـرين وخطر الأغنيـاء لما استحقـر الفقير بـل تمنى درجته، كيف وقد جعله الله متجرة له حتى يخلصه من عهدته بقبوله منه.

(الخامسة) أن يستصغر العطية فإنه إن استعظمها أعجب بها، والعجب من المهلكات وهـو محبط لـلأعمـال، قيـل: لا يتم المعـروف إلا بشـلاث: تصغيره، وتعجيله، وستره.

(السادسة) أن ينتقي من ماله أجوده وأحبه إليه وأجله وأطيبه، فإن الله تعالى طيب لا يتقبل إلا طيباً، وإذا لم يكن المخرج من جيد المال فهو من سوء الأدب، إذ قد يمسك الجيد لنفسه أو لعبده أو أهله فيكون قد آثر على الله عز وجل غيره، ولو فعل هذا بضيفه وقدم إليه أرادا طعام في بيته لأوغر بذلك صدره، وقد قال تعالى: ﴿يَأَيُّهَا آلَّذِينَ ءَامَنُواْ أَنفِقُواْ مِن طَيباتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمًا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ آلاً رْضِ وَلاَ تَيَمَّمُواْ آخْنِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِناخِذيهِ إلا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ ﴾ (البقرة: ٢٦٧) أي لا تأخذونه إلا مع كراهية وحياء، وهو معنى الإغماض.

(السابعة) أن يطلب بصدقته من تزكو به الصدقة، ولا يكتفي بأن يكون من عموم الأصناف الثمانية فإن في عمومهم خصوص صفات فليراع خصوصها، وهي ستة.

(الأولى) أن يطلب الأتقياء لأنهم يستعينون بالمال على التقوى فيكون شريكاً لهم في طاعتهم بإعانته إياهم.

(الشائية) أن يكون من أهل العلم خاصة، فإن ذلك إعانة له على العلم، والعلم أشرف العبادات مها صحت فيه النية، وكان ابن المبارك يخصص بمعروفه أهل العلم، فقيل له: لو عممت، فقال: إني لا أعرف بعد مقام النبوة أفضل من مقام العلماء فإذا اشتغل أحدهم بحاجته لم يتفرغ للعلم ولم يقبل على التعلم فتفريغهم للعم أفضل.

(الثالثة) أن يكون صادقاً في تقواه وعلمه بالتوحيد، وتوحيده أنه إذا أخذ العطاء حمد الله عز وجل وشكره ورأى أن النعمة منه وأن الواسطة مسخر بتسخير الله إذ سلط عليه دواعي الفعل ويسر له الأسباب فأعطى، ومن لم يصف باطنه من رؤية الوسائط إلا من حيث إنهم وسائط فكأنه لم ينفك عن الشرك الخفي، فليتق الله سبحانه في تصفية توحيده عن كدورات الشرك وشوائبه.

(الرابعة) أن يكون مخفياً حاجته لا يكثر البث والشكوى، أو يكون من أهل المروءة بمن ذهبت نعمته وبقيت عادته، فهو يتعيش في جلباب التحمل قاال الله تعالى: ﴿ يُسْبُهُمُ آ لِجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ، لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخَافاً ﴾ أي لا يلحفون في السؤال لأنهم أغنياء بيقينهم أعزة بصبرهم. وهذا ينبغي أن يطلب بالبحث عن أهل الدين في كل محلة، ويستكشف عن بواطن أحوال أهل الخير والتجمل، فثواب صرف المعروف إليهم أضعاف ما يصرف إلى المجاهرين بالسؤال.

(الخامسة) أن يكون معيلاً أو محبوساً بمرض أو سبب من الأسباب فيوجد فيه معنى قوله عز وجل: ﴿لِلْفُقَرَآءِ آلَّذِينَ أُحْصِرُ واْ فِي سَبِيلِ آللَّهِ﴾ (البقرة: ٣٧٣) أي حبسوا في طريق الآخرة بعيلة أو ضيق معيشة، أو إصلاح قلب ﴿لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِي آلأَرْضِ ﴾ لأنهم مقصوصو الجناح مقيدو الأطراف. فبهذه الأسباب كان عمر رضي الله عنه يعطي أهل البيت القطيع من الغنم العشرة فها فوقها، وكان على يعطي العطاء على مقدار العيلة. وسئل عمر رضي الله عنه عن جهد البلاء فقال: كثرة العيال، وقلة المال.

(السادة) أن يكون من الأقارب وذوي الأرحام فتكون صدفة وصلة رحم، وفي صلة الرحم من الثواب ما لا يحصى. قال علي رضي الله عنه: «لأن أصل أخاً من إخواني بدرهم أحب إلي من أن أتصدق بعشرين درهماً» والأصدقاء وإخوان الخير أيضاً يقدمون على المعارف كما يتقدم الأقارب على الأجانب، فليراع هذه الدقائق. فهذه هي الصفات المطلوبة، وفي كل صفة درجات فينبغي أن يطلب أعلاها، فإن وجد من جمع جملة من هذه الصفات فهي الذخيرة الكبرى والغنيمة العظمى.

وظائف القابض وهي أربعة

(الأولى) أن يفهم أن الله عز وجل أوجب صرفه إليه ليكفي همه ويكون عوناً له على الطاعة، فإن استعان به على المعصية كان كافراً لأنعم الله

عز وجل مستحقاً للبعد والمقت من الله سبحانه.

(الثانية) أن يشكر المعطي ويدعو له ويثني عليه، ويكون شكره ودعاؤه بحيث لا يخرج عن كونه واسطة، ولكنه طريق وصول نعمة الله سبحانه إليه، وللطريق حق من حيث جعله الله طريقاً وواسطة، وذلك لا ينافي رؤية النعمة من الله سبحانه فقد قال على: «من لم يشكر الناس لم يشكر الله»(۱) وقد أثنى الله عز وجل على عباده في مواضع على أعمالهم وهو خالقها نحو قوله تعالى: ﴿نَعْمَ العَبْدُ إِنَّهُ أُوَّابُ ﴾ (ص: ٤٤) إلى غير ذلك، وقال على: هن أسدى إليكم معروفاً فكافئوه فإن لم تستطيعوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافاتموه»(۱) ومن تمام الشكر أن يستر عيوب العطاء إن كان فيه عيب ولا يحقره ولا يذمه، ولا يعيره بالمنع إذا منع ويفخم عند نفسه وعند الناس صنيعه، فوظيفة المعطي الاستصغار ووظيفة القابض تقلد المنة والاستعظام، وعلى كل عبد القيام بحقه، وكل ذلك لا يناقض رؤية النعمة من الله عز وجل فإن من لا يرى الواسطة فقد جهل، وإنما المنكر أن يرى الواسطة أصلاً!

(الثالثة) أن ينظر فيها يأخذه فإن لم يكن من حله تورع عنه فلا يأخذ من أكثر كسبه من الحرام، إلا إذا ضاق الأمر عليه، وكمان ما يسلم له لا يعرف له مالكاً معيناً، فله أن يأخذ بقدر الحاجة، فإن فتوى الشرع في مثل هذا أن يتصدق به، وذلك إذا عجز عن الحلال.

(الرابعة) أن يتوقى مواقع الريبة والاشتباه في مقدار ما يأخذه، فلا يأخذ إلا المقدار المباح، ولا يأخذ إلا إذا تحقق أنه موصوف بصفة الاستحقاق، ثم إذا تحققت حاجته فلا يأخذ مالاً كثيراً بل يتمم كفايته من

⁽١) رواء الترمذي وحسنه، ولأبي داود وابن حبان نحوه وقال: حسن صحيح. ورواه أحمد، وهمو حديث جيد (مم).

⁽٢) رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح بلفظ ومن صنع، قاله العراقي.

وقت أخذه إلى سنة، فهذا أقصى ما يرخص فيه من حيث إن رسول الله الخر لعياله قوت سنة (۱)، ومن العلماء من ذهب إلى أن للفقير أن يأخذ مقدار ما يشتري به ضيعة فيستغني به طول عمره، أو يهيىء بضاعة ليتجر بها ويستغني، لأن هذا هو الغنى، وقد قال عمر رضي الله عنه: إذا أعطيتم فأغنوا، حتى ذهب قوم إلى أن من افتقر فله أن يأخذ بقدر ما يعود به إلى مثل حاله ولو عشرة آلاف درهم. ولما تبرع أبو طلحة رضي الله عنه ببستانه قال له عنه بالله عنه بالله عنه بالله عنه فعائط من نخل لرجلين كثير مغن (۱).

صدقة التطوع وفضلها وآداب أخذها وإعطائها فضلة الصدقة

من الأخبار قوله ﷺ: «اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا فبكلمة طيبة»(٣) وقال ﷺ: «كل امرىء في ظل صدقته حتى يقضي بين الناس»(٤) وقال ﷺ: أي وقال ﷺ: أوسئل ﷺ: أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغني وتخشى الفاقة ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان كذا ولفلان كذا، وقد

⁽۱) رواه البخاري ومسلم من حديث عمر رواه الإمام أحمد في المسند بلفظ: قال رسول الله ﷺ: تصدقوا. قال رجل: عندي دينار. قال تصدق به على نفسك. قال: عندي دينار آخر. قال: تصدق به على ولدك. قال عندي دينار آخر. قال: تصدق به على ولدك. قال عندي دينار آخر. قال: أخر. قال: أنت أبصر به. وصححه الشيخ أحمد شاكر رحمه الله تعالى.

⁽٢) روى نحوه الدارمي وسنده جيـد.

⁽٣) رواه البخاري ومسلم.

⁽٤) رواه أحمد وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وإسناده صحيح .

⁽٥) رواه الطبراني جزءاً من حديث وإسناده حسن وله شواهد (مت).

كان لفلان (١) ، وقال على: «ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان واللقمتان إنما المسكين المتعفف، اقرؤا إن شئتم: (لا يسَالون الناس إلحافاً (١).

ومن الآثار قول عروة: لقد تصدقت عائشة رضي الله عنها بخمسين ألفاً وإن درعها لمرقع، وكان عمر رضي الله عنه يقول: اللهم اجعل الفضل عند خيارنا لعلهم يعودون على أولي الحاجة منا.

صدقة التطوع وفضلها وآدابها

أما فضائل الصدقة فهي كثيرة مشهورة:

منها: ما روى البخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله على: «أيكم مال وارثة أحب إليه من ماله؟ قالوا: يارسول الله: مامنا أحد إلا ماله أحب إليه. قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر».

وأما أفضل الصدقة فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله على أي الصدقة أفضل؟ قال: «أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغني، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت: لفلان

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «ليس المسكين الذي يطوف على الناس ترده اللقمة واللقمتان، والتمرة والتمرتان، ولكن المسكين الـذي لا يجد غني يغنيه ولا يفطن بـه فيتصدق عليـه، ولا يقوم فيسأل الناس».

⁽٣) أي المهر الصغير. وقيل: من أولاد ذوات الحافر.

وجوب إخفاء الصدقة وفضلها

قال الله تعالى: ﴿إِن تُبْدُواْ آلصَّدَقَنتِ فَنِمِيًا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا آلْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٧١) وفي الإخفاء خسة معان:

(الأول) أنه أبقى للستر على الآخذ، فإن أخذه ظاهراً هتك لستر المروءة وكشف عن الحاجة، وخروج عن هيئة التعفف، والتصون المحبوب هو الذي يحسب الجاهل أهله أغنياء من التعفف.

(الشاني) أنه أسلم لقلوب الناس وألسنتهم، فإنهم ربحا يحسدون أو ينكرون عليه أخذه ويظنون أنه أخذ مع الاستغناء. والحسد وسوء الظن، والغيبة من الذنوب الكبائر وصيانتهم عن هذه الجرائم أولى، قال أيوب السختياني: إني لأترك لبس الثوب الجديد خشية أن يحدث في جيراني حسد، وقال آخر: خشية أن يقول إخواني من أين له هذا.

(الثالث) إعانة المعطى على إسرار العمل فإن فضل السر على الجهر في الإعطاء أكثر، والإعانة على اتمام المعروف معروف، دفع رجل إلى بعض العلماء شيئاً ظاهراً فرده، ودفع إليه آخر شيئاً في السر فقبله، فقيل له في ذلك، فقال: إن هذا عمل بالأدب في إخفاء معروفة، فقبلته وذلك أساء أدبه في عمله فرددته عليه. ورد بعضهم ما دفع إليه علانية، وقال له: إنك أشركت غير الله سبحانه فيها كان لله تعالى، ولم تقنع بالله عز وجل، فرددت عليك شركك.

(الرابع) إن في إظهار الأخذ ذلاً وامتهاناً (١)، وليس للمؤمن أن يـذل نفسه. نسأل الله الكريم حسن العون والتوفيق.

⁽١) من أجل هذا كله وحرصاً على عزة المؤمن الفقير أوجب الإسلام دفع زكاة الأموال الظاهرة كالمواشى والحبوب إلى الدولة المسلمة، وهي بدورها توزعها على المحتاجين.



يناب أسرار الصوم

أعظم الله على عبادة المنة بما دفع عنهم كيد الشيطان وخيب ظنه، إذ جعل الصوم حصناً لأوليائه وجنة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوقَى الصَّبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْر حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠) فقد جاوز أم جاوز ثواب الصوم قانون التقدير والحساب، وناهيك في معرفة فضله قوله ﷺ: «والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يقول الله عز وجل: إنما يذر شهوته وطعامه وشرابه لأجلي، فالصوم لي وأنا الذي أجزي به»(١) وهو موعود بلقاء الله تعالى في جزاء صومه قال ﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه»(٢) وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِي لَهُمْ مِّن قُرَّةِ عَند لقاء ربه»(٢) وقيل في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِي لَهُمْ مِّن قُرَّةِ أَعْنُ جَزَآءَ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة: ١٧) كان عملهم الصيام لأنه قال: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْر حِسَابٍ ﴾ (الزمر: ١٠) فيفرغ للصائم جزاؤه إفراغاً ويجازف جزافاً، فلا يدخل تحت وهم وتقدير.

وجدير بأن يكون كذلك، لأن الصوم إنما كان له ومشرفاً بالنسبة إليه وإن كانت العبادات كلها له، لمعنيين (أحدهما) أن الصوم كف وترك، وهو في نفسه سر ليس فيه عمل يشاهد، وجميع الطاعات بمشهد من الخلق

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

ومرأى، والصوم لا يراه لا الله عز وجل، فإنه عمل في الباطن بالصبر المجرد (والشاني) أنه قهر لعدو الله عز وجل فإن وسيلة الشيطان الشهوات، وإنما تقوى بالأكل والشرب، وفي قمع عدو الله نُصرة الله سبحانه، ونصر الله تعالى موقوف على النصرة له، قال تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ اللّه يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتُ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد: ٧) فمن هذا الوجه صار الصوم باب العبادة وصار جُنة، وإذا عظمت فضيلته إلى هذا الحد فلا بد من بيان شروطه وأركانه الباطنة.

شروط الصوم الباطنة

هي ستة أمور: (الأول) غض البصر وكفه عن الاتساع في النظر إلى كل ما يذم ويكره، وإلى كل ما يشغل القلب ويلهي عن ذكر الله تعالى.

(الثاني) حفظ اللسان عن الهذيان والكذب والغيبة والنميمة والفحش والجفاء والخصومة والمراء.

(الثالث) كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه، لأن كل ما حُرم قوله حرم لإصغاء إليه؛ ولذلك سوى الله عز وجل بين السمع وأكل السحت فقال تعالى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسَّحْتِ﴾.

(الرابع) كف بقية الجوارح عن الآثام من ارد والرجل عن المكاره، وكف البطن عن الشبهات وقت الإفطار، فلا معنى للصوم عن الطعام الحلال ثم الإفطار على الحرام: فمثال هذا الصائم مثال من يبني قصراً ويهدم مصراً. وقد قال ولا الحرم من صائم ليس له من صومه إلا الجوع والعطش (۱) فقيل: هو الذي يفطر على الحرام، وقيل: هو الذي يمسك عن الطعام الحلال ويفطر على لحوم الناس بالغيبة وهو حرام، وقيل: هو الذي لا يحفظ جوارحه عن الآثام.

⁽١) رواه الدارمي بنحوه، وسنده جيد (مم).

(الخامس) أن لا يستكثر من الطعام الحلال وقت الإفطار بحيث يمتلىء، فيا من وعاء أبغض إلى الله عز وجل من بطن مليء من حلال. وكيف يستفاد من الصوم قهر عدو الله وكسر الشهوة إذا تدارك الصائم عند فطره ما فاته ضحوة نهاره، وربما يزيد عليه في ألوان الطعام حتى استمرت العادات بأن يدخر جميع الأطعمة لرمضان، فيؤكل من الطعام فيه ما لا يؤكل في عدة أشهر، ومعلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى لتقوى النفس على التقوى، وإذا منعت المعدة من ضحوة نهار إلى العشاء حتى هاجت شهوتها وقويت رغبتها. ثم أطعمت من اللذات وأشبعت، زادت لذتها وتضاعفت قوتها وانبعثت من الشهوات ما عساها كانت راكدة لو تركت على عادتها. فروح الصوم ومره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى فروح الصوم ومره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الطعام فهو عن الملكوت محجوب!

(السادس) أن يكون قلبه بعد الإفطار مضطرباً بين الخوف والرجاء، إذ ليس يدري أيقبل صومه، فهو من المقربين. أو يرد عليه، فهو من الممقوتين؟ وليكن كذلك في آخر كل عبادة.



•		

عز وجل ابراهيم عليه السلام أن يؤذن في الناس بالحج نادى: «يا أيّها الناس إن الله عزوجل بني بيتاً فحجوه» وقال على: «من حج البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه»(١) وعن الحسن البصري رحمه الله تعالى أن صدقة درهم في مكة بمائة ألف _ وكذلك كل حسنة بمائة ألف، ويقال إن السيئات تضاعف بها كها تضاعف الحسنات، ولما عاد رسول الله على مكة استقبل الكعبة وقال: «إنك لخير أرض الله عز وجل وأحب بلاد الله تعالى إلى ولولا أني أخرجت منك لما خرجت»(١).

وما بعد مكة بقعة أفضل من مدينة رسول الله على ، فالأعمال فيها أيضاً مضاعفة: قال رسول الله على: «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيها سواه إلا المسجد الحرام» (٣) وبعد مدينته: القدس: فإن الصلاة فيها بخمسمائة صلاة (٤) وما بعد هذه البقاع الثلاث فالمواضع فيها متساوية إلا الثغور، فإن المقام بها للمرابطة فيها فضل عظيم - ولذلك قال على: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (٥) لأن المساجد بعد هذه المساجد متم اثلة، ولا بلد إلا وفيه مسجد فلا معنى للرحلة إلى مسجد آخر!

ويقيناً أن المسلمين لـو فهموا هـذه الأهداف والمنافع للحج وعمدوا إلى تحقيقها لهـا بهم المستعمرون وما تجرؤوا على الاعتداء عليهم. . .

وما أروع ما قاله أحد الساسة: «لقد وقفت أمام الكعبة، وأحسست بخواطري تـطوف بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام، ثم وجدتني أقـول في نفسي: يجب أن تتغير نـظرتنا إلى الحج، يجب الا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكـرة الدخـول فحسب...» فالـوعي الوعي أيها المسلمون!

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه الترمذي وصححه، والنسائي في الكرى وابن ماجه وابن حبان وإسناده صحيح (مم).

⁽۳ و ^۵) رواه البخاري ومسلم.

⁽٤) بل بمئتين وخمسين صلاة كها صح ذلك في حديث.

زيارة المدينة وآدابها

من قصد زيارة المدينة فليصل على رسول الله على في طريقه كثيراً، وليتطيب ويلبس أنظف ثيابه، فإذا دخلها فليدخلها متواضعاً معظماً ويقصد المسجد ويصلي فيه بجنب المنبر ركعتين، ثم يأتي قبر النبي على فيقف عند وجهه (١).

وليس من السنة أن يمس الجدار وأن يقبله! فإن المس والتقبيل للمشاهدة عادة النصارى واليهود! بل الوقوف من بعد أقرب للاحترام فيقف ويقول: (٢) السلام عليك يارسول الله، السلام عليك يانبي الله، السلام عليك يأمين الله، السلام عليك ياحبيب الله، السلام عليك ياصفوة الله، السلام عليك يا أبا القاسم، السلام عليك ياسيد المرسلين، السلام عليك ياخاتم النبيين، السلام عليك يارسول رب العالمين، السلام عليك ياقائد الحير، السلام عليك يافاتح البر، السلام عليك يانبي الرحمة، السلام عليك ياهدي الأمة، السلام عليك وعلى أهل بيتك وأصحابك الطيبين.

جزاك الله عنا أفضل ما جزى نبياً عن قومه ورسولاً عن أمته، وصلى عليك أفضل وأكمل ما صلى على أحد من خلقه كها استنقذنا بك من الضلالة وبصرنا بك من العماية وهدانا بك من الجهالة، أشهد أنك بلغت الرسالة وأديت الأمانة ونصحت الأمة، وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين، فصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم، ثم يسلم على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، ثم يسلم على الفاروق عمر رضي الله عنه ويقول: السلام عليكها ياوزيري رسول الله والمعاونين له على القيام بالدين ما دام حياً، والقائمين في أمته بعده بأمور الدين تتبعان في ذلك آثاره، وتعملان بسنته فجزاكها الله خير ما جزى وزيري

^{/(}١) رواه البخاري ..

⁽٢) لا يلزم استقبال القبلة عند السلام على النبي ﷺ إنما يتوجب استقبالها عند الدعاء له ﷺ، كها صح ذلك عن الأثمة الأربعة رحمهم الله تعالى، فانتبه!



1				
			• .	

طريق الاعتبار بأعمال الحبج الباطنة والتذكر لأسرارها ومعانيها

في كل واحد من أعمال المناسك تذكرة للمتذكر وعبرة للمعتبر إذا انفتح بابها انكشف لكل حاج من أسرارها ما يقتضيه صفاء قلبه وغزارة فهمه، وقد شرف الله البيت العتيق بالإضافة إلى نفسه ونصبه مقصداً لعباده وجعل ما حواليه حرماً لبيته تفخياً لأمره، وأكد حرمة الموضع بتحريم صيده وشجره، ووضعه على مثال حضرة الملوك، يقصده الزوار من كل فج عميق، ومن كل أوب سحيق شعثاً غبراً متواضعين لرب البيت خضوعاً لجلاله مع الاعتراف بتنزيهه عن أن يحويه بيت أو يكتنفه بلد ليكون ذلك أبلغ في رقهم وعبوديتهم وأتم في إذعانهم وانقيادهم.

وفي الإحرام والتلبية إجابة نداء الله عز وجل، وفي دخوله مكة تذكر الانتهاء إلى حرم الله، فليخش أن لا يكون أهلًا للقرب وليرج الرحمة، وفي مشاهدة البيت إحضار عظمة البيت ورب البيت في القلب وشدة تعظيمه إياه.

وفي الطواف بالبيت تشبه بالملائكة المقربين الحافين حول العرش المطائفين حوله وما القصد طواف الجسم فحسب بل طواف القلب بذكر الرب، وفي التعلق بأستار الكعبة والالتصاق بالملتزم طلب القرب حباً وشوقاً للبيت ولرب البيت، وتبركاً بالمماسة والإلحاح في طلب المغفرة وسؤال الأمان كالمذنب المتعلق بثياب من أذنب إليه المتضرع إليه في عفوه، المظهر له أنه لا ملحاً له منه إلا إليه وأنه لا يفارق ذيله إلا بالعفو عنه.

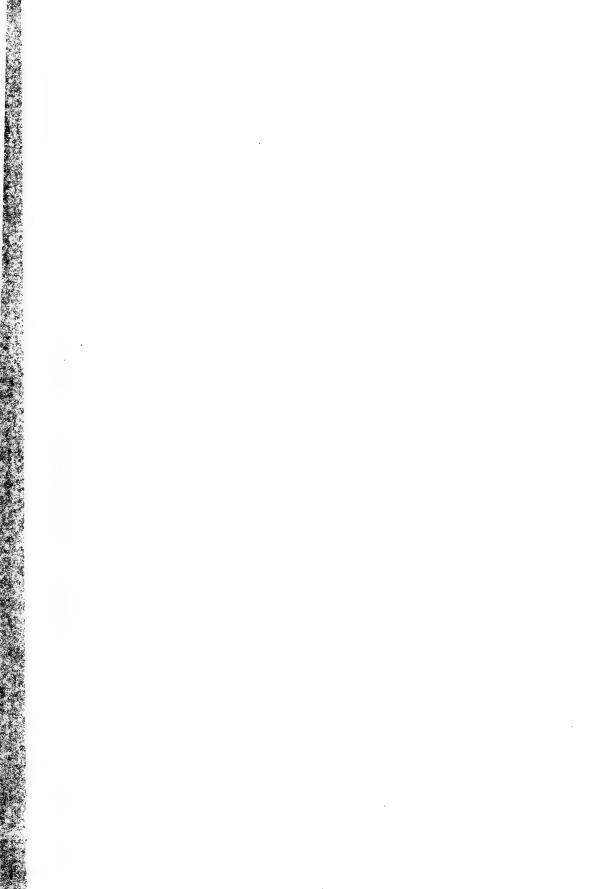
وفي السعي بين الصفا والمورة مضاهاة تردد العبد بفناء الملك جائياً وذاهباً مرة بعد أخرى إظهاراً للخلوص في الخدمة ورجاء للملاحظة بعين الرحمة، كالذي دخل على الملك وخرج وهو لا يدري ما الذي يقضي به الملك في حقه من قبول أو رد. فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى، يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى.

وفي الوقوف بعرفة ورؤية ازدحام الخلق وارتفاع الأصوات باختلاف اللغات تذكر اجتماع الأمم في عرصات القيامة، وتحيرهم في ذلك الصعيد الواحد بين الرد والقبول، وفي تذكر ذلك إلزام القلب الضراعة والابتهال إلى الله عز وجل، ورجاء الحشر في زمرة الفائزين المرحومين وتحقيق الرجاء بالإجابة، فالموقف شريف، والرحمة إنما تصل من حضرة الجلال إلى كافة الخلق بواسطة القلوب النقية، ولا ينفك الموقف عن طبقات من الصالحين وأرباب القلوب، فإذا اجتمعت همهم وتجردت للضراعة والابتهال قلوبهم، وارتفعت إلى الله سبحانه أيديهم وامتدت إليه أعناقهم وشخصت نحو السهاء أبصارهم مجتمعين بهمة واحدة على طلب الرحمة فلا تظننن أنه يخيب أملهم ويضيع سعيهم ويدخر عنهم رحمة تغمرهم.

وفي رمي الجمار انقياد للأمر إظهاراً للرق والعبودية وقصد رمي وجه الشيطان وقصم ظهره.

وفي زيارة المدينة ومشاهدتها تذكر أنها البلدة التي اختارها الله عز وجل لنبيه على وجعل إليها هجرته، وأنها داره التي شرع فيها فرائض ربه عزوجل وسننه وجاهد عدوه وأظهر بها دينه إلى أن توفاه الله عز وجل، وأنها البقعة التي اختارها الله سبحانه لنبيه ولأول المسلمين وأفضلهم عصابة، وأن فرائض الله سبحانه أول ما أقيمت في تلك البقعة، وأنها جمعت أفضل الخلق حياً وميتاً على، وشرف وكرم.





المجاهدين بأعظم الثواب والأجر، فمن الآيات: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُـوَ كُرُهُ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحُرَّهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحُبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحُبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحُبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢١٦).

﴿ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ آللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمُغْفِرَةٌ مِنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّكَا يَجْمَعُونَ. وَلَئِن مُّتُمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لِإَلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٧ ـ ١٥٨).

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ آلَـذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ آللَّهِ أَمْـوْتاً بَـلْ أَحْيَـاءُ عِنـدَ رَبِّهِمْ
پُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَـٰهُمُ آللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُواْ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفُ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠).

﴿ فَالْيُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ آللَّهِ آلَّذِينَ يَشْرُونَ آخْيَا وَ ٱلدُّنْيَا بِآلآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ آللَّهِ فَيُقْتَلُ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيهاً ﴾ (النساء: ٧٤).

﴿ وَأَعِدُواْ لَهُمْ مَّا آسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ آخْنَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ آللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُ وَنَهُمُ آللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ﴾ (الأنفال: ٢٠).

﴿ يَا أَيُّهَا آلنَّبِي حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ (الأنفال: ٦٥).

﴿ قَانِتُلُواْ آلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ آللَهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَبِينُونَ دِينَ آلَحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ آلْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ آلْجُزْيَةَ عَنَ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (التوبة: ٢٩).

﴿ آنفِرُ وَاْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَلهِ لُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ آللَّهِ ﴿ آلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (التوبة: ٤١).

﴿إِنَّ آللَهَ يُحِبُّ آلَـذِينَ يُقَتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفَّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤).

(الأحاديث النبوية)

عن عقبة بن عامر قال: سمعت رسول اللّه على وهو على المنبر يقول: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا آسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾ (الأنفال: ٦٠) «ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» رواه مسلم.

وعنه قال: سمعت رسول الله يقول: «من علم الرمي ثم تركه فليس منا، أو قد عصى رواه مسلم.

وعن سلمة بن الأكوع قال: خرج رسول اللَّه على قوم من أسلم يتناضلون بالسوق فقال: ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً. وأنا مع بني فلان _ لأحد الفريقين _ فأمسكوا بأيديهم، فقال: «مالكم»؟!» قالوا: كيف نسرمي، وأنت مع فلان؟! قال: «إرموا وأنا معكم كلكم» رواه البخاري.

وعن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله على يقول: «إن الله تعالى يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة، صانعه يحتسب في صنعته الخير، والرامي به، ومنبله(۱).

لا سبق إلا في نصل، أو خف، أو حافر رواه الترمــذي وأبـو داود والنسائي، وإسناده صحيح (مم).

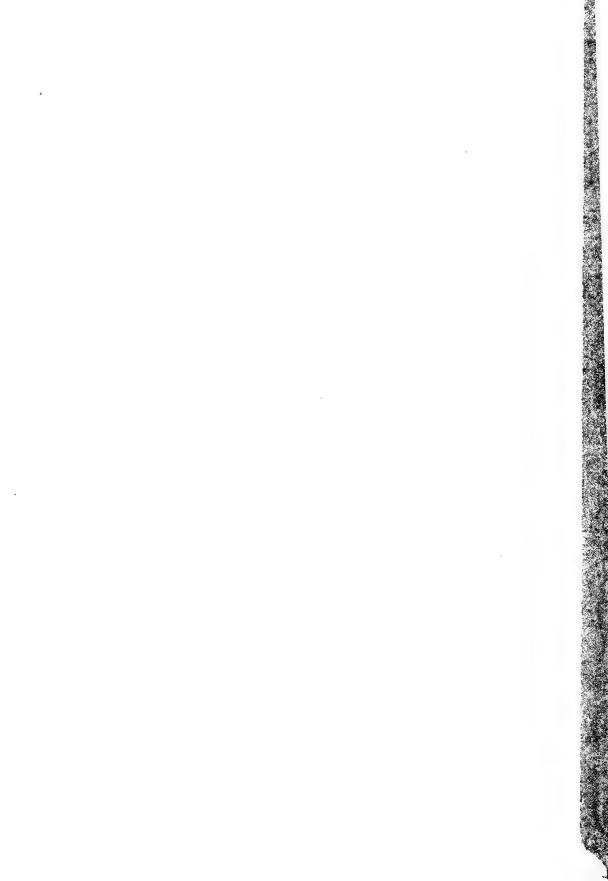
عن جابر بن سمرة قال: قال رسول الله على: لن يبرح هذا الدين قائماً يقاتل عليه عصابة من المسلمين حتى تقوم الساعة. رواه مسلم.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا يكلم أحد في سبيل الله، والله عن يكلم (٢) في سبيله، إلا جاء يوم القيامة، وجرحه يثعب (٣).

⁽۱) سنده ضعیف.

⁽٢) من الكلم وهو الجرح.

⁽٣) يجري متفجراً أي تسيراً.



يَجْرِ مَنَّكُمْ شَنَئَانُ قَوْمٍ عَـلَىٰ أَلَّا تَـعْدِلُواْ، آعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْـوَىٰ﴾ (المائـدة: ٨). وأرشد المسلمين إلى منتهى الرحمة.

فهم حينها يقاتلون لا يعتـدون ولا يفجرون ولا يمثلون ولا يسـرقون ولا ينتهبون الأموال ولا ينتهكون الحرامات ولا يتقدمون بالأذى، فهم في حـربهم خير محاربين كها أنهم في سلمهم أفضل مسالمين.

عن بريدة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله على إذا أمر الأمير على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله تعالى ومن معه من المسلمين خيراً ثم قال: إغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر باله، إغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً» رواه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا قاتل أحدكم فليجتنب الوجه» أخرجه البخاري ومسلم.

وعن عبد اللَّه بن يزيد الأنصاري رضي اللَّع عنه قال: «نهى رسول اللَّه ﷺ عن النهب والمثلة» أخرجه البخاري.

كما ورد النهي عن قتل النساء والصبيان والشيوخ والإجهاز على الجرحى وإهاجة الرهبان والمنعزلين ومن لا يقاتل من الآمنين، فأين هذه الرحمة من غارات المتمدنين الخانقة وفظائعهم الشنيعة؟ وأين قانونهم الدولي من هذا العدل الرباني الشامل؟

اللهم فقه المسلمين في دينهم وأنقذ العالم من هذه الظلمات بأنوار الإسلام.

الجهاد الأكبر

شاع بين كثير من المسلمين أن قتال العدو هو الجهاد الأصغر وأن هناك جهاداً أكبر هو جهاد النفس وكثير منهم يستدل لذلك بما يروى: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد القلب أو جهاد النفس».

وبعضهم يحاول بهذا أن يصرف الناس عن أهمية القتال والإستعداد له ونية الجهاد والأخذ في سبيله، فأما هذا الأثر فليس بحديث على الصحيح، قال أمير المؤمنين في الحديث، الحافظ ابن حجر في تسديد القوس: (هو مشهور على الألسنة وهو من كلام إبراهيم بن عيلة).

وقال العراقي في تخريج أحـاديث الإحياء: رواه البيهقي بسنـد ضعيف عن جابر ورواه الخطيب في تاريخه عن جابر(١).

وما أروع ما جاء في كتاب النجوم الزاهرة (٢/٣/٢) إذ قال:

روى الذهبي أن ابن المبارك لما كان مرابطاً بطرسوس سنة سبع وسبعين ومئة أرسل إلى الفضيل بن عياض رسالة فيها هذه الأبيات:

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا من كان يخضب خده بدموعه أو كان يتعب خيله في باطل ريح العبير لكم ونحن عبيرنا ولقد أتانا من مقال نبينا لا يستوي غبار خيل الله في هذا كتاب الله ينطق بيننا

لعلمت أنك في العبادة تلعب فنحورنا بدمائنا تتخضب فخيولنا يوم الصبيحة تتعب وهبج السنابك والغبار الأطيب قبول صحيح صادق لا يكذب أنف امريء ودخان نار تلهب ليس الشهيد عميت لا يكذب

فلما قرأها الفضيل ذرفت عيناه ثم قال: صدق أبو عبد الرحمن ونصح.

الإسلام والحرب النفسية

لقد اكتشفت في العصور الحديثة الحرب النفسية وآثـارها العـظيمة في كسب النصر، كسباً يفوق كسب كثرة الجنود ووفرة الأعتدة في المعارك.

وتكون هذه الحرب النفسية كما عرفها بعض القادة باستخدام المخطط

⁽١) نقلنا المباحث الثلاثة السابقة من «رسالة الجهاد».

المنظم للدعاية، والتفنن بأساليب حيلها وخداعها، ومختلف أنواع النشاطات التي تستهدف التأثير على آراء وعواطف ومواقف، وسلوك دولة معادية، عن طريق بث أفكار ومعلومات معينة، بطريقة تحقق الغاية من الخطة الدعائية المرسومة، ومن معجزات القرآن العظيم ودلائل رسالة النبي على ما ورد فيه الإشارات والمخططات العديدة في استخدام هذه الحرب النفسية في تقوية معنويات الجنود المسلمين، وخذلان جنود الأعداء، مما كان له آثاره العظيمة في كسب النصر في معارك عديدة على الرغم من قلة عدد المسلمين وندرة أعتدتهم العسكرية.

ولما كان بحثنا لا يسمح لنا بتفصيل بحث الحرب النفسية، فنكتفي بذكر مثال واحد.

قال تعالى في القرآن: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ آللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيراً لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَزَعْتُمْ فِي ٱلأَمْرِ وَلَكِنَّ آللَّهُ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ. وَإِذَا يُرِيكُمُ وَلِيكُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضَى آللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى آللَّهِ تُرْجَعُ آلأَمُورُ ﴾. (الأنفال: ٤٣ و٤٤).

وكان ذلك قبل معركة بدر من أجل تشجيع كل من الخصمين على خوض الحرب والرغبة في القتال، وذلك من أجل تحقيق وعد الله سبحانه للمؤمنين بالنصر.

وهذا كله قبل الإلتحام، فلم التحم الفريقان إنعكس الأمر في بعضه فأرى الله المشركين المؤمنين أنهم مثلاهم ليرعبهم ويفتت من عزيمتهم القتالية ويبث فيهم أفكاراً إنزامية إستسلامية.

فقال سبحانه: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِثَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَـٰتِلُ فِي سَبِيـلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلعَيْنِ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْـرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لُأُوْلِي ٱلْأَبْصَنَارِ﴾ (آل عمران: ١٣).

ومما ذكره القرآن العظيم بصدد معركة بدر: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ،

فَ آسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُحِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْلَـْئَكَةِ مُرْدِفِينَ ، وَمَا جَعَلَهُ آللَّهُ إِلَّ بُشْرَىٰ وَلِتَظْمَوْنَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا آلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ آللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ، وَيُنزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُدْهِبَ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ، وَيُنزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُدْهِبَ عَنَى مُن عَلَيْكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ٩ عَنكُمْ دِجْزَ ٱلشَّيْطَنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴾ (الأنفال: ٩ و١١).

وهذا الوعد الإلهي بمدد الملائكة كان له أثر عظيم في تقوية معنويات المسلمين، خاصة وقد ناموا قليلاً قبل المعركة فارتاحوا واستعدوا لها، بعد أن اغتسلوا وتطهروا، وكل ذلك يزيد في صبرهم على القتال كها تقول الأصول الحربية وفي هذا درس للقادة.

وحتى لا يخوضوا بجنودهم حرباً إلا إذا كانوا مرتباحين نظيفين، وكل ذلك يقوي من معنوياتهم ويزيدهم قوة إلى قوتهم.

وبمناسبة الكلام على الحرب النفسية لا بد من الإشارة إلى أن دول العالم اليوم تستخدم في هذه الحرب جميع الوسائل غير المشروعة بتشجيع مظاهر الإنحلال الخلقي الممكنة عند العدو كالزنى والخمر والأفيون وغيرها. والإسلام يبرأ إلى الله تعالى من استخدام شيء من ذلك. إنه مقاتل شريف نبيل في جهاده، إنساني في فعاله.

ويكتفي بقتوية معنويات جنوده وشل إرادة عدوهم ويحل من عزيمتهم فلا يقوون على استعمال السلاح، وهذا ما قاله أحد القادة في العصر الحديث «إننا نستهلك كمية كبيرة من الذخيرة الغالية لندمر مدفعاً واحداً من مدافع العدو، أليس الأفضل والأرخص أن نستعمل الدعاية كوسيلة أخرى لشل الأصابع التي تضغط على زناد هذا المدفع (١٠)؟!».

* * *

⁽١) بحيث الجهاد هذا مضاف إلى «الاحياء» كما ذكرنا في المقدمة.

				•
			•	
	·			



_كابآداب تلاوة القرآن

قد امتن الله على عباده بنبيه المرسل، وكتابه المنزل الذي لا يأتيه المباطل من بين يديه ولا من خلفه حتى اتسع على أهل الافتكار طريق الاعتبار عبا فيه من القصص والأخبار، واتضح به سلوك المنهج القويم والصراط المستقيم، بما فصل فيه من الأحكام، وفرق بين الحلال والحرام، فهو الضياء والنور، وبه النجاة من الغرور، وفيه شفاء لما في الصدور، من تمسك به فقد هدي، ومن عمل به فقد فاز، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلدِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحْنُونَ ﴾ (الحجر: ٩) ومن أسباب حفظه في القلوب والمصاحف، إستدامة تلاوته والمواظبة على دراسته مع القيام بآدابه وشروطه. والحافظة على ما أمر به من الأعمال الباطنة والأداب الظاهرة وذلك ما لا بد من بيانه وتفصيله.

فضل القرآن وأهله وذم المقصرين في تلاوته

قال ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»(١) وقال ابن مسعود: إذا أردتم العلم فانثروا القرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين، وقال عمرو بن العاص: من قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه إلا أنه لا يوحي إليه.

⁽١) رواه البخاري. وهناك أحاديث كثيرة في فضائل القرآن العظيم نـذكر منهـا ﴿لا تجعلوا بيوتكم مقابر إن الشيطان ينفر من البيت الذي يقرأ فيه سورة البقرة﴾ رواه مسلم.

وقد جاء في دم تلاوه الغافلين قول أنس: «رب تال للقرآن والقرآن يلعنه» وقال ابن مسعود «أنزل القرآن نيعملوا به فاتخذوا دراسته عملًا، إن أحدكم لقرأ القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً وقد أسقط العمل مه وفال بعض العلماء: إن العبد ليتلو القرآن فيلعن نفسه وهو لا يعلم يقول: (ألا لعنة الله على الظالمين) وهو ظالم نفسه، (ألا لعنة الله على الكاذين) وهو منهم.

ظاهرة آداب التلاوة

(الأدب الأول في حال القاريء) وهو أن يكون على الوضوء واقفاً على هيئة الأدب والسكون إما قائماً وإما جالساً مستقبل القبلة مطرقاً رأسه غير متربع ولا متكيء ولا جالس على هيئة التكبر، فإن قرأ على غير وضوء أو كان مضطجعاً في الفراش فله أيضاً فضل ولكنه دون ذلك، قال الله تعالى: ﴿اللَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جَنوبِهمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ فأثنى على الكل، ولكن قدم القيام في الذكر، ثم القعود ثم الذكر مضطجعاً.

(الثاني في مقدار القراءة) وللقراءة عادات مختلفة، في الإستكثار (١) والاختصار، والمأثرور عن عثمان وزيد بن ثابت وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهم أنهم كانوا يختمون القرآن في كل جمعة يقسمونه سبعة أحزاب.

(الثالث الترتيل) هو المستحب في هيئة القرآن لأنا سنبين أن المقصود من القراءة التفكير، والترتيل معين عليه، قال ابن عباس رضي الله عنها:

⁽١) لقد ورد النهي عن ختم القرآن بأقل من ثلاثة أيام ليتسنى للقاريء تدبره فقـد قال النبي ﷺ: «من قرأ القرآن في أقل من ثلاث لم يفقهه» رواه أصحاب السنن وصححه الترمـذي، وإسناده صحيح (مم).

لأن أقرأ البقرة وآل عمران أرتلهما وأتدبرهما أحب إلى من أن أقرأ القرن كله هذرمة وجلي أن الترتيل والتؤدة أقرب إلى التوقير والاحترام وأشد تأثيراً في القلب من الهذرمة والإستعجال.

(الرابع) البكاء وهو مستحب مع القراءة، ومنشؤه الحنزن، وذلك أن يتأمل ما فيه من التهديد والوعيد، والمواثيق والعهود، ثم يتأمل تقصيره في أوامره وزواجره فيحزن لا محالة ويبكي.

(الخامس) أن يراعي حق الآيات، فإذا مر به سجدة سجد، وكذلك إذا سمع من غيره سجدة سجد إذا سجد التالي.

(السادس) أن يقول في مبتدإ قراءته: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، وفي أثناء القراءة إذا مر بآية تسبيح سبح (١) وكبر، وإذا مر بآية دعاء واستغفار دعا واستغفر، وإن مر بمرجو سأل، أو بمخوف استعاذ، يفعل ذلك بلسانه أو بقلبه.

(السابع) الإسرار بالقراءة أبعد عن الرياء والتصنع، فهو أفضل في حق من يخاف ذلك على نفسه، فإن لم يخف ولم يكن في الجهر ما يشوش على مصل، فالجهر أفضل لأن العمل فيه أكثر، ولأنه يوقظ قلب القاريء ويجمع همه إلى الفكر فيه ولأنه يطرد النوم في رفع الصهوت وينزيد في نشاطه للقراءة ويقلل من كسله، فمتى حضره شيء من هذه النيات فالجهر أفضل.

(الثامن) تحسين القراءة وترتيلها من غير تمطيط مفرط يغير النظم فذلك سنة، وفي الحديث: «زينوا القرآن بأصواتكم»(٢) وفي آخر: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»(٣) فقيل: أراد به الإستغناء، وقيل أراد به الترنم والترتيل وهو

⁽١) رواه أبو داود والنسائي والترمذي وقال حسن صحيح.

⁽٢) رواه مسلم عن النبي ﷺ مع اختلاف لفظ.

⁽٣) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والدارمي وإسناده صحيح (مم).

⁽٤) رواه البخاري .

أقرب عند أهل اللغة، واستمع على إلى قراءة أبي موسى فقال «لقد أوتي هذا من مزامير آل داود»(١) وورد أن أصحاب رسول الله على كانوا إذا اجتمعوا أمروا أحدهم أن يقرأ سورة من القرآن.

أعمال الباطن في التلاوة: وهي سبعة

(الأول) فهم عظمة الكلام وعلوه، وفضل الله سبحانه وتعالى ولطفه يخلقه في إيصال كلامه إلى أفهام خلقه.

(الثاني) التعظيم للمتكلم، فالقاريء عند البداية بتلاوة القرآن ينبغي أن يحضر في قلبه عظمة المتكلم، ويعلم أن ما يقرؤه ليس من كلام البشر، ولن تحضره عظمة المتكلم ما لم يتفكر في صفاته وجلاله وأفعاله، فإذا حضر بباله العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينها من الجن والإنس والدواب والأشجار وعلم أن الخالق لجميعها والقادر عليها والرازق لها واحد، وأن الكل في قبضة قدرته مترددون بين فضله ورحمته، وبين نقمته وسطوته، إن أنعم فبفضله، وإن عاقب فبعدله، فبالتفكير في أمثال هذا يحضر تعظيم المتكلم، ثم تعظيم الكلام.

(الثالث) حضور القلب وترك حديث النفس والتجرد له عند قراءته، وصرف الهم عن غيره: كان بعض السلف إذا قرأ السورة ولم يكن قلبه فيها أعادها ثانية، وهذه الصفة تتولد عما قبلها من التعظيم، فإن المعظم للكلام الذي يتلوه ويستبشر به ويستأنس لا يغفل عنه، وفي القرآن ما يستأنس به القلب إن كان التالي أهلًا له فكيف يطلب الأنس بالفكر في غيره.

(الرابع) التدبر، وهـ و وراء حضور القلب، فإنه قـ لا يتفكر في غـير القرآن ولكنه يقتصر على سماع القرآن من نفسه وهو لا يتدبره، والمقصود من القرآن التدبر، ولذلك سن في الترتيل، لأن الترتيل في الظاهـ ليتمكن من

⁽١) رواه البخاري ومسلم. والمراد بالمزامير هنا الأصوات الجميلة لا المُعازف فهي محرمة كلها.

التدبر بالباطن. قال على رضي الله عنه: «لا خير في عبادة لا فقه فيها ولا في قراءة لا تدبر فيها» وإذا لم يتمكن من التدبر إلا بترديد فليردد إلا أن يكون خلف إمام، وصح أن النبي على قام ليلة بآية يرددها(١).

(الخامس) التفهم، وهو أن يستوضح عن كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات اللَّه عز وجل وذكر أفعاله، وذكر أحوال الأنبياء وأحوال المكذبين لهم، وكيف أهلكوا؛ وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار. أما صفات اللَّه عز وجل فكقوله: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُو السَّمِيعُ النَّمِيعُ وكقوله تعالى: ﴿ القُدُوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ ٱلمُهَيْمِنُ العَزِيزُ الجَّبَارُ المَعْزِيرُ الجَبَّارُ وكقوله تعالى: ﴿ القَدُوسُ السَّلامُ المُؤْمِنُ ٱلمُهَيْمِنُ العَزِيرُ الجَبَّارُ المَحْرِيرُ الجَبَّارُ المَعْزِيرُ المَعني هذه الأسهاء والصفات ليستكشف له أسرارها، وأما أفعاله تعالى فكذكره خلق السموات والأرض وغيرها فليفهم التالي منها صفات اللَّه عز وجل، إذ الفعل يدل على الفاعل، فتدل على عظمته.

فينبغي أن يشهد في الفعل الفاعل دون الفعل، فمن عرف الحق رآه في كل شيء ولهذا ينبغي إذا قرأ التالي قوله عز وجل: ﴿ أَفَرَأَيْتُمْ مَّا تَحْرُقُونَ. أَفَرَأَيْتُم مَّا تُحْرُقُونَ لَأَوْرَأَيْتُم مَّا تُحْرُونَ لَلَّذِي تَشْرَبُونَ. أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴾ (الواقعة) فلا يقصر نظره على الماء والنار والحرث والمني وهو نطفة متشابهة الأجزاء، ثم ينظر في كيفية انقسامها إلى اللحم والعظم والعروق والعصب، وكيفية تشكل أعضائها بالأشكال المختلفة من الرأس واليد والرجل والكبد والقلب وغيرها.

فيتأمل هـذه العجائب ليتـرقى منها إلى أعجب العجـائب وهو الصنعـة التي منها صدرت، فلا يزال ينظر إلى الصنعة ويرى آثار الصانع.

وأما أحوال الأنبياء عليهم السلام، فإذا سمع منها أنهم كذبوا وضربوا وقتل بعضهم، ثم سمع نصرتهم في آخر الأمر فهم قدرة اللَّه عز وجل وإرادته

⁽١) وهي ﴿إِن تعذبهم، فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العمزيز الحكيم﴾ رواه النسائي وابن ماجه بسند صحيح كها قال العراقي.

لنصرة الحق، وأما أحوال المكذبين كعاد وثمود وما جرى عليهم، فليكن فهمه منه استشعار الخوف من سطوته ونقمته، وليكن حظة منه الاعتبار في نفسه.

(السادس) التخلي عن (١) موانع الفهم، فإن أكثر الناس منعوا عن فهم القرآن لأسباب وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم، فعميت عليهم عجائب أسرار القرآن، ومن حجب الفهم أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف بإخراجها من نخارجها، وهذا يتولى حفظه شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن فهم معاني كلام الله عز وجل، فلا يزال يحملهم على ترديد الحروف يخيل إليهم أنه لم يخرج من نخرجه، فهذا يكون تأمله مقصوراً على نخارج الحروف فأني تنكشف له المعاني، وأعظم ضحكة للشيطان عمن كان مطيعاً لمثل هذا التلبيس!

(السابع) التخصيص: وهو أن يقدر أنه المقصود بكل خطاب في القرآن فإن سمع أمراً أو نهياً قدر أنه المنهي والمأمور، وإن سمع وعداً أو وعيداً فكذلك، وإن سمع قصص الأولين والأنبياء علم أن السمر غير مقصود وإنما المقصود أن تعتبره وتأخذ من بضاعته ما تحتاج إليه، فها من قصة في القرآن إلا وسياقها لفائدة في حق النبي وأمنه، ولذلك قال تعالى: ﴿مَا نُشَبِّتُ بِهِ فَوَادَكَ ﴾ (هود: ١٢٠) فليقدر العبد أن الله ثبت فؤاده بما يقصه عليه من أحوال الأنبياء وصبرهم على الإيذاء وثباتهم في الدين لانتظار نصر الله تعالى.

وكيف لا يقدر هذا والقرآن ما أنزل على رسول اللَّه ﷺ خاصة بل هـو شفاء وهدى ورحمة ونور للعالمين، ولذلك أمر اللَّه تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال تعالى: ﴿وَآذْكُرُواْ نِعْمَةَ آللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنَـزَلُ عَلَيْكُم مِّنَ الكتاب فقال تعالى: ﴿وَآذْكُرُواْ نِعْمَةَ آللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنَـزَلُ عَلَيْكُم مِّنَ الكتاب وَآلِحُمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَإِذَا قصد بالخطاب جميع الناس فقد قصد الأحاد كما قال تعالى: ﴿لَانِذِرَكُمْ بِهِ وَمَن بَلغَ وَال محمد القرظي: من بلغه القرآن فكأنما علمه اللَّه. وإذا قدر ذلك لم يتخذ دراسة القرآن عمله بل يقرؤه القرآن فكأنما علمه اللَّه.

⁽١) في الأصل المختصر مواقع. وهو تحريف. والتصحيح من الأصل الأول.

كما يقرأ العبد كتاب مولاه الذي كتبه ليتأمله ويعمل بمقتضاه. وذلك قال بعض العلماء: هذا القرآن رسائل أتتنا من قبل ربنا عز وجل بعهوده، نتدبرها في الصلوات وننفذها في الطاعات.

(الشامن) الثائر: وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة، بحسب اختلاف الآيات، فيكون له بحسب كل فهم حا، ووجد يتصف به قلبه من الحزن والحوف والرجاء وغيره، ومها تمت معرفته كانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه فإن التضييق غالب على آيات القرآن، فلا ترى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط يقصر العارف عن نيلها كقوله عز وجل: ﴿وَإِنِي لَغَفَارُ ﴾ ثم اتبع ذلك بأربعة شروط: ﴿لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحاً ثُمَّ آهْتَدَى ﴾ (طه: ٢٨) وقوله تعالى: ﴿وَالعَصرُ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسرٍ إِلاَّ آلَـذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصارف عن شروط.

وأما مجرد حركة اللسان فقليل الجدوى وتلاوة القرآن حق تلاوته هو أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب: فحظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الإتعاظ والتأثر بالإنزجار والائتمار فاللسان يرتل والعقل يترجم والقلب يتعظ.





___*كُنَّابِالأَذْكارِ والدعوات* فضيلة الذكر

من الآيات قول سبحان وتعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرُكُمْ ﴾ (البقرة: ١٥٢) وقال تعالى: ﴿آذْكُرُونَ اللَّهَ فِيْماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِمْ ﴾ (الأحزاب: ٤١). وقال تعالى: ﴿آلَٰذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِمْ ﴾ (آل عمران: ١٩١) وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَآذْكُرُواْ ٱللَّهَ قِيناً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ﴾ (النساء: ٣٠١) وقال ابن عباس: أي بالليل والنهار في البر والبحر والسفر والخضر والغنى والفقر والمرض والصحة والسر والعلانية: وقال تعالى: ﴿وَآذْكُر رَّبَكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلغُدُوّ وَٱلْاصَالِ وَلاَ تَكُن مِّنَ ٱلْقَوْلِ فِي اللّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (الأعراف: ٢٠٥) وقال تعالى في ذم وَآلاصَالِ وَلاَ يَذُكُرُونَ اللَّهَ إِلاَّ قَلِيلاً ﴾ (النساء: ١٤٢).

ومن الأخبار قوله ﷺ: «يقول اللَّه عز وجل: أنا مع عبدي ما ذكرني وتحركت بي شفتاه»(١) وسئل ﷺ أي الأعمال أفضل فقال: «أن تموت ولسانك رطب بذكر اللَّه عز وجل»(٢) وقال ﷺ «قال اللَّه تبارك وتعالى: «إذَا

⁽١) رواه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة (ر) ورواه الحاكم من حديث أبي الدرداء (ر)، وقال صحيح الاسناد.

⁽٢) رواه ابن حبان والطبراني في الدعاء والبيهقي في الشعب من حديث معاذ. ورواه الترمذي بنحوه، وقال حديث حسن صحيح.

وإيراد اللسان في هذا الحديث وغيره دليل على أن الذكر في القلب وحده ليس بذكر ___

ذكرني عبدي في نفسه ذكرته في نفسي، وإذا ذكرني في ملإٍ يذكرته في مـلإٍ خير من ملئه، وإذا تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً»(١) الحديث.

ومن الآثار قول الحسن: الذكر ذكر اللّه عز وجل بين نفسك وبين اللّه عز وجل ما أحسنه وأعظم أجره _ وأفضل من ذلك ذكر اللّه سبحانه عند ما حرم اللّه عز وجل.

فضيلة مجالس الذكر

قال رسول ﷺ: «ما جلس قوم مجلساً يذكرون الله عز وجل إلا حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة وذكرهم الله تعالى فيمن عنده (٢).

فضيلة التهليل

وقال ﷺ: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وقال ﷺ «من قال لا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير كل يوم مئة مرة كانت له عدل عشر وقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة»(٣) الحديث.

فضيلة التسبيح والتحميد وبقية الأذكار

قال ﷺ: «من سبح دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين وحمد ثـلاثاً وثـلاثين وكبر ثلاثاً وثلاثين وختم المئة بلا إله إلاّ اللّه وحده لا شريك له، له الملك وله

___ وحديث «خير الذكر الخفي، وخير الرزق ما يكفي» غير صحيح. في سنده راوٍ فيه مقال كها جاء في كتاب «أسنى المطالب في أحاديث مختلفة المراتب».

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه مسلم. ومن معاني الذكر طلب العلم وتذكر أوامر اللَّه ونواهيه.

⁽٣) رواه البخاري ومسلم.

الحمد وهو على كل شيء قدير غفرت ذنوبه»(١) وقال على: «من قال سبحان الله وبحمده في اليوم مائة مرة حطت خطاياه»(٢) وقال على: «أحب الكلام إلى الله تعالى أربع: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاّ الله والله أكبر ولا يضرك بأيهن بدأت»(٣) وقال على: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزات حبيتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»(٤).

فضيلة الدعاء

قال اللَّه تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِي فَإِنِّي قَرِيبُ أَجِيبُ دَعْوَةَ اللَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي ﴾ (البقرة: ١٨٦) وقال تعالى: ﴿آدْعُواْ رَبَّكُمْ الْمُعُونِ تَضَرُّعاً وَخُفْيةً إِنَّهُ لاَ يُحِبُ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٥) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ الْمُعُونِ الْصَرَعانُ وَخُواْ اللَّهَ أَوِ الْمُعُواْ الرَّحْنَ أَيَا أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠) وقال تعالى: ﴿قُل آدْعُواْ اللَّهَ أَوِ آدْعُواْ الرَّحْنَ أَيَا أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠) وقال تعالى: ﴿قُل آدْعُواْ اللَّهَ أَوْ آدْعُواْ الرَّحْنَ أَيَا اللهَ اللهُ الله

آداب الدعاء وهي عشرة

(الأول) أن يترصد لـدعائـه الأوقات الشريفة: كيـوم عرفـة من السنة ورمضان من الأشهر، ويوم الجمعة من الأسبوع، ووقت السحر من ساعات الليل قال تعالى: ﴿وَبِآلاً سُحَارِهُمْ يَسْتَغْفِرُ ونَ ﴾ (الذاريات: ١٨).

(الثاني) أن يغتنم الأحوال الشريفة: كحال زحف الصفوف في سبيل الله،

⁽١)رواه مسلم.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) رواه مسلم.

⁽٤) رواه البخاري ومسلم.

⁽٥) ضعيف فيه ابن لهيعة، وهو سيء الحفظ. والصحيح فيه لفظ الحديث: «الدعاء هو العبادة» ثم قرأ: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُـونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِـرُونَ عَنْ عِبَادَتِي أي عن دعـاثي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٦٠).

وعند نزول الغيث، وعند إقامة الصلوات المكتوبة، وخلف الصلوات وبين الأذان والإقامة، وحالة السجود، وبالحقيقة يرجع شرف الأوقات إلى شرف الحالات أيضاً؛ إذ وقت السحر وقت صفاء القلب وإخلاصه وفراغه من المشوشات، ويوم عرفة، ويوم الجمعة وقت اجتماع الهمم وتعاون القلوب على استدرار رحمة الله عز وجل.

(الثالث) أن يدعو مستقبل القبلة: ويرفع يديه بحيث يرى بياض إبطه(١).

(الرابع) خفض الصوت بين المخافتة والجهر. قالت عائشة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلاَ تُخافِتْ بِهَا ﴾ أي بدعائك قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: قدمنا مع رسول الله على فلها دنونا من المدينة كبر وكبر الناس ورفعوا أصواتهم فقال النبي على: يا أيها الناس أربعوا بأنفسكم وأي أرفقوا بها، وأخفضوا أصواتكم ﴾ إن الذي تدعون ليس أصم ولا غائباً، إنكم تدعون سميعاً بصيراً. الحديث رواه البخاري وأبو داود على اختلاف في الرواية. وقد أثنى تعالى على نبيه زكريا عليه السلام حيث قال: ﴿إَذْ نَادَىٰ رَبّهُ نِدَاءً خَفِيّاً ﴾ (مريم: ٣) وقال تعالى: ﴿آنْعُوا رَبّكُمْ تَضَرّعاً وَخُفْيَةً إِنّهُ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٥).

(الخامس) أن لا يتكلف السجع في الدعاء. والأولى ألا يجاوز الدعوات المأثورة، فإنه يعتدي في دعائه فيسأل ما لا تقتضيه مصلحة. فما كل أحد يحسن الدعاء.

(السادس) التضرع والخشوع والرغبة والرهبة. قال تعالى: ﴿آدْعُواْ رَبُّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾(الأعراف: ٥٥).

(السابع) أن يجزم الدعاء ويوقن بالإِجابة ويصدق رجاءه قال ﷺ: «لا

⁽١) صح ذلك من فعله ﷺ في غزوة بدر فقط.

يقل أحدكم إذا دعا: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة فإنه لا مكره له (١) وقال على: «إذا دعا أحدكم فليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء (٢) وقال على: «إدعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة واعلموا أن الله عز وجل لا يستجيب دعاء من قلب غافل (٣).

(الثامن) أن يلح في الدعاء ويكرره ثلاثاً وأن لا يستبطيء الإجابة.

(التاسع) أن يفتتح الدعاء بذكر اللَّه تعالى، ولا يبدأ بالسؤال، ثم يصلي على النبي على ويختتم بها أيضاً (٤).

(العاشر) وهو الأدب الباطن: وهو الأصل في الإجابة ـ التوبة ورد المظالم، والإقبال على الله عز وجل بكنه الهمة ـ فذلك هو السبب القريب في الإجابة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالعباس رضي الله عنه (أي بدعائه) فلما فرغ عمر، قال العباس: اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بالتوبة، وأنت الراعي، لا تهمل الضالة، ولا تدع الكثير بدار مضيعة، فقد ضرع الصغير ورق الكبير وارتفعت الأصوات بالشكوى، وأنت تعلم السر وأخفى، اللهم فأغثهم بغيائك قبل أن يقنطوا فيهلكوا، فإنه لا يياس من روح الله إلا القوم الكافرون. قال: فها تم كلامه حتى ارتفعت السحب في السهاء مثل الجبال.

⁽١) رواه أحمد والبيهقي والنسائي عن أنس وإسناده صحيح (مج).

⁽٢) رواه مسلم.

⁽٣) رواه الترمذي والحاكم وإسناده صحيح (مج).

⁽٤) هذا خاص بالدعاء في القعود الأخير في الصلاة لحديث: «سمع رسول الله ﷺ رجلًا يدعو في صلاته لم يمجد الله تعالى، ولم يصل على النبي ﷺ فقال: «عجل هذا» ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه جل وعز والثناء عليه، ثم يصلي على النبي ﷺ ثم يدعو بما شاء» رواه أحمد وأبو داود والحاكم وصححه ووافقه الذهبي. ولا مانع من فعل ذلك في الأدعية الأخرى إلا أنه ليس بشرط واجب فيها، ودليل ذلك ما نراه من أدعية القرآذ والسنة.

فضيلة الصلاة على النبي ﷺ

قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّ آللَّهَ وَمَلَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى آلنَّبِي يَاأَيُّا آلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيها ﴾ (الأحزاب: ٥٦) وقال على على من أمتي كتب له عشر حسنات (١) وقيل يا رسول اللَّه: كيف نصلي عليك؟ فقال: قولوا: اللهم صل على محمد عبدك وعلى آله وأزواجه وذريته كما عليت على إبراهيم وآل إبراهيم، وبارك على محمد وأزواجه وذريته كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد (١) وكان عمر رضي اللَّه عنه باركت على إبراهيم وآل إبراهيم إنك حميد مجيد (١) وكان عمر رضي اللَّه عنه لقد بلغ من فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال عز وجل: هن فضيلتك عند ربك أن جعل طاعتك طاعته، فقال عز وجل: من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذب، فقال من فضيلتك عنده أن أخبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذب، فقال تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ هُمْ ﴾ بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لقد بلغ من فضيلتك عنده أن أحبرك بالعفو عنك قبل أن يخبرك بالذب، فقال من فضيلتك عنده أن أهل النار يودون أن يكونوا قد أطاعوك وهم بين أطباقها يعذبون يقولون: ﴿يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهُ وَأَطْعْنَا الرَّسُولا﴾.

بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه لئن كان موسى أعطاه اللَّه حجراً تتفجر منه الأنهار فماذا بأعجب من أصابعك حين نبع منها الماء صلى اللَّه عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لئن كان سليمان أعطاه اللَّه الريح غدوها شهر ورواحها شهر، فماذا بأعجب من البراق حين سرت عليها إلى السهاء السابعة، ثم صليت الصبح من ليلتك بالأبطح صلى اللَّه عليك، بأبي أنت وأمي يا رسول اللَّه، لئن كان عيسى بن مريم أعطاه اللَّه إحياء الموتى فماذا بأعجب من الشاة المسمومة حين كلمتك وهي مشوية، فقالت لك الـذراع:

⁽١) ولفظ الجديث عند النسائي: ومن صلى علي صلاة واحدة صلى اللَّه عليه عشر صلوات وحطت عنه عشر خطيئات، ورفعت له عشر درجات، صححه الحاكم ووافقه الذهبي وسنده صحيح (مم).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

لا تأكلني فإني مسمومة، بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لقد اتبعك في قلة سنك وقصر عمرك ما لم يتبع نوحاً في كثرة سنه وطول عمره ولقد آمن بك الكثير وما آمن معه إلا القليل، ولقد لبست الصوف، وركبت الحمار، وأردفت خلفك، ووضعت طعامك على الأرض، ولعقت أصابعك تواضعاً منك فصلى الله عليك وسلم.

فضيلة الاستغفار

قال اللَّه عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَنحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِلْنُوبِمُ ﴿ (آل عمران: ١٣٥)، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ خَفُوراً رَّحِياً ﴾ (النساء: يعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِر اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ خَفُوراً رَّحِياً ﴾ (النصر: ١١) وقال تعالى: ﴿وَاللَّسْتَعْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴾ (آل عمران: ١٧)، وقال عمالى: ﴿وَاللَّمْ مِّن النَّيْلِ مَن النَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ. وَبِالْأَسْحَارِهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الذاريات:١٧) وكان عَلَيْ يكثر أن يقول:سبحانك اللهم وبحمدك اللهم أغفر لي، إنك أنت التواب الرحيم»(١).

وقال ﷺ: «إني لأستغفر اللَّه تعالى وأتوب إليه في اليوم سبعين مرة» (٢) وكان ﷺ يقول في الاستغفار: «اللهم أغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير (٣) وعن الفضيل رحمه اللَّه: إستغفار بلا إقلاع توبة الكذابين.

⁽١) الحديث رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة (ر) أنه كان يكثر أن يقول ذلك في ركوعه دون قوله: إنك أنت التواب الرحيم.

⁽٢) رواه البخاري.

⁽٣) رواه مسلم.

سيد الإستغفار

قال النبي على اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء (أقر) لك بنعمتك على، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. وقال: «ومن قالها من النهار موقناً بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة. ومن قالها من الليل، وهو موقن بها فمات بها قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة»(١).

آداب النوم

(الأول) الطهارة والسواك (الثاني) أن يعد طهوره وسواكه وينوي القيام للعبادة عن التيقظ (الثالث) أن لا يبيت من له وصية إلا ووصيته مكتوبة عند رأسه (الرابع) أن ينام تائباً من كل ذنب سليم القلب لجميع المسلمين لا يحدث نفسه بظلم أحد ولا يعزم على معصة إن استيقظ (الخامس) أن يقتصد في تمهيد الفرش الناعمة (السادس) أن لا ينام ما لم يغلبه النوم، ولا يتكلف استجلابه إلا إذا قصد به الاستعانة على القيام في آخر الليل (السابع) أن ينام مستقبل القبلة (الثامن) الدعاء عند النوم بما ورد، ومن قراءة الإخلاص والمعوذتين وينفث بهن في يديه ويمسح بها وجهه وما تيسر من الإخلاص والمعوذتين والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير كذلك جسده، وآية الكرسي والتسبيح ثلاثاً وثلاثين والتحميد كذلك والتكبير كذلك يتوفى على ما هو الغالب عليه من حب الله وحب لقائه، أو حب الدنيا ويحشر على ما يتوفى عليه (العاشر) الدعاء عند التنبيه وليقل أولاً: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.

كذلك، قالت عائشة رضي الله عنها كان ﷺ إذا قام من الليل افتتح

⁽١) رواه البخاري.

صلاته، قال: « «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيها كانوا فيه يختلفون، أهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم» (۱)، ثم يفتتح الصلاة ويصلي ركعتين خفيفيتن، ثم يصلي مثنى مثنى ما تيسر له ويختم بالوتر إن لم يكن قد صلى الوتر، وكان ربما جهر بالقراءة وربما أسر، وأكثر ما صح عنه في قيام الليل ثلاث عشرة ركعة (۲).

بيان أن الأوراد للمتجرد للعبادة

إعلم أن الأوراد والأذكار المروية والوظائف الليلية والنهارية، إنما تستحب للمتجرد للعبادة الذي لا شغل له غيرها أصلاً بحيث لو ترك العبادة لجلس بطالاً، وأما العالم الذي ينفع الناس بعلمه في فتوى أو تدريس أو تصنيف فترتيبه الأوراد يخالف ترتيب العابد؛ فإنه يحتاج إلى المطالعة للكتب وإلى التصنيف والإفادة ويحتاج إلى مدة لها لا محالة، فإن أمكنه استغراق الأوقات فيه فهو أفضل ما يشتغل به بعد المكتوبات وروابتها، ويدل على ذلك ما ذكرناه في فضيلة التعلم والتعليم في كتاب العلم، وكيف لا يكون كذلك، وفي العلم المواظبة على ذكر الله تعالى، وتأمل ما قال الله وقال رسوله، وفيه منفعة الخلق وهدايتهم إلى طريق الأخرة، ورب مسألة واحدة يتعلمها المتعلم فيصلح بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً، وأما العامي فيصلح بها عبادة عمره، ولو لم يتعلمها لكان سعيه ضائعاً، وأما العامي المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله ويستغرق الأوقات في العبادات، بل المحترف الذي يحتاج إلى الكسب لعياله ويستغرق الأوقات في العبادات، بل ورده في وقت الصناعة حضور السوق والاشتغال بالكسب، لكن ينبغي ذكر الله تعالى في صناعته.

⁽١) رواه الطبراني والحاكم وسنده حسن (مج).

 ⁽٢) قالت عائشة: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان وغيره على ثلاث عشرة ركعة» رواه البخاري ومسلم وأبو داود. وقد ورد الدعاء المذكور في الرقم واحد ويشرع في صلاة الفريضة أيضاً.

فضيلة قيام الليل

من الآيات قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ، يَدْعُونَ رَبُّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُمَّارَزَقْنَـ هُمْ يُنفِقُونَ ﴾ (السجدة: ١٦) وقوله تعالى: ﴿أُمَّنْ هُوَ قَنْنِتُ ءَانَاءَ ٱلَّذِلَ ﴾ (الـزمر: ٩) وقـوله عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجُّداً وَقِيَـٰـاً﴾ (الفرقان: ٦٤) وقوله سبحانه : ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ، وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ ، يَسْتَغْفِرُونَ ، وَفِي أَمْـوَالْهِمْ, حَقٌّ لِّلسَّائِــلِ وَالْمُحْرُومِ ﴾ (الذاريات: ١٧- ١٨) ومن الأخبار قال المغيرة بن شعبة: قام رسول اللَّه ﷺ حتى تفطرت قدماه ، فقيل له :أما قد غفر اللَّه ما تقدم من ذنبك وما تأخر! فقال: أفلا أكون عبداً شكوراً(١) (الأثار) ورد عن عمر (ر) كان يمر بالآية من ورده بالليل، فيسقط حتى يعاد منها أياماً كثيرة كما يعاد المريض. وكان ابن مسعود (ر) إذا هدأت العيون، قام فيسمع له دوي كدوي النحل حتى يصبح. ويقال إن سفيان الثوري رحمه اللَّه تعالى شبع ليلة، فقال: إن الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله! فقال تلك الليلة، وكان طاوس رحمه اللَّه إذا اضطجع على فراشه يتقلى عليه كما تتقلى الحبة على المقلاة، ثم يثب ويصلي ثم يقول: طيَّر ذكر جهنم نوم العابدين. وقال الحسن: إن الرجل ليذنب الذنب، فيحرم به قيام الليل. وقال رجل لبعض الحكماء: إني لأضعف عن قيام الليل. فقال له: يا أخى لا تعص اللَّه تعالى بالنهار، ولا تقم بالليل.

وكان للحسن بن صالح جارية، فباعها من قوم، فلما كان في جوف الليل قامت الجارية، فقالت: يا أهل الدار! الصلاة الصلاة. فقالوا: أصبحنا؟ أطلع الفجر؟ فقالت: وما تصلون إلّا المكتوبة؟ قالوا: نعم، فرجعت إلى الحسن فقالت: بعتني من قوم لا يصلون إلّا المكتوبة، ردني فردها وقال مالك بن دينار: سهوت ليلة عن وردي، ونمت، فإذا أنا في المنام بجارية كأحسن ما

⁽١) رواه البخاري.

يكون وفي يدها رقعة، فقال لي: أتحسن تقرأ؟ فقلت: نعم، فدفعت إليّ الرقعة فإذا فيها:

أألهتك اللذائد والأماني تعيش مخلداً لا موت فيها تنبه من منامك إن خيراً قال أحد الصالحين:

منع القرآن بوعده ووعيده فهموا عن الملك الجليل كلامه وأنشد غيره:

يا طويل الرقاد والغافلات إن في السقبر إن نزلت به ومهاداً ممهداً لك فيه أأمنت البيات من ملك المو

عن البيض الأوانس في الجنان؟ وتلهو في الجنان مع الحسان من النوم التهجد بالقرآن

مُفَل العيونُ بليلها أن تهجعا فرقابهم ذلت إليه تخضعا

كثرة النوم تورث الحسرات لرقاداً يطول بعد الممات بذنوب عملت أو حسنات ت وكم نال أمناً ببيات

الأسباب المسهلة لقيام الليل

منها أن لا يكثر الأكل فيكثر الشرب فيغلبه النوم، ويثقل عليه القيام، ومنها أن لا يترك القيلولة بالنهار فإنها مفيدة للإستعانة على قيام الليل، ومنها أن يعرف فضل قيام الليل بسماع هذه الآيات والأخبار حتى يستحكم به رجاؤه وشوقه إلى ثوابه، فيهيجه الشوق لطلب المزيد والرغبة في درجات الجنان، ومنها وهو أشرف البواعث الحب لله وقوة الإيمان بأنه في قيامه لا يتكلم بحرف إلا وهو مناج به ربه وهو مطلع عليه، فإذا أحب الله تعالى أحب لا محالة الخلوة(١) به، وتلذذ بالمناجاة فتحمله لذة المناجاة للحبيب على طول القيام.

⁽١) راجع بحث الخلوة في هذا الكتاب

وقال الفضيل بن عياض: إذا غربت الشمس فرحت بالظلام لخلوتي بربي. وقال أبو سليمان: أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء في الدنيا. وقال بعضهم: ليس في الدنيا وقت يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التملق في قلوبهم بالليل من حلاوة المناجاة، وقال بعضهم: لذة المناجاة ليست من الدنيا إنما هي من الجنة أظهرها الله تعالى لأوليائه لا يجدها سواهم، وقال ابن المنكدر: ما بقي من لذات الدنيا إلا ثلاث: قيام الليل (١) ولقاء الإخوان والصلاة في الجماعة.

⁽١) ومها كان من فضيلة وثواب قيام لليل فلا يجوز قيامه كله حرصاً على صحة المسلم، وإبقاء على قدرته ليعمل وبجاهد. ولم يكن من هدية في قيام الليل كله. وقد صح عنه: د... أما والله! إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، ولكني أصوم وأفطر وأصلي، وأرقد، وأتزوج النساء، فسي رعب عن سنتي فليس مني الحديث، رواه البخاري.



_كناب آداب الأكل والدعوة والضيافيز

إن الله تعالى أحسن تدبير الكائنات، فخلق الأرض والسموات، وأنزل الماء الفرات من المعصرات؛ فأخرج به الحب والنبات وقدر الأرزاق والأقوات، وحفظ بالملكولات قوى الحيوانات، وأعان على الطاعات والأعمال الصالحات بأكل الطيبات؛ فشكراً له على عمر الأوقات.

ولما كان مقصد ذوي الألباب لقاء اللَّه تعالى في دار الثواب، ولا طريق الى الوصول للقائه إلا بالعلم والعمل، ولا يمكن المواظبة عليها إلا بسلامة البدن، ولا تصفو سلامة البدن إلا بالأطعمة والأقوات، والتناول منها بقدر الحاجة على تكرر الأوقات، فمن هذا الوجه قال بعض السلف: إن الأكل من الدين، وعليه نبه قوله تعالى: ﴿ كُلُواْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَآعْمَلُواْ صَالِحًا ﴾. (المؤمنون: ٥١) وها نحن أولاء نرشد إلى وظائف الدين في الأكل: فرائضها وآدابها.

بيان ما لا بد للأكل من مراعاته _ وهو ثلاثة أقسام القسم الأول في الآداب المتقدمة على الأكل _ وهي خمسة

(الأول) أن يكون الطعام بعد كونه حلالًا في نفسه طيباً في جهة مكسبه، موافقاً للسنة والورع، لم يكتسب بسبب مكروه في الشرع ولا يحكم

هوى ومداهنة في دين، وقد أمر الله تعالى بأكل الطيب وهو الحلال، وقدم النهي عن الأكل بالباطل على القتل تفخيهاً لأمر الحرام، وتعظيهاً لبركة الحلال فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالُكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ ﴾ (النساء: ٢٩) وقدوله: ﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسِكُمْ ﴾ فالأصل في الطعام كونه طيباً، وهو من الفرائض وأصول الدين.

(الثاني) غسل اليد لأنها لا تخلو عن لوث في تعاطي الأعمال، فغسلها أقرب إلى النظافة والنزاهة(١).

(الثالث) أن ينوي بأكله أن يتقوى به على طاعة الله تعالى ليكون مطيعاً بالأكل، ومن ضرورة هذه النية أن لا يمد اليد إلى الطعام إلا وهو جائع، فيكون الجوع أحد ما لا بد من تقديمه على الأكل. ثم ينبغي أن يرفع اليد قبل الشبع، ومن فعل ذلك استغنى عن الطبيب.

(الرابع) أن يرضى بالموجود من الرزق والحاضر من الطعام.

(الخامس) أن يجتهد في تكثير الأيدي على الطعام ولو أهله وولده. فإن خير الطعام ما كثرت عليه الأيدي كما في الحديث الصحيح.

القسم الثاني في آدابه: حالة الأكل

وهو أن يبدأ ببسم الله في أوله وبالحمد في آخره، ويجهر ليذكر غيره، ويأكل باليمنى ويصغر اللقمة ويجود مضغها، وما لم يبتلعها لا يمد اليد إلى الأخرى، فإن ذلك عجلة في الأكل، وأن لا يذم مأكولًا، كان على الأكل مأكولًا كان إذا أعجبه أكله وإلّا تركه (٣)، وأن يأكل مما يليه (٣) ولا يضع على

⁽١) وهي سنة نبوية صحيحة من فعله ﷺ (مج) وتنقذ فاعلها من كثير من الأمراض الناجمة من دخول الجراثيم إلى داخل الفم عن طريق اليد القذرة.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) حديث كان يأكل ﷺ مما يليه رواه البخاري ومسلم.

الخبز قصعة ولا غيرها إلا ما يؤكل به، ولا يمسح يده بالخبز، ولا ينفخ في الطعام الحار بل يصبر إلى أن يسهل أكله، ولا يجمع بين التمر والنوى في طبق، ولا يجمع في كفه بل يضع النواة من فيه على ظهر كفه، ثم يلقيها وكذا كل ماله عجم وتفل، وأن لا يترك ما استرذله من الطعام، ويطرحه في القصعة بل يتركه مع التفل حتى لا يلتبس على غيره فيأكله، وأن لا يكثر الشرب في أثناء الطعام إلا إذا غص بلقمة أو صدق عطشه.

(وأما الشرب) فأدبه أن يأخذ الإناء بيمينه ويقول «بسم الله» وبشربه مصاً، لا عباً ولا يشرب قائماً ولا مضطجعاً، وينظر في الإناء قبل الشرب، ولا يتجشأ ولا يتنفس في الإناء بل ينحيه عن فمه بالحمد ويرد بالتسمية، والإناء وكل ما يدار على القوم يدار يمنة، وقد شرب رسول الله على لبناً وأبو بكر رضي الله عنه عن شماله وأعرابي عن يمينه فناول الأعرابي وقال: الأيمن فالأيمن (۱)، ويشرب في ثلاثة أنفاس يحمد الله في آخرها ويسمي الله في أولها.

القسم الثالث: ما يستحب بعد الطعام

وهو أن يمسك قبل الشبع، ثم يغسل يديه ويتخلل ويرمى المخرج بالخلال، وأن يشكر اللَّه تعالى بقلبه على ما أطعمه، فيرى الطعام نعمة منه قال اللَّه تعالى: ﴿ كُلُواْ مِن طَيِبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَاشْكُرُواْ لِلَّهِ ﴾ (البقرة: ١٧٢) فإن أكل طعام الغير فليدع: اللهم بارك لهم فيها رزقتهم، واغفر لهم وارحهم، أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار، وصلت عليكم الملائكة (٣) وليكثر الإستغفار والحزن على ما أكل من شبهة، ويستحب عقيب

⁽١) رواه البخاري ومسلم. وفي رواية: والايمنون، الايمنون، الا فيمنوا، وكم حل هذا الأدب النبوي من مشكلات. وقد حاول بعضهم تأويله بالتقديم لرئيس القوم ثم من على يمينه، ولا حجة لهم بذلك، وهو لا يحل المشكلة. فقد يكون في القوم شخصيتان كبيرتان.

⁽۲) رواه مسلم.

⁽٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسنده حسن (مج).

الطعام أن يقول: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا»(١).

آداب الاجتماع على الأكل

(الأول) أن لا يبتدىء بالطعام ومعه من يستحق التقديم بكبر سن أو زيادة فضل إلّا أن يكون هو المتبوع والمقتدى به، فيحنئذ ينبغي أن لا يطول عليهم الانتظار إذا اشرأبوا للأكل واجتمعوا له.

(الثاني) أن لا يسكتوا على الطعام ولكن يتكلمون بالمعروف.

(الثالث) أن يرفق برفيقه في القصعة، فلا يقصد أن يأكل زيادة عما يأكله، فإن ذلك حرام إن لم يكن موافقاً لرضا رفيقه مهما كان الطعام مشتركاً، بل ينبغي أن يقصد الإيثار ولا يأكل تمرتين في دفعة إلا إذا فعلوا ذلك أو استأذنهم، فإن قلل رفيقه نشطه ورغبه في الأكل، وقال له: كل، ولا يزيد في قوله: كل على ثلاث، فإن ذلك إلحاح وإضجار - فأما الحلف عليه بالأكل فممنوع!

(الرابع) أن لا يحوج رفيقه إلى أن يقول له كل أو يتفقده في الأكل، بل يحمل عن أخيه مؤنة ذلك. ولا ينبغي أن يدع شيئاً مما يشتيه لأجل نظر الغير إليه فإن ذلك تصنع، بل يجري على المعتاد ولا ينقص من عادته شيئاً في الوحدة، ولكن يعود نفسه حسن الأدب في الوحدة حتى لا يحتاج إلى التصنع عند الاجتماع نعم لو قلل من أكله إيثاراً لإخوانه، ونظراً لهم عند الحاجة إلى ذلك فهو حسن وإن زاد في الأكل على نية المساعدة، وتحريك نشاط القوم في الأكل فهو أحسن.

(الخامس) إن غسل اليد في الطشت لا بأس به، قال أنس: إذا أكرمك أخوك فاقبل كرامته ولا تردها. روي أن هارون الرشيد دعا أبا معاوية

⁽١) رواه مسلم.

الضرير، فصب الرشيد على يده في الطشت، فلما فرغ قال: يا أبا معاوية أتدري من صب على يدك؟ فقال لا، قال: صبه أمير المؤمنين، فقال: يا أمير المؤمنين إنما أكرمت العلم وأجللته، فأجلك الله وأكرمك كما أجللت العلم وأهله. وليصب صاحب المنزل بنفسه الماء على يد ضيفه، هكذا فعل مالك بالشافعي رضي الله عنهما في أول نزوله عليه، وقال: لا يروعك ما رأيت مني فخدمة الضيف فرض.

(السادس) أن ينظر إلى أصحابه، ولا يراقب أكلهم فيستحيون بل يغض بصره عنهم، ويشتغل بنفسه ولا يمسك قبل إخوانه إذا كانوا يحتشمون الأكل بعده بل يمد اليد ويقبضها، ويتناول قليلًا قليلًا إلى أن يستوفوا، فإن امتنع لسبب فليعتذر إليهم دفعاً للخجل عنهم.

(السابع) أن لا يفعل ما يستقذره غيره، فلا ينفض يده في القصعة، ولا يقدم إليها رأسه عند وضع اللقمة في فيه، وإذا أخرج شيئاً من فيه صرف وجهه عن الطعام وأخذه بيساره، ولا يغمس اللقمة الدسمة في الخل فقد يكرهه غيره، واللقمة التي قطعها بسنه لا يغمسها في المرقة والخل، ولا يتكلم بما يكره من المستقذرات.

فضل تقديم الطعام إلى الإخوان وآدابه

تقديم الطعام إلى الإخوان فيه فضل كثير، قال علي رضي الله عنه: لأن أجمع إخواني على صاع من طعام أحب إليّ من أن أعتق رقبة. وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: من كرم المرء طيب زاده في سفره وبذله لأصحابه وكانوا رضي الله عنهم يجتمعون على قراءة القرآن ولا يتفرقون إلّا عن ذواق. وكان خيثمة رحمه الله يضع الخبيص والطعام الطيب، ويدعو إخوانه ويقول: «كلوا! فها صنعته إلّا لكم».

(وأما آدابه) فبعضها في الدخول وبعضها في تقديم الطعام ـ أما الدخول فليس من ألسنة أن يقصد قوماً متربصاً لوقت طعامهم، فيدخل

عليهم وقت الأكل فإن ذلك من المفاجأة، وقد نهي عنه. وقال اللّه تعالى:
﴿ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النّبِيّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَنظِرِينَ إِنّهُ ﴾
(الأحزاب: ٥٣) يعني منتظرين حينه ونضجه. . أما إذا كان جائعاً فقصد بعض إخوانه ليطعمه ولم يتربص به وقت أكله فلا بأس به، وفيه إعانة لأخيه على حيازة ثواب الإطعام وهي عادة السلف، فإن دخل ولم يجد صاحب الدار وكان واثقاً بصداقته عالماً بفرحه إذا أكل من طعامه، فله أن يأكل بغير إذنه، إذ المراد من الإذن الرضاء لا سيها في الأطعمة وأمرها على السعة، فرب رجل يصرح بالإذن ويحلف وهو غير راض فأكل طعامه مكروه، ورب غائب لم يأذن وأكل طعامه عبوب، وقد قال تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ (النور: ٦١) قال الحسن: الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب. وكان الحسن: الصديق من استروحت إليه النفس واطمأن إليه القلب. وكان عكمد بن واسع وأصحابه يدخلون منزل الحسن فيأكلون ما يجدون بغير إذن، فكان الحسن يدخل ويرى ذلك فيسر به ويقول: هكذا كنا. ومشى قوم إلى منزل سفيان الشوري، فلم يجدوه، ففتحوا الباب وأنزلوا السفرة وجعلوا يأكلون، فدخل الثوري وجعل يقول: ذكرتموني أخلاق السلف هكذا كانوا.

(وأما آداب التقديم) فترك التكلف أولاً، وتقديم ما حضر. كان الفضيل يقول: إنما تقاطع الناس بالتكلف، يدعو أحدهم أخاه فيتكلف له فيقطعه عن الرجوع إليه. ومن التكلف أن يقدم جميع ما عنده فيجحف بعياله ويؤذي قلوبهم. قال بعضهم: دخلنا على جابر رضي الله عنه، فقدم لنا خبزاً وخلا وقال: لولا أنانهينا عن التكلف لتكلفت لكم (١) قال أبو واثل: مضيت مع صاحب لي نريد سليمان، فقدم لنا خبز شعير وملحاً جريشاً. فقال صاحبي: لو كان في الملح سعتر كان أطيب، فخرج سليمان فرهن مطهرته

⁽١) أرى أن التكلف المنهي عنه هو ما يعجز عنه المسلم ويشق عليه، فيضطره إلى الحرج أو الإستقراض، وهل يليق بصاحب البيت أن يقدم لضيوفه وخاصة إذا جاؤوه من سفر حساء كان أعده لنفسه بسبب مرضه؟ إن إكرام الضيف من الإيمان لقوله: ﷺ: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه. . الحديث رواه البخاري ومسلم.

وأخذ سعتراً، فلما أكلنا، قال صاحبي: الحمد للَّه الذي قنعنا بما رزقهنا، فقال سليمان: لو قنعت بما رزقت لم تكن مطهرتي مرهونة!!.

(الأدب الثاني) وهو للزائر أن لا يقترح، ولا يتحكم بشيء بعيد، فربما يشق على المزور إحضاره، فإن خيَّره أخوه بين طعامين، فليختر أيسرهما عليه، فإن علم أنه يسر باقتراحه ويتيسر عليه ذلك فلا يكرره له الاقتراح. قال بعضهم: الأكل على ثلاثة أنواع: مع الفقراء بالإيثار، ومع الإخوان بالإنبساط ومع أبناء الدنيا بالأدب.

(الأدب الشالث) أن يشهي المزور أخاه الزائر، ويلتمس منه الاقتسراح مهما كانت نفسه طيبة بفعل ما يقترح فذلك حسن، وفيه أحر وفضل جزيل، فقد نزل الشافعي رحمه الله تعالى على الزعفراني، وكان الزعفراني يكتب كل يوم رقعة بما يطبخ من الألوان، ويسلمها إلى الجارية، فأخذ الشافعي الرقعة وألحق فيها لوناً آخر فلما علم الزعفراني اشتد فرحه.

(الأدب الرابع) أن لا يقول له: هـل أقدم لـك طعامـاً؟ بل ينبغي أن يقدم فإن أكل وإلاّ فليرفعه.

(مسائل)

(الأولى) رفع الطعام على المائدة فيه تيسير ليكل فلا كراهة فيه، بل مباح ما لم ينته إلى الكبر والتعاظم، وما يقال إنه بدعة فجوابه أنه ليس كل ما أبدع منهيا، بل المنهى عنه بدعة تضاد سنة ثابتة، وترفع أمراً من الشرع مع بقاء علته، وليس في المائدة إلاّ رفع الطعام عن الأرض لتيسير الأكل ونحوه مما لا كراهة فيه (الثانية) الأكل والشرب متكئاً(۱) مكروه مضر للمعدة، ومثله الأكل مضطجعاً ومنبطحاً (الثالثة) السنة البداءة بالطعام قبل الصلاة. وفي

⁽١) وجاء في النهاية ما ملخصه: الإتكاء: التمكن في الجلوس وفيه حديث: «كان يجلس القرفصاء» رواه الطبراني وسنده حسن (مج).

الحديث: «إذا حضر العشاء والعشاء فابدؤوا بالعشاء»(١)، وكان ابن عمر رضى الله عنها ربما سمع قراءة الإمام ولا يقوم من عشائه.

بيان ما يخص الدعوة والضيافة فضلة الضيافة

قال رسول اللَّه عَنْ «من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخر فليكرم ضيفه (٢)، وسئل رسول اللَّه عِنْ ما الإيان؟ قال: «إطعام الطعام وبذل السلام» وقال عن الكفارات والدرجات: «إطعام الطعام والصلاة بالليل والناس نيام» (٣).

(أما الدعوة) فينبغي للداعي أن يعمد بدعوته الأتقياء دون الفساق، قال على: «أكل طعامك الأبرار» (٤) وفي الأثر: لا تأكل إلا طعام تقي، ولا يأكل طعامك إلا تقي (٥) ولا يتصر على الأغنياء خاصة، بل يضم معهم الفقراء. قال على: «شر الطعام طعام الوليمة يدعى إليها الأغنياء ويحرم منها الفقراء» (٦) وينبغي أن لا يهمل أقاربه في ضيافته، فإن إهمالهم إيحاش وقطع رحم، وكذلك يراعي الترتيب في أصدقائه ومعارفه، فإن في تخصيص البعض إيحاشاً لقلوب الباقين، وينبغي أن لا يقصد بدعوته المباهاة والتفاخر، بل

⁽١) رواه مسلم بلفظ: «إذا حضر العشاء والعشاء (بالفتح) وأقيمت الصلاة فـابـدؤوا بـالعشـاء (بالفتح).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) رواه أحمد والحاكم وصححه ووافقه الذهبي، وله شاهد.

⁽٤) وتمامه: وصلت عليكم الملائكة وأفطر عندكم الصائمون، رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسنده حسن (مج).

⁽٥) ولفظ الحديث: «لا تصاحب إلا مؤمناً ولا يأكل طعامك إلا تقي، رواه الترمذي وأبو داود والدارمي، وسنده حسن (مم).

⁽٦) رواه البخاري ومسلم.

استمالة قلوب الإخوان وإدخال السرور على قلوب المؤمنين، وينبغي أن لا يدعو من يعلم أنه يشق عليه الإجابة، وإذا حضر تأذى بالحاضرين بسبب من الأسباب، وينبغى أن لا يدعو إلا من يجب إجابته.

(وأما الإجابة) فهي سنة مؤكدة، وقد قيل بوجوبها في بعض المـواضع، ولها خمسة آداب:

(الأول) أن لا يميز الغني بالإِجابة عن الفقير، فذلك هو التكبر المنهي عنه.

(الثاني) أن لا يمتنع عن الإجابة لبعد المسافة، كما لا يمتنع لفقر الداعي وعدم جاهه، بل كل مسافة يمكن احتمالها في العادة لا ينبغي أن يمتنع لأجلها.

(الثالث) لا يمتنع لكونه صائماً بل يحضر، فإن كان يسر أخاه إفطاره فليفطر، وليحتسب في إفطاره بنية إدخال السرور على قلب أخيه ما يحتسب في الصوم وأفضل، وذلك في صوم التطوع، وإن تحقق أنه متكلف فليتعلل. وقد قال ابن عباس رضي الله عنها: من أفضل الحسنات إكرام الجلساء بالإفطار، فالإفطار عبادة بهذه النية وحسن خلق. فثوابه فوق ثنواب الصوم، ومها لم يفطر فضيافته الطيب والحديث الطيب.

(الرابع) أن يمتنع عن الإجابة إن كان الطعام شبهة، أو كان يقام في الموضع منكر(١)، أو كان الداعي ظالمًا، أو فاسقًا، أو مبتدعاً أو متكلفاً طالباً للمباهاة والفخر.

⁽۱) قال الشبخ جمال الدين القاسمي: عد الغزالي من المنكر: فرش الحرير والتصوير على الحيطان وسماع المزامير، وعندي أن المنكر الذي يحظر الحضور معه ويتعين إنكاره هو ما اتفق على إنكاره وأجمع عليه، فها لم يطبق الفقهاء على تحريمه فيلا يكون منكراً ولا ينسب مقره إلى الفسق، هذا فراش الحرير جوز الحفية الجلوس عليه، والتصوير على الحيطان سوغه المالكية، وسماع المرامير ذهب إليه ابن حزم وكثير من أتباع الأئمة المشهورين وصنفت فيه مؤلفات ____

(الخامس) أن لا يقصد بالإجابة قضاء شهوة البطن، فيكون عاملاً في أبواب الدنيا، بل يحسن نيته ليصير بالإجابة عاملاً للآخرة، فينوي الاقتداء بسنة رسول الله على وإكرام أخيه المؤمن وزيارته، ليكون من المتحابين في الله وينوي صيانة نفسه عن أن يساء به الظن في امتناعه، ويطلق اللسان فيه بأن يحمل على تكبر، أو سوء خلق، أو استحقار أخ مسلم أو ما يجري مجراه، وكان بعض السلف يقول: أنا أحب أن يكون لي في كل عمل نية حتى في الطعام والشراب، فإن المباح يلتحق بوجوه الخيرات بالنية.

(وأما الحضور) فأدبه أن يدخل الدار ولا يتصدر فيأخذ أحسن الأماكن بل يتواضع (۱) ولا يطول الانتظار عليهم، ولا يعجل بحيث يفاجئهم قبل تمام الاستعداد، ولا يضيق المكان على الحاضرين بالزحمة، بل إن أشار إليه صاحب المكان بموضع لا يخالفه البتة، فإنه قد يكون رتب في نفسه موضع كل واحد (۲)، فمخالفته تشوش عليه، ولا يجلس في مقابلة باب الحجرة التي للنساء وسترهن، ولا يكثر النظر إلى الموضع الذي يخرج منه الطعام، فإنه دليل على الشره، ويخص بالتحية والسؤال من يقرب منه إذا جلس، وإذا دخل ضيف للبيت فليعرفه صاحب المنزل عند دخوله القبلة وبيت الماء وموضع الوضوء، وأن يغسل صاحب المنزل يده قبل القوم وقبل الطعام، لأنه يدعو الناس إلى كرمه، ويتأخر في آخر الطعام عنهم، وعلى الضيف إذا دخل

معروفة، فأني يكون هذا من المنكر، فالذي أراه في المنكر أنه المجمع على تحريمه حتى شرط الفقهاء في إنكار المنكر أن يكون مجمعاً عليه، نعم التورع والاحتياط وترك ما يريب إلى ما لا يريب باب آخر فيه حسم للشبهة قلت: رحم الله تعالى الشيخ القاسمي على هذا الخطأ، فإن أثمة المذاهب (رضي الله عنهم) أسرى بيد الشريعة _ كها قال الشعراني _ فبلا يحللون ولا يحرمون عند وجود النص من قرآن أو سنة. وقد وجدت الأحاديث صريحة في تحريم ما ذكره. ولعل القائلين بعدم الحرمة هم من متأخري الفقهاء ولا حجة لهم، ولذلك يبقى كلام الإمام الغزالي الذي على على الشيخ القاسمي هو الصواب!

⁽١) ويجلس حيث انتهى به المجلس كها كان هديه ﷺ كها ثبت في الحديث الصحيح.

⁽٢) هذه عادة أعجمية لا يقرها الإسلام!

فرأى منكراً أن يغيره إن قدر، وإلا أنكر بلسانه وانصرف.

(وأما إحضار الطعام فله آداب خمسة): (الأول) تعجيل الطعام، فذلك من إكرام الضيف، ومها حضر الأكثرون وغاب واحد أو اثنان، وتأخروا عن الوقت الموعود، فحق الحاضرين في التعجيل أولى من حق أولئك في التأخير، وأحد المعنيين في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَكَ حَدِيثُ اضَيْفِ إِيْرُهِيمَ اللَّكَرَمِينَ ﴾، (الذاريات: ٢٤) أنهم أكرموا بتعجيل الطعام، ودل عليه قوله تعالى: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجُل مِنيدٍ ﴾ (١) (هود: ٦٩) وقوله: ﴿فَرَاعَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَآء إِيعجُل اسمِينٍ ﴾ (الذاريات: ٢٦) والروغان: الذهاب بسرعة، وقيل: في خفية. قال حاتم الأصم: العجلة من الشيطان إلا في خمسة، فإنها من سنة رسول الله على إطعام الضيف، وتجهيز الميت، وتنزويج البكر(٢)، وقضاء الدين، والتوبة من الذنب.

(الشاني) ترتيب (٣) الأطعمة بتقديم الفاكهة أولاً وإن كانت، فذلك أوفق في البطب فإنها أسرع استحالة، فينبغي أن تقع في أسفل المعدة، وفي القرآن تنبيه على تقديم الفاكهة في قوله تعالى: ﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمًا يَشَعَرُونَ﴾ (الواقعة: ٢) ﴿وَلَا يَمْ طَيْرٍ مِّمًا يَشْتَهُونَ﴾ ثم أفضل ما يقدم بعد الفاكهة اللحم والثريد، فإن جمع إليه حلاوة بعده، فقد جمع الطيبات، ودل على حصول الإكرام باللحم قوله تعالى في ضيف إبراهيم، إذ أحضر العجل الحنيذ، أي المحنوذ وهو الذي أجيد نضجه وهو أحد معني الإكرام، أعني تقديم اللحم. قال أبو سليمان الدارني رضي الله عنه: أكل الطيبات تورث الرضاء عن الله، وتتم هذه الطيبات بشرب الماء البارد، وصب الماء الفاتر على اليد عند الغسل، قال المأمون: شرب الماء بثلج يخلص الشكر. وقال بعضهم:

⁽١) أي مشوي.

⁽٢) إذا جاءها الكفء وهو التقي، وإلَّا فلا ضرورة للتعجيل.

⁽٣) لا أظن هذا واجباً، وخاصة أن الواو لا تفيد الترتيب.

الحلاوة بعد الطعام خير من كثرة الألوان، وتزيين المائدة بالبقول مستحب أيضاً.

(الثالث) أن يقدم من الألوان ألطفها حتى يستوفي منها من يريد، ولا يكثر الأكل بعده، وعادة المترفين تقديم الغليظ ليستأنف حركة الشهوة بمصادفة اللطيف بعده، وهو خلاف الأولى فإنه حيلة في استكثار الأكل، ويحسن أن يقدم جميع الألوان دفعة أو يخبر بما عنده.

(الرابع) أن لا يبادر إلى رفع الألوان قبل تمكنهم من الاستيفاء حتى يرفعوا الأيدي عنها، فلعل منهم من يكون بقية ذلك اللون أشهى عنده مما استحضروه، أو بقيت فيه حاجة إلى الأكل فيتنغص عليه بالمبادرة.

(الخامس) أن يقدم من الطعام قدر الكفاية، فإن التقليل عن الكفاية نقص في المروءة والزيادة عليه تصنع. قال ابن مسعود رضي الله عنه: نهينا أن نجيب دعوة من يباهي بطعامه، وكره جماعة من الصحابة أكل طعام المباهاة، وينبغي أن يعزل أو لا نصيب أهل البيت حتى لا تكون أعينهم طامحة إلى رجوع شيء منه، فلعله لا يرجع فتضيق صدورهم، وتنطلق في الضيفان السنتهم!

(فأما الانصراف فله ثلاثة آداب): (الأول) أن يخرج مع الضيف إلى باب الدار وهـو سنة وذلك من إكرام الضيف. وتمـام الإكرام طـلاقة الـوجه وطيب الحديث عند الدخول والخروج وعلى المائدة.

(الشاني) أن ينصرف الضيف طيب النفس وإن جرى في حقه تقصير فذلك من حسن الخلق والتواضع (الشالث) أن لا يخرج إلا برضاء صاحب المنزل وإذنه. ويراعي قلبه في قدر الإقامة، وإذا نزل ضيفاً فلا يزيد على ثلاثة أيام(١) فربما يتبرم به ويحتاج إلى إخراجه. نعم لو ألح رب البيت عليه عن

⁽١) وفي ذلك حديث: «من كان يؤمن باللَّه واليـوم الآخر فليكـرم ضيفه، جـاثـزتـه يـوم وليلة، ـــــ

خلوص قلب فله المقام إذ ذاك ويستحب أن يكون عنده فراش لضيف(١) ينزل به.

آداب متفرقة

(الأول) حكي عن إبراهيم النخعي أنه قال: الأكل في السوق دناءة. ونقل عن بعض السلف فعله، ووجه الجمع أنه يختلف بعادات البلاد وأحوال الأشخاص، فمن لا يليق ذلك به لحاله أو عادة بلاده كان شرهاً وقلة مروءة، ومن فلا حرج(٢).

(الثاني) قال بعض الأطباء: لا تنكح من النساء إلا فتاة؛ ولا تأكل من اللحم إلا فتياً؛ ولا تأكل المطبوخ حتى يتم نضجه، ولا تشربن دواء إلا من علة، ولا تأكل من الفاكهة إلا نضيجها؛ ولا تأكلن طعاماً إلا أجدت مضغه، ولا تشربن فوق طعام، ولا تحبس البول والغائط، وإذا أكلت بالنهار فنم، وإذا أكلت بالليل فامش قبل أن تنام ولو مائة خطوة.

(الثالث) يستحب أن يحمل الطعام إلى أهل الميت. ولما جاء نعي جعفر ابن أبي طالب قال عليه الصلاة والسلام: «إن آل جعفر وشغلوا بميتهم عن صنع طعامهم فاحملوا إليهم ما يأكلون»(٣) فذلك سنة، وإذا قدم ذلك إلى الجمع حل الأكل منه.

ت البخاري ومسلم ومعنى يحرجه يوقعه في الحرج ويضيق صدره عليه.

⁽۱) الحديث: «فراش للرجل، وفراش لامرأته، والثالث للضيف، والرابع للشيطان، رواه أحمد وأبو داود عن جابر، وسنده صحيح (مج).

⁽٢) السلف هم القدوة والحجة وقد أخطأ النخعي رحمه الله تعالى في قوله: ومراصاة عادات الآخرين، فإن ذلك قد يسبب تعطيل الشرع، والوقوع في الإثم، ولعله اعتمد في ذلك على حديث في هذا الموضوع، ولكنه ضعيف كها قال الحافظ العراقي.

(الرابع) لا ينبغي أن يحضر طعام ظالم فإن أكره فليقلل الأكل.

تتمة

حكي أن بعضهم كان يمتنع عن إجابة الدعوة ويقول: انتظار المرقة ذل! وقال: إذا وضعت يدي في قصعة غيري فقد ذلت له رقبتي، وقد أنكر بعضهم هذا الكلام، وقال: هذا خلاف السنة. قال اغزالي: وليس كذلك فإنه ذل إذا كان الداعي لا يفرح بالإجابة ولا يتقلد بها منة، وكان يرى ذلك يداً له على المدعو، ورسول الله عيم كان يحضر لعلمه أن الداعي له يتقلد منة ويرى ذلك شرفاً وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة - فهذا يختلف باختلاف ويرى ذلك شرفا وذخراً لنفسه في الدنيا والآخرة - فهذا يختلف باختلاف الحال. فمن ظن به أنه يستثقل الإطعام، وأنه يفعل ذلك مباهاة أو تكلفاً فليس من السنة إجابته بل الأولى التعلل. ولذلك قال بعض أهل الفضل: لا تجب إلا دعوة من يرى أنك أكلت رزقك، وأنه سلم إليك وديعة كانت لك عنده، ويرى لك الفضل عليه في قبول تلك الوديعة منه، فإذا علم المدعو أنه لا منة في ذلك فلا ينبغي أن يرد.

خإنه قد أتاهم ما يشغلهم، وسنده حسن (مج)، وأين هذه السنة الكريمة المطهرة من بدعة صنع آل الميت اليوم الطعام للناس بعد دفن ميتهم مما يتنافى مع الشرع ومع الذوق السليم، فالأكلون آثمون وخاصة إذا كان في الورثة أيتام كما يأثم آل البيت أيضاً على الرغم من تكلفهم النفقات والأتعاب لمخالفتهم أمره على .



_ كناب آداب النكاح

الترغيب فيه

قال اللَّه تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ الْأَيَامَىٰ (') مِنكُمْ ﴾ (النور: ٣٢) وهذا أمر وقال تعالى: ﴿فَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوٰجَهُنَّ ('') ﴾ (البقرة: ٣٣٢) وهذا منع من العضل ونهي عنه، وقال تعالى في وصف الرسل ومدحهم: ﴿وَلَقَدْ أَرْسُلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوٰجاً وَذُرِّيَّةً ﴾ (الرعد: ٣٨) فذكر ذلك في معرض الامتنان وإظهار الفضل ومدح كذلك أوليائه بسؤال ذلك في الدعاء فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبُّنَا هَبُ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةً أَعْينُ ﴾ (الفرقان: ٧٤) وأما الأخبار فقوله ﷺ: «النكاح سنتي فمن رغب عن سنتي فقد رغب عني "(") وقال: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء (١٤٠٠. هذا يدل على أن سبب الترغيب فيه خوف الفساد في العين والفرج. والوجاء: هو عبارة عن رض الخصيتين للفحل حتى تزول فحولته مستعار للضعف عن

⁽١) جمع أيم: وهي من ليس لها زوج بكراً كانت أو ثيباً. أو من ليس له زوجة.

 ⁽٢) أي لا تمنعوهن بما لكم عليهن من ولاية من أن يتزوجن عن يرغبهن أزواجاً إذا كانوا أكفاء أي اتقياء.

⁽٣) قال الحافظ العراقي: رواه أبو يعلى في مسنده مع تقديم وتناخير من حديث ابن عباس بسند حسن، ومثله في الحض على الزواج والتشجيع عليه: «إذا تنزوج العبد فقد استكمل نصف الدين فليتق الله في النصف الباقي» وهو حسن لطرقه.

⁽٤) رواه البخاري ومسلم.

الوقاع بالصوم، وقال على: «إذا أتاكم من ترضون دينه وأمانته فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»(١) وهذا أيضاً تعليل الترغيب لخوف العساد، وقال على: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»(٢).

(وأما الآثار) فقال ابن عباس رضي اللَّه عده: لا يتم نسك الناسك حتى يتزوج. يحتمل أنه جعله من النسك أو تتمة له، أو أراد أنه لا يسلم قلبه لغلبة الشهوة إلا بالتزويج، ولا تيم النسك إلا بفراغ القلب. وكان يجمع غلمانه لما أدركوا ويقول: إن أردتم النكاح أنكحتكم فأن العبد إذا زنى نزع الإيمان من قلبه. وقال عمر (رضي اللَّه عنه) لا يمنع من النكاح إلا عجز أو فجور!

(وأما فوائد النكاح فخمسة: الولد وكسر الشهوة، وتدبير المنزل، وكثرة العشيرة، ومجاهدة النفس بالقيام بهن.

ما يراعي من أحوال المرأة

الخصال المطيبة للعيش التي لا بد من مراعاتها في المرأة ليدوم العقد وتتوفر مقاصده هي: الدين، والخلق، والحسن، وخفة المهر، والولادة، والبكارة (٣)، والنسب.

(الأولى) أن تكون صالحة ذات دين: فهذا هنو الأصل وبه ينبغي أن يقع الاعتناء، فإنها إن كانت ضعيفة الدين في صيانة نفسها وفرجها، أزرت بزوجها وسودت بين الناس وجهه، وشوشت بالغيرة قلبه، وتنغص بذلك عيشة فإن سلك سبيل الحمية والغيرة لم يزل في بلاء، وإن سلك سبيل

⁽١) رواه الترمذي وهو حديث حسن (مم).

⁽٢) رواه مسلم.

⁽٣) ليست البكارة أمراً لا بد منه! بل الأحسن إذا تيسر. . .

التساهل كان متهاوناً بدينه وعرضه ومنسوباً إلى قلة الحمية والأنفة. وإن كانت فاسدة الدين باستهلاك ماله أو بوجه آخر لم ينزل العيش مشوشاً معه فإن سكت ولم ينكره كان شريكاً في المعصية مخالفاً لقوله تعالى: ﴿قُوا أَنفُسَكُم وَأَهْلِيكُمْ نَاراً ﴾ (التحريم: ٦) وإن أنكر وخاصم تنغص العمر ولهذا بالغ رسول الله على في التحريض على ذات الدين فقال: «تنكح المرأة لما ها وجمالها وحسبها ودينها، فعليك بذات الدين تربت يداك» (١).

(الثانية) حسن الخلق: فإنها إن كانت سليطة بذئية اللسان كافرة للنعم، كان الضرر منها أكثر من النفع، والصبر على لسان النساء مما يمتحن به الأولياء.

(الثالثة) حسن الوجه، فذلك أيضاً مطلوب إذ به يحصل التحصن، والطبع لا يكتفي بالدميمة غالباً، وما نقلناه من الحث على الدين ليس زجراً عن رعاية الجمال، بل هو زجر عن النكاح لأجل الجمال المحض مع الفساد في الدين. فإن الجمال وحده في غالب الأمر يرغب في النكاح ويهون أمر الدين، ويدل على الالتفات إلى معنى الجمال أن الإلفة والمودة تحصل به غالباً، وقد ندب الشرع إلى مراعاة أسباب الإلفة، ولذلك استحب النظر فقال: «إذا أوقع الله في نفس أحدكم فلينظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينها» (٢) أي يؤلف بينها. وكان بعض (٣) الورعين لا ينكحون كرائمهم إلا بعد النظر احترازاً من الغرر، وقال الأعمش: كل تزويج يقمع على غير نظر فآخره هم وغم! وروي أن رجلاً تزوج على عهد عمر رضي الله عنه وكان قد خضب فنصل خضابه (٤) فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا حسبناه قد خضب فنصل خضابه (٤) فاستعدى عليه أهل المرأة إلى عمر وقالوا حسبناه

⁽۱) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

⁽٢) رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه بلفظ: إذا خطب أحدكم المرأة، فإن استطاع أن ينظر إلى مايدعوه إلى نكاحها فليفعل، رواه أبو داود والحاكم والبيهقي وإسناده حسن (مج).

⁽٣) ليس هذا من الورع فحسب، بل من الواجب المحتم للحديث السابق.

⁽٤) الخضاب السواد هو المنهي عنه فقط لحديث صحيح ورد في ذلك.

شاباً فأوجعه عمر ضرباً، وقال: غررت القوم! والغرر يقع في الجمال والخلق جميعاً، فيستحب إزالة الغرر في الجمال بالنظر، وفي الخلق بالوصف والاستيصاف، ولا يستوصف في أخلاقها وجمالها إلا من هو بصير صادق خبير بالظاهر والباطن، لا يميل إليها فيفرط في الثناء، ولا يحسدها فيقصر، وقل من يصدق فيه، بل الخداع والإغواء أغلب، والاحتياط فيه مهم.

(الرابعة) أن تكون خفيفة المهر: فقد نهي عن المغالاة في المهر، وتزوج بعض الصحابة على نواة من ذهب يقال (كانت) قيمتها خمسة دراهم (۱)، وزوج سعيد بن المسيب ابنته من عبد الله بن أبي وداعة (۲) على درهمين ثم حملهما هو إليه ليلاً فأدخلها من الباب ثم انصرف ثم جاءها بعد سبعة أيام فسلم عليها، وقال السلف: من بركة المرأة سرعة تزويجها وسرعة رحمها أي الولادة ويسر مهرها وكها تكره المغالاة في المهر من جهة المرأة فيكره السؤال عن مالها من جهة الرجل، ولا ينبغي أن ينكح طمعاً في المال، وإذا أهدى إليهم فلا ينبغي أن يهدي ليضطرهم إلى المقابلة بأكثر منه _ وكذلك إذا أهدوا إليه، فنية طلب الزيادة نية فاسدة، وداخلة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ مَّنُن تَسْتَكُثِرُ﴾ فنية طلب الزيادة نية فاسدة، وداخلة في قوله تعالى: ﴿وَلاَ مَّنُن تَسْتَكُثِرُ﴾

⁽۱) إن التغالي في المهور محرم وقد أدى إلى مفاسد كثيرة وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «ألا لا تغالوا بصداق النساء!! فإنها لو كانت مكرمة في الدنيا وتقوى عند الله، لكان أولاكم بها نبي الله على، ما علمت رسول الله على نكح شيئاً من نسائه، ولا أنكح شيئاً من بناته على أكثر من اثنتي عشرة أوقية» رواه أحمد والترمذي والنسائي» وهمو حديث صحيح (مم).

ولا صحة لقصة المرأة التي ردت على عمر بآية: ﴿ وَآتِيتُم إحداهِن قَنطاراً ﴾ فهي مردودة سنداً ومتناً والمراد من الآية إذا دفع الزوج لـزوجته مالاً بملء اختياره ثم حاول رده فليس له ذلك إما أن تشترط المرأة ذلك مهراً لها فليس لها ذلك، وهو حرام! للنهي عن التغالي في المهور.

⁽٢) في نسخة «موعظة المؤمنين» أبو هريرة (رضي اللّه تعالى عنه) وقد رجعت إلى أصل «الاحياء» فوجدته كذلك، وهو خطأ غريب!.

(الخامسة) أن تكون المرأة ولوداً: فإن عرفت بالعقر فليمتنع عن تزويجها.

(السادسة) أن تكون بكراً: قال عليه الصلاة والسلام لجابر وقد نكح ثيباً: (هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك)(١).

(السابعة) أن تكون نسيبة: أعني أن تكون من أهل بيت الدين والصلاح فإنها ستربي بناتها وبنيها، فإذا لم تكن مؤدبة لم تحسن التأديب والتربية.

(ويجب) على الولي أيضاً أن يراعي خصال الزوج ولينظر لكريمته، فلا يزوجها بمن ساء خُلُقه أو خَلْقه أو ضعف دينه أو قصر عن القيام بحقها أو كان لم يكافئها في الدين ومهما زوج ابنته ظالماً أو فاسقاً أو مبتدعاً أو شهارب خر، فقد جني على دينه، وتعرض لسخط الله لما قبطع من حق الرحم وسوء الاختيار، قال رجل للحسن: قد خطب ابنتي جماعة فمن أزوجها؟ قال: ممن يتقى الله فإن أحبها أكرمها، وإن أبغضها لم يظلمها.

آداب المعاشرة بعد العقد إلى الفراق والنظر فيها على الزوج والزوجة

(أما الزوج) فعليه مراعاة الاعتدال والأدب في اثني عشر أمراً: في الوليمة، والمعاشرة، والدعابة، والسياسة، والغيرة، والنفقة، والتعليم، والتأديب في النشوز والوقاع، والولادة، والمفارقة بالطلاق.

(الأدب في الوليمة). قال أنس رضي الله عنه: رأى رسول الله على على عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أثر صفرة، فقال ما هذا؟ فقال ازوجت امرأة على وزن نواة من ذهب، فقال بارك الله لك، أو لم ولو

⁽١) من حديث طويل رواه النسائي وسنده صحيح (مم).

بشاة (۱). وأولم رسول اللَّه على صفية بتمر وسويق (۲). وتستحب تهنئته فيقول من دخل على الزوج: بارك اللَّه لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير (۳) ويستحب إظهار النكاح. قال عليه السلام: «فصل ما بين الحلال والحرام الدف والصوت» (٤).

(الأدب الشاني حسن الخلق معهن) واحتمال الأذى منهن، تسرحماً عليهن. قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمُعُرُوفِ﴾ (النساء: ١٩) وقال في تعظيم حقهن: ﴿وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَقاً غَلِيظاً﴾ (النساء: ٢١) وقال: ﴿وَالصَّاحِبِ مِقْهَنِ ﴿ وَأَخَذُنَ مِنكُم مِّيثَقاً غَلِيظاً﴾ (النساء: ٣٦) وقال: ﴿وَالصَّاحِبِ مِآجُنبِ ﴾ (النساء: ٣٦) قيل هي المرأة. وليس حسن الخلق معها كف الأذى عنها بل احتمال الأذى منها، والحلم عند طيشها وغضبها اقتداء برسول الله عنها بل احتمال الأذى منها، والجعنه الكلام، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل (٥)

(الثالث) أن يزيد على احتمال الأذى بالمداعبة والمدح والملاعبة، فهي التي تطيب قلوب النساء. وقد كان رسول الله على يمزح معهن وينزل إلى درجات عقولهن في الأعمال والأحلاق، وأرى عائشة لعب الحبشة بالمسجد واستوقفته طويلاً وهو يقول لها: حسبك(٢)، وقال على : «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهميل»(٧) وقال على الحبابر: «هلا بكراً تلاعبها وتلاعبك»(٨) ووصفت أعرابية زوجها وقد مات فقالت: والله لقد كان ضحوكاً إذا ولج،

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم في حديث طويل.

⁽٣) رواه أبو داود والترمذي وإسناده صحيح .

⁽٤) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه وإسناده حسن (مم) وهذا الحديث يفيد الـوجوب لا الإستحباب ويشترط في الغناء المباح ألا يكون مصحوباً بالمعازف ولا بذكر الفجور. وقـد أبيح الدف في العرس. وفي العيد للجواري الصغيرات في أحاديث صحيحة.

⁽٥ و٦) رواه البخاري ومسلم.

⁽٧) رواه الترمذي والدارمي وإسناده صحيح (مم).

⁽٨) رواه النسائي وسنده صحيح (مم).

سكيتاً إذا خرج، آكلًا ما وجد، غير سائل عما فقد.

(الرابع) أن لا ينبسط في الدعابة وحسن الخلق، والموافقة باتباع هواها إلى حد يفسد خلقها، ويسقط بالكلية هيبته عندها، بل يراعي الاعتدال فيه. فلا يدع الهيبة والانقباض مها رأى منكراً، ولا يفتح باب المساعدة على المنكرات البتة، بل مها رأى ما يخالف الشرع والمروءة تنمر وامتعض، فبالعدل قامت السموات والأرض، فكل ما جاوز حده انعكس على ضده، فينبغي أن يسلك سبيل الاقتصاد في المخالفة والموافقة، ويتبع الحق، في جميع فلك ليسلم من شرهن، فإن الغالب عليهن سوء الخلق، ولا يعتدل ذلك منهن إلا بنوع لطف ممزوج بسياسة. وعليه أن ينظر إلى أخلاقها أولاً بالتجربة، ثم ليعاملها بما يصلحها كما يقتضيه حالها.

(الخامس) الاعتدال في الغيرة: وهو أن لا يتغافل عن مبادىء الأمور التي تخشى غوائلها، ولا يبالغ في إساءة الظن والتعنت وتجسس البواطن، فقد نهى رسول الله عنه أن تتبع عورات النساء (۱)، وفي رواية: أن تبغت النساء، ولما قدم رسول الله عنه من سفره قال قبل دخول المدينة: «لا تطرقوا النساء ليلاً» (۲) وفي الحديث: إن من الغيرة غيرة يبغضها الله عز وجل هي غيرة الرجل على أهله من غير ريبة (۳)، لأن ذلك من سوء الظن الذي نهينا عنه. وأما الغيرة في محلها فلا بد منها وهي محمودة وذلك في الريبة. وكان قد أذن رسول الله عنه للنساء في حضور المسجد سيها في العيدين (٤)، فالخروج مباح رسول الله عنه برضاء زوجها، ولكن القعود أسلم، وينبغي أن لاتخرج إلا

⁽١) قال الحافظ العراقي: حديث نهى رسول الله ﷺ أن ينتبع عورات النساء.. رواه السطبراني في الأوسط، والحديث عند مسلم بلفظ: «نهى رسسول الله ﷺ أن يطرق السرجل أهله. يخونهم ويطلب عثراتهم».

⁽٢) قال الحافظ العراقي: سنده جيد.

⁽٣) جزء من حديث حسن (مج).

⁽٤) رواه البخاري ومسلم.

لمهم، فإن الخروج للنظارات والأمور ليست مهمة تقدح في المروءة وربحاً تفضي إلى الفساد فإذا خرجت فينبغي أن تغض عن الرجال.

(السادس) الاعتدال في النفقة: فلا ينبغي أن يقتر عليهن في الإنفاق ولا ينبغي أن يسرف، بل يقتصد، قال تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَآشُرَبُواْ وَلاَ يَسْرِقُواْ) (الأعراف: ٣١) قال ابن سيرين: يستحب للرجل أن يعمل لأهله في كل جمعة حلاوة. وينبغي أن يأمرها بالتصدق ببقايا الطعام، وما يفسد لو ترك، فهذا أقل درجات الخير، وللمرأة أن تفعل ذلك بحكم الحال من غير تصريح وإذن من الزوج، ولا ينبغي أن يستأثر عن أهله بمأكول طيب فلا يطمعهم منه؛ فإن ذلك مما يوغر الصدور ويبعد عن المعاشرة بالمعروف، ولا ينبغي أن يصف عندهم طعاماً ليس يريد إطعامهم إياه، وإذا أكل فليقعد العيال كلهم على مائدته، وأهم ما يجب عليه مراعاته في الإنفاق أن يطعمها من الحلال ولا يدخل مداخل السوء لأجلها؛ فإن ذلك جناية عليها لا مراعاة لها.

(السابع) أن يتعلم المتزوج من علم الحيض وأحكامه ما يحترز به الاحتراز الواجب، ويعلم زوجته أحكام الصلاة، ويخوفها من الله إن تساهلت في أمر الدين، فإن كان الرجل قائماً بتعليمها فليس لها الخروج لسؤال العلماء، وإن قصر علم الرجل، ولكن نباب عنها في السؤال فأخبرها بجواب المفتي فليس لها الخروج، فإن لم يكن ذلك فلها الخروج للسؤال بل عليها ذلك، ويعصي الرجل بمنعها.

(الثامن) إذا كان له نسوة فينبغي أن يعدل بينهن ولا يميل إلى بعضهن، فإن خرج إلى سفر وأراد اصطحاب واحدة أقرع بينهن (١): فإن علم امرأة بليلتها قضى لها فإن القضاء واجب عليه العدل في العطاء والمبيت، وأما في الحب والوقاع فذلك لا يدخل تحت الاختيار. وكان على يطاف به محمولاً في

⁽١) روى البخاري ومسلم من فعل النبي ﷺ مثل ذلك.

مرضه كل يوم وكل ليلة، فيبيت عند كل واحدة منهن، ومهما وهبت واحدة ليلتها لصاحبتها ثبت الحق لها. قال رسول الله على: «من كان له امرأتان، فمال إلى إحداهما دون الأخرى ـ وفي رواية لم يعدل بينهما، جاء يـوم القيامة وأحد شقيه مائل» رواه أصحاب السنن من حديث أبي هريرة وسنده صحيح (مم).

(التاسع) التأديب في النشوز مها وقع بينها خصام ولم يلتئم أمرهما، فإن كان من جانبها جميعاً أو من الرجل فلا تسلط الزوجة على زوجها، ولا يقدر على إصلاحها، فلا بد من حكمين أحدهما من أهله، والآخر من أهلها لينظرا بينها ويصلحا أمرهما ﴿إن يُرِيدَآ إِصْلَحاً يُوفِقِ آللَّهُ بَيْنَهُما ﴾ وأما إذا كان النشوز من المرأة خاصة ﴿آلرَّجَالُ قَوَاهُونَ عَلَى آلنِسَاءِ ﴾(١) (النساء: ٣٤) فله أن يؤدبها ويحملها على الطاعة قهراً، ولكن ينبغي أن يتدرج في تأديبها وهو أن يقدم أولاً الوعظ والتحذير والتخويف، فإن لم ينجح ولاها ظهره في المضجع، فإن لم ينجح ذلك فيها ضربها ضرباً غيرمبرح، ولا يضرب وجهها فذلك منهى عنه.

(العاشرة في آداب الجماع) ويستحب أن يقدم عليه الحديث والمؤانسة، ثم إذا قضى وطره فليتمهل على أهله حتى تقضي هي أيضاً نهمتها، ولا يأتيها في غير في المحيض حتى تطهر. وله أن يستمتع بجميع بدن الحائض ولا يأتيها في غير المأتى، إذ حرم غشيان الحائض لأجل الأذى، والأذى في غير المأتى دائم فهو أشد تحريماً من إتيان الحائض. وقال تعالى: ﴿فَأَتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَالْبَقَرَةَ: ٣٢٣) أي في أي وقت شئتم (٢). وله أن يؤاكل الحائض ويخالطها في المضاجعة وغيرها. ومن الآداب أن لا يعزل فها من نسمة قدر اللَّه كونها إلا

⁽١) ليس معنى الآبة عدم التحكيم إذا شذت المرأة، على أن يسبق ذلك طبعاً الوعظ والهجر والضرب غير المبرح بصورة تدريجيةً.

 ⁽۲) هذا التفسير غريب، والمعنى الصحيح: كيف شئتم من إقبال وإدبار وغير ذلك، على أن يكون ذلك في موضع الولد، وعلى من أراد التوسع فليرجع إلى تفسيرها وأسباب نزولها.

وهي كائنة، فإن عزل فمن العلماء من أباحه، ومنهم من أجله برضاها وحرمه بدون رضاها لئلا يؤذيها، والصحيح الأول. وفي الصحيحين عن جابر رضي الله عنه: كنا نعزل فبلغ نبي الله على فلم ينهنا(١). وقد يبعث على العزل استبقاء جمال المرأة وسمنتها لدوام التمتع واستبقاء حياتها خوفاً من خطر الطلق.

(الحادي عشر في آداب الولادة): وهي خمسة:

(الأولى) أن لا يكثر فرحه بالذكر وحزنه بالأنثى، فإنه لا يدري الخير له في أيها. فكم من صاحب ابن يتمنى أن لا يكون له أو يتمنى أن تكون بنتاً، بل الثواب فيهن أكثر. قال أنس قال رسول الله ﷺ: «من كانت له ابنتان أو أختان فأحسن إليها ما صحبتاه كنت أنا وهو في الجنة كهاتين»(٢).

(الثاني) أن يؤذن في أذن المولود حين ولادته.

الأول: أن فيه إدخال ضرر على المرأة لما فيه من تفويت لذتها ..

الثاني: أنه يفوت بعض مقاصد النكاح وهو تكثير نسل أمة نبينا ، وذلك قوله ؛ «تروجوا الودود الولود، فأتى مكاثر بكم الأمم (رواه أبو داود والنسائي والحاكم وصححه ووافقه الذهبي وهو كها قالا) لذلك وصفه بن بالواد الخفي حين سألوه عن العزل في حديث رواه مسلم وغيره، ولهذا أشار بن إلى أن الأولى تركه في حديث أبي سعيد الخدري فقال: ذكر العزل عند رسول الله بن فقال: «ولم يفعل ذلك أحدكم؟ الحديث رواه مسلم وغيره (عن رسالة آداب الزفاف للعلامة الألباني) باختصار قليل.

ومن أهم أضرار العزل موافقة المستعمرين إلى ما يدعون إليه من تشجيع وحض المسلمين على تقليل نسلهم بما يصورونه لهم ـ وهم كاذبون ـ من خطر المجاعات وهم سببها وصانعوها على الغالب.

(٢) رواه الحميدي والترمذي وأبو داود والبخاري في الأدب المفرد، وابن حبان في صحيحه بلفظ: لا يكون لأحد ثـلاث بنات (أو ثـلاث إخوات) أو بنتان أو إختان فيتقي الله فيهن، ويحسن إليهن إلا دخـل الجنة، ورواه مسلم بلفظ: «من عـال جاريتـين حق تبلغاً، جـاء يـوم القيامة أنا وهو هكذا، وضم اصبعيه.

⁽١) رواه البخاري ومسلم واللفظ له والنسائي والترمـذي وصححه والبغـوي. ومهما كـان من أمر العزل فتركه أولى لأمور:

(الثالث) أن يسميه اسماً حسناً. وقد قال ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله: عبد الله وعبد السرحمن»(١) وقال: «سموا باسمي ولا تكنوا بكنيتي)(٢) ومن كان له اسم مكروه يستحب تبديله.

(الرابع) العقيقة عن الذكر بشاتين، وعن الأنثى بشاة وأن يتصدق بوزن شعره ذهباً أو فضة (٣).

(الخامس) أن يحنكه بتمرة أو حلاوة _ ورد ذلك من فعله ﷺ.

(الثاني عشر في الطلاق) يكون مباحاً إذا لم يكن فيه إبذاء بالباطل. ومهما طلقها فقد آذاها ولا يباح إيذاء الغير إلا بجناية من جانبها أو بضرورة من جانبه. قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً﴾ (النساء: ٣٤) أي لا تطلبوا حيلة للفراق. وإن كان كرهها أبوه لا لسبب شرعي فليطلقها براً به. ومهما آذت زوجها وبدت على أهله فهي جانية. وكذلك مهما كانت سيئة الخلق أو فاسدة الدين، وإن كرهته دون ذنب منه فلها أن تفتدي ببذل مال. ويكره للرجل أن يأخذ منها أكثر مما أعطى؛ فإن ذلك إجحاف بها وتحامل عليها وتجارة على البضع. قال تعالى: ﴿فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيهَا افْتَدَتُ بِهِ ﴿ (البقرة: ٢٢٩) فرد ما أخذته فها دونه لائق بالفداء. فإن سألت الطلاق بغير ما بأس فهي آثمة (٤). ثم ليراع للزوج في الطلاق أربعة أمور:

(الأول) أن يطلقها في طهر لم يجامعها فيه، فإن الطلاق في الحيض أو الطهر الذي جامع فيه بدعي حرام، وإن كان واقعاً لما فيه من تطويل العدة عليها، فإن فعل ذلك فليراجعها حتى تطهر، ثم تحيض ثم تطهر، ثم إن شاء طلقها وإن شاء أمسكها.

⁽١) رواه مسلم.

⁽۲ و ۳) رواه البخاري ومسلم.

⁽٤) وقد صح في هذا حديث بلفظ: «أيما امرأة سألت زوجها طلاقاً من غير ما بأس، فحرام عليها رائحة الجنة» رواه أحمد والترمذي وأبو داود وابن ماجه والدارمي وسنده صحيح (مم): .

(الشاني) أن يقصر على طلقة واحدة لأنها تفيد المقصود ويستفيد بها الرجعة إن ندم في العدة: وإذا طلق ثـلاثاً ربما ندم فيحتـاج إلى أن يتزوجها علل(١)، وإلى الصبر مدة، وعقد المحلل منهي عنه ويكون هو الساعي فيه.

(الثالث) أن يتلطف في التعلل بتطليقها من غير تعنيف واستخفاف، وتطييب قلبها بهدية على سبيل الإمتاع والجبر لما فجعها به من أذى الفراق، قال تعالى: ﴿ومتعوهن﴾ وجه الحسن بن علي رضي الله عنها بعض أصحابه لطلاق امرأتين من نسائه وقال لهما اعتدا. وأمره أن يدفع إلى كل واحدة عشرة آلاف درهم.

(الرابع) أن لا يفشي سرها لا في الطلاق ولا عند النكاح، فقد ورد في إفشاء سر النساء وعيد عظيم (٢).

حقوق الزوج على الزوجة

على الزوجة طاعة الزوج في كل ما طلب منها مما لا معصية فيه، وقد ورد في تعظيم حق الزوج عليها أخبار كثيرة، قال على: «أيما امرأة ماتت وزوجها عنها راض دخلت الجنة»(٣) وقال على: «إذا صلت المرأة خسها وصامت شهرها وحفظت فرجها وأطاعت زوجها دخلت جنة ربها»(٤) قال ابن عباس: أتت امرأة من خثعم إلى رسول الله على قال: «إن من حق الزوج على الزوجة إذا أرادها فراودها عن نفسها وهي على ظهر بعير لا تمنعه»(٥)

⁽١) نعوذ بالله من القول بجواز التحليل، وقد جاء في الحديث «لعن الله المحلل والمحلل له» رواه الدارمي وسنده صحيح (مم) والطلاق الثلاث دفعة واحدة يقع طلاقاً واحداً كما صح عن النبي في حديث رواه مسلم، وقد أخذت به أغلب المحاكم الشرعية، فالحذر الحذر!

⁽٢) حديث طويل رواه الإِمام أحمد وله شواهد يقوي بها إلى درجة الحسن (مم).

⁽٣) رواه الترمذي وسنده حسن (مم).

⁽٤) رواه أبو نعيم في «الحلية» وله وشاهد يرقى بها إلى الحسن والصحة.

⁽٥) رواه البخاري ومسلم بنحوه ومعناه.

ومن حقه أن لا تعطي شيئاً من بيته إلا ببإذنه، فإن فعلت ذلك كان الوزر عليها والأجر له، ومن حقه أن لا تصوم تطوعاً إلا بإذنه، فإن فعلت ذلك جاعت وعطشت ولم يتقبل منها، وإن خرجت من بيتها بغير إذنه لعنتها الملائكة حتى ترجع إلى بيته أو تتوب.

فحقوق الزوج على زوجته كثيرة وأهمها أمران: أحدهما الصيانة والستر، والآخر: ترك المطالبة بما وراء الحاجة والتعفف عن كسبه إذا كان حراماً، ومن حقها على الوالدين تعليمها حسن المعاشرة وآداب العشرة مع الزوج، كما روي أن أسهاء بنت خارجة الفزاري قالت لابنتها عند التزوج: «إنك خرجت من العش الذي فيه درجت، فصرت إلى فراش لا تعرفينه وقرين لا تألفينه. فكوني له أرضاً يكن لك سهاء، وكوني له مهاداً يكن لك عماداً، وكوني له أمة يكن لك عبداً. لا تلحفي به فيقلاك. ولا تباعدي عنه فينساك. إن دنا منك فاقربي منه. وإن نأى فابعدي عنه. واحفظي أنفه وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلا طيباً، ولا يسمع إلا حسناً، ولا ينظر إلا

⁽٤) لما كانت هذه الوصية قيمة ومفيدة ذكرناها بكاملها من مصادر مختلفة يا بنيتي!

إن الوصية لو تركت لفضل أدب، تركت لذلك منك، ولكنها تذكرة للعاقل، ولـو أن امرأة استغنت عن الـزوج لغنى أبويهـا وشدة حـاجتهما إليهـا، كنت أغنى الناس عن الـزوج. ولكن النساء للرجال خلقن، ولهن خلق الرجال.

يا بنيتي!

إنك خرجت من العش الذي فيه عشت إلى فراش لا تعرفينه ، وقرين لا تتألفينه، فكوني له أرضاً، يكن لك له أرضاً، يكن لك عماداً، وكوني له أمة (جارية) يكن لك عبداً، لا تلحفي عليه فيقلاك (يكرهك) ولا تتباعدي عنه فينساك إن دنا منك فاقتربي منه، وإن نأى فابعدي عنه!

إحملي عنى عشر خصال، تكن لك ذخراً وذكراً:

⁽١) الصحبة بالقناعة. (٢) والمعاشرة بحسن الطاعة. (٣) والحفظ لموضع أنف وسمعه وعينه، فلا يشمن منك إلا طيباً، ولا يسمعن إلا حسناً، ولا ينظر إلا جميلًا. (٤) والتفهم لوقت طعامه (٥) والهدوء عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مبغضة. (٧)

فالقول الجامع في آداب المرأة من غير تبطويل أن تكون قاعدة في قعر بيتها، لازمة لمغزلها، لا يكثر صعودها واطلاعها، قليلة الكلام لجيرانها لا تدخل عليهم إلا في حال يوجب المدخول. تحفظ بعلها في غيبته وحضرته وتطلب مسرته في جميع أمورها، ولا تخونه في نفسها وماله، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، فإن خرجت بإذنه فمختفية في هيئة رثة تطلب المواضع الخالية دون الشوارع والأسواق، محترزة من أن يسمع غريب صوتها أو يعرفها بشخصها، لا تتعرف إلى صديق بعلها في حاجاتها، بل تتنكر على من تظن أنه بعرفها أو

- والرعاية على عياله وحشمه، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والرعاية على العيال والحشمة حسن التدبير. (٨) ولا تفشي له سراً ولا تعصي له أمراً، فإن أفشيت سره لم تأمني غدره، وإن عصيت أمره أوغرت صدره (أغضبته). (٩) ثم اتقي مع ذلك الفرح أمامه إن كان ترحاً (حزيناً)(١) والحزن عنده إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التدبير. (١٠) وكوني أشد ما تكونين له موافقة، يكن لك أطول ما يكون مرافقة.

واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحيين، حتى تؤثري (تفضلي) رضاه على رضاك، فيها أحببت أو كرهت.

(على أن يكون ذلك فيها يرضي الله سبحانه. فإنه الا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كها قال النبي ﷺ).

واللَّه يختار لك الخير، وهو الموفق، وعليه الاتكال.

وقد ذكر مصنف «الاحياء» وصية رجل لزوجته:

خذي العفو من تستديمي مبودي

ولا تسنطقي في سوري حين أغضب

ولا تستقريني نقرك الدف مسرة

فإنك لا تدرين كيف المغيب

ولا تكشري الشكوى فتذهب بالهوى

وياباك قلبي والقلوب تعلب

فإني رأيت الحب في القلب والأذى

إن اجتمعالم يلبث الحب يذهب

(ومن آدابها) أن تقوم بكل خدمة في الدار تقدر عليها كما كان عليه نساء الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

تعرفه. همها صلاح شأنها وتدبير بيتها. مقبلة على صلاتها وصيامها، وإذا استأذن صديق لبعلها على الباب، وليس البعل حاضراً لم تستفهم ولم تعاوده في الكلام غيرة على نفسها وبعلها، وتكون قانعة من زوجها بما رزق الله، وتقدم حقه على حق نفسها وحق سائر أقاربها، متنظفة في نفسها مستعدة في الأحوال كلها للتمتع بها إن شاء، مشفقة على أولادها، حافظة للستر عليهم. قصيرة اللسان عن سب الأولاد ومراجعة الأزواج.

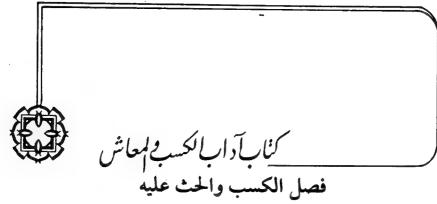
(ومن آدابها) أن لا تتفاجر على الزواج بجمالها ولا تـزدري زوجهـا لقبحه.

(ومن آدابها) ملازمة الصلاح والانقباض في غيبة زوجها، والرجوع إلى اللعب والانبساط وأسباب اللذة في حضور زوجها.

(ومما يجب عليها) من حقوق النكاح إذا مات عنها زوجها أن لا تحد عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر، وتتجنب الطيب والزينة في هذه المدة. وقال عليه أكثر من أربعة أشهر وعشر الله واليوم الآخر أن تحد على ميت أكثر من ثلاثة أيام إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً (١) ويلزمها لزوم مسكن النكاح إلى آخر العدة، وليس لها الانتقال إلى أهلها ولا الخروج إلا للضرورة.

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

		•	
•			
			′,
·			



أما من الكتاب فقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا آلنَّهَارَ مَعَاشَا ﴾ (النبأ: ١١) فذكره في معرض الامتنان، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا. مًا تَشْكُرُونَ ﴾ (الأعراف: ١١) فجعلها ربك نعمة وطلب الشكر عليها، وقال تعالى: ﴿فَاتَتَشِرُوا فِي آلْأَرْضِ وَآبْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾ (الجمعة: ١٠).

وأما الأخبار فمنها قوله ﷺ: «لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه»(١) وكان ﷺ جالساً مع أصحابه ذات يوم؛ فنظروا إلى شاب ذي جلد وقوة، وقد بكر يسعى، فقالوا: ويح هذا، لو كان شبابه وجلده في سبيل الله تعالى، فقال ﷺ: «لا تقولوا هذا! فإنه إن كان خرج يسعى على ولده صغاراً، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها، فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة، فهو في سبيل الشيطان»(٢) وقيل يارسول الله أي الكسب أطيب؟ قال: «عمل الرجل بيده وكل بيع مبرور»(٣).

(ومن الآثار): قال عمر رضي اللَّه عنه: لا يقعَد أحدكم عن طلب

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه الطبراني، وسنده صحيح (مت).

⁽٣) رواه الطبراني وسنده صحيح (مم).

الرزق، ويقول اللهم ارزقني، فقد علمتم أن السهاء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته، وقيل لأحمد بن حنبل رضي الله عنه: ما تقول فيمن جلس في بيته أو مسجده، وقال لا أعمل شيئاً حتى يأتيني رزقي، فقال أحمد: هذا رجل جهل العلم، أما سمع قول النبي على: «إن الله جعل رزقي تحت ظل رمحي»(١) وقوله عليه السلام حين ذكر الطير: فقال: «تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(١) فذكر أنها تغدو في طلب الرزق، وكان أصحاب رسول الله علية يتجرون في البر والبحر، ويعملون في نخيلهم، والقدوة بهم.

(ومن الآثار) قال لقمان الحكيم لابنه: يابني استعن بالكسب الحلال على الفقر، فإنه ما افتقر أحمد قط إلا أصابه ثلاث خصال: رقة في دينه، وضعف في عقله، وذهاب مروءته، وأعظم من هذه: استخفاف الناس به.

وكان زيد بن سلمة يغرس في أرضه، فقال عمر: أصبت! استغن عن الناس يكن أصون لدينك، وأكرم لك عليهم كها قال صاحبكم أحيحة:

فلن أزال على الزوراء أغمرها إن الكريم على الاخوان ذو مال وقال ابن مسعود (ر): إني لأكره أن أرى الرجل فارغاً لا في أمر دنياه ولا في أمر آخرته. وجاءت ريح عاصفة في البحر، فقال أهل السفينة لأحد الصالحين، وكان معهم: أما ترى هذه الشدة؟! فقال: ما هذه الشدة، إنما الشدة الحاجة إلى الناس.

وقال أبو سليمان الداراني: ليس العبادة عندنا أن تصف قدميك في الصلاة وغيرك يتعب لك. ولكن أبداً برغيفيك فأحرزهما ثم تعبد.

ومن ليس له مال موروث فلا ينجيه من ذلك إلا الكسب والتجارة، نعم ترك الكسب أفضل لعالم مشتغل بالتربية والعلم مما ينتفع الناس بـه في

⁽١) صحح العسقلاني إسناده.

⁽٢) رواه الترمذي وقال حديث حسن صحيح .

دينهم، كالمفتي، (أي الفقيه) والمفسر والمحدث وأمثالهم، أو رجل مشتغل بمصالح المسلمين كالسلطان والقاضي والشاهد، فهؤلاء إذا كانوا يُكفون من الأموال المرصدة للمصالح أو الأوقاف المسبلة على الفقراء، أو العلماء فإقبالهم على ما هم فيه، أفضل من اشتغالهم بالكسب، ولهذا أشار الصحابة على أي بكر رضي الله عنهم بترك التجارة لما ولي الخلافة، إذ كان ذلك يشغله عن المصالح، وكان يأخذ كفايته من مال المصالح، ورأى ذلك أولى، ثم لما تموفي أوصي برده إلى بيت المال.

بيان العدل واجتناب الظلم في المعاملة

أعلم أن المعاملة قد تجري على وجه يشتمل على ظلم يتعرض به المعامل لسخط الله تعالى، وهذا الظلم يعني به، ما استضر به الغير، وهو منقسم إلى ما يخص المعامل.

القسم الأول فيها يعم ضرره ـ وهو أنواع

(الأول الاحتكار) فاذخار بائع الطعام له ينتظر به غلاء الأسعار، هو ظلم عام، صاحبه مذموم في الشرع ـ وذلك في وقت قلة الأطعمة، وحاجة الناس إليه، حتى يكون في تأخير بيعه ضرر ما ـ أما إذا اتسعت الأطعمة، وكثرت واستغنى الناس عنها، ولم يرغبوا فيها إلا بقيمة قليلة، فانتظر صاحب الطعام ذلك، ولم ينتظر قحطاً فليس في هذا إضرار ـ وأما إذا كان الزمان زمان قحط، كان في ادخاره إضرار، فلا ريب في تحريمه.

ومع عدم الضرار، لا يخلو احتكار الأقوات عن كراهية، فإنه ينتظر مبادىء الضرار وهو ارتفاع الأسعار، وانتظار مبادىء الضرار أيضاً محذور، كانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار كانتظار عين الضرار أيضاً هو دون الإضرار فبقدر درجات الإضرار، تتفاوت درجات الكراهية والتحريم. ودليل تحريم الاحتكار قوله ﷺ: لا يحتكر إلا خاطىء(١).

⁽١) رواه أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجـة، ومعنى خاطىء أي آثم، ومنـه قولـه تعالى:

(الشاني) ترويج الزيف من الدراهم في اثناء النقد، فهو ظلم، إذ يستضر به المعامل إن لم يعرف، وإن عرف فسير وجه على غيره، فيتردد في الأيدي ويعم الضرر، ويتسع الفساد، ويكون وزر الكل ووباله راجعاً إليه، الأنه هو الذي فتح هذا الباب، قال بعضهم: إنفاق درهم زيف أشد من سرقة مئة درهم، لأن السرقة معصية واحدة، وقد تمت وانقطعت، ومعصية إنفاق الزيف قد يكون عليه وزرها بعد موته، إلى مئة سنة أو مئتي سنة، إلى أن يفنى ذلك الدرهم، ويكون عليه ما فسد من نقص أموال الناس وطوب لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه، والويل الطويل لمن يموت وتبقى ذنوبه مئة سنة أو أكثر، يعذب بها في قبره ويُسأل عنها إلى آخر انقراضها، قال تعالى: ﴿وَنَكُتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثُرَهُمْ ﴿ ريس: ١٢) أي نكتب أيضاً ما أخروه من آثار أعمالهم كما نكتب ما قدموه وقوله تعالى: ﴿ يُنَبُّؤُا ٱلْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَاقَدَّمَ وَأَخَرَ ﴾ (القيامة: ١٣) وإنما أخر آثار أعماله من سنة سيئة عمل بها غيره.

وفي الزيف أمور: منها أنه إذا رد عليه شيء منه فينبغي أن يطرحه في بئر بحيث لا تمتذ إليه اليد، وإياه أن يروجه في بيع آخر. فإن أفسده بحيث لا يمكن التعامل به جاز، ومنها أنه يجب على التاجر تعلم النقد، لئلا يسلم إلى أحد زيفاً وهو لا يدري، فيكون آثماً بتقصيره في تعلم ذلك العلم، فلكل عمل علم به يتم نصح المسلمين فيجب تحصيله، ومنها أنه إن كان في ماله قطعة نقرتها ناقصة عن نقد البلد فعليه أن يخبر بها معاملة، وأن لا يعامل بها لا من لا يستحل الترويج في جملة النقد بطريق التلبيس، فأما من يستحل ذلك، فتسليمه إليه تسليط له على الفساد، فهو كبيع العنب ممن يعلم أنه يتخذه خراً، وذلك محظور وإعانة على الشر ومشاركة فيه وسلوك طريق الحق بمثال هذا في التجارة أشد، من المواظبة على نوافل العبادات والتخلي لها.

^{= ﴿}إِن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴾ (الإسراء: ٣١).

القسم الثاني ما يخص ضرره المعامل

فكل ما يستضر به المعامل فهو ظلم، وإنما العدل بأن لا يضر بأخيه المسلم، والضابط الكلي فيه أن لا يحب لأخيه إلا ما يحب لنفسه، فكل ما عومل به وشق عليه وثقل على قلبه، فينبغي أن لا يعامل غيره به، بل ينبغي أن يستوي عنده درهمه ودرهم غيره. هذه جملته، وأما تفصيله ففي أربعة أمور:

(الأول) أن لا يثني على السلعة بما ليس فيها، لأنه كذب، فإن قبل المشتري ذلك فهو تلبيس وظلم، وإن لم يقبل فهو كذب وإسقاط مروءة، وأما الثناء على السلعة، بذكر القدر الموجود فيها من غير مبالغة وإطناب، فلا بأس به، ولا ينبغي أن يحلف عليها البتة، فإنه إن كان كاذباً فقد جاء باليمين الغموس وهي من الكبائر، وفي الخبر: «ويل للتاجر من بلى والله ولا والله، وويل للصانع من غد وبعد غد» وفي الخبر «اليمين الكاذبة منفقة للسلعة عجمقة للبركة(۱).

(الشاني) أن يظهر جميع عيوب المبيع خفيها وجليها، ولا يكتم منها شيئاً، فذلك واجب، فإن أخفاه كان ظالماً غاشاً والغش حرام، كان تاركاً للنصح في المعاملة والنصح واجب، ومها أظهر أحسن وجهي الثوب، وأخفى الثاني كان غاشاً، وكذلك إذا عرض الثياب في المواضع المظلمة، أو إذا عرض أحسن فردي الخف أو النعل وأمثاله، ويدل على تحريم الغش ما ورد أنه عليه السلام مر برجل يبيع طعاماً فأعجبه، فأدخل يده فرأى بللا، فقال ما هذا؟ قال أصابته السماء، فقال: «فهلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس؟ من غشنا فليس منا»(٢) ويدل على وجوب النصح بإظهار العيوب ما ورد أن النبي على الما بايع جريراً على الإسلام ذهب لينصرف فجذب ثوبه ورد أن النبي

⁽١) هو حديث صحيح رواه البخاري ومسلم بعكس الخبر السابق.

⁽٢) رواه مسلم.

واشترط عليه النصح لكل مسلم (١) فكان جرير إذا قام إلى السلعة يبيعها بصر عيوبها، ثم خير، وقال: إن شئت فخذ، وإن شئت فاترك، فقيل له: إنك إذا فعلت مثل هذا لم ينفذ لك بيع، فقال: إنا بايعنا رسول الله على على النصح لكل مسلم (٢). وكان واثلة بن الأسقع واقفاً، فباع رجل ناقة له بثلاثمائة درهم، فغفل واثلة، وقد ذهب الرجل بالناقة فسعى وراءه وجعل يصبح به: ياهذا اشتريتها للحم أو للظهر؟ فقال: بل للظهر، فقال: إن بحنها نقباً قد رأيته، وإنها لا تتابع السير، فعاد فردها فنقصها البائع مئة درهم، وقال لواثلة رحمك الله أفسدت علي بيعي، فقال: إنا بايعنا رسول الله على على النصح لكل مسلم، وقال: سمعت رسول الله على يقول: «لا يحل لأحد يبيع بيعاً إلا أن يبين آفته، ولا يحل لمن يعلم ذلك إلا تبيينه» (٣) فقد فهموا من النصح: أن لا يرضى لأخيه إلا ما يرضى لنفسه، ولم يعتقدوا أن ذلك من الفضائل، وزيادة المقامات فحسب بل اعتقدوا أنه من شروط الإسلام الداخلة في بيعتهم، وهذا الأمر، وإن كان يشق على النفس، إلا أنه يتيسر على العبد باعتقاد أمرين:

(أحدهما) أن تلبيسه العيوب وترويجه السلع لا يزيد في رزقه بل يمحقه ويذهب ببركته، وقد يهلك الله ما يجمعه من التلبيسات دفعة واحدة، فقد حكي أن واحداً كان له بقرة يحلبها ويخلط بلبنها الماء ويبيع، فجاء سيل فغرق البفرة، فقال بعض أولاده: إن تلك المياه المتفرقة التي صببناها في اللبن اجتمعت دفعة واحدة وأخذت البقرة!! كيف وقد قال على: «البيعان إذا صدقا ونصحا بورك لهما في بيعهما، وإذا كتما وكذبا نُزعت بركة بيعهما» (قف الحديث: «يد الله على الشريكين ما لم يتخاونا، فإذا تخاونا رفع يده عنهما» (٥)

⁽١١و٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣)ارواه البيهقي والحاكم وقال صحيح الإسناد ذكره الحافظ العراقي .

⁽٤) رواه البخاري ومسلم.

⁽٥) رواه أبو داود والحاكم وقال: صحيح الإسناد.

فإذاً لا يزيد مال من خيانة، كما لا ينقص من صدقة.

(والمعنى الثاني) الذي لا بد من اعتقاده ليتم له النصح، ويتيسر عليه، أن يعلم أن ربح الآخرة وغناها حير من الدنيا التي تنقضي بانقضاء العمر، وتبقى مظالمها وأوزارها، فكيف يستجيز العاقل أن يستبدل الذي هو أدنى بالذي هو خير، والخير كله في سلامة الدين.

ومن علم أن هذه الأمور قادحة في إيمانه الذي هو رأس ماله في تجارته في الآخرة، لم يضيع رأس ماله المعد لعمر لا آخر له، بسبب ربح ينتفع بـه أياماً معدودة، وعن بعض التابعين أنه قال: لو دخلت الجامع وهو غاص بأهله، وقيل لي من خير هؤلاء ومن شرهم؟ لقلت: خيرهم أنصحهم وشرهم أغشهم، والغش حرام في البيوع والصنائع جميعاً، ولا ينبغي أن يتهاون الصانع بعمله على وجه لـو عامله بـه غيره، لما ارتضاه لنفسـه، بل ينبغي أن يحسن الصنعة ويحكمها، ثم يبين عيبها، إن كان فيها عيب، فبلذك يتخلص. وسأل رجل حداء بن سالم، فقال: كيف لي أن أسلم في بيع النعال؟ فقال: اجعل الوجهين سواء، ولا تفضل اليمني على الأخرى، وجوِّد الحشو، وليكن شيئاً واحداً تاماً، وقارب بين الخرز، ولا تطبق أحد النعلين على الآخر، ومن ذلك ما سُئل عنه أحمد بن حنبل رحمه اللَّه من الرفو بحيث لا يتبين، فقال: لا يجوز لمن يبيعه أن يخفيه، وإنما يحل للرفاء إذا علم أنه يظهره أو أنه لا يريده للبيع، فإن قلت: فلا تتم المعاملة مهما وجب على الإنسان أن يذكر عيوب المبيع، فأقول: ليس كذلك إذ شرط التاجر أن لا يشتري للبيع إلا الجيد الذي يرتضيه لنفسه، لـو أمسكـه، ولا يحتـاج إلى تلبيس، فمن تعود هذا لم يشتر المعيب، فإن وقع في يده معيب نادراً فليذكره وليقنع بقيمته، باع ابن سيرين شاة فقال للمشتري: أبرأ إليك من عيب فيها إنها تقلب العلف برجلها، فهكذا كانت سيرة أهل الدين.

(الثالث) أن لا يكتم في المعيار، وذلك بتعديل الميزان والاحيتاط فيه،

وفي الكيل، فينبغي أن يكيل كما يكتال، قال اللَّه تعالى: ﴿وَيْلُ لِلْمُطَفِّفِينَ * آلَّذِينَ إِذَا آكْتَالُواْ عَلَى آلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أُو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أُو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أُو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * وَالمَطْفَفِينَ: ١-٣) ولا يخلص من هذا إلا بأن يبرجح إذا أعظى وينقص إذا أخذ، إذ العدل الحقيقي فلما يتصور، فليستظهر بظهور الزيادة والنقصان، فإن من استقصى حقه بكماله يوشك أن يتعداه، وكان بعضهم يقول: لا أشتري الويل من اللَّه بحبة، فكان إذا أخذ نقص نصف حبة، وإذا أعطى زاد حبة، وكان يقول: ويل لمن باغ بحبة جنة عرضها السموات والأرض، وما أخسر من باغ طوبي بويل.

وإنما بالغوا في الاحتراز من هذا وشبهه لأنها مظالم يصعب التوبة منها، إذ لا يعرف أصحاب الحبات حتى يجمعهم ويؤدي حقوقهم، ولذلك لما اشترى رسول الله على شيئاً، قال للوزان لما كان ينزن ثمنه: زن وارجح (۱) ونظر الفضيل إلى ابنه، وهو يغسل ديناراً يريد أن يصرفه، وينزيل تكحيله، وينقيه حتى لا يزيد وزنه بسبب ذلك فقال يابني: هذا أفضل من حجتين وعشرين عمرة!

وقال بعض السلف: عجبت للتاجر والبائع كيف ينجو؟ يـزن ويحلف بالنهار وينام بالليل وقال سليمان عليه السلام لابنه: يـا بُني كها تـدخل الحبة بين الحجرين، كذلك تدخل الخطيئة بين المتبايعين. وصلى أحد الصالحين على غنث فقيل له: إنه كان فاسقاً. فسكت، فأعيد عليه. فقال: كأنك قلت لي: كان صاحب ميزانين، يعطي بأحـدهما، ويأخذ بالآخر أشار به إلى أن فسقه مظلمة بينه وبين الله تعالى، وهذا من مظالم العباد، والمسامحة والعفو فيه أبعد. والتشديد في أمر الميزان عظيم والخلاص منه يحصل بحبة ونصف حبة. وبالجملة كل من ينصف لنفسه من غيره، ولو في كلمة، ولا ينصف بمثل ما ينتصف فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ آلَّذِينَ إِذَا آكْتَالُواْ عَلَى ينتصف فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ آلَّذِينَ إِذَا آكْتَالُواْ عَلَى

⁽١) رواه أصحاب السنن والحاكم وصححه هو والترمذي.

آلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ، وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ (المطففين: ١ ـ ٣).

فنسأل اللَّه تعالى أن يبقربنا من الاستقامة والعدل، فإن المرور على متن الصراط المستقيم من غير ميل عنه، غير مطموع فيه، فإنه أدق من الشعرة. وكل من خلط بالطعام تراباً أو غيره ثم كاله فهو من المطففين في الكيل، وكل قصاب وزن مع اللحم عظماً، لم تجر العادة بمثله، فهو من المظففين في الوزن، وقس على هذا سائر التقديرات، حتى في الذرع (أي القياس) الذي يتعاطاه البزاز، فإنه إذا اشترى أرسل الثوب في وقت الذرع ولم يمده مداً، وإذا باعه مده في الذرع، ليظهر تفاوتاً في القدر، فكل ذلك من التطفيف المعرض صاحبه للويل.

(الرابع) أن يصدق في سعر الوقت ولا يخفي منه شيئاً، فقد نهى رسول الله عن تلقي الركبان ونهى عن النجش أما تلقي الركبان فهو أن يستقبل الرفقة ويتلقى المتاع ويكذب في سعر البلد، فقد قال عن السوق. (ونهى الركبان»(۱) ومن تلقاها فصاحب السلعة بالخيار بعد أن يقدم السوق. (ونهى أيضاً) أن يبيع حاضر لباد(۲) وهو أن يقدم البدوي البلد ومعه قوت يريد أن يتسارع إلى بيعه فيقول له الحضري: أتركه عندي حتى أغالي في ثمنه وأنتظر ارتفاع سعره (ونهى أيضاً) عن النجش(۳) وهو أن يتقدم إلى البائع بين يدي الراغب المشتري ويطلب السلعة بزيادة وهو لا يريدها، وإنما يريد تحريك رغبة المشتري فيها.

فهذه المناهي تدل على أنه لا يجوز أن يلبس على البائع والمشتري في سعر الوقت، ويكتم منه أمراً لو علمه لما أقدم على العقد، ففعل هذا من الغش الحرام المضاد للنصح الواجب، ومن ذلك أنه ليس له أن يغتنم فرصة وينتهز غفلة صاحب المتاع ويخفي عن البائع غلاء السعر أو عن المشتري تراجع الأسعار، فإن فعل ذلك كان ظالماً تاركاً للعدل والنصح للمسلمين،

⁽١ و ٢ و ٣) رواه البخاري ومسلم.

ومهم باع مرابحة بأن يقول بعت. بما قام علي أو بما اشترتيه، فعليه أن يصدق، ثم يجب عليه أن يخبر بما حدث بعد العقد من عيب أو نقصان.

الإحسان في المعاملة

قد أمر الله تعالى بالعدل والإحسان جميعاً، والعدل سبب النجاة. وهو يجري من التجارة مجرى سلامة رأس المال، والإحسان سبب الفوز ونيل السعادة، وهو يجري من التجارة مجرى الربح، ولا يعد من العقلاء من قنع في معاملات الدنيا برأس ماله، فكذا في معاملات الآخرة، ولا ينبغي للمتدين أن يقتصر على العدل واجتناب الظلم ويدع أبواب الإحسان، وقد قال الله تعالى: ﴿وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ آللّهُ إِلَيْكَ ﴾ (القصص: ٧٧) وفال عز وجل: ﴿إِنَّ آللّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَنِ ﴾ (النحل: ٩٠) وقال سبحانه: ﴿إِنَّ رَحْتَ آللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦) وينال المعامل رتبة الإحسان بواحد من ستة أمور:

(الأولى) في المغابنة، فينبغي أن لا يغبن صاحبه بما لا يتغابن به في العادة. فأما أصل المغابنة فمأذون فيه، لأن البيع للربح، ولا يمكن ذلك إلا بغبن ما، ولكن يراعي فيه التقريب، ومن قنع بربح قليل كثرت معاملاته، واستفاد من تكررها ربحاً كثيراً، وبه تظهر البركة.

(ومن الآثار) يحكى أنه كان عند يونس بن عبيد حلل غتلفة الأثمان، ضرب قيمة كل حلة منها بأربعمئة، وضرب كل حلة قيمتها مئتان، فذهب إلى العسلاة، وخلف ابن أخيه في (الدكسان) فجاء أعرابي وطلب حلة بأربعمئة، فعرض عليه من حلل المئتين، فاستحسنها ورضيها، فاشتراها، فمشى بها، وهي على يديه، فعسادفه يونس، فعرفه حلته. فقال للأعرابي: بكم اشتريت؟ فقال: بأربعمئة فقال: لا تساوي أكثر من مئتين، فارجع حتى تردها. فقال: هذه تساوي في بلدنا خسمئة؛ وأنا أرتضيها. فقال له يونس: انصرف، فإن النصح في الدين خير من الدنيا وما فيها.

ثم رده إلى (الدكان) وردَّ عليه مئتي درهم، وخاصم ابن أخيئه في ذلك وقاله، وقال: أما استحيت، أما اتقيت اللَّه، تربح مثل الثمن؟! وتترك النصح للمسلمين! فقال! واللَّه، أخذها وارتضاها. قال: فهلا ارتضيت له، ما ترضاه لنفسك؟!.

(الثاني) في احتمال الغبن، والمشتري إن اشترى طعاماً من ضعيف، أو شيئاً من فقير، فلا بأس أن يحتمل الغبن ويتساهل، ويكون به محسناً وداخلاً في قوله عليه الصلاة والسلام:

رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى (١)» وأما احتمال الغبن من الغني فليس محموداً، بل هو تضييع مال من غير أجر ولا حمد، وكان كثير من السلف يستقصون في الشراء، ويهبون مع ذلك الجزيل من المال، فقيل لبعضهم في ذلك فقال: إن الواهب يعطي فضله، وإن المغبون يغين عقله.

(الثالث) في استيناء الثمن وسائر الديون والإحسان فيه مرة بالمساعة وحط البعض، ومرة بالإمهال والتأخر، ومرة بالمساهلة في طلب جودة النقد، وكل ذلك مندوب إليه وعثوث عليه. وفي الخبر: «من أقرض ديناراً إلى أجل فله بكل يوم صدقة إلى أجله، فإذا حل الأجل فأنظره بعده، فله بكل يوم مثل ذلك الدين صدقة (٢) ونظر النبي على إلى رجل يلازم رجلاً بدين، فأومأ إلى صاحب الدين بيده، أي ضع الشطر، ففعل، فقال للمديون: قم فأعطه.

(الرابع في توفية الدين) ومن الإِحسان فيه حسن القضاء، وذلك بأن

⁽١) رواه البخاري.

 ⁽٢) رواه مسلم بلفظ: «من أنظر معسراً أو وضع عنه، أنجاه الله من كرب يوم الفيامة» ولا يصح اللفظ الذي ذكره المصنف.

⁽٣) رواه البخاري ومسلم.

يمشي إلى صاحب الحق، ولا يكلفه أن يمشي إليه يتقاضاه، فقد قال ﷺ: «خيركم أحسنكم قضاء»(۱) ومهما قدر على قضاء الدين، فليبادر إليه ولو قبل وقته، وإن عجز فلينو قضاءه مهما قدر، ومهما كلمه مستحق الحق بكلام خشن فليتحمَّله، وليقابله باللطف اقتداء برسول الله ﷺ لما ردد عليه كلام صاحب الدين، فهمَّ به أصحابه، فقال: «دعوة فإن لصاحب الحق مقالاً»(۱) ومن الإحسان أن يميل الحكم إلى من عليه الدين لعسره، لأنه يستقرض لحاجة.

(الخامس) أن يقيل من يستقيله، فإنه لا يستقيل إلا متندم مستضرر بالبيع، ولا ينبغي أن يرضي لنفسه أن يكون سبب استضرار أخيه، وفي الخبر: «من أقال مسلماً أقال الله عثرته يوم القيامة»(٢).

(السادس) أن يقصد في معاملته جماعة من الفقراء بالنسيئة، وهو في الحال عازم على أن لا يطالبهم إن لم يظهر لهم ميسرة، وكان من السلف من يقول لفقير: خذ ما تريد، فإن يسر ولك فاقض إلا فأنت في حل منه وسعة، فهذه طرق تجارات السلف، وبالجملة فالتجارة محك الرجال وبها يمتحن دين الرجل وورعه. ولذا قيل:

وإزار فوق كعب الساق منه رفعه أثر قد قلعه غيد ورعده (٣)

لا يغرنك من المرء قميص رقعه أو جبين لاح فيه ولدى الدرهم فانظر

شفقة التاجر على دينه

لا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعاً

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه أبو داود وابن ماجه وسنده صحيح (مم).

⁽٣) هذه الأبيات حذفها المختصر فرأينا إثباتها.

وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون ممن اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل ينبغي للعاقل أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله، ورأس ماله دينه وتجارته فيه، وإنما تتم شفقته على دينه بمراعاة سبعة أمور:

(الأول) حسن النية في ابتداء التجارة فلينو بها الاستعفاف عن السؤال، وكف الطمع عن الناس استغناء بالحلال عنهم، واستعانة بما يكسبه على الدين، وقياماً بكفاية العيال، ليكون من جملة المجاهدين به، ولينو النصح للمسلمين، وأن يجب لسائر الخلق، ما يجب لنفسه، ولينو اتباع طريق العدل والإحسان في معاملته كها ذكرناه، ولينو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في كل ما يراه في السوق، فإذا أضمر هذه النيات كان عاملاً في طريق الآخرة، فإن استفادما لا فهو مزيد، وإن خسر في الدنيا ربح في الآخرة.

(الثاني) أن يقصد القيام في صنعته، أو تجارته بفرض من فروض الكفايات، فإن الصناعات والتجارات لو تركت بطلت المعايش، وهلك أكثر الخلق، فانتظام أمر الكل بتعاون الكل، وتكفل كل فريق بعمل، ومن الصناعات ما هي مهمة، ومنها ما يستغنى عنها لرجوعها إلى طلب التنعم والتزين في الدنيا، فليشتغل بصناعة مهمة ليكون في قيامه بها، كافياً عن المسلمين مهاً في الدين.

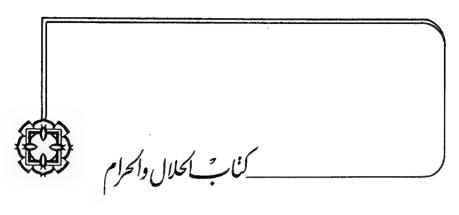
(الثالث) أن لا يمنعه سوق الدنيا عن سوق الآخرة المساجد، قال الله تعالى: ﴿رِجَالٌ لاَ تُلْهِيهِمْ تَجَنْرَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ آللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَاءِ ٱلرَّكَاةِ ﴾ (النور: ٣٧) وكان السلف يبتدرون عند الأذان، ويُخلون الأسواق لأهل الذمة والصبيان.

(الرابع) أن لا يقتصر على هذا، بل يلازم ذكر الله سبحانه في السوق، ويشتغل بالتهليل والتسبيح، فذكر الله في السوق بين الغافلين أفضل.

(الخامس) أن لا يكون شديداً على السوق والتجارة، وذلك بـأن يكون أول داخل وآخر خارج.

(السادس) أن لا يقتصر على اجتناب الحرام، بل يتقي مواقع الشبهات ومظان الريب، ويستفتي قلبه، فإذا وجد فيه حزازة اجتنبه، وإذا حمل إليه سلعة رابه أمرها، سأل عنها، وكل منسوب إلى ظلم أو خيانة أو سرقة أو رباً فلا بعامله.

(السابع) ينبغي أن يراقب جميع مجاري معاملته مع كل واحد من معامليه، فإنه مراقب ومحاسب فليعد الجواب ليوم الحساب.



قال اللَّه تعالى: ﴿ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِبَتِ وَآعْمَلُواْ صَلِحاً ﴾ (المؤمنون: ٥١) أمر بالأكل من الطيبات قبل العمل. وقيل: إن المراد به الحلال، وقال تعالى: ﴿ وَلاَ تَأْكُلُواْ أَمْ وَلَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطِلِ ﴾ (البقرة: ١٨٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمُولُكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطِلِ ﴾ (البقرة: ١٨٨) ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْ يُطُونُ مَا يَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَواْ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلُواْ فَمَ اللّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ ثم قال: ﴿ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمُولِكُمْ ﴾ ثم قال: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولُئِكَ أَصْحَبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴾ أمولكم ﴾ ثم قال: ﴿ وَمَنْ عَادَ فَأُولُئِكَ أَصْحَبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَلِدُونَ ﴾ معلى ألبار في أول الأمر، مؤذناً بمحاربة اللّه، وفي آخره متعرضاً للنار.

والآيات الواردة في الحلال والحرام لا تحصى.

ولما ذكر على الحريص على الدنيا قال: «رب أشعث أغبر مشرد في الأسفار، مطعمه حرام وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، يرفع يديه فيقول: يارب، فأني يستجاب لذلك»(١) وقال على: «كل جسد نبت من سحت فالنار أولى به»(٣) وقال النبي على: «ما أكل أحد طعاماً قط، خيراً من أن

⁽١) رواه مسلم.

⁽٢) رواه الطبراني وسنده صحيح (مج).

يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده»(١).

(وأما الآثار) فقد ورد أن الصديق رضي الله عنه شرب لبناً من كسب عبده، ثم سأل عبده، فقال: تكهنت لقوم، فأعطوني، فأدخل أصابعه في فيه، وجعل يقيء، حتى ظننت أن نفسه ستخرج، ثم قال: اللهم إني أعتذر إليك، مما حملت العروق وخالط الأمعاء. وكذلك شرب عمر رضي الله عنه من لبن إبل الصدقة غلطاً، فأدخل أصابعه وتقياً. وقال سهل التستري: لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يكون فيه أربع خصال: أداء الفرائض بالسنة، وأكل الحلال بالورع، واجتناب النهي ظاهراً وباطناً، والصبر على ذلك إلى الموت. وكان بشر الحافي من الورعين، فقيل له: من أين تأكل؟ فقال: من حيث تأكلون، ولكن ليس من يأكل وهو يبكي، كمن يأكل وهو يضحك، وقال: يد أقصر من يد، ولقمة أصغر من لقمة، وهكذا كانوا يحترزون من الشهات.

درجات الحلال والحرام

أعلم أن الحرام كله خبيث، لكن بعضه أخبث من بعض، والحلال كله طيب، ولكن بعضه أطيب من بعض، وأصفى من بعض. ولذا كان الورع عن الحرام على درجات، فمنه الورع عن كل ما تحرمه فتاوى علماء السنة، ومنه الورع عما يتطرق إليه احتمال التحريم، ومنه ما لا شبهة في حله لكن يخاف منه أداؤه إلى محرم، وهو ترك ما لا بأس به ومنه ما لا يخاف منه أن يؤدي إلى ما به بأس، ولكنه يتناول لغير الله، ولا على نية التقوي به على عبادة الله أو تتطرق إلى أسبابه المسهلة له كراهية أو معصية.

(الآثار) وقد حكي عن ابن سيرين أنه ترك لشريك أربعة آلاف درهم

⁽١) رواه البخاري، وخص داود عليه السلام بالذكر لأنه كان نبياً وملكاً وعلى الرغم من ذلك كان يعتمد على كسب يده.

لأنه حاك في قلبه شيء مع اتفاق العلماء على أنه لا بأس به. وكان بعضهم يتجر، فكل ما يستوفيه يأخذه بنقصان حبة، وما يعطيه يزنه بزيادة حبة، ومن ذلك الاحتراز عما يتسامح به الناس، فإن ذلك حلال في الفتوى ولكن يخاف من فتح بابه أن ينجر إلى غيره، وتألف النفس الاسترسال، وتترك الورع، كما تورع بعضهم من أخذ تراب من حائط بيت كان يسكنه بكراء، وكما جاء أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه كان يوزن بين يديه مسك للمسلمين، فأخذ بأنفه حتى لا تصيبه الرائحة وقال لما استبعد ذلك منه: وهل ينتفع منه إلا بريحه؟ ومنه أن بعضهم كان عند محتضر فمات ليلاً فقال اطفئوا السراج، فقد حدث للورثة حق الدهن، وأخذ الحسن رضي الله عنه تمرة من تمر الصدقة، وكان صغيراً فقال ﷺ: (كخ كخ)(١) أي ألقها، وتقيأ الصديق رضي الله عنه من اللبن الذي سقاه إياه رقيقه، وكان تكهن(٢) فأعطي اللبن أجرة له. وذلك خيفة من أن يحدث الحرام فيه قوة، مع أنه شربه عن جهل، وكان لا يجب إخراجه، ولكن تخلية البطن عن الخبيث من ورع الصديقين.

وبالجملة فكلما كان العبد أشد تشديداً على نفسه، كان أخف ظهراً يوم القيامة، وأبعد عن أن تترجح كفة سيئاته على كفة حسناته، وإذا علمت حقيقة الأمر، فإليك الخيار، فإن شئت فاستكثر من الاحتياط، وإن شئت فرخص، فلنفسك تحتاط، وعل نفسك ترخص والسلام.

(تنبيه)

لا ينبغي للإنسان أن يشتغل بدقائق الورع إلا بحضرة عالم متقن، فإنه إذا جاوز ما رسم له وتصرف بـذهنه من غير سماع كان ما يفسده أكثر مما يصلحه، والمتنطعون هم الـذين يخشى عليهم أن يكونوا ممن قيل فيهم: ﴿ اللَّهُ يُلُ صَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ آلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾

⁽١) رواه البخاري .

⁽٢) أي في الجاهلية.

البحث وللسؤال في الحرام والحلال

أعلم أن كل من قدم إليك طعاماً أو هدية، أو أردت أن تشتري منه أو تستوهب، فليس لك أن تفتش عنه وتسأل وتقول: هذا مما لا أتحقق حله، فلا آخذه بل أفتش عنه، وليس لك أيضاً أن تترك البحث مطلقاً، بل السؤال لا بد منه في مواقع الحريبة. ومنشأ الريبة بالنسبة لصاحب المال، أن يكون مشكوكاً فيه، أو معلوماً بنوع ظني إلى دلالة. وبالنسبة للمال الذي يختلط حرامه بحلاله، ويكون الحرام أكثر مع يقين وجوده. فإذا كان الحرام هو الأقل، واحتمل أن لا يكون موجوداً في الحال، لم يكن الأكل حراماً، ولكن السؤال احتياط والامتناع عنه ورع، وإنما يسأل من صاحب اليد، إذ لم يكن ألسؤال احتياط والامتناع عنه ورع، وإنما يسأل من صاحب اليد، إذ لم يكن فليسأل من غيره، فإذا أخبره عدل واحد قبله، وإن أخبره فاسق علم من قليسأل من غيره، فإذا أخبره عدل واحد قبله، وإن أخبره فاسق علم من قرينة حاله أنه لا يكذب حيث لا غرض له فيه، جاز قبوله، لأن المطلوب ثقة النفس، والمفتي هو القلب في مثل هذا الموضع. وللقلب التفاتات إلى قرائن خفية يضيق عنها نطاق النطق، فليتأمل فيه، فإذا اطمأن القلب، كان الاحتراز حتاً واجباً.

كيفية خروج التائب من المظالم المالية

أعلم أن كل من تاب وفي يده مال مختلط، فعليه وظيفة في تمييـز الحرام وإخراجه، ووظيفة أخرى في مصرف المخرج فلينظر فيهما.

⁽١) رواه الترمذي عن أبي أمامة بلفظ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في ججرها وحتى الحوت، ليصلون على معلم الناس الخير، وسنده صحيح (مج).

(النظر الأول) في كيفية التمييز والاخراج: من تاب وفي يده ما هو حرام معلوم العين من غضب أو وديعة أو غيره فأمره سهل، فعليه تمييز الحرام، وإن كان ملتبساً غتلطاً، فإما أن يكون من ذوات الأمثال كالحبوب والنقود والأدهان، أو يكون في أعيان متمايزة كالدور والثياب، فإن كان في المتماثلات أو كان شائعاً في المال كله، كمن اكتسب المال بتجارة كذب في بعضها وكمن غصب دهناً وخلطه بدهن نفسه، وفعل ذلك في الحبوب أو الدراهم والدنانير، فإن كان معلوم القدر، مثل أن يعلم أن قدر النصف من جملة ماله حرام، فعليه تمييز النصف، وإن أشكل فله طريقان: الأخذ باليقين، والأخرى الأخذ بغالب الظن، والورع في الطريق الأولى، فلا يستبقي إلا القدر الذي يتيقن أنه حلال.

(مسألة)

من ورث مالاً ولم يدر من أين اكتسبه مورثه من حلال أم من حرام، ولم يكن ثم علامة، فهو حلال باتفاق العلماء، وإن علم أن فيه حراماً وشك في قدره، أخرج مقدار الحرام بالتحري، وإن علم أن بعض ماله كان من الظلم فيلزمه إخراج ذلك القدر باجتهاد. وقال بعض العلماء لا يلزمه والإثم على المورث.

(النظر الثاني في المصرف) فإذا أخرج الحرام، فله ثلاثة أحوال: إما أن يكون له مالك معين فيجب الصرف إليه أو إلى وارثه، وإن كان غائباً فينتظر حضوره أو الإيصال إليه، وإن كانت له زيادة ومنفعة، فلتجمع فوائده إلى وقت حضوره، وإما أن يكون لمالك غير معين وقع الياس من الوقوف على عينه ولا يدري أنه مات عن وارث أم لا، فهذا لا يمكن الرد فيه للمالك ويوقف حتى يتضح الأمر فيه، وربحا لا يمكن الرد لكثرة الملاك، فهذا ينبغي أن يتصدق به لئلا يضيع وتفوت المنفعة على المالك وعلى غيره، وله أن يتصدق على نفسه وعياله إذا كان فقيراً.

إدارات السلاطين وصلاتهم

أعلم أن لك مع الأمراء والعمال الظلمة ثلاثة أحوال:

الحالة الأولى: أن تدخل عليهم وهي شرها، قال حذيفة: إياكم ومواقف الفتن، فقيل: وما مواقف الفتن؟ قال: أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الأمير فيصدقه بالكذب، ويقول ما ليس فيه.

وقال بعض الأمراء لبعض الزهاد: ألا تأتينا؟ فقال: أخاف إن أدنيتني فتنتني، وإن أقصيتني حرمتني، وليس في يمدك ما أريده، ولا في يمدي ما أخافك عليه، وإنما أتاك من أتاك ليستغني بك عمن سواك، وقد استغنيت عنك بمن أغناك عنى.

فهذه الآثار تبين كراهية مخالطة السلاطين، وأيضاً فإن الداخل على السلطان معرض لأن يعصي الله عز وجل، إما بفعله أو قوله أو سكوته.

أما الفعل: فإن الدخول عليهم في غالب الأحوال يكون، إما إلى أماكن مغصوبة، ولو فرض أنه في موضع غيرمغصوب، ففي الغالب يكون ما تحته أو ما يظله من خيمة أو نحوها من ماله الحرام، والانتفاع بـذلك حرام، ولو فرض ذلك حلالاً، فربما يقع في غيره من المحذورات، إما أن يسجد له، أو يتمثل له قائماً، ويخدمه، ويتواضع لـه بسبب ولايته التي هي آلة ظلمه، والتواضع للظالم معصية، بل من تواضع لغني لأجل غناه لا لمعنى يقتضي التواضع، ذهب ثلثا دينه، فكيف إذا تواضع للظالم؟

وأما القول فهو أن يدعو للظالم، أو يثني عليه أو يصدقه فيها يقول من باطل بصريح قوله، أو تحريك رأسه، أو باستبشار في وجهه، أو يظهر له الحب والموالاة والاشتياق إلى لقائه، والحرص على طول بقائه، فإنه في الغالب لا يقتصر على السلام، بل يتكلم ولا يعدو كلامه هذه الأقسام.

وقد جاء في الآثار: «من دعا لظالم بطول البقاء» فقد أحب أن يُعصى اللَّه».

ولا يجوز دعاؤه له إلا أن يقول: أصلحك أو وفقك الله لما يحبه ويرضاه، أو نحو ذلك.

وأما السكوت: فهو أن يرى في مجالسهم من الفرش الحرير، وأواني الفضة، والملبوس المحرم على غلمانهم من الحرير، ونحو ذلك، فيسكت. وكل من رأى شيئاً من ذلك وسكت، فهو شريك فيه. وكذا إذا سمع في كلامهم ما هو فحش وكذب وشتم وإيذاء، فإن السكوت عن ذلك كله حرام، لأنه يجب عليه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فإن قلت: إنه يخاف على نفسه، فهو معذور في السكوت. قلنا: صدقت، إلا أنه مستغن عن أن يعرض نفسه لارتكاب ما لا يباح إلا بعذر، لأنه لو لم يدخل ويشاهد، لم يجب عليه الأمر والنهي، وكل من علم بفساد في مكان، وعلم أنه إذا حضر لم يقدر على إزالته، لم يجز له أن يحضر!

فإن سلم مما ذكرنا كله، وهيهات، لم يسلم من فساد يتطرق إلى قلبه، لما يرى من توسعهم في التنعم، فيزدري نعمة الله عليه، ثم يقتدي به غيره في الدخول، ويكون مكثراً لسواد الظلمة.

وجاء أن سعيد بن المسيب دعي إلى البيعة للوليد وسليمان ابني عبد الملك، فقال: لا أبايع اثنين ما اختلف الليل والنهار. فقالوا: ادخل من هذا الباب واخرج من الآخر. قال: لا والله لا يقتدي بي أحد من الناس، فجلد مئة وألبس المسوح.

فعلى ما بينا لا يجوز الدخول على الأمراء الظلمة إلا بعذرين:

أحدهما: إلزام من جهتهم يخاف من الخلاف فيه الأذى.

والثاني: أن يدخل ليرفع ظلماً عن مسلم، فيجوز بشرط أن لا يكذب ولا يثني ولا يدع نصيحة يتوقع لها قبولًا، فهذا حكم الدخول.

(الحال الثاني): أن يدخل عليها لسلطان زائراً، فجواب السلام لا بـ د منه.

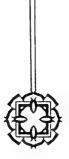
ثم يجب عليه أن ينصحه، ويعرفه تحريم ما يفعله مما لا يـدري أنه محرم، بل وعليه أن يخوفه من ركوب المعاصي، وعليه أن يرشده إلى المصالح، ومتى عرف طريقاً للشرع يحصل به صلاح الظالم، عرّفه إياه.

(الحال الثالث) أن يعتزل عنهم، فلا يراهم ولا يرونه، والسلامة في ذلك، ثم ينبغي أن يعتقد بغضهم على ظلمهم، فلا يحب بقاءهم، ولا يثني عليهم، ولا يستخبر عن أحوالهم، ولا يقترب إلى المتصلين بهم، ولا يتأسف على ما يفوته بسبب مفارقتهم كها قال بعضهم: إنما بيني وبين الملوك يوم واحد، أما يوم مضى، فلا يجدون لذته، وأنا وإياهم على غد على وجل، وإنما هو اليوم، فها عسى أن يكون اليوم؟!

مسألة

إذا بعث إليك سلطان مالاً لتفرقه على الفقراء وكان له مالك معين، لم يحل أخذه، وإن لم يكن له، كان حكمه أن يتصدق به، ويتولى تفرقته على الفقراء. ومن العلماء من امتنع من أخذه (١).

⁽١) هذا نخالف لقوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث رواه البخاري: «إذا جاءك من هذا المال شيء، وأنت غير مستشرف ولا سائل، فخذه، ومالا، فلا تتبعه نفسك، وجاء في حديث رواه البيهقي عن عمر رضي الله عنه: «إذا آتاك تعالى مالاً لم تسأله ولم تشره إليه نفسك، فاقبله، فإنما هو رزق ساقه الله إليك، وسنده صحيح (مج).



كناسالعزلة والمحالطة

أعلم أن من السلف من آثر العزلة لفوائدها على المواظبة على العبادة والفكر وطلب العلم، والتخلص من ارتكاب المناهي التي يتعرض الإنسان لها بالمخالطة كالرياء، والغيبة، والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومسارقة الطبع للأخلاق الرديئة، والأعمال الخبيثة من جلساء السوء، إلى غير ذلك، وأما أكثر السلف فذهبوا إلى استحباب المخالطة، واستكثبار المعارف والاخوان، والتآلف والتحبب إلى المؤمنين، والاستعانـة بهم في الدين، تعـاوناً على البر والتقوى، وإن فوائد العزلة المتقدمة يمكن نيلها من المخالطة بالمجاهدة ومغالبة النفس، وبالجملة: فللمخالطة فوائد عظيمة تفوت بالعزلة، فإن قلت: ما هي فوائد المخالطة والدواعي إليها؟ فاعلم: أنها التعليم، والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأدب، والاستثناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، أو اعتياد التواضع، أو استفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها.

(فأما العلم والتعليم) فهما أعظم العبادات في الدنيا، ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة، والمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة، ومن كان يقدر على التبريز في علوم الشرع والعقل، فالعزلة في حقه قبل التعلم غايـة الحسران، ولهذا قبال النخعي وغيره: تفقيه، ثم اعتزل(١)، ومن اعتنزل قبل

(١) هذا خطأ والصواب أن يقال: تفقه واعمل وأحسن وجاهد كما يأمر الإسلام!

التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها ولا ينفك في أعماله بالبدن والقلب عن أنواع من الغرور، ويكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان، وهو يرى نفسه من العباد، فالعلم هو أصل الدين، ولا خير في عزلة العوام والجهال.

(وأما التعليم) ففيه ثواب عظيم إذا صحت نية المعلم والمتعلم.

(وأما الانتفاع بالناس) فبالكسب والمعاملة إذ لا يأتي إلا بالمخالطة، ومن اكتسب من وجه وتصدق منه كان أفضل من المعتزل المستغل بالنافلة.

(وأما النفع) فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببدنه، فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة، ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب، وذلك لا ينال إلا بالمخالطة ومن قدر عليه مع القيام بحق الشرع فهو أفضل له من العزلة.

(وأما التأديب بنصح الغير والتأدب) ونعني به الارتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات فهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة.

(وأما الاستئناس والإيناس) فهو مستحب لأمر الدين. وذلك فيمن يستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين، وقد يتعلق بحظ النفس، ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهييج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا كربت عميت، والنفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروّح، وفي تكليفها الملازمة داعية للفتور، وقد قال ابن عباس: لولا نخافة الوسواس لم يجالس الناس، فلا يستغني المعتزلة إذاً عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة، فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته، فقد قال عليه المراء على دين خليلة فلينظر

أحدكم من يخالل $^{(1)}$ ، وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين والقصور عن الثبات على الحق، ففي ذلك متروح للنفس، وفيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه.

(وأما نيل الثواب) فبحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً، إذ لا رخصة في تركه إلّا لخوف ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلّا نادراً، وكذلك في حضور الإملاكات (٢) والدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور على قلب مسلم.

(وأما إنالةالثواب) فهو أن يأذن لعيادته وتعزيته في المصائب وتهنئته على النعم، فإنهم ينالون بذلك ثواباً، فينبغي أن يزن ثوب هذه المخالطات بآفاتها التي ذكرناها، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة.

(وأما التواضع) فإنه من أفضل المقامات، ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة، أو مخافة أن لا يوقر في المحافيل أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن نحالطتهم أرفع لمحله، وأبقى على اعتقاد الناس في تعبده وزهده، وعلامة هؤلاء أنهم يجبون أن يزاروا، ولا يجبون أن يزوروا، يفرحون بتقرب العوام والأمراء إليهم، ولو كان الاشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليه زياراتهم له، ولكن اعتزاله سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للالتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والاحترام، والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه.

(أحدها) أن التواضع والمخالطة لا تنقص عن منصب من هـو متكبر بعلمه أو دينه.

(الشاني) أن الذي اشتغل نفسه بطلب رضا الناس عنه، وتحسين

⁽١) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم وسنده حسن (مم).

⁽٢) جمع أملاك وهو الزواج.

اعتقادهم فيه، مغرور، لأنه لو عرف الله حق المعرفة، علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً، وأن ضرره ونفعه بيد الله، بل رضا الناس غاية لا تنال، فرضاء الله أولى بالطلب، ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: «والله ما أقول لك إلا نصحاً، إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله فإذاً من حبس نفسه في البيت لتحسن اعتقادات الناس فيه، هو في عناء حاضر في الدنيا، ولعذاب الآخرة أكبر لوكانوا يعلمون.

(وأما التجارب) فإنها تستفاد من المخالطة للخُلق، ومجاري أحوالهم، والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا، وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولا خير في عزلة من لم تحنكه التجارب، فالصبي إذا اعتزل، بقي غمراً جاهلاً، بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب، وتحصل بقية التجارب بسماع الأحوال، وبالجهل يجبط العمل الكثير، وبالعلم يزكو العمل القليل، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل، وقد قضى ااشرع بتفضيل العالم على العابد حتى قال فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»(١).

فإذا قيل: فها آداب العزلة؟

قلنا: ينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شره عن الناس، ثم طلب السلامة من شر الأشرار، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين، ثم تجريد الهمة لعبادة الله تعالى أبداً، فهذه آداب بينة.

ثم ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل، والذكر والفكر، فيجتني ثمرة العزلة، وليمنع الناس عن أن يكثروا غشيانه وزيارته ليصفو وقته؛ وليكف عن السؤال عن أخبارهم، وعن الاصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، إلا ما كان فيه مصلحة للإسلام، فإن جميع ذلك ينغرس

⁽١) جزء من حديث تقدم في كتاب العلم رواه الترمذي وسنده صحيح (مم).

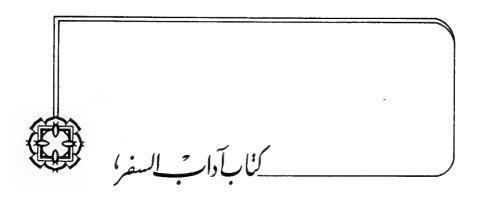
في القلب حتى ينبعث في اثناء الصلاة، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض، وليقنع باليسير من المعيشة، وإلا اضطره التوسع إلى مخالطة الناس.

وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الناس، ولا يصغي إلى الثناء عليه بالعزلة، ولا القدح فيه بترك الخلطة، فإن ذلك يؤثر في القلب فيقف عن السير في طريق الآخرة.

وليكن له جليس صالح يستريح إليه ساعة عن كد المواظبة، ففي ذلك عون على بقية الساعات، ولا يتم الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر أمله، فيقدِّر أنه إذا أصبح لا يمسي، وإذا أمسى لا يصبح، فيسهل عليه صبر يوم.

وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر متى ضاق عليه قلبه من الوحدة، وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به، لم يطق وحشة الوحدة بعد الموت، وأن من أنس بذكر الله ومعرفته لم يزل الموت أنسه، لأن الموت لا يهدم محل الأنس والمعرفة، كما قال الله تعالى في حق الشهداء: ﴿ بَلُ أَحْيَاهُ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ (آل عمران: ١٦٩).





أعلم أن كل من سافر وكان مطلبه العلم والدين، أو الكفاية للاستعانة على الدين، كان من سالكي سبيل الآخرة، وكان له في سفره شروط تلحقه بأعمال الآخرة، وإليك جملة من أقسام الأسفار.

(القسم الأول) السفر في طلب العلم، وهـو أمـا واجب وإمـا نفــل، وذلك بحسب كون العلم واجباً أو نفلًا، وذلك العلم إما علم بـأمور دينـه أو بأخلاقه في نفسه، أو بآيات الله في أرضه.

وقد رحل جابر بن عبد الله من المدينة مسيرة شهر في حديث عن رسول الله على بلغه عن عبد الله بن أنيس، حتى سمعه عنه، وقال الشعبي: لو سافر رجل من الشام إلى أقصى اليمن في كلمة تدله على هدى أو ترده عن ردى، ما كان سفره ضائعاً. وأما علمه بنفسه وأخلاقه فذلك مهم، فإن من لا يطلع على خبائث صفاته لا يقدر على تطهير القلب منها، والنفس في الوطن مع موآتاة الأسباب، لا تظهر خبائث أخلاقها لاستئناسها بما يوافق طبعها من المألوف، فإذا امتحنت بمذاق الغربة وقع الوقوف على عيوبها، فيمكن الاشتغال بعيوبها. وأما آيات الله في أرضه ففي مشاهدتها فوائد للمستبصر، ففيها قطع متجاورات، وفيها الجبال والبراري والبحار، وأنواع الحيوان والنبات، وما من شيء منها إلا هو شاهد لله بالوحدانية.

(القسم الشاني) أن يسافر لأجل العبادة من حج أو جهاد، وفي الحديث: «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمسجد الحرام، والمسجد الأقصى»(١).

(القسم الشالث) أن يكون السفر للهرب من سبب مشوش للدين، وذلك أيضاً حسن، فالفرار مما لا يطاق، من سنن الأنبياء والمرسلين، وقد كان من عادة السلف رضي الله عنهم مفارقة الوطن خيفة من الفتن.

(القسم الرابع) السفر هرباً مما يقدح في البدن كالطاعون أو في المال كغلاء السعر، أو ما يجري مجراه ولا حرج في ذلك، بل ربحا يجب الفرار في بعض المواضع وربحا يستحب في بعض، بحسب وجوب ما يترتب عليه من الفوائد أو استحبابه، ولكن يستثنى الطاعون فلا ينبغي أن يفر منه لورود النهى فيه (٢).

(وبالجملة) فالسفر ينقسم إلى مذموم ومحبوب ومباح، والمذموم منه حرام كالسفر للعاق لوالديه، ومنه محرم كالخروج من بلد الطاعون، والمحمود منه واجب كالحج وطلب العلم الذي هو فريضة على كل مسلم.

ومنه مندوب كزيارة العلماء، للتخلق بأخلاقهم وآدابهم، وتحريك الرغبة للاقتداء بهم، واقتباس الفوائد العلمية من أنفاسهم، وأما المباح فمرجعه إلى النية، فمهما كان قصده بطلب المال مثلاً التعفف عن السؤال

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) يشير الغزالي إلى حديث صحيح (مج) رواه أحمد والبيهقي والنسائي بلفظ: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تخرجوا منها فراراً منه» وليس المقصود من هذا الحديث عدم الفرار من الطاعون مطلقاً، بل المقصود فرار الموجود في الأرض التي فيها الطاعون خشية أن يعدي غيره، أما من كان خارج هذه الأرض فينبغي عليه الفرار من هذا الطاعون، وعدم الدخول في تلك الأرض الموبوءة، ومن هنا جاء قبول الخليفة عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنها قيل أن يبلغه الحديث السابق: نفر من قضاء الله قضاء الله قضاء الله .

ورعاية ستر المروءة على الأهل والعيال، والتصدق بما يفضل عن مبلغ الحاجة صار هذا المباح بهذه النية من أعمال الأخرة، ولو خرج إلى الحج وباعثه الرياء والسمعة لخرج عن كونه من أعمال الأخرة لقوله على: «الأعمال بالنيات»(١).

آداب المسافر من أول نهوضه إلى آخر رجوعه

(الأدب الأول) أن يبدأ برد المظالم وقضاء الديون وإعداد النفقة لمن تلزمه نفقته، وبرد الودائع إن كانت عنده، ولا يأخذ لزاده إلا الحلال الطيب. وليأخذ قدراً يوسع به على رفقائه إذا استطاع، ولا بد في السفر من طيب الكلام وإطعام الطعام، ومن إظهار مكارم الأخلاق، والسفر من أسباب الضجر، ومن أحسن خلقه في الضجر فهو الحسن الخلق، وتمام حسن خلق المسافر الإحسان إلى المكاري، ومعاونة الرفقة بكل ممكن، وإعانة المنقطع بمركوب أو زاد، وتمام ذلك مع الرفقاء بمزاح ومطايبة في بعض الأوقات من غير فحش ومعصية، ليكون ذلك شفاء لضجر السفر ومشاقه.

(الثاني) أن يختار رفيقاً فلا يخرج وحده « «فالرفيق ثم الطريق»، وليكن رفيقه عمن يعينه على الدين، فيذكره إذا نسي، ويعينه ويساعده إذا ذكر، فإن المرء على دين خليله، ولا يعرف الرجل إلا برفيقه، وقد نهى رسول الله على أن يسافر الرجل وحده (٢): وقال: «إذا كنتم ثلاثة في السفر فأمروا أحدكم» (٣)، وليؤمروا أحسنهم أخلاقاً، وأرفقهم بالأصحاب، وأسرعهم إلى الإيثار، وطلب الموافقة، وإنما يُحتاج إلى الأمير، لأن الآراء تختلف في مصالح السفر، ولا نظام إلا في الوحدة، ولا فساد إلا في الكثرة، وإنما انتظم أمر

⁽١) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «إنما الأعمال بالنيات الحديث».

 ⁽٢) أخرجه أحمد بسند صحيح وهو عند البخاري بلفظ: «لو يعلم الناس ما في الوحمدة، ما سار
 راكب بليل وحده وقاله العراقي .

⁽٣) رواه الطبراني بإسناد حسن.

العالم لأن مدبر الكل واحد ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَ آءَا لِهَةً إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

(الثالث) أن يودع رفقاء الحضر والأهل والأصدقاء، ليدع عند الوداع بقوله لمودعه: أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك() وليدع المقيم له بقوله: زودك الله التقوى وغفر ذنبك ووجهك للخير حيث توجهت()، وليصل المسافر قبل سفره ركعتين صلاة الاستخارة، وإذا حصل على باب الدار فليقل: «بسم الله، توكلت على الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، رب أعوذ بك أن أضل أو أضل، أو أزل أو أزل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل على «() فإذا ركب فليقل: ﴿ السُبْحَانَ ٱلَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنّا لَهُ مُقْرنيْنَ وإنّا إلى رَبّنا لمُنقلبُونَ ().

(الرابع) أن يرفق بالدابة إن كان راكباً، فلا يحملها ما لا تطبق ولا يضربها في وجهها، فإنه منهي عنه، ويستحب أن ينزل عن الدابة أحياناً، يروحها بذلك ويدخل السرور على المكاري، ويروض بدنه حذراً من خدر الأعضاء بطول الركوب، وليحذر أن يحمل فوق المشروط شيئاً وإن خف، فإن القليل يجر إلى الكثير. قال رجل لابن المبارك وهو على دابة: احمل لي هذه الرقعة إلى فلان، فقال: حتى أستأذن المكاري، فإني لم أشارطه على هذه الرقعة، فانظر كيف لم يلتفت إلى قول الفقهاء: إن هذا عما يتسامح فيه، ولكن سلك طريق الورع.

(الخامس) أن يحتاط إن كان في قافلة، فلا يمشي منفرداً لأنه ربما يغتال

⁽١) رواه أبو داود والترمذي وسنده صحيح (مج).

⁽٢) رواه الترمذي والحاكم بلفظ: «زودك الله التقوى، وغفر ذنبك، ويسر لـك الخير حيثها كنت، وسنده حسن (مج).

⁽٣) رواه أحمد والترمذي والنسائي وقال الترمذي: هذا حديث صحيح، وإسناده صحيح (مم).

⁽٤) سورة الزخرف آية: ١٣ و ١٤ . مقرنين: أي مطيقين، وقول هذه الآية في السفر رواه مسلم في حديث طويل.

أو ينقطع، ويكون بالليل متحفظاً عند النوم وينبغي أن يتناوب الرفقاء في الحراسة بالليل، وأن يستصحب مرآة ومقراضاً ومسواكاً ومشطاً (١)، وليحذر التنطع في الطهارة، فقد كان الأولون يكتفون بالتيمم ويغنون أنفسهم عن نقل الماء، ولا يبالون بالوضوء من الغدران، ومن المياه كلها ما لم يتيقنوا نجاستها حتى توضأ عمر رضي الله عنه من ماء في جرة نصرانية.

(السادس) في آداب الرجوع من السفر: كان النبي الله إذا قفل من غزو أو حج أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض ثلاث تكبيرات. ويقول: (لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده (٢) ثم يرسل إلى المدينة من يبشر بقدومه، وكان على ينهي أن يطرق المرء أهله ليلاً (٣) فيقدم عليهم بغتة فيسرى ما يكره، وكان على إذا قدم دخل المسجد أولاً وصلى ركعتين ثم دخل البيت، وينبغي أن يحمل لأهل بيته وأقاربه تحفة (٤) من مطعوم أو غيره على قدر إمكانه، فإن الأعين تمتد إلى القادم من السفر والقلوب تفرح به، فيتأكد الاستحباب في تأكيد فرحهم وإظهار التفات القلب في السفر إلى ذكرهم بما يستصحب في الطريق لهم. هذه جملة من الآداب الظاهرة.

(وأما الآداب الباطنة) ففي الفصل الأول بيان بعضها وجملته: أن لا يسافر إلا إذا كان زيادة دينه وعلمه في السفر، وينوي في دخول كل بلدة أن لا يرى شيوخها العلماء، ويجتهد أن يستفيد من كل واحد أدباً أو كلمة لينتفع بها، وينفع بها، وإذا قصد زيارة أخ له فلا يقم عنده أكثر من ثلاثة أيام،

⁽١) الحديث الوارد في ذلك كل طرقه ضعيفة قاله العراقي، ولكن النظافة والأناقة مطلوبتان.

⁽۲) رواه مسلم .

⁽٣) حديث صحيح وقد تقدم.

⁽٤) على أن يجتنب التكلف والإسراف، كلما هي حال كثير من الحجاج، حتى أن بعضهم باب يتقاعس عن القيام بفريضة الحج خشية من عتاب أقربائه، وأصدقائه لقلة إحضار الهدايا!

فذلك حد الضيافة، إلا إذا شق على أخيه مفارقته، ولا يشغل نفسه بما لا فائدة فيه، فإن ذلك يقطع بركة سفره.

ما لا بد للمسافر من تعلمه من رخص السفر

أعلم أن المسافر يحتاج في أول سفره إلى أن يتزود لدنياه وآخرته. أما زاد الدنيا فالطعام والشراب، وما يحتاج إليه من نفقة، فإن خرج من غير زاد؛ فلا بأس به إذا كان سفر بين قرى متصلة، وإن ركب البادية وحده أو مع قوم لا طعام معهم ولا شراب، فإن كان ممن يصبر على الجوع «أسبوعاً أو عشراً مثلاً» أو يكتفي بالحشيش، فله ذلك(١)، وإن لم يكن له قوة الصبر على الجوع والاجتزاء بالحشيش فخروجه من غير زاد معصية، فإنه ألقى نفسه بيده إلى التهلكة، وليس معنى التوكل التباعد عن الأسباب بالكلية، وإلا لوجب أن يصبر حتى يسخر الله له ملكاً أو شخصاً آخر حتى يصب الماء في فيه!!

(وأما زاد الآخرة) فهو العلم الذي يحتاج إليه في طهارته، وصومه، وصلاته، وعبادته، وذلك أن السفر يفيد في الطهارة رخصتين مسح الخفين والتيمم. وفي صلاة السفر رخصة القصر والجمع، وفي النفل رخصتين أداؤه على الراحلة وأداؤه ماشياً، وفي الصوم رخصة واحدة وهي الفطر.

(فأما المسح) على الخفين (٢) فقال صفوان بن عسال: «أمرنا رسول الله

⁽۱) غفر الله تعالى للمصنف خطأه، وللمختصر سكوته، فقد تزود الرسول ﷺ كها هـو معروف، وهو القائل في حديث رواه البخاري: «وإني أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني» وقال سبحانه:
﴿وترودوا﴾. قال ابن عباس رضي الله عنها: «كان أهـل اليمن يحجون، فلا يتزودون، ويقولون: نحن المتوكلون، فإذا قدموا مكة سألـوا الناس. فأنزل الله تعالى: ﴿وتزودوا فإن خير الزاد المتقوى﴾ رواه البخاري و وغيره.

⁽٢) ومثله في ذلك الجوريان متنعلين كانا أو غير متنعلين، صفيقين أو غير صفيقين قال الشيخ القاسمي، وله رسالة قيمة في هذا الموضوع رحمه اليله تعالى، إسمها المسح على الجوربين، أثبت فيها جواز المسح على الجوربين عن الرسول بما لا يدع مجالاً للشك، وكل ذلك رخصة هامة ورحمة من الله واسعة.

ﷺ: إذا كنا مسافرين أن لا ننزع خفافنا ثلاثة أيام ولياليهن (١) فكل من لبس الخف على طهارة مبيحة للصلاة ثم أحدث فله أن يسح على خفه من وقت حدثه ثلاثة أيام ولياليهن إن كان مسافراً، أو يوماً وليلة إن كان مقياً (٢).

(وأما التيمم) فالتراب بدل عن الماء عند العذر كبعده عن منزله ، بحيث لو مشى إليه لم يلحقه غوث القافلة إن صاح أو استغاث ، أو نـزل على الماء عدو أو سبع أو احتاج إليه لعطشه أو عطش أحد رفقائه فيتيمم في هـذه الصورة ، وإن بيع الماء بثمن المثل لزمه الشراء أو بغبن لم يلزمه .

(وأما القصر) فله أن يقتصر في كل واحدة من الظهـر والعصر والعشاء على ركعتين، ولا يصير مسافراً إلا بمفارقة عمران البلد.

(وأما الجمع) بين الظهر والعصر في وقتيهما وبين المغرب والعشاء في وقتيهما فذلك أيضاً رخصة في كل سفر.

(وأما النافلة) فقد جوز أداؤها على الراحلة كي لا يتعوق عن السرفقة بسببها، وكان على يصلي على راحلته أينها توجهت به دابته، وأوتر عليه السلام على الراحلة، وليس على المتنقل السراكب في الركوع والسجود إلا الإيماء، ويجعل سجوده أخفض من ركوعه.

(وأما استقبال القبلة) فلا يجب لا في ابتداء الصلاة ولا في دوامها والكن صوب الطريق بـدل عن القبلة. فليكن في جميع صلاته إما مستقبلاً للقبلة أو متوجهاً في الطريق لتكون له جهة يثبت فيها. وجُوز للمسافر أيضاً

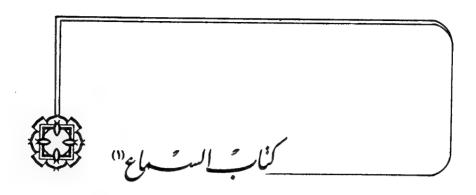
⁽١) رواه الترمذي وصححه، وابن ماجه، والنسائي في الكبرى وابن خزيمة، وابن حبان وإسناهه جيد.

⁽٢) والحديث في ذلك رواه مسلم.

 ⁽٣) هذا في النفل، وأما في الفرض فلا بد من استقبال القبلة، إلا إذا تعذر ذلك كراكب سيارة أو طائرة.

التنقل ماشياً: فيومىء بالركوع والسجود ولا يقعد للتشهد وحكمه حكم الراكب، لكن ينبغي أن يحرم بالصلاة مستقبلًا للقبلة، وكل هارب من عدو أو سيل أو سبع، فله أن يصلي الفريضة راكباً أو ماشياً كها ذكرناه في التنقل.

(وأما الفطر في رمضان للمسافر) فهو مرخص له.



أعلم أن سماع الغناء يجمع شيئين، أحدهما:

إنه يلهي القلب عن التفكير في عظمة الله سبحانه والقيام بخدمته والثاني أنه يميله إلى اللذات العاجلة التي تدعو إلى استيفائها من جميع الشهوات الحسية ومعظمها النكاح، وليس تمام لذته إلا في المتجددات، ولا

(١) لقد حذف كتاب السماع من ومختصر منهاج القاصدين، كيا حذف منه «موعظة المؤمنين، لما في هذا البحث في «أصل إلا حياه» من أحاديث غير صحيحة، وواهنات وشطحات.

ولما كان موضوع السماع له خطورته وشأنه، وقد ابتلى به السلمون شؤوا أم أبوا، رأيت نقله من كتاب «تلبيس إبليس» للإمام أبي الفرج بن الجوزي، مع بعض الإيجاز.

وقد شرح البحث شرحاً حسناً مدعماً بالكتاب والسنة، وتعقب ما جاء في «الاحياء» للغزالي من آراء متطرفة في السماع ورد عليه رداً علمياً مقنعاً.

وخلاصة رأينا في السماع أنه أمر لا بد من معالجته، بعد ما شاع، وذاع، وهو - ولا شك - له تأثير بعيد في النفوس فينبغي استثماره والإفادة منه في حدود الشرع، سواء من ناحية أبعاد المعازف، وتجنب الكلام على المجون والخمور التي تغري بالفاحشة، وسواء في توجيه المغنين المبتلين باحترافه، كي تكون أهدافهم خلقية اجتماعية، تشير النفوس نحو الحق والخير والجهاد، والجمال المشروع الهادف، لا الهدام!

ولا يخفى الفائدة الني ترتجى من ذلك في جذب الشباب وتوجيهه توجيهاً دينياً قوياً عن طريق السماع المباح في بعض الأحيان، بعدلاً من السماع الفاجر المعمر.. وقعد كان الرسول على يستمع إلى إنشاد الشعراء ويستزيد من أقوالهم، فعن عمرو ابن الشريد عن أبيه قال: ردفت (أي ركبت خلفه) رسول الله على يوماً، فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي ____

سبيل إلى كثرة المتجددات من الحل، فلذلك يحث على الزنا، فبين الغناء والزنا تناسب من جهة أن الغناء لذة الروح والزنا أكبر لذات النفس، ولهذا جاء في بعض الأخبار «الغناء رقية الزنا». وقد ذكر أبو جعفر الطبري أن

- الصلت شيء؟» قلت: نعم. قال: «هيه» (أي هات) فأنشدته بيتاً فقال: «هيه» ثم أنشدته بيتاً، فقال: «هيه» حتى أنشدته مئة بيت. رواه مسلم.

وعن جندب أن النبي ﷺ كان في بعض المشاهد، (أي الغزوات) وقد دميت أصبعه فقال:

هل أنست إلا أصب عدميت وفي سبيل الله ما لقيت رواه البخاري ومسلم.

وعن البراء، قال: كان رسول اللَّه ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى غبر بطنه، يقول:

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلس سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا لاقينا إن الأولى هم بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا

يرفع بهما صوته: «أبينا، أبينا» رواه البخاري ومسلم وعن أنس، قال: جعـل المهـاجـرون

والأنصار يحفرون الخندق وينقلون التراب، وهم يقولون: نحن الخندق بايسعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً

يقول النبي ﷺ وهو يجيبهم:

اللهم لا عيش الآخرة فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة رواه البخاري ومسلم.

وعن أنس، قال: كان للنبي ﷺ حاد، يقال له: أنجشة، وكان حسن الصوت، فقال له النبي ﷺ: «رويدك يا أنجشة! لا تكسر القوارير، قال قتادة: يعني ضعفة النساء. رواه البخاري ومسلم.

وقال النبي ﷺ «إن من البيان لسحراً» رواه البخاري وقال النبي ﷺ: وإن من الشعر حكمة» رواه البخاري .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول لحسان: «إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما نافحت عن الله ورسوله» رواه مسلم.

وقد علمت أخيراً أن هناك موسيقى حديثة لا تعتمد على المعازف على اختلاف أنواعها، فإذا صح ذلك، فلا نرى مانعاً من تعاون الإسلام والفن الغنائي البريء في توجيه النفوس وتحبيبها بمبادىء الحق والخير والجمال التي جاء بها شرع الله اللذي لا يصادم الفيطرة بل يوجهها، ولا يحارب الغرائز بل يهذبها ويسمو بها.

الذي اتخذ الملاهي رجل من ولد قابيل يقال له: ثوبال، اتخذ في زمن مهلائيل ابن قينان آلات اللهو من المزامير والطبول والعيدان، فانهمك ولد قابيل في اللهو وتناهى خبرهم إلى من بالجبل من نسل شيث، فنزل منهم قوم وفشت الفاحشة وشرب الخمور.

وهذا لأن الالتذاذ بشيء يدعو إلى الالتذاذ بغيره خصوصاً أما يناسبه، ولما يئس أن يسمع من المتعبدين شيئاً من الأصوات المحرمة كالعود نظر إلى المعنى الحاصل بالعود فدرجة ضمن الغناء العود وحسنه لهم، وإنما مراده التدريج من شيء، والفقيه من نظر في الأسباب والنتائج وتأمل المقاصد.

وقد تكلم الناس في الغناء فأطالوا، فمنهم من حرمه ومنهم من أباحه من غيركراهة ومنهم من كرهه مع الاباحة. وفصل الخطاب أن نقول: ينبغي أن ينظر في ماهية الشيء ثم يطلق عليه التحريم أو الكراهة أو غير ذلك، والغناء اسم يطلق على أشياء منها غناء الحجيج في الطرقات، فإن أقواماً من الأعاجم يقدمون للحج فينشدون في الطرقات أشعاراً يصفون فيها الكعبة وزمزم والمقام، فسماع تلك الأشعار مباح، وليس إنشادهم اياها مما يطرب ويخسرج عن الاعتدال. وفي معنى هؤلاء الغزاة: فإنهم ينشدون أشعاراً عرضون بها على الغزو. وفي معنى هذا إنشاد المبارزين للقتال للأشعار تفاخراً عند النزول وفي معنى هذا أشعار الحداة في طريق مكة كقول قائلهم:

بشرها دليلها وقالا غدأ ترين الطلح والجبالا

وهذا يحرك الابل والادمي، إلا أن ذلك التحريك لا يـوجد الـطرب المخرج عن حد الاعتدال.

وقد كان لرسول الله ﷺ حاد يقال له: أنجشة يحدو فتعنق(١) الإبل، فقال رسول الله ﷺ: «يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير(١) وفي حديث

⁽١) رواهما البخاري ومسلم.

سلمة بن الأكوع قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرنا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع: ألا تسمعنا من هنياتك؟ وكان عامر رجلا شاعراً فنزل يحدو بالقوم يقول:

لا هم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا فالقين سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لاقينا

فقال رسول الله ﷺ: من هذا السائق؟ قالوا: عامر بن الأكوع فقال: يرحمه الله(١).

قـال المصنف رحمه الله: وقـد روينا عن الشـافعي رضي الله عنـه أنـه قال: أما استماع الحداء ونشيد الأعراب فلا بأس به.

ومن هذا الجنس كانوا ينشدون أشعارهم بالمدينة، وربحا ضربوا عليه بالدف عند إنشاده، عن عائشة رضي الله عنها: أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان في أيام من تضربان بدفين ـ ورسول الله عن مسجى عليه بثوبه ـ فانتهزهما أبو بكر، فكشف رسول الله عن وجهه وقال: «دعهن يا أبا بكر فإنها أيام عيد» أخرجاه في «الصحيحين».

والظاهر من هاتين الجاريتين صغير السن، لأن عائشة كانت صغيرة وكان رسول الله على يسرب (٢) إليها الجواري فيلعبن معها.

وان عائشة رضي الله عنها، قالت: كانت عندنا جارية يتيمة من الانصار فزوجناها رجلا من الأنصار فكنت فيمن أهداها إلى زوجها، فقال رسول الله ﷺ: يا عائشة إن الأنصار أناس فيهم غزل: فيا قلتم؟ قالت دعونا بالبركة قال: أفلا قلتم:

أتيناكم أتيناكم فحيونا نحييكم

⁽١) رواهما البخاري ومسلم.

⁽٢) سرب الابل: أرسلها قطعة قطعة.

ولولا النهب الأحم ر ما حملت بواديكم ولولا الحبة السمرا ء لم تسمن عذاريكم(١) فقد بان بما ذكرنا ما كانوا يعنون به، وليس مما يطرب ولا كانت دفوفهن على ما يعرف اليوم. ومن ذلك أشعار ينشدها المتزهدون بتطريب وتلحين تثير القلوب إلى ذكر الآخرة ويسمونها الزهديات كقول بعضهم:

يا غادياً في غفلة ورائحا إلى متى تستحسن القبائحا وكم إلى كم لا تخاف موقفاً يستنطق الله به الجوارحا يا عجباً منك وأنت مبصر كيف تجنبت الطريق الواضحا

فهذا مباح أيضاً وإلى مثله أشار أحمد بن حنبل في الاباحة إذ قيـل له: يا أبا عبد الله هذه القصـائد الـرقاق التي في ذكـر الجنة والنـار أي شيء تقول فيها؟ فقال: مثل أى شيء؟ قلت: يقولون:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني وتخفي الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني؟ فقال: أعد علي، فأعدت عليه، فقام ودخل بيته ورد الباب، فسمعت نحيبه من داخل البيت وهو يقول:

إذا ما قال لي ربي أما استحييت تعصيني وتخفى الذنب من خلقي وبالعصيان تأتيني ومن الأشعار أشعار تنشدها النواح، يثيرون بها الأحزان والبكاء، فينهى عنها لما في ضمنها.

فأما الأشعار التي ينشدها المغنون المتهيئون (٢) للغناء، ويصفون فيهم المستحسنات والخمر وغير ذلك مما يحرك الطباع ويخرجها عن الاعتدال ويثير كامنها من حب اللهو، وهو الغناء المعروف في هذا الزمان مثل قول الشاعر:

⁽١) وهو جيد الإسناد لطرقه كها جاء في آداب الزفاف للعلامة الالباني.

⁽٢) المتهيئون: المتفرغون.

ذهبي الماون تحسب من وجنتيه النار تسقسلح خوفوني من فضيحته ليته وافي (١) وافتضح

وقد أخرجوا لهذه الأغاني ألحاناً مختلفة، كلها تخرج سامعها عن حيىز الاعتدال، وتثير حب الهوى، ولهم شيء يسمونه البسيط يزعج القلوب عن مهل ثم يأتون بالنشيد بعده فيجعجع القلوب. وقد أضافوا إلى ذلك ضرب القضيب والإيقاع به على وفق الإنشاد، والدف بالجلاجل، والشبابة الثانية عن الزمر، فهذا الغناء المعروف اليوم.

وقبل أن نتكلم في إباحته أو تحريمه أو كراهته نقول: ينبغي للعاقل أن ينصبح نفسه وإخبوانه، ويحذر تلبيس إبليس في إجراء الغناء جرى الأقسام المتقدمة التي يطلق عليها اسم الغناء. فلا يحمل الكل محملاً واحداً فيقول: قد أباحه فلان وكرهه فلان. فنبدأ بالكلام في النصيحة للنفس والإخوان فنقول:

معلوم أن طباع الآدميين تتقارب ولا تكاد تتفاوت، فإذا ادعى الشاب السليم البدن والصحيح المزاج أن رؤية النساء المستحسنات لا تزعجه ولا تؤثير عنده ولا تضره في دينه كذبناه لما نعلم من استواء الطباع، فإن ثبت صدقه عرفنا أن به مرضاً خرج به عن حيز الاعتدال، فإن تعلل فقال: إنما أنظر إلى هذه المستحسنات معتبراً فأتعجب من حسن الصنعة في دعج (۱) العينين، ورقة الأنف، ونقاء البياض، قلنا له: في أنواع المباحات ما يكفي في العبرة، ها هنا ميل طبعك يشغلك عن الفكرة ولا يدع لبلوغ شهوتك وجود فكرة. فإن ميل الطبع شاغل عن ذلك، وكذا من قال: إن هذا الغناء المطرب المزعج للطباع المحرك لها إلى العشق وحب الدنيا لا يؤثير عندي ولا يلفت قلبي إلى حب الدنيا الموصوفة فيه، فإنا نكذبه لموضع اشتراك الطباع.

⁽١) وافى أتى. ولا أدري كيف يسمون هذا العشق الحيواني المفضوح بالحب الالهي؟!

⁽٢) العين الدعجاء: الواسعة الشديدة السواد.

ثم إن كان قلبه بالخوف من الله عز وجل غائباً عن الهوى لا حضر هذا المسموع الطبع، وان كانت قد طالت غيبته في سفر الخوف. وأقبح القبيح البهرجة، ثم كيف تمر البهرجة على من يعلم السر وأخفى؟! حتى قال أبو حامد الغزالي: إن التشبيب بوصف الخدود، والأصداغ، وحسن القد، والقامة، وسائر أوصاف النساء: الصحيح أنه لا يحرم(١).

فأما من قال: إني لا أسمع الغناء للدنيا وإنما آخذ منه إشارات فهو يخطىء من وجهين: أحدهما - أن الطبع يسبق إلى مقصوده قبل أخد الإشارات فيكون كمن قال: إني أنظر إلي هذه المرأة المستحسنة لأتفكر في الصنعة. والثاني - أنه يقل فيه وجود شيء يشار به إلى الخالق وقد جل الخالق، تبارك وتعالى أن يقال في حقه إنه يعشق، ويقع الهيمان به. وإنما نصيبنا من معرفته الهيبة والتعظيم فقط، وإذ قد انتهت النصيحة فنذكر ما قيل في الغناء.

ثم ذكر الإمام ابن الجوزي آراء أئمة المذاهب رحمهم الله تعالى فكلهم قالوا: بتحريم الغناء المقرون بالمعازف، أو الخالي منه ولكنه يصف النساء والخمور.

ذكر الأدلة على كراهية الغناء والنوح والمنع منهما

قال المصنف: وقد استدل أصحابنا بالقرآن والسنة والمعنى.

فأما الاستدلال من القرآن فبثلاث آيات. الآية الأولى قول عز وجل: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَمْوَ الحَدِيثِ ﴾ (لقمان: ٦) قال ابن مسعود: هوالغناء.

وعن اسماعيل عن سعيد بن يسار، قال: سألت عكرمة عن لهو

(١) وهذا من أخطائه!

الحديث قال: هو الغناء. وكذلك قال الحسن وسعيد بن جبير وقتادة وابراهيم النخعي.

الآية الثانية قوله عز وجل: ﴿وَأَنتُمْ سَنِمِدُونَ ﴾ (النجم: ٦١) عن عكرمة عن ابن عباس ﴿وَأَنتُمْ سَنِمِدُونَ ﴾ قال: هو الغناء بالحميرية: سمد لنا: عنى لنا . وقال مجاهد: هو الغناء يقول أهل اليمن: سمد فلان: إذا غنى.

الآية الثالثة قول عز وجل: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ﴾ (الاسراء: ٦٤).

وعن سفيان الثوري عن ليث عن مجاهد: «واستفزز من استطعت منهم بصوتك»، قال: هو الغناء والمزامير.

أما السنة ـ فعن نافع عن ابن عمر رضي الله عنه: أنه سمع صوت زمارة راع فوضع اصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع أتسمع فأقول: نعم فيمضي، حتى قلت: لا، فوضع يبديه وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله على سمع زمارة راع فصنع مثل هذا(١).

قال المصنف رحمه الله: إذا كان هذا فعلهم في حق صوت لا يخرج عن الاعتدال فكيف بغناء أهل الزمان وزمورهم؟!

وعن عطاء بن عمر، قال: «دخلت مع رسول الله على فإذا ابنه ابراهيم يجود بنفسه، فأخذه رسول الله على فوضعه في حجره، ففاضت عيناه: فقلت: يارسول الله أتبكي وتنهانا عن البكاء؟ فقال: لست أنهي عن البكاء إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين: صوت عند نعمة لعب ولهو

⁽١) روى أحمد وأبو داود نحوه بزيادة: قال نافع: فكنت إذا ذاك صغيراً. وسنده حسن (مم).

ومزامير الشيطان، وصوت عند مصيبة ضرب وجه وشق جيوب ورنة شيطان»(١).

(وأما الآثار) فقال ابن مسعود: الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء البقل، وقال: إذا ركب الرجل الدابة ولم يسم ردفه الشيطان. وقال: تغنه. فإن لم يحسن، قال له: تمنه (٢). ومر ابن عمر رضى الله عنه بقوم مجرمين وفيهم رجل يتغني. قال: ألا لأسمع اللَّه لكم. ومر بجارية صغيرة تغني، فقال: لو ترك الشيطان أحدا لترك هذه. وسأل رجل القاسم بن محمد عن الغناء. فقال: أنهاك عنه وأكرهه لك، قال: أحرام هو؟ قال: انظريا ابن أخي إذا ميـز اللَّه الحق من الباطـل ففي أيهـما يجعـل الغنـاء؟ وعن الشعبي. قال: لعن المغنى والمغنى له. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك بغض الملاهي التي بدؤها من الشيطان وعاقبتها سخط الـرحمن جل وعـز، فإنـه بلغني عن الثقات من حملة العلم أن حضور المعازف واستماع الأغاني واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء العشب. ولعمري لتوقى ذلك بترك حضور تلك المواطن أيسر على ذي الذهن من الثبوت على النفاق في قلبه. وقال فضيل بن عياض: الغناء رقية الزنا، وقال الضحاك: الغناء مفسدة القلب مسخطة للرب. وقال يزيد بن الوليد: يابني أمية إياكم والغناء فإنه يزيد الشهوة ويهدم المروءة وإنه لينوب عن الخمر، ويفعل ما يفعل السكر، فإن كنتم لا بـد فاعلين فجنبـوه النساء، فإن الغناء داعية الزنا.

قلت: وكم قد فتنت الأصوات بالغناء من عابد وزاهد، وقد ذكرنا جملة من أخبارهم في كتابنا المسمى بـ «ذم الهوى».

⁽١) سبق تخريجه وهمو صحيح، وصح أيضاً كها جاء في سلسلة الأحماديث الضعيفة والموضوعة (١٩/١): «ليكونن في امتي أقوام يستحلون الحمر، والحرير والخمر، والمعازف. الحديث. والحر: الزنا. وقوله: «يستحلون» فإنه صريح بأن المذكورات ومنها المعازف هي في الشرع عرمة، فيستحلها أولئك الأقوام.

⁽٢) من التمني، وتمنى الحديث: اختلفه.

وقد أخبرنا أبو القاسم الحريري عن أبي طالب الطبري، قال: قال بعضهم: إنا لا نسمع الغناء بالطبع الذي يشترك فيه الخاص والعام، قال: وهذا تجاهل منه عظيم لأمرين: أحدهما أنه يلزمه على هذا أن يستبيح العود والطنبور وسائر الملاهي، لأنه يسمعه بالطبع الذي لا يشاركه فيه أحد من الناس، فإن لم يستبح ذلك فقد نقض قوله. وإن استباحه فقد فسق. والثاني أن هذا المدعي لا يخلو من أن يدعي أنه فارق طبع البشر وصار بمنزلة الملائكة، فإن قال هذا فقد تخرص على طبعه، وعلم كل عاقل كذبه إذا رجع إلى نفسه، ووجب أن لا يكون مجاهداً لنفسه ولا محليه ألف ألمواه، ولا يكون له ثواب على طبع البشر المجبول على وهذا لا يقوله عاقل، وإن قال: أنا على طبع البشر المجبول على الموى والشهوة. قلنا له: فكيف تسمع الغناء المطرب بغير طبعك أو تطرب السماعه لغير ما غرس في نفسك؟

سئل أبو على الروذباري عمن سمع الملاهي رمن يقول: هي لي حلال لأني قلد وصلت إلى درجة لا تؤثر في اختلاف الأحوال، فقال: نعم. قلد وصل لعمري ولكن إلى سقر!

قال المصنف رحمه الله: فإن قيل: قد بلغنا عن جماعة أنهم سمعوا من المنشد شيئاً فأخذوه على مقصودهم فانتفعوا به؛ قلنا: لا ينكر أن يسمع الإنسان بيتاً من الشعر أو حكمة فيأخذها إشارة فتزعجه بمعناها، لا لأن الصوت مطرب كما سمع بعض المريدين صوت مغنية تقول:

كل يــوم تــتــلون غــير هــذا بــك أجــل فصاح ومات، فهذا لم يقصد سماع المرأة ولم يلتفت إلى التلحين، وإنما

قتله المعنى، ثم ليس سماع كلمة أو بيت لم يقصد سماعه كالاستعداد لسماع الأبيات المذكورة الكثيرة المطربة مع انضمام الضرب بالقضيب والتصفيق إلى غير ذلك، ثم إن ذلك السامع لم يقصد السماع، ولو سألنا هل يجوز لي أن أقصد سماع ذلك منعناه.

قال المصنف رحمه الله: وقد احتج لهم أبو حامد الغزالي بأشياء نزل فيها عن رتبته عن الفهم مجموعها أنه قال: ما يدل على تحريم السماع نص ولا قياس. وجواب هذا ما قد أسلفناه. وقال: لا وجه لتحريم سماع صوت طيب، فإذا كان موزوناً فلا يحرم المجموع. فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان المجموع مباحاً. قال: ولكن ينظر فيها يفهم من ذلك، فإن كان شيء محظور حرم نثره ونظم. وحرم التصويت به.

قال المصنف رحمه الله: قلت: وإني لأتعجب من مثل هذا الكلام، فإن الوتر بمفرده أو العود وحده من غير وتر ونو ضرب لم يحرم ولم يطرب، فإذا اجتمعنا وضرب بها على وجه مخصوص حرم وأزعج. وكذلك ماء العنب جائز شربه وإذا حدثت فيه شدة مطربة حرم. وكذلك هذا الموضوع يوجب طرباً يخرج عن الاعتدال فيمنع منه لذلك.

وقال ابن عقيل: الأصوات على ثلاثة أضرب محرم ومكروه ومباح. فالمحرم الزمر والناي والسرنا والطنبور والمعزفة والرباب وما ماثلها. نص الإمام أحمد بن حنبل على تحريم ذلك. ويلحق به الجرافة (۱) والجنك لأن هذه تطرب فتخرج عن حد الاعتدال وتفعل في طباع الغالب من الناس ما يفعله المسكر، وسواء استعمل على حزن يهيجه أو سرور، لأن النبي عن صوتين أحمقين صوت عند نعمة وصوت عند مصيبة. والمكروه القضيب لكنه ليس بمطرب في نفسه وإنما يطرب بما يتبعه وهو تابع للقول، والقول مكروه. ومن أصحابنا من يحرم القضيب كها يحرم آلات اللهو فيكون فيه وجهان كالقول (۱) نفسه. والمباح الدف، وقد ذكرنا عن أحمد أنه قال: أرجو أن لا يكون بالدف بأس في العرس ونحوه وأكره الطبل. وقد قال أبو حامد: من أحب الله وعشقه واشتاق إلى لقائه فالسماع في حقه مؤكد لعشقه.

⁽١) في نسخة (الحراية) وهذه كلها اسهاء لآلات الملاهي، وفي نسخة «الجرانة».

⁽٢) وفي نسخة: كالعود.

قلت: وهذا قبيح أن يقال عن الله عز وجل يعشق، وقد بينا فيها تقدم خطأ هذا القول ثم أي توكيد لعشقه في قول المغني:

ذهبى اللون تحسب من وجنتيه النار تقتدح

قال المصنف رحمه اللَّه: قلت: وسمع ابن عقيل بعض الصوفية يقول: إن مشايخ هذه الطائفة كلما وقفت طباعهم حداها الحادي إلى الله بالأناشيد، فقال ابن عقيل: لا كرامة لهذا القائل إنما تحدى القلوب بوعد الله في القرآن ووعيده وسنة الرسول ﷺ لأن اللَّه سبحانه وتعالى قال: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَنتُهُ زَادَتُهُمْ أَيَكْناً ﴾ (الأنفال: ٢) وما قال: وإذا أنشدت عليه القصائد طربت. فأما تحريك الطباع بالألحان فقاطع عن اللَّه، والشعر يتضمن صفة المخلوق والمعشوق مما يتجدد عنه فتنة. ومن سولت له نفسه التقاط العبر من محاسن البشر وحسن الصوت فمفتون. بل ينبغي النظر إلى المحال التي أحمالنا عليها الابل والخيل والرياح ونحو ذلك، فإنها منظورات لا تهيج طبعاً بل تورث استعظاماً للفاعل، وإنما خدعكم الشيطان فصرتم عبيد شهواتكم، ولم تقفوا حتى قلتم هذه الحقيقة، وأنتم زنادقة في زي عباد، شرهين في زي زهاد، مشبهة تعتقدون أن اللَّه عز وجل يعشق ويهام فيه، وبئس التوهم، لأن الله عز وجل خلق الذوات مشاكلة () لأن أصولها مشاكلة فهي تأنس وتشألم بأصولها العنصرية وتراكيبها المثلية في الأشكال الحديشة. فمن ها هنا جاء التبلاؤم والميل وعشق بعضهم بعضاً. وعلى قيدر التقارب في الصورة يتأكيد الأنس، والواحد منا يأنس بالماء لأن فيه ماء، وهـ و بالنبـات آنس لقربـ من الحيوانية بالقوة النماثية، وهو بالحيوان آنس لمشاركته في أخص النوع بـ أو أقربه إليه، فأين المشاركة للخالق والمخلوق حتى يحصل الميل إليه والعشق والشوق؟ وما الذي بين الطين والماء وبين خالق السهاء من المناسبة، وإنما هؤلاء يصورون الباري سبحانه وتعمالي صورة تثبت في القلوب وما ذاك اللَّه عز وجل، ذاك صنم شكله الطبع والشيطان، وليس لله وصف تميل إليه

⁽١) متماثلة: يشبه بعضها بعضاً.

الطباع ولا تشتاق إليه الأنفس وإنما مباينة الالهية للمحدّث أوجبت في الأنفس هيبة وحشمة، في يدعيه العشاق الصوفية لله في محبة الله إنما هو وهم اعترض، وصورة شكلت في نفوس فحجبت عن بعادة القديم فتجدد بتلك الصورة أنس، فإذا غابت بحكم ما يقتضيه العقل أقلقهم الشوق إليها، فنالهم من الوجد وتحرك الطبع والهيمان ما ينال الهائم في العشق، فنعوذ بالله من الهواجس والعوارض الرديئة التي يجب بحكم الشرع محوها عن القلوب كما يجب كسر الأصنام!





كابالأمر بالمعروف لنهيء نالمنكر

أعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، والأمر الذي اتبعث الله له النبيين أجمعين، لو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله، لفشت الضلالة وشاعت الجهالة، وخربت البلاد، وهلك العباد، فنعوذ بالله أن يندرس من هذا القطب عمله وعلمه، وأن ينمحي بالكلية رسمه وحقيقته، وأن تستولي على القلوب مداهنة الخلق، وتنمحي عنها مراقبة الخالق، وأن يسترسل الناس في أتباع الهوى والشهوات استرسال البهائم، وأن يعز على بساط الأرض مؤمن صادق لا تأخذه في الله لومة لاثم، فلا معاذ إلا به، ولا ملجأ إلا إليه.

ينحصر هذا الكتاب في مقاصد وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكسر وفضيلته والمذمة في إهماله

دل على ذلك من الآيات قوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةً يَمَدُّعُونَ إِلَى الْخُونَ إِلَى الْخُونَ فِي الْمُنكِرِ وَأُولَئِنكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٤) بيان الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، وإذا حصر بقوله: ﴿ وَأُولَئِنكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ وفيها بيان أنه فرض كفاية (١) لا فرض عين، وأنه إذا قام به واحد سقط الفرض عن الآخرين، قال تعالى:

⁽١) كيف يكون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كغاية، وقـد جاء في الحـديث الصحيح: =

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضِ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُدُونَ السَّلُوةَ ﴾ (التوبة: ٧١) فقد نعت المؤمنين بأنهم يأمرون بالمعروف، فالذي هجر الأمر بالمعروف خارج عن هؤلاء المؤمنين المنعوتين في هذه الآية. وقال تعالى: ﴿ لِعِنَ ٱللَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون. كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه، لبئس ما كانوا يفعلون ﴾ (المائدة: ٧٨ - ٧٩).

وهذا غاية التشديد إذ علل استحقاقهم للعنة بتركهم النهي عن المنكر، وقال عز وجل: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلّناسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنهُوْنَ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ ﴾ (آل عمران: ١١٠) وهذا يدل على فضيلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إذ بين أنهم كانوا خير أمة. وقال تعالى: ﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ لَمْنُواْ بِعَذَابِ بَيْسِ بِمَا كَانُواْ فَي فَسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٥)، فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، فَلْسُقُونَ ﴾ (الأعراف: ١٦٥)، فبين أنهم استفادوا النجاة بالنهي عن السوء، قال تعالى: ﴿ وَتَعَاوِنُواْ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدُواٰنِ ﴾ (المائدة: ٢)، وهو أمر جزم.

ومعنى التعاون الحث عليه، وتسهيل طرق الخير، وسد سبل الشر والعدوان بحسب الإمكان، وقال تعالى: ﴿ لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ ٱلرَّبَّانِيُونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِمِمُ ٱلْرَّبِّ نِيُونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِمِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسَّحْتَ، لَبِشْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ (المائدة: ٣٣) فبين أنهم أثموا بترك النهي. وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلاَ كَانَ مِن ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ فَين أَنهُ أَهلك جميعهم أَوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهُونَ عَنِ الفَسَادِ فِي الأَرْضِ ﴾ (هود: ١١٦) فبين أنه أهلك جميعهم إلا قليلًا منهم كانوا ينهون عن الفساد. وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْولِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ كُونُواْ فَوْمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْولِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (النساء: ١٣٥) وذلك هو الأمر بالمعروف للوالدين والأقربين، وقال تعالى: ﴿ لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوفٍ ، أَوْ إَصْلاحٍ فِي الْعَالِي الْمَالِي اللهِ عَلْ الْعَرْفِ الْمَالِي الْعَالِي اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهُ اللهُ اللهُ عَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوفٍ ، أَوْ إِصْلاحٍ مِهِ اللهُ عَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ ، أَوْ مَعْرُوفٍ ، أَوْ إَصْلاحِ فَلْ الْعَالِي اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهِ اللهُ اللهِ اللهُ اله

 [«]من رأى منكم منكراً، فليغيره بياه، فإن لم يستطع فبلسانه، وان لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان، رواه مسلم في رواية. صحيحة: «وليس وراء ذلك حبة خردل من الايمان!».

بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْسِراً عَظِياً ﴾ (النساء: ١١٤).

ومن الأخبار ما جاء عن أبي بكر الصلايق رضي الله عنه عن النبي الله قال: «ما من قوم عملوا بالمعاصي، وفيهم من يقدر أن ينكر عليهم فلم يفعل إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب»(١) وقد صح في ذلك من الأحاديث ما لا يحصى(١). وبهذه الأدلة يظهر كون الأمر بالمعروف والنبي عن المنكر واجباً وان فرضه لا يسقط مع القدرة إلا بقيام قائم به.

(أما الآثار) سئل حذيفة رضي الله عنه عن ميت الأحياء، فقال: الذي لا ينكر المنكر بيده، ولا بلسانه، ولا بقلبه.

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: يأتي على الناس زمان، لأن تكون فيهم جيفة حمار، أحب إليهم من مؤمن يأمرهم وينهاهم.

⁽١) رواه أبو داود وغيره وسنده صحيح (مم).

⁽Y) ساق الغزالي أحاديث عديدة ولكنها لا تصع ونذكر فيها يبلي بعض الأحاديث الصحيحة: قال النبي ﷺ: «مثل المداهن في حدود الله، والواقع فيها مثل قوم استهموا سفينة، فصار بعضهم في أعلاها، فكان الذي في أسفلها يمر بالماء على الذين في أعلاها، فتأذوا به، فأخذ فأساً، فجعل ينقر أسفل السفينة، فأتوه فقالوا: مالك؟! قال: تأذيتم بي، ولا بعد لي من الماء، فإن أخذوا على يديه أنجوه ونجوا أنفسهم، وأن تركبوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم، وراه البخاري (والمداهن: المداهن المتساهل).

وقال النبي ﷺ: «يجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيطحن فيها كطحن الحمار برحاه، فيجتمع أهل النار عليه، فيقولون: أي فلان! ما شأنك؟ أليس كنت تأمر بالمعروف، ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر، وآتيه، رواه البخاري ومسلم وتندلق: تخرج سريعاً.

وقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذاباً من عنده، ثم لتدعنه ولا يستجاب لكم، رواه الترمذي وسنده حسن (مم).

وقال النبي ﷺ: «إذا عملت الخطيئة في الأرض، من شهدها، فكرهها، كان كمن غاب عنها، ومن غاب عنها، فرضيها كان كمن شهدها، رواه أبو داود وسنده حسن (مم).

الشروط التي بها يتحقق التصدي للانكار

(الأول كونه منكراً) وهو ما كان محذور الوقوع في الشرع، ولفظ المنكر أعم من لفظ المعصية، فإن من رأى صبياً أو مجنوناً يشرب الخمر، فعليه أن يريق الخمر. وكذلك إن رأى مجنوناً يزني بمجنونة، أو بهيمة أن يمنعه منه، وليس ذلك معصية في حق المجنون، ولا يختص المنكر بالكبائر، بل كشف العورة في الحمام، والخلوة بالأجنبية، وأتباع النظر للنسوة الأجنبيات، كل ذلك من الصغائر ويجب النهى عنها.

(الثاني) أن يكون المنكر ظاهراً بغير تجسس، فكل من ستر معصية في داره، وأغلق بابه لا يجوز الدخول عليه بغير إذنه، لتعرف المعصية، ولا أن يتجسس عليه وقد نهى الله تعالى عنه في قوله: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ (الحجرات: ١٢).

(الثالث) أن يكون كونه منكراً معلوماً بغير اجتهاد، فكل ما هو في على الاجتهاد فلا نكران فيه، فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي ما هو من مجاري الاجتهاد يعني المسائل المختلفة فيها بين الأئمة (١)، إذ لا يعلم خطأ المخالف قطعاً بل ظناً، فلا بد أن يكون المنكر متفقاً عليه (٢)، وكذا إنما ينكر على الفرق المبتدعة في خطئهم المعلوم على القطع، بخلاف الخطأ في مظان الاجتهاد.

درجات القيام بالإنكار

(الأولى التعريف) أي تعريف المزجور أن ما يفعله منكر، فإنه قد يقدم عليه بجهله، فلعله إذا عرف أنه منكر تركه فيجب تعريفه باللطف من غير عنف، فإن في التعنيف كشفاً للعورة وإيذاء للقلب، فلا بد وأن يعالج دفع

⁽١) كل ذلك إذا لم يكن هناك دليل من كتاب أو سنة، وإذا وجد فتنبغي المسارعة للرجوع إليه كها أمر الله تعالى ورسوله ﷺ وأوصانا به جميع اثمة المذاهب رحمهم الله.

⁽٢) وهو ما عليه دليل من قرآن أو سنة صحيحة .

أذاه بلطف فيقول له: إن الإنسان لا يولد عالماً، ولقد كنا جاهلين، فعلمنا العلماء، فالصواب هو كذا وكذا، فيتلطف به هكذا ليحصل التعريف من غير إيذاء، فإن المسلم حرام محذور، كما أن إقراره على المنكر محظور، وليس من العقلاء من يغسل الدم بالدم، أو بالبول ومن آذى بالإنكار فهذا مثاله.

(الدرجة الثانية) النهي بالوعظ والنصح والتخويف باللَّه تعالى، وذلك فيمن يقوم على الأمر، وهو عالم بكونه منكراً، كالذي يواظب على الشراب أو على الظلم، أو على اغتياب المسلمين، أو ما يجري مجراه، فينبغي أن يوعظ ويخوف بالله تعالى. وتورد عليه الأخبار الواردة بالوعيد في ذلك وتحكي له سيرة السلف وعبادة المتقين. وكل ذلك بشفقة ولطف من غير عنف وغضب، بل ينظر إليه نظر المترحم عليه.

(الدرجة الثالثة) التعنيف بالقول الغليظ، وذلك عند العجز عن المنع باللطف، وظهور مبادىء الإصرار والاستهزاء بالوعظ والنصح، وذلك مثل قول إبراهيم عليه السلام: ﴿ أَفِ لَكُمْ وَلَمُا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ آللَّه أَفَلاَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ آللَّه أَفَلاَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ آللَّه أَفَلاَ تَعْبُدُونَ ﴿ الأنبياء: ٦٧) ولا يفحش في سبه، ولهذه الرتبة أدبان:

(أحدهما) أن لا يقدم عليها إلا عند الضرورة والعجز عن اللطف.

(والثاني) أن لا ينطق إلا بالصدق، ولا يسترسل فيه فيطيل لسانه بما لا يحتاج إليه، بل يقتصر على قدر الحاجة.

(الدرجة الرابعة) التغيير باليد، كإراقة الخمر، وإتلاف المنكر أو دفعه عن محرَّم، وليس إلى آحاد الرعية إلا الدفع، وأما الإراقة والإتلاف فإلى الولاة ومأذونيهم كالضرب والحبس.

آداب القائم بالأمر والنهي

جملتها ثلاث صفات: العلم، والورع، وحسن الحلق.

(أما العلم) فليعلم مواقع الأمر والنهي، ليقتصر على حد الشرع فيه.

(وأما الورع) فليردعه عن مخالفة معلومة، ولا يحمله على مجاوزة الحد المأذون شرعاً غرض من الأغراض، وليكن كلامه مقبولاً، فإن الفاسق يهزأ به إذا أمر ونهى ويورث ذلك جراءة عليه.

(وأما حسن الخلق) فليتمكن به من اللطف والرفق، وهو أصل الباب وأساسه.

والعلم والورع لا يكفيان، فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قمعه، ما لم يكن في الطبع قبول له بحسن الخلق، وبوجود هذه الصفات الثلاث يصير الإرشاد من القربات، وبه تندفع المنكرات، وإن فقدت لم يندفع المنكر. وقد حكي أن المأمون وعظه واعظ وعنف له في القول، فقال: يارجل ارفق، فقد بعث الله من هو خير منك إلى من هو شرمني، وأمره بالرفق فقال تعالى: ﴿فَقُولاً لَهُ قُولاً لَيّناً لّعَلّهُ يَتَذَكّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ (طه: منى الميكن اقتداء المرشد في الرفق، بالأنبياء صلوات الله عليهم.

المنكرات المألوفة في العبادات منكرات المساجد

أعلم أن المنكرات تنقسم إلى مكروهة ومحظورة، فإذا قلنا هذا منكر مكروه، فاعلم أن المنع منه مستحب والسكوت عليه مكروه، وليس بحرام، وإذا قلنا: منكر مطلقاً، فنريد به المحظور ويكون السكوت عليه مع القدرة محظوراً.

فمها يشاهد كثيراً في المشاهدة إساءة الصلاة بترك الطمأنينة في الركوع والسجود، وهو منكر مبطل للصلاة بنص الحديث، فيجب النهي عنه: ومن رأى مسيئاً في صلاته فسكت عليه فهو شريكه.

(ومنها) قراءة القرآن قراءة ملحونة، فيجب النهي عن ذلك، وتلقين

الصحيح، والذي يكثر اللحن في القرآن إن كان قادراً على التعلم، فليمنع من القرءة قبل التعلم فإنه عاص به.

(ومنها) تراسل المؤذنين في الأذان، وتطويلهم بمد كلماته، فذلك منكر مكروه.

(ومنها) كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون بكلامهم الكذب والأضاليل والخرافات، فيجب الإنكار عليهم.

(ومنها) التحلق يوم الجمعة لبيع الأدوية والأطعمة والتعويذات، وكقيام السؤال وقراءتهم القرآن وإنشادهم الأشعار وما يجري مجراه، فكل ذلك منكر يمنعون منه.

(ومنها) بيع الأطعمة والأدوية والكتب وكذا الخياطة فيطلب المنع منه لأن المساجد لم تبن لهذا.

(ومنها) دخول المجانين ـ المعروفين الآن بالمجاذيب ـ والصبيان(١) والسكارى فإنهم يجنبون المساجد. وقد أوسعنا الكلام على منكرات المساجد وبدعها وعوائدها في كتاب أفردناه لذلك، فليرجع إليه من أراد(٢).

⁽١) أن هذا القول باطل! ومستنده حديث: «جنبوا مساجدكم صبيانكم، ومجانينكم« قال المناوي في «فيض القدير» ضعفه الزين العراقي، وابن حجر، وأورده ابن الجوزي في «الواهيات» وقال ابن حجر في تاريخ الهداية: له طرق كلها واهية. وقال عبد الحق: لا أصل له اهر، وهذا الخبر الفاسد يصطدم مع العديد من الأحاديث الصحيحة في تشجيع الرسول لله للآباء والأمهات على إدخال ابنائهم المسجد، وكان الصحابة يكرمون الأطفال فيه، ويضعون عذق التمر لهم ولغيرهم يأكلون منه، وقد كان على يسمح للأمهات بإدخال حتى أولادهن الرضع إلى المسجد، وإذ صح عدم دخول المجانين، فها ذنب الأطفال، وهم رجال المستقبل؟!

ويما يؤسف له ويبعث في النفس الأسى أن هذا الخبر السيء، لا يزال يتحكم في مساجد المسلمين، فنرى خدم المسجد ورواده المغفلين يطردون الأطفال من المساجد بدلاً من حسن استقبالهم والصبر على أذاهم ونصحهم باللين والحسنى. .

⁽٢) وهو كتاب قيم طبع أخيراً محققاً، يجدر بكل غيور على الاسلام الصحيح مطالعته، وهو للشيخ_

(ومنها) إذا كان للمسجد مؤذن واحد، وهو يؤذن قبل الصبح، فينبغي أن يمنع من الأذان بعد الصبح، فذلك مشوش للصوم والصلاة على الناس (١).

منكرات الأسواق

من المنكرات المعتادة في الأسواق الكذب في المرابحة، وإخفاء العيب، فمن قال: اشتريت هذه السلعة مثلاً بعشرة وأربح فيها كذا، وكان كاذباً فهو فاسق، وعلى من عرف ذلك أن يخبر المشتري بكذبه، فإن سكت مراعاة لقلب البائع كان شريكاً له في الخيانة وعصى بسكوته، وكذا إذا علم به عيباً فيلزمه أن ينبه المشتري عليه، وإلا كان راضياً بضياع مال أخيه المسلم، وهو حرام، وكذا التفاوت في الذراع والمكيال والميزان يجب على كل من عرفه، تغييره بنفسه أو رفعه إلى الوالى حتى يغيره.

القاسمي رحمه اللَّه تعالى، وكان يجدر أن يذكره في الهامش.

⁽۱) وهناك بدع كثيرة أغفلها الغزالي نذكر منها زخرفة المساجد باضاعة أموال المسلمين، وهي تصرف الناس عن عبادتهم والسماع لخطبائهم ومدرسيهم، ومن هذه البدع: رفض الجماعة الأولى انتظاراً للثانية، وانفراد المصلين للوتر عن الاقتداء بامام التراويح المخالف مذهبهم، مع أنه صح عن النبي على وكثرة المساجد في المحلة الواحدة، ناسين وجوب توسعه المسجد العتيق إذا ضاق خشية على تفريق المسلمين، وزيادة التنوير في رمضان خوفاً من التشبه بعباد النار، ومنعاً للاسراف، ورفع الصوت في المسجد بذكر أو غيره تخلصاً من التشويش على الملي وتالي القرآن لنفسه، والتحالق لحديث الدنيا في المسجد. قال النبي على الناس زمان يحلقون في مساجدهم، وليس همهم إلا الدنيا، وليس لله فيهم حاجة فلا تجالسوهم، وهو حديث حسن كها قال محقق الأحاديث الصحيحة.

كتابة آيات وغيرها في الجدار القبلي لحديث: «لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل المصلي» رواه أحمد وأبو داود بسند صحيح. الأعراض عن سماع الخطبة، ومجالس العلم. القيام للصلاة بعد الخطبة الأولى! سكني المساجد وترك السعي للرزق. بيع الكتب وغيرها في المساجد. التخلف عن صلاة الجماعة، ترك السلام عند لقاء المتوضىء وعند اللقاء به بعد الصلاة.

(ومنها) بيع الملاهي وتلبيس انخراق الثياب بالرفق، وكل ما يؤدي إلى التلبيسات، وذلك يطول إحصاؤه، فليقس بما ذكرناه ما لم نذكره.

منكرات الشوارع

من المنكرات المعتادة فيها وضع الخشب وأحمال الحبوب والأطعمة على الطرق وإخراج الأجنحة، فكل ذلك منكر، وإن كان يؤدي إلى تضييق الطرق واستضرار المارة، وإن لم يؤد إلى ضرر أصلاً لسعة الطريق، فلا يمنع منه، نعم يجوز وضع الحطب وأحمال الأطعمة في الطريق في القدر الذي ينقل إلى البيوت، فإن ذلك يشترك في الحاجة إليه الكافة، ولا يمكن المنع منه.

وكذلك ربط الدواب على الطريق بحيث يضيق الطريق وينجس المتازين، منكر يجب المنع منه إلا بقدر حاجة النزول والركوب، وهذا لأن الشوارع مشتركة المنفعة، وليس لأحد أن يختص بها إلا بقدر الحاجة.

والمرعي هوالحاجة التي تراد الشوارع لأجلها في العادة دون سائس الحاجات. ومنها سوق الدواب وعليها الشوك بحيث يمزق ثياب الناس، فذلك منكر، إلا إن أمكن شدها وضمها حتى لا تمزق، أو أمكن العدول بها إلى موضع واسع، وإلا فلا منع إذ حاجة أهل البلد تمس إلى ذلك. نعم لا تترك ملقاة على الشوارع إلا بقدر مدة النقل. وكذلك تحميل الدواب من الأحمال ما لا تطيقه، منكر يجب منع الملاك منه، وكذلك طرح القمامة على جوار الطرق، وتبديد قشور البطيخ، أو رش الماء بحيث يخشى منه التزلق والتعصر، كل ذلك من المنكرات. وكذلك إرسال الماء من الميازيب المتخرجة من الحائط في الطريق الضيقة، فإن ذلك ينجس الثياب أو يضيق الطريق، وكذلك الثلج الذي يطرحه شخص في الطريق، والماء الذي يجتمع فيه من ميزاب معين، فعلى الأول والثاني كسح الطريق منها.

وأما مياه المطر فذلك على محتسبي البلدة كسحها من الطريق، وكذلك

إذا كان له كلب(١) عقور على باب داره يؤذي الناس فيجب منعه منه.

منكرات الحمامات

(منها) كشف العورات والنظر إليها، ومنها كشف الدلاك عن الفخذ وما تحت السرة لتنحية الوسخ، بل من جملتها إدخال اليد تحت الإزار فإن مس عورة الغير حرام كالنظر إليها.

(ومنها) الانبطاح على الوجه بين يدي الدلاك لتغمير الأفخاذ والأعجاز، فهذا مكروه، ان كان مع حائل، ولا يحرم إلا إذا خشي حركة الشهوة.

(ومنها) أن يكون في مداخل بيوت الحمام ومجاري مياهها حجارة ملساء مزلقة يزلق عليها الغافلون، فهذا منكر ويجب قلعه وإزالته، وينكر على الحمامي إهماله، فإنه يفضي إلى السقطة، وقد تؤدي إلى انكسار عضو أو انخلاعه، وكذلك ترك الصابون على أرض الحمام منكر، وفي الحمام أمور أخر مكروهة ذكرت في كتاب الطهارة.

منكرات الضيافة

(منها) فرش الحرير للرجال وتبخير البخور في مجمرة ذهب أو فضة، والشرب في أواني الفضة.

(ومنها) سماع القينات، أي النساء المغنيات.

(ومنها) أن يكون الطعام حراماً أو الموضع مغصوباً.

(ومنها) أن يكون فيها من يتعاطى شـرب الخمر، فـلا يجوز الحضـور،

⁽۱) لا يجوز اقتناء الكلاب إلا لضرورة كالحراسة والصيد لقوله ﷺ: «من اقتنى كلباً، إلا كلب صيد وما أشبه، وفي رواية ـ كلب حرس ـ فإنه ينقص من أجره كل يـوم قيـراطـان، رواه البخارى ومسلم وغيرهما وذلك لخطره الصحى الذى ثبت حديثاً.

وان كان فيها مضحك بالحكايات وأنواع النوادر، فإن كان يضحك بالفحش والكذب لم يجز الحضور، ويجب الإنكار عليه، وإن كان ذلك بمزح لا كذب ولا فحش فهو مباح، أعني ما يقل منه فأما اتخاذه صنعة وعادة فليس بمباح.

(ومنها) الإسراف في الطعام والبناء فهو منكر، بل في المال منكران: (أحدهما) الإضاعة (والآخر) الإسراف، فالإضاعة تفويت مال بلا فائدة يعتد بها كإحراق الثوب وتمزيقه، وفي معناه صرف المال إلى النائحة، والمنكرات، وقد يطلق على الصرف إلى المباحات في جنسها، ولكن مع المبالغة، والمبالغة تختلف بالإضافة إلى الأحوال قال تعالى: ﴿وَلاَ تُبسُّطُها كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً عُّسُوراً ﴾ (الاسراء: ٢٩) وقال تعالى: ﴿وَلاَ تُبلِّرُ تَبْذِيراً، إِنَّ الْمُبَدِّرِينَ كَانُوا إِخُونَ الشَّيَطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَنُ لِرَبِهِ كَفُوراً ﴾ الاسراء: ٢٦ إنَّ المُبدِّرِينَ كَانُوا إِخُونَ الشَّيَطِينِ وَكَانَ الشَّيْطِينُ لِرَبِهِ كَفُوراً ﴾ الاسراء: ٢٦ وقال تعالى: ﴿وَلاَ بَينَ ذَلِكَ وَلاها وَالاده، وَلا معيشة لهم سواه، فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه منه، ولا معيشة لهم سواه، فأنفق الجميع في وليمة فهو مسرف يجب منعه منه، كذلك لو صرف جميع ماله إلى نقوش حيطانه وتزين بنيانه، فهو أيضاً إسراف عرم، وأما فعل ذلك عمن له كثير فليس بحرام، لأن التزيين من الأغراض عرم، وأما فعل ذلك عمن له كثير فليس بحرام، لأن التزيين من الأغراض الصحيحة(١)، وكذلك القول في التجمل بالثياب والأطعمة فذلك مباح في جنسه، وتصير إسرافاً باختيار حال الرجل وثروته.

المنكرات العامة

أعلم أن كل قاعد في بيته أينها كان، فليس خالياً في هذا الزمان عن منكر من حيث التقاعد عن إرشاد الناس وتعليمهم وحملهم على المعروف،

⁽١) كل ذلك محرم إذا أدى إلى إضاعة المال سدى، وما أضاع الاندلس وأدى إلى سفك دماء المسلمين فيها مثل إضاعة الأموال على الزخارف والنقوش بينها كان عدوهم يتربص بهم الدوائر ويستعد لهم، حتى انقض عليهم ومزقهم كل ممزق. .

فأكثر الناس جاهلون بالشرع في البلاد، فكيف في القرى والبوادي، فواجب أن يكون في كل مسجد ومحلة في البلد، فقيه يعلم الناس دينهم، وكذا في كل قرية، وواجب على كل فقيه فرغ من فرض عينه وتفرع لفرض الكفاية، وان يخرج إلى من يجاور بلده من أهل السواد، والعربان ويعلمهم دينهم وفرائض شرعهم، فإن قام بهذا الأمر واحد سقط الحرج عن الباقين.

وبالجملة فحق على كل مسلم أن يبدأ بنفسه فيصلحها بالمواظبة على الفرائض وترك المحرمات، ثم يعلم ذلك أهل بيته (١)، ثم يتعدى بعد الفراغ منهم إلى جيرانه، ثم إلى أهل علته، ثم إلى أهل بلده، ثم إلى أهل السواد المكتنف ببلده ثم إلى أهل البوادي، وهكذا إلى أقصى العالم، فإن قام به الأدنى سقط عن الأبعد وإلا خرج به كل قادر عليه قريباً كان أو بعيداً.

⁽١) إن هذا الترتيب حسن إذا قدر عليه المسلم وتيسر له، وإلا لم يوجب عليه، فإن نـوحاً ولـوطاً عليها السلام لم يتقاعسا عن دعوة قومها مع عدم تلبية بعض اهليها لها. والرسول ﷺ كفر به بعض أقاربه، فلم ينتظر حتى يؤمنوا، بل تركهم ودعا سائر قومه.



كناب الصفات النسبوية والاخت لاق المحدية

بيان تأديب اللَّه تعالى صفيه محمداً صلوات اللَّه عليه بالقرآن

كان رسول اللّه عَلَيْ كثير الضراعة والابتهال، دائم السؤال من اللّه تعالى أن يزينه بمحاسن الآداب ومكارم الأخلاق، فكان يقول في دعائه: «اللهم حسن خَلقي وخُلقي»(١) ويقول: «اللهم جنبي منكرات الأخلاق»(١) فاستجاب اللّه دعاءه وفاء بقوله تعالى: ﴿إِدْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ١٠) فأنزل عليه القرآن وأدبه، فكان خُلقه القرآن وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْو وَأُمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ آلْخُهِلِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩) وقوله: ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ الْفَحْشَاءِ وَٱلْمُنْ مِنْ عَرْمِ اللّهُ يَأْمُرُ بِالْعَدْنِ وَالإحْسَنِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْنِ ﴾ (النحل: ٩٠) وقوله: ﴿وَآصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ اللّهَ مِنْ عَزْمِ اللّهُ مُورِ ﴾ (النحل: ٩٠) وقوله: ﴿وَآصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ اللّهَ مِنْ عَزْمِ اللّهُ مُورِ ﴾ (النحل: ١٧) وقوله: ﴿وَآصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ اللّهَ يَنْهُ عَذَاوَةً كَأَنَّهُ وَلِيٌ جَمِيمُ ﴾ (فصلت: ٤٣) وقوله: ﴿وَآلْعَلْمِينَ أَبْعُلُمْ وَٱلْكَلْظِمِينَ وَالْكَلْظِمِينَ أَيْ اللّهَ الْفَيْطُ وَٱلْعَلْفِينَ عَنِ النَّاسِ ﴾ (آل عمران: ١٣٤) وقوله: ﴿آبُولُهُ مَنْ اللّهُ الْمُنْ إِنَّ بَعْضَ السَطَّنِ إِنَّ بَعْضَكُم بَعْضَا ﴾ المُحرات: ١٢).

(١) رواه أحمد بلفظ: «اللهم حسنت خلقي، فأحسن خلقي» واسناده صحيح (مم).

⁽٢) رواه الترمذي والطبراني والحاكم بلفظ: «اللهم أعوذ بـك من منكرات الأخـلاق والأعمـال والأهواء والأدواء» واسناده صحيح (مج).

وأمثال هذه التأديبات في القرآن لا تحصر، وهو هي المقصود الأول بالتأديب والتهذيب فإنه أدب بالقرآن، وأدب الخلق به(١)، ولذلك قال النبي عثت لأتم مكارم الأخلاق،(٢).

ومن ذلك حسن المعاشرة، وكرم الصنيعة ولين الجانب، وبذل المعروف وإطعام الطعام وإفشاء السلام، وعيادة المريض، وتشييع الجنازة وحسن الجوار لمن جاور مسلماً كان أو كافراً، وتوقير ذي الشيبة، وإجابة الطعام، والدعاء عليه، والعفو، والاصلاح بين الناس، والجود والكرم والسماحة، وكظم الغيظ، واجتناب المحارم، والغيبة، والكذب، والبخل والشح، والجفاء والمكر، والخديعة، والنميمة، وسوء ذات البين وقطيعة الأرحام، وسوء الخلق، والتكبر، والفخر، والاحتيال، والاستطالة، والبخل والشخ، والفحش، والحقد، والحسد، والطيرة، والبغي، والعدوان، والظلم.

قال أنس رضي الله عنه: فلم يدع - أي الإسلام - نصيحة جميلة إلا وقد دعانا إليها وأمرنا بها، ولم يدع غشاً أو عيباً إلا وحذرنا منه ونهانا عنه، ويكفي من ذلك كله هذه الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يَامُرُ بِالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي القَرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الفَحْشَآءِ وَالمُنْكِرِ وَالبَغْي يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٣).

أسهاء الرسول على

عن جُبير بن مُطعم قال: سمعت النبي على يقول: «إن لي أسماء: أنا

⁽١) على الغالب، فإن المسلمين مكلفون بالقرآن أيضاً.

⁽٢) رواه الحاكم والبيهقي، وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم، وهو حديث صحيح (مم).

⁽٣) نكتفي بما سبق من النقل عن «موعظة المؤمنين» في سيرة الرسول ﷺ. فقد ذكر الملخص جملة من عاسن! خلاقه ﷺ نقلاً عن «الاحياء» وفيها الصحيح وفيها غير الصحيح، وتحقيق ذلك من الصعب، لذا آثرنا نقل بعض صفاته ﷺ من الصحيحين، كما نقلنا بعض أخلاقه من كتاب «صحيح الجامع الصغير وزياداته (الفتح الكبير)، وهي مسندة في المصدر السابق، وكلها صحيحة أو حسنة، كما قال محققه، فمن أراد زيادة التحقيق فليرجع إليه في آخر المجلد الرابع.

محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحمو اللَّه بي الكفر، وأنـا الحاشر الـذي يحشر الناس على قدمى، وأنا العاقب»(١).

وعن جابر، قـال النبي ﷺ: «سموا بـاسمي، ولا تكنوا بكنيتي، فـإنِ بعثت قاسماً، أقسم بين الناس»(٤).

صفاته (٥) عَلَيْقِ

عن جابر بن سمرة، قال: كان رسول الله على شمط مقدم رأسه

⁽١) العاقب الذي ليس بعده نبي. رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) أي آخر الأنبياء.

⁽٣) رواه مسلم.

⁽٤) وسنده صحيح (مج).

⁽٥) لقد رأينا التوسع قليلًا في ذكر صفاته ووصف صورته ﷺ ليتخيلها المسلم، وليكون على بينة من الأمر فيها يتعلق برؤيته في المنام، وما يترتب عليها، فقد وقع الكثيرون في جهالات ومحظورات عدة بسببها، كأن يزعموا أنهم رأوا رسول الله ﷺ في الرؤيا وأخبرهم بأمور قد تخالف الكتاب والسنة، فيسارعوا إلى تنفيذها مستدلين بالحديث الصحيح: «من رأني في المنام، فسيراني في اليقظة. فإن الشيطان لا يتمثل بي، رواه البخاري ومسلم.

وقد نسى هؤلاءُ الراؤون أو تناسوا أمرين هامين:

الأمر الأول: إن هذه الرؤيا المنامية التي لا يتمثل بها الشيطان مقيدة بـأن تكون وفق مـا جاء في وصف صورته على في كتب السيرة الصحيحة. أما إذا كانت في غير هذا الوصف وغير هذه الصورة فتكون رؤيا شيطان يوهم أنه رسول الله على فالحذر الحذر. وقـد ذكر الإمـام الجيلاني أن الشيطان زعم له بأنه الله فكيف لا يزعم له في المنام بأنه رسول الله على؟!

الأمر الثاني: قال الإمام ابن الحاج رحمه الله تعالى: ﴿وليحذر﴾ مما يقع لبعض الناس في هذا الزمان وهو أن يرى النبي ﷺ في منامه فيأمره بشيء أو ينهاه. عن شيء فينتب من نومه، فيقدم على فعله أو تركه بمجرد المنام دون أن يعرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وعلى ____

ولحيته، وكان إذا ادَّهن لم يتبين (١)، وإذا شعبت رأسه تبين. وكان كثير شعر اللحية، فقال رجل: وجهه مثل السيف قال أي جابر لا بل كان مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً، ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده (٢).

وعن أنس، قال: كان رسول الله في ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير، وليس بالأبيض الأمهق (٣) ولا بالآدم (٤)، وليس بالجعد القطط (٥) ولا بالسبط (٢). الحديث.

تواعد السلف رضي الله عنهم. قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿فَإِنْ تَنَازَعُتُمْ فِي شِيءُ فَرَدُوهُ إِلَى الله والرسول﴾ فمعنى قوله: ﴿وَلِلْ اللَّهِ﴾ أي إلى كتاب الله تعالى، ومعنى قوله: ﴿وَإِلَىٰ الرسول﴾ أي إلى الرسول﴾ أي إلى الرسول﴾ أي إلى الرسول﴾ أي إلى الرسول، في حياته، وإلى سنته بعد وفاته».

هذا وإن كانت رؤيا النبي على حقاً لا شك فيها (للحديث السابق (لكن) لم يكلف الله تعالى عباده بشيء مما يقع لهم في منامهم (قال) على: رفع القلم عن ثلاث وعد فيها النائم حتى يستيقظ، لأنه إذا كان نائياً فليس من أهل التكليف فلا يعمل بشيء يراه في منامه هذا وجه (ووجه ثان) وهو أن العلم والرواية لا يؤخذان إلا من متيقظ حاضر العقل، والنائم ليس كذلك (ووجه ثالث) وهو أن العمل في المنام نحالف لقول صاحب الشريعة على حيث قال: تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، فجعل النجاة من الضلالة في التمسك بهذين الأصلين اللذين لا ثالث لها، ومن اعتمد على ما يراه في منامه فقد زاد لها التمسك بهذين الأصلين اللذين لا ثالث لها، ومن اعتمد على ما يراه في منامه فقد زاد لها

الله المتاب والسنة إذ أنه ﷺ في منامه وأمره بشيء أو نهاه عن شيء فيتعين عليه عرض ذلك على الكتاب والسنة إذ أنه ﷺ إنما كلف أمته بأتباعها وقد قال ﷺ: وألا فليبلغ الشاهد الغائب. الحديث. . ، فإذا عرضها على شريعته فإن وافقتها علم أن الرؤيا حتى، وأن الكلام الذي وقع فيه حتى وتبقى الرؤيا تأكيد له ، وإن خالفتها علم أن الرؤيا غير حتى ، وأن الكلام الذي وقع فيه ألقاه الشيطان له في ذهنه والنفس الامارة بالسوء ، لأنها يوسوسان له في حال يقظته فكيف في حال نومه؟!

هذا _ وإن الرؤيا تكون غالباً رمزية، وليست صريحة، كرؤيا ملك مصر، فأين مثل يـوسف عليه السلام في تأويلها وتفسيرها؟!

(١) أي لم يظهر الشيب. (٤) الآدم من الناس: الأسمر.

(٢) رواه مسلم.

(٣) الذي بياضه خالص لا تشوبه حرة ولا غيرها.

وفي رواية يصف النبي على قال: كان ربعة من القوم، ليس بالطويل، ولا بالقصير، أزهر اللون، وقال: كان شعر رسول الله على إلى أنصاف أذنيه وعاتقه (١).

وفي رواية البخاري، قال: كان ضخم الرأس والقدمين، لم أر بعده ولا قبله مثله، وكان سبط الكفين. وفي أخرى قال: كان شثن^(٢) القدمين والكفين.

وعن البراء، قال: كان رسول الله على مربوعاً، بعيد ما بين المنكبين، له شعر بلغ شحمة أذنيه، رأيته في حُلة حراء، لم أر شيئاً قط أحسن منه (٢٠).

وفي رواية لمسلم، قال: ما رأيت من ذي لمة أحسن في حلة حمراء من رسول الله على شعره يضرب منكبيه، بعيد ما بين المنكبين، ليس بالطويل ولا بالقصير.

وعن جابر بن سمرة، قال: كان رسول اللّه على ضليع الفم، أشكل العينين، منهوش العقبين (م) قيل لسماك: ما ضليع الفم؟ قال عظيم الفم، قيل: ما أشكل العينين؟ قال: طويل شق العينين. قيل ما منهوش العقبين؟ قال: قليل لحم العقب.

وعن ثابت، قال: سئل أنس عن خضاب رسول الله على فقال: إنه لم يبلغ ما يخضب، لو شئت أن أعد شحطات لحيته وفي رواية -: لو شئت أن أعد شحطات كن في رأسه، فعلت(٤).

وفي رواية لمسلم، قال: إنما كان البياض في عنفقته، وفي الصدغين، وفي الرأس نبُذُ (°).

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) أي انها تميلان إلى الغلظ والقصر، وهو محمود في الرجال، لأنه أشد لقبضهم.

⁽٣) و٤) رواهما البخاري ومسلم.

⁽٥) أي شيء يسير.

وعن أنس، قال: كان رسول الله ﷺ أزهر اللون، كأن عرقه اللؤلؤ، إذا مشى تكفأ، وما مسست ديباجة، ولا حريراً ألين من كف رسول الله ﷺ، ولا شممت مسكاً ولا عنبراً أطيب من رائحة النبي ﷺ(١).

- ١ _ كان شبح الذراعين، بعيد ما بين المنكبين.
 - ٢ _ كان شعره دون الجمة، وفوق الوفرة.
 - ٣ _ كان شبيه نحو عشرين شعرة.
 - ٤ _ كان ضخم الرأس، واليدين، والقدمين.
 - ٥ _ كان ضخم الهامة عظيم اللحية.
 - ٦ _ كان كثير العرق (م).
 - ٧ ـ كان كثير شعر اللحية (م).
- ٨ كان وجهه مثل الشمس والقمر، وكان مستديراً (م).
 - ٩ ـ كان أبيض، كأغا صيغ من فضة، رجل الشعر.
- ١٠ ـ كان أبيض، مشرباً بحمرة، ضخم الهامة. . . أهدب الأشفار.
- ۱۱ ـ كان أبيض، مشرباً بحمرة، وكان أسود الحدقة، أهدب الأشفار.
 - ١٢ ـ كان أبيض مليحاً مقصداً.

شمائله (۲) ﷺ

١ - كان آخر كلام النبي ﷺ: الصلاة الصلاة، اتقوا الله فيا ملكت أيمانكم.

٢ _ كان آخر ما تكلم به أن قال: قاتل الله اليهود والنصاري اتخذوا

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

نقلنا هذا البحث من كتاب صحيح الجامع الصغير وزيادته، وكل ما جاء فيه صحيح أو حسن. وقد ذيلنا كل حديث رواه البخاري بـ (خ) وما رواه مسلم بـ (م)، وكل حديث لم يذيل بذلك فهو لغيرهما وجيد الإسناد.

- قبور أنبيائهم مساجد، لا يبقين دينان بأرض العرب.
 - ٣ _ كان أبغض الخلق اليه الكذب.
 - ٤ كان أحب الألوان اليه الخضرة.
 - ٥ _ كان أحب الثياب إليه الحبرة.
 - ٦ _ كان أحب الثياب إليه القميص.
- ٧ _ كان أحب الدين اليه ما داوم عليه صاحبه.
 - ٨ كان أحب الشراب إليه الحلو البارد.
- ٩ _ كان أحب الشهور إليه أن يصومه شعبان، (ثم يصله برمضان).
 - ١٠ _ كان أحب العِرق إليه ذراع الشاة.
 - ١١ _ كان أحب العمل إليه ما دووم عليه وإن قل.
 - ١٢ _ كان أحب ما استتر به لحاجته هدف أو حائش نخل.
 - ١٣ _ كان أحسن الناس خُلقاً.
- 15 ـ كان أحسن الناس.. ربعة؛ إلى الطول ما هو، بعيد ما بين المنكبين، أسيل الخدين، شديد سواد الشعر، أكحل العينين، أهدب الأشفار، إذا وطيء بقدمه وطيء بكلها؛ ليس له أخمص، إذا وضع رداءة عن منكبيه فكأنه سبيكة فضة...
 - ١٥ _ كان أحسن الناس، وأجود الناس، وأشجع الناس.
- ١٦ _ كان أحسن الناس وجه، وأحسنهم خلقاً، ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير.
 - ١٧ _ كان أخف الناس صلاة على الناس، وأطول الناس صلاة لنفسه.
 - ١٨ _ كان أخف الناس صلاة في تمام.
- 19 _ كان إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر، ويقول: السلام عليكم، السلام عليكم.
- ٢٠ _ كان إذا أى مريضاً، أو أى به قال: أذهب الباس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقماً.
- ٢٥ _ كان إذا أتاه الأمر يسره قال: الحمد للَّه الذي بنعمته تتم

الصالحات، وإذا أتاه الأمر يكرهه قال: الحمد لله على كل حال.

٢٦ _ كان إذا أتاه الرجل وله اسم لا يحبه حوله.

٢٧ _ كان إذا أتاه الفيء قسمه في يومه؛ فأعطى الآهل حظين، وأعطى العزب حظاً.

٢٨ _ كان إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: اللهم صل على آل فلان.

٢٩ ـ كـان إذا أي بباكـورة الثمرة وضعها على عينيـه ثم عـلى شفتيه، . . . ثم يعطيه من يكون عنده من الصبيان .

٣٠ كان إذا أي بطعام سأل عنه أهديه أم صدقة؟ فإن قيل: صدقة،
 قال لأصحابه: كلوا ولم يأكل، وإن قيل: هدية، ضرب بيده، فأكل معهم.

٣١ كان إذا أخذ أهله الوعك أمر بالحساء فصنع، ثم أمرهم فحسواً، وكان يقول: إنه ليرتو فؤاد الحزين، ويسرو عن فؤاد السقيم، كا تسرو إحداكن الوسخ بالماء عن وجهها.

٣٢ _ كان إذا أخذ مضجعه جعل يده اليمني تحت خده الأيمن.

٣٣ _ كان إذا أخذ مضجعه قرأ ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾ حتى يختمها.

٣٤ كان إذا أخذ مضحعه من الليل قال: بسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، وأخسىء، شيطاني، وفك رهاني، وثقل ميزاني، واجعلني في الندي الأعلى.

٣٥ - كان إذا أخذ مضجعه من الليل وضع يده تحت خده ثم يقول: باسمك اللهم أحيا، وباسمك أموت، وإذا استيقظ قال: الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور (م).

٣٦ _ كان إذا أراد الحاجة أبعد.

٣٧ ـ كان إذا أراد الحاجة لم يرفع ثوبه حتى يدنو من الأرض.

٣٨ ـ كـان إذا أراد أن يباشر امـرأة من نسائـه وهي حائض أمـرها أن تأتزر، ثم يباشرها (م).

٣٩ .. كان إذا أراد أن يحرم تطيب بأطيب ما يجد (م).

٤٠ كان إذا أراد أن يدعو على أحد ويدعو لأحد قنت بعد الركوع
 (خ).

٤١ ـ كان إذا أراد أن يرقد وضع يده اليمنى تحت خده، ثم يقول:
 اللهم قنى عذابك، يوم تبعث عبادك (ثلاث مرات).

٢٤ - كان إذا أراد أن يستودع الجيش قال: أستودع الله دينكم،
 وأمانتكم، وخواتيم أعمالكم.

٤٣ _ كان إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر ثم دخل معتكفه.

٤٤ - كان إذا أراد أن ينام وهو جنب توضأ وضوءه للصلاة، وإذا أراد أن يأكل أو يشرب، وهو جنب، غسل يديه ثم يأكل ويشرب.

٤٥ ـ كان إذا أراد أن ينام وهو جنب غسل فرجه، وتوضأ للصلاة.

 ٤٦ - كان إذا أراد سفراً قرع بين نسائه، فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه.

٤٧ _ كان إذا أراد غزوة ورى بغيرها.

٤٨ - كان إذا استجد ثوباً سماه باسمه قميصاً أو عمامة أو رداء، ثم
 يقول: اللهم لك الحمد، أنت كسوتنيه، أسألك من خيرة وخير ما صنع له،
 وأعوذ بك من شره، وشر ما صنع له.

٤٩ _ كان إذا استراث الخبر غثل ببيت طرفة:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٥٠ كان إذا استسقى قال: اللهم اسق عبادك وبهائمك، وانشر
 رحمتك، وأحي بلدك الميت.

١ ٥ - كان إذا استفتح الصلاة قال: سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك، وتعالى جدك، ولا إله غيرك.

٥٢ ـ كان إذا استن أعطى السواك الأكبر، وإذا شرب أعطى الذي عن يمينه.

٥٣ _ كان إذا اشتد البرد بكر بالصلاة، وإذا اشتد الحر أبرد بالصلاة (خ).

٥٤ _ كان إذا اشتدت الربح قال: اللهم لقحاً لا عقياً.

٥٥ ـ كان إذا اشتكى أحد رأسه قال: اذهب فـاحتجم، وإذا اشتكى رجله قال: اذهب فاخضبها بالحناء.

٥٦ ـ كان إذا اشتكى رقاه جبريل قال: بسم الله يبريك، من كل داء يشفيك، ومن شرحاسد إذا حسد، وشر كل ذي عين (م).

٥٧ _ كان إذا اشتكى نفث على نفسه بالمعوذات ومسح عنه بيده.

٥٨ ـ كان إذا أصبح وإذا أمسى قال: أصبحنا على فطرة الإسلام، وكلمة الإخلاص، ودين نبينا محمد، وملة أبينا إبراهيم، حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين.

٥٩ ـ كان إذا اطلع على أحد من أهل بيته كذب كذبة؛ لم يزل معرضاً
 عنه حتى يجدث توبة.

· 7 - كان إذا اعتم سدل عمامته(١) بين كتفيه.

71 - كان إذا أفطر عند قوم قال: أفطر عندكم الصائمون، وأكل طعامكم الأبرار وتنزلت عليكم الملائكة(٢).

٦٢ - كان إذا أفطر قال: ذهب الظمأ، وابتلت العروق وثبت الأجر إن شاء الله.

٦٣ ـ كان إذا أفطر عند قوم، قال: أفطر عندكم الصائمون، وصلَّت عليكم الملائكة.

٦٤ ـ كان إذا اكتحل اكتحل وترأله ﴿ وإذا استجمر استجمر وتراً.

٦٥ - كان إذا أكل أو شرب قال: الحمد لله الذي أطعم، وسقى، وسوغه وجعل له نخرجاً.

⁽١) عمامة الرسول 幾 كانت أشبه شيء بما يسمى في زماننا (حطة) يتقنع بها ويلتثم بها، (م،م).

⁽٢) أعلم أن الحديث ليس خاصاً بالصائم كما تفيده كلمة وافسطر، الأولى، فإن في ثبوتها نظراً كما بينته في المصدر المكذور أعلاه.

⁽٣) أي في العين اليمنى وأما اليسرى فمرتين كها جاء مفصلًا في بعض الأحاديث، فراجع والأحاديث الصحيحة».

٦٦ _ كان إذا أكل طعاماً لعق أصابعه الثلاث.

٦٧ _ كان إذا أكل لم تعْدُ أصابعه بين يديه.

٦٨ _ كان إذا التقى الختانان اغتسل(١).

٦٩ _ كان إذا نزل عليه الوحى كرب لذلك وتربد وجهه.

٧٠ كان إذا نزل عليه الوحي نكس رأسه ونكس أصحابه رؤوسهم،
 فإذا أقلع عنه رفع رأسه.

٧١ _ كان إذا انصرف انحرف(٢).

٧٢ _ كان إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً، ثم قال: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت ياذا الجلال والإكرام (م).

٧٣ _ كان إذا أوى إلى فراشه قال: الحمد لله الذي أطعمنا، وسقانا،
 وكفانا، وآونا فكم من لا كافي له، ولا مؤوي له.

٧٤ - كان إذا بايعه الناس يلقنهم: فيها استطعت.

٧٥ _ كان إذا بعث أحداً من أصحابه في بعض أمره قال: بشروا ولا تنفروا، ويسروا ولا تعسروا.

٧٦ - كان إذا بلغه عن الرجل شيء لم يقل: ما بال فلان يقول؟ ولكن يقول: ما بال أقوام يقولون كذا وكذا.

٧٧ _ كان إذا تضور (٣) من الليل قال: لا إله إلا الله الواحد القهار، رب السموات والأرض وما بينها العزيز الغفار.

٧٨ - كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً، حتى تفهم عنه، وإذا أتى على
 قوم فسلم عليهم، سلم عليهم ثلاثاً (خ).

٧٩ _ كان إذا تهجد يسلم بين كل ركعتين.

٨٠ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فأدخله تحت حنكه، فخلل بـه
 ځيته، وقال: هكذا أمرنى ربي.

⁽١) هذا الحديث نسخ حديث: «إنما الماء من الماء» فانتبه! (م.م).

⁽٢) أي من صلاته وسلم (انحرف) أي عن جهة القبلة إلى القوم.

⁽٣) أي تلوى وتقلب ظهراً لبطن.

- ٨١ _ كان إذا توضأ أخذ كفاً من ماء فنضح به فرجه.
 - ٨٢ _ كان إذا توضأ أدار الماء على مرفقيه .
 - ٨٣ كان إذا توضأ خلل لحيته بالماء.
 - ٨٤ _ كان إذا توضأ دلك أصابع رجليه بخنصره.
- ٨٥ _ كان إذا جاءه أمر يسر به خر ساجداً شكراً لله تعالى .
 - ٨٦ كان إذا جلس احتبى بيديه.
 - ٨٧ _ كان إذا حزبه أمر صلى.
- ٨٨ _ كان إذا حلف على بمين لا يحنث حتى نزلت كفارة اليمين.
 - ٨٩ كان إذا حلف قال: والذي نفس محمد بيده.
- ٩٠ كان إذا خاف قوماً قال: اللهم إنا نجعلك في نحورهم، ونعوذ
 بك من شرورهم.
 - ٩١ _ كان إذا خرج من الغائط قال: غفرانك.
- ٩٢ كان إذا خرج من بيته قال: بسم الله، توكلت على الله، اللهم إنا نعوذ بك من أن أنزل، أو نضل أو نظلم أو نظلم، أو نجهل أو يجهل علينا.
- ٩٣ _ كان إذا خرج من بيته قال: بسم الله، رب أعوذ بك من أن أزل، أو أضل، أو أظلم أو أظلم، أو أجهل أو يجهل علي.
 - ٩٤ ـ كان إذا خرج يوم العيد في طريق رجع من غيره.
- ٩٥ ـ كان إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد عضبه، كأنه منذر جيش (١)، يقول: صبَّحكم ومسَّاكم.
 - ٩٦ _ كان إذا دخل العشر شد مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله.
- ٩٧ ـ كان إذا دخل الكنيف قال: بسم الله، اللهم إني أعوذ بـك من الخبث والخبائث.

⁽١) أين هذا الوضع الثائر المثير الممتليء بالحيوية والقوة من أكثر خطب الجمعة المخدرة المنوسة! (م.م).

٩٨ - كان إذا دخل المسجد قال: أعوذ بالله العظيم، وبوجهه الكريم، وسلطانه القديم، من الشيطان الرجيم، وقال: إذا قال ذلك حُفظ منه سائر اليوم.

99 ـ كان إذا دخل المسجد قال: . . . الهم صل على محمد، وأزواج محمد.

١٠٠ _ كان إذا دخل بيته بدأ بالسواك.

ا ۱۰۱ _ كان إذا دخل على مريض يعوده قال: لا بأس، طهور إن شاء الله (خ).

١٠٢ - كان إذا دخل - أي على أهل بيته - قال: هـل عندكم طعام؟ فإذا قيل: لا، قال: إني صائم.

١٠٣ - كان إذا دعا بدأ بنفسه.

١٠٤ ـ كان إذا دعا جعل باطن كفه إلى وجهه.

١٠٥ ـ كان إذا ذبح الشاة يقول: أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة (م).

١٠٦ ـ كان إذا ذكر أحداً فدعا له بدأ بنفسه.

١٠٧ - كان إذا ذهب المذهب أي أراد قضاء الحاجة أبعد.

١٠٨ - كان إذا رأى المطر قال: اللهم صيباً نافعاً (خ).

۱۰۹ - كان إذا رأى الهلال قال: اللهم أهله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله(١).

۱۱۰ - كان إذا رأى ما يحب قال: الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يكره قال: الحمد لله على كل حال...

١١١ ـ كان إذا راعه شيء قال: اللَّه اللَّه ربي، لا شريك له.

١١٢ ـ كان إذا رفأ الإنسان إذا تزوج قال: بارك الله لك، وبارك عليك، وجمع بينكما في خير.

١١٣ ـ كان إذا رفعت مائدته قال: الحمد للَّه حمداً كثيراً طيبـاً مباركـاً

⁽١) ويشترط في ذلك أن يستقبل الداعي القبلة ، لا القمر! (م.م).

فيه، الحمد للَّه كفانا وآونا، غير مكفى ولا مكفور، ولا مودع، ولا مستغنى عنه ربنا (خ).

١١٤ ـ كان إذا ركع سوى ظهره، حتى لو صب عليه الماء لاستقر.

١١٥ _ كان إذا ركع فرج أصابعه. وإذا سجد ضم أصابعه.

١١٦ _ كان إذا ركع قال: سبحان ربي العظيم وبحمده (ثلاثاً)، وإذا سجد قال: سبحان ربي الأعلى ويحمده (ثلاثاً).

١١٧ - كان إذا رمي الجمار (١) مشى إليه ذاهياً وراجعاً.

١١٨ _ كان إذا رمى جمرة العقبة مضى ولم يقف.

١١٩ ـ كان إذا سجد جافي حتى يرى بياض إبطيه.

١٢٠ _ كان إذا سر استنار وجهه كأنه قطعة قمر.

١٢١ _ كان إذا سلم لم يقعد إلا بمقدار ما يقول: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ياذا الجلال والإكرام (م).

١٢٢ _ كان إذا سمع المؤذن قال مثل ما يقول، حتى إذا بلغ (حي على الصلاة؛ حي على الفلاح) قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

١٢٣ _ كان إذا سمع المؤذن يتشهد قال: وأنا وأنا.

١٢٤ _ كان إذا سمع بالاسم القبيح حوله إلى ما هو أحسن منه.

١٢٥ ـ كان إذا شرب تنفس ثلاثاً ويقول: هو أهناً، وأمراً، وأبراً.

١٢٦ _ كان إذا صعد المنبر سلم.

١٢٧ _ كان إذا صلى الغداة جلس في مصلاه حتى تطلع الشمس.

١٢٨ ـ كان إذا صلى الغداة في سفر مشي عن راحلته قليلًا.

١٢٩ _ كان إذا صلى ركعتى الفجر اضطجع على شقه الأيمن.

١٣٠ _ كان إذا صلى صلاة أثبتها (مم).

١٣١ _ كان إذا طاف بالبيت استلم الحجر والركن في كل طواف.

⁽١) يعني في الأيام الثلاثة بعد يوم النحر، وأما في يوم النحر فكان يرميها راكباً كما في رواية (حم، د).

۱۳۲ ـ كان إذا عرس وعليه ليل توسد يمينه، وإذا عرس قبل الصبح وضع رأسه على كفه اليمني، وأقام ساعده.

۱۳۳ _ كان إذا عصفت الريح قال: اللهم إني أسألك خيرها وخير ما أرسلت به، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت به (م).

178 ـ كان إذا عطس حمد الله، فيقال له: يرحمك الله، فيقول: يهديكم الله ويصلح بالكم.

١٣٥ _ كان إذا عطس وضع يده أو ثوبه على فيه، وخفض بها صوته.

١٣٦ _ كان إذا عمل عملاً أثبته (م).

۱۳۷ ـ كان إذا غزا قال: اللهم أنت عضدي، وأنت نصيري، بك أحول، وبك أصول، وبك أقاتل.

١٣٨ _ كان إذا غضب احمرت وجنتاه.

١٣٩ _ كان إذا فاته الأربع قبل الظهر صلاها بعد الظهر.

1٤٠ ـ كان إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه، فقال: استغفروا اللَّه لأخيكم، وسلوا اللَّه التثبيت؛ فإنه الآن يسأل(١).

١٤١ _ كان إذا قام إلى الصلاة رفع يديه مداً.

١٤٢ ـ كان إذا قام على المنبر استقبله أصحابه بوجوههم.

18٣ ـ كان إذا قام من الليل ليصلي افتتح صلاته بركعتين خفيفتين (م).

١٤٤ ـ كان إذا قام من الليل يشوص فاه بالسواك.

١٤٥ _ كان إذا قدم من سفر تلقي بصبيان أهل بيته (م).

187 - كان إذا قرأ: ﴿سَبِّحِ آسُمِ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ قال: سبحان ربي الأعلى.

١٤٧ ـ كان إذا قرأ من الليل رفع طوراً، وخفض طوراً.

١٤٨ _ كان إذا قرب إليه طعام قال: بسم الله، فإذا فرغ قال: اللهم

^{. (}١) إن هذه السنة الهامة متروكة غالباً وياللأسف! (م.م).

إنك أطعمت وسققيت، وأغنيت وأقنيت، وهديت واجتبيت، اللهم فلك الحمد على ما أعطيت.

189 ـ كان إذا قفل من غزو، أو حج، أو عمرة يكبر على كل شرف من الأرض، (ثلاث تكبيرات)، ثم يقول: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، آيبون تائبون، عابدون ساجدون، لربنا حامدون، صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده.

10٠ ـ كان إذا كان الرطب لم يفطر إلا على الرطب، وإذا لم يكن الرطب لم يفطر إلا على التمر(١).

۱۵۱ _ كان إذا كان راكعاً، أو ساجداً قال: سبحانك وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك.

١٥٢ _ كان إذا كان صائماً أمر رجلاً فأوفى على شيء (٢) فإذا قال: غابت الشمس أفطر.

١٥٣ ـ كان إذا كان في وتر من صلاته لم ينهض حتى يستوي قاعداً.

١٥٤ ـ كان إذا كان قبل التروية بيوم خطب الناس، فأخبرهم عناسكهم.

100 _ كان إذا كان مقيماً اعتكف العشر الأواخر من رمضان، وإذا سافر اعتكف من العام المقبل عشرين.

١٥٦ ـ كان إذا كان يوم عيد خالف الطريق.

١٥٧ ـ كان إذا كربه أمر قال: ياحي ياقيوم برحمتك أستغيث.

١٥٨ ـ كان إذا كره شيئاً رئي ذلك في وجهه.

١٥٩ - كان إذا لبس قميصاً بدأ بميامنه.

١٦٠ _ كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه، قام معه فلم ينصرف

⁽١) ما أعظم فائدة هذه السنة، من الناحية الصحية إذ تسبب سرعة تمثل السكر في الدم (م.م).

⁽٢) كذا الأصل تبعاً لـ (الجامع، وفي (ك) ونشز، ولعله الصواب.

حتى يكون الرجل هو الذي ينصرف عنه، وإذا لقيه أحد من أصحاب فتناول يده ناوله إياها، فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذي ينزع يده منه، وإذا لقي أحداً من أصحابه فتناول أذنه _ أي حادثه وأسر إليه _ ناوله إياها _ أي استمع إليه _ ثم لم ينزعها حتى يكون الرجل هو الذي ينزعها عنه.

١٦١ _ كان إذا لقيه الرجل من أصحابه مسحه، ودعا له.

۱٦٢ ـ كان إذا مر بآية خوف تعوذ، وإذا مر بآيـة رحمة سـأل، وإذا مر بآية فيها تنزيه اللَّه سبح .

١٦٣ - كان إذا مرض أحد من أهل بيته نفث عليه بالمعوذات (م).

۱٦٤ ـ كان إذا مشى أقلع^(١).

١٦٥ _ كان إذا مشى لم يلتفت.

١٦٦ ـ كان إذا مشي، مشي أصحابه أمامه، وتركوا ظهره للملائكة.

١٦٧ _ كان إذا نام من الليل أو مرض صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة (م).

١٦٨ - كان إذا نام وضع يده اليمني تحت خده وقال: اللهم قني عذابك، يوم تبعث عبادك.

١٦٩ ـ كان إذا نزل به هم أو غم قال: ياحي ياقيوم برحمتك أستغث.

1۷۰ _ كان إذا نزل عليه الوحي ثقل لذلك، وتحدر جبينه عـرقاً كـأنه جمان(٢٠)، وإن كان في البرد.

۱۷۱ ـ كمان إذا واقع بعض أهله فكسل أن يقوم ضرب يده على الحائط، فتيمم.

۱۷۲ ـ كان إذا ودع رجلًا أخذ بيده، فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذي يده ويقول: أستودع اللَّه دينك، وأمانتك وخواتيم عملك.

⁽١) قال في (النهاية): «أراد قوة مشيه، كأنه يرفع رجليه من الأرض رفعاً قوياً» ثم ذكر أنه بمعنى حديث «كأنما ينحط من صبب» أي ينزل من مكان مرتفع.

⁽٢) حبات من الفضة.

1۷۳ - كان إذا وضع الميت في لحده قال: بسم الله، وبالله، وفي سبيل الله، وعلى ملة رسول الله.

١٧٤ ـ كان أرحم الناس بالصبيان والعيال.

١٧٥ _ كان أشد حياء من العذراء في خدرها.

١٧٦ _ كان أكثر ايمانه: لا ومصرف القلوب.

۱۷۷ ـ كان أكثر دعائه: يامقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك. فقيل له في ذلك؟ قال: إنه ليس آدمي وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ.

١٧٨ ـ كان أكثر دعوة يدعو بها: ﴿رَبُّنَا آتِنَا فِي الدُّنيَا حَسَنَةً وَفِي، الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِي، الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِينَا عَذَابَ النَّارِ ﴾.

1۷۹ ـ كان أكثر صومه السبت والأحد، ويقول: هما يـوم عيـد المشركين، فأحب أن أخالفهم.

• ۱۸ - كان أكثر ما يصوم الاثنين والخميس. فقيل له؟ فقال: الأعمال تعرض كل اثنين وخيس، فيغفر لكل مسلم، إلا المتهاجرين، فيقال: أخروهما.

١٨١ _ كان بابه يقرع بالأظافير.

١٧٢ _ كان تنام عيناه، ولا ينام قلبه.

١٨٣ _ كان خاتمه من فضة ، فصه منه (خ).

١٨٤ ـ كان خاتمه من ورق، فصه حبشياً.

١٨٥ ـ كان خلقه القرآن.

١٨٦ - كان رايته ـ سوداء، ولواؤه أبيض.

١٨٧ - كان رحياً بالعيال.

۱۸۸ ـ كان رحيهاً، وكان لا يأتيه أحد إلا وعده، وأنجز لـه إن كان عنده.

١٨٩ - كان في كلامه ترتيل، أو ترسيل.

- ١٩٠ _ كان كلامه كلاماً فصلاً، يفهمه كل من سمعه.
 - ١٩١ ـ كان له خرقة، يتنشف بها بعد الوضوء.
 - ١٩٢ ـ كان له سكة يتطيب منها.
- ١٩٣ كان له مؤذنان: بلال، وابن أم مكتوم الأعمى (م).
- ۱۹۶ ـ كان له ملحفة مصبوغة بالورس والزعفران، يدور بها على نسائه، فإذا كانت ليلة هذه، رشتها بالماء، وإذا كانت ليلة هذه، رشتها بالماء، وإذا كانت ليلة هذه، رشتها بالماء(۱).
 - ١٩٥ كان مما يقول للخادم: ألك حاجة؟
 - ١٩٦ _ كان وسادته التي ينام عليها بالليل من أدم، حشوها ليف!
 - ١٩٧ كان لا يؤذن له في العيدين (م).
 - ١٩٨ ـ كان لا يأكل متكتأ(٢)، ولا يطأ عقبه رجلان.
 - ١٩٩ _ كان لا يتطبر، ولكن يتفاءل.
 - ٢٠٠ ـ كان لا يتعار من الليل إلا أجرى السواك على فيه.
 - ٢٠١ ـ كان لا يتوضأ بعد الغسل.
 - ٢٠٢ كان لا يجد من الدقل ما يملأ بطنه.
- ٢٠٣ ـ كان لا يخرج يوم الفطر حتى يطعم، ولا يطعم يوم النحر حتى يذبح.
 - ٢٠٤ ـ كان لا يدع أربعاً قبل الظهر، وركعتين قبل الغداة (خ).
 - ٢٠٥ ـ كان لا يدع صوم أيام البيض، في سفر ولا حضر.
 - ٢٠٦ كان لا يدع قيام الليل، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعداً.
 - ٢٠٧ ـ كان لا يدفع عنه الناس، ولا يضربوا عنه.

⁽١) إن هذه الملحفة طريقة مبسطة لطيفة تقوم مقام مكيفة الهواء فيترطب الجو خلال تبخر الماء! (٥٠٠).

⁽٢) قال في (النهاية): «المتكىم كل من استوى قاعداً على وطاء متمكناً. . والمعنى: إني إذا أكلت لم أقعد متمكناً فعل من يريد الاستكثار منه».

۲۰۸ _ كان لا يراجع بعد ثلاث.

٢٠٩ _ كان لا يرد الطيب (خ).

٠ ٢١ _ كان لا يرقد من ليل فيستيقظ إلا تسوك.

٢١١ _ كان لا يسأل شيئاً إلا أعطاه أو سكت.

٢١٢ _ كان لا يصافح النساء في البيعة(١).

۲۱۳ ـ كان لا يصلي الركعتين بعد الجمعة، ولا الركعتين بعد المغرب
 إلا في أهله.

٢١٤ ـ كان لا يصلي المغرب حتى يفطر، ولو على شربة من الماء.

٢١٥ ـ كان لا يصلي قبل العيد شيئاً، فإذا رجع إلى منزله صلى

٢١٦ _ كان لا يصيبه قرحة ولا شوكة إلا وضع عليها الحناء.

٢١٧ _ كان لا يضحك إلا تبسياً.

٢١٨ ـ كان لا يطرق أهله ليلاً.

٢١٩ ـ كان لا يطيل الموعظة يوم الجمعة.

٢٢٠ ـ كان لا يعرف فصل السورة حتى ينزل عليه (بسم الله الـرحمن الرحيم).

٢٢١ ـ كان لا يغدو يوم الفطر حتى يأكل. . . تمرات.

٢٢٢ _ كان لا يقرأ القرآن في أقل من ثلاث(٢).

٢٢٣ ـ كان لا يقوم من مجلس إلا قال: سبحانك اللهم ربي وبحمدك، لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وقال: لا يقولهن أحد حيث يقوم ممن مجلسه إلا غفر له، ما كان منه في ذلك المجلس.

٢٢٤ ـ كان لا يكاد يسأل شيئاً إلا فعله.

⁽١) ومثله حديث: «إني لا أصافح النساء الحدث» وسنده صحيح كها جاء في الأحاديث الصحيحة رقم ٥٢٩. وقد نهى الرسول على عن مصافحة المرأة الأجنبية نهياً شديداً في قوله: «لأن يطعن في رأس رجل بمخيط من حديد خير من أن يمس امرأة لا تحل له» وهو حديث صحيح.

⁽٢) أي ثلاثة أيام، لكي يتيسر له تدبره (م.م).

٢٢٥ ـ كان لا يكاد يقول لشيء: لا، فإذا هـو سئل فأراد أن يفعل قال: نعم، وإذا لم يرد أن يفعل سكت.

٢٢٦ ـ كان لا يلتفت وراءه إذا مشي، . . .

٢٢٧ - كان لا يمنع شيئاً يسأله.

٢٢٨ - كان لا ينام إلا والسواك عند رأسه، فإذا استيقظ بدأ بالسواك.

٢٢٩ ـ كان يؤتي بالتمر فيه دود فيفتشه، يخرج السوس منه.

۲۳۰ ـ كان يأتي ضعفاء المسلمين، ويـزورهم، ويعـود مـرضـاهم، ويشهد جنائزهم.

٢٣١ - كان يأكل البطيخ بالرطب.

۲۳۲ ـ كان يأكل البطيخ بالرطب، ويقول: يكسر حر هذا ببرد هذا، وبرد هذا بحر هذا.

٢٣٣ - كان يأكل القثاء بالرطب.

٢٣٤ - كان يأكل الهدية، ولا يأكل الصدقة.

٢٣٥ ـ كان يأكل ثلاث أصابع، ويلعق يده قبل أن يمسحها.

٢٣٦ _ كان يأكل مما مست النار، ثم يصلي ولا يتوضأ.

٢٣٧ ـ كان يأمر أن نسترقي من العين (م).

٢٣٨ ـ كان يأمر بإخراج الزكاة قبل الغدو للصلاة يوم الفطر.

٢٣٩ _ كان يأمر بالعتاقة في صلاة الكسوف.

٠ ٢٤٠ ـ كان يأمر بتغيير الشعر مخالفة للأعاجم.

٧٤١ ـ كان يأمر بناته ونساءه أن يخرجن في العيدين.

٢٤٢ ـ كان يأمر من أسلم أن يختتن.

٢٤٣ ـ كان يأسر. . إذا أرادت إحداهن(١) أن تنام أن تحمد ثـلاثــاً

⁽١) هي فاطمة رضي اللَّه عنها، كها في حديث على وأبي هريرة.

وثلاثين، وتسبح ثلاثاً وثلاثين، وتكبر ثلاثاً وثلاثين^(١).

٢٤٤ _ كان يبدأ إذا أفطر بالتمر.

٢٤٥ _ كان يبدو إلى التلاع.

٢٤٦ ـ كان يبعث إلى المطاهر فيؤتي بالماء، فيشرب يرجو بركة أيدي المسلمين.

٢٤٧ _ كان يبيت الليالي المتتابعة طاوياً، وأهله لا يجدون عشاء، وكان أكثر خبزهم خبز الشعير.

٢٤٨ _ كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم (خ).

۲٤٩ _ كان يتحرى صيام الاثنين والخميس.

۲۵۰ _ كان يتختم بالفضة .

۲۵۱ _ كان يتختم في يساره (م).

٢٥٢ ـ كان يتختم في يمينه (خ).

٢٥٣ ـ كان يتخلف في المسير، فيـزجي الضعيف، ويردف، ويـدعـو م.

٢٥٤ ـ كان يتعوذ من الجان، وعين الإنسان، حتى نزلت (المعوذتان) فلما نزلتا أخذ بهما، وترك ما سواهما.

٢٥٥ ـ كان يتعوذ من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء(٢).

٢٥٦ ـ كان يتفاءل ولا يتطير، وكان يحب الاسم الحسن.

۲۵۷ _ كان يتمثل بالشعر:

ويأتيك بالأخبار من لم تزود

٢٥٨ ـ كان يتوضأ ثم يقبل ويصلي، ولا يتوضأ.

⁽١) هذه رواية البخاري. وقال مسلم «أربعاً وثلاثين»، وهو رواية للبخاري. وكذلك هو في حديث أن هريرة.

⁽٢) في الحديث عند البخاري وغيره أن الخصال ثلاث، وأنه زاد واحدة لا يدري أيتها هي؟

٢٥٩ _ كان يتوضأ عند كل صلاة (خ).

٢٦٠ ـ كان يتوضأ مما مست النار(١).

٢٦١ ـ كان يتوضأ وإحدة واحدة، واثنتين اثنتين، وثلاثـاً ثلاثـاً، كل ذلك يفعل.

٢٦٢ ـ كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيرها (م).

٢٦٣ - كان يجعل فصه مما يلي كفه.

۲٦٤ ـ كان يجعل يمينه لأكله وشربه ووضوئه وثيابه وأخذه وعطائه، وشماله لما سوى ذلك.

٢٦٥ ـ كان يجلس إذا صعد المنبر حتى يفرغ المؤذن، ثم يقوم فيخطب، ثم يجلس فلا يتكلم، ثم يقوم فيخطب.

٢٦٦ - كان يجلس القرفصاء.

٢٦٧ ـ كان يجلس على الأرض، ويأكل على الأرض، ويعتقل الشاة، ويجيب دعوة المملوك على خبز الشعر.

٢٦٨ ـ كان يجمع بين الخربز والرطب.

٢٦٩ ـ كان يجمع بين الظهر والعصر، والمغرب والعشاء في السفر (خ).

۲۷۰ - كان يحب التيامن ما استطاع؛ في طهـوره، وتنعله، وترجله،
 وفي شأنه كله.

٢٧١ - كان يحب الحلواء والعسل.

۲۷۲ _ كان يحب الدباء.

۲۷۳ - كان يحب الزبد والتمر.

٢٧٤ ـ كان يحب العراجين، ولا يزال في يده منها.

⁽١) أعلم أنه لا منافأة بين هذا وبين حديث ابن عباس المتقدم (برقم ٤٧٥٩)، فإن هذا للاستحباب، وذاك لبيان الجواز، ودعوى النسخ مما لا دليل عليها.

٢٧٥ _ كان يحب أن يخرج إذا غزا يوم الخميس (خ).

٢٧٦ ـ كان يحب أن يليه المهاجرون والأنصار في الصلاة، ليحفظوا

عنة.

۲۷۷ _ کان یحتجم.

۲۷۸ ـ كان يحتجم على هامته، وبين كتفيه، ويقول: من أهراق من هذه الدماء فلا يضره أن لا يتداوى بشيء لشيء.

٢٧٩ ـ كان يحتجم في الأخذ عين والكاهل، وكان يحتجم لسبع عشرة، وإحدى وعشرين.

٢٨٠ ـ كان يحتجم في رأسه، ويسميها أم مغيث.

٢٨١ _ كان يحدث حديثاً لو عده العاد لأحصاه.

. ٢٨٢ _ كان يحلف: لا ومقلب القلوب (خ).

۲۸۳ _ كان يحمل ماء زمزم.

٢٨٤ ـ كان يخرج إلى العيدين ماشياً، ويصلي بغير أذان ولا إقامة، ثم يرجع ماشياً في طريق آخر.

٢٨٥ _ كان يخرج في العيدين رافعاً صوته بالتهليل والتكبير.

٢٨٦ ـ كان كان يخيط ثوبه، ويخصف نعله، ويعمل ما يعمل الرجال في بيوتهم.

٢٨٧ _ كان يدركه الفجر وهو جنب من أهله، ثم يغتسل ويصوم.

٢٨٨ _ كان يدعى إلى خبز الشعير والإهالة السنخة.

٢٨٩ - كان يدعو عند الكرب: لا إله إلا الله العظيم الحليم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إلىه إلا الله رب السموات السبع ورب الأرض، ورب العرش الكريم.

• ٢٩ _ كان يدور على نسائه في الساعة الواحدة من الليل والنهار (خ).

۲۹۱ _ كان يذبح أضحيته بيده.

٢٩٢ _ كان يذكر الله تعالى على كل أحيانه (م).

٣٩٣ ـ كان يرخي الإِزار من بين يديه، ويرفعه من ورائه.

٢٩٤ ـ كان يردف خلف، ويضع طعامه على الأرض، ويجيب دعوة المملوك، ويركب الحمار.

٢٩٥ ـ كان يركب الحمار، ويخصف النعل، ويرقع القميص، ويلبس الصوف، ويقول: من رغب عن سنتي فليس مني.

٢٩٦ ـ كان يزور الأنصار، ويسلم على صبيانهم، ويمسح رؤوسهم.

٢٩٧ _ كان يستجمر بألوة غير مطراة، وبكافور يطرحه مع الألوة.

٣٩٨ _ كان يستحب الجوامع من الدعاء، ويدع ما سوى ذلك.

٢٩٩ _ كان يستحب أن يسافر يوم الخميس.

• ٣٠٠ كان يستعذب له الماء من بيوت السقيا، وفي لفظ: يستسقى له الماء العذب من بئر السقيا.

٣٠١ - كان يستغفر للصف المقدم ثلاثاً، وللثاني مرة.

٣٠٢ ـ كان يسلت المني من ثوبه بعرق الإِذَّحَر، ثم يصلي فيه، ويحته من ثوبه يابساً ثم يصلي فيه.

٣٠٣ ـ كان يسمى الأنثى من الخيل فرساً.

٣٠٤ ـ كان يشتد عليه أن يوجد منه الريح.

٣٠٥ ـ كان يشرب ثلاثة أنفاس، يسمي الله في أوله، ويحمد الله في آخه.

٣٠٦ - كان يشرفي الصلاة.

٣٠٧ - كان يصغى للهرة الإناء، فتشرب، ثم يتوضأ بفضلها.

٣٠٨ ـ كان يصلي الضحى أربعاً، ويزيد ما شاء الله (م).

٣٠٩ ـ كان يصلى الضحى ست ركعات.

• ٣١٠ _ كان يصلي بالليل ركعتين ركعتين، ثم ينصرف فيستاك.

٣١١ ـ كان يصلي بين المغرب والعشاء.

٣١٢ ـ كان يصلي على راحلته حيثها توجهت به، فإذا أراد أن يصلي المكتوبة نزل فاستقبل القبلة.

٣١٣ ـ كان يصلى في نعليه.

٣١٤ ـ كان يصلي قبل الظهر أربعاً؛ إذا زالت الشمس. . . ويقول: أبواب السهاء تفتح إذا زالت الشمس.

٣١٥ ـ كان يصلي قبل الظهر ركعتين، وبعدها ركعتين، وبعد المغرب ركعتين، في بيته، وبعد العشاء ركعتين، وكان لا يصلي بعد الجمعة حتى ينصرف فيصلي ركعتين في بيته.

٢١٦ ـ كان يصلي من الليل ثلاث عشرة ركعة، منهـا الوتـر، وركعتا الفج.

٣١٧ ـ كان يصوم من الشهر السبت، والأحد، والاثنين، ومن الشهر الآخر الثلاثاء والأربعاء والخميس.

٣١٨ ـ كان يصوم من غرة كل شهر ثلاثة أيام، وقلها كان يفطر يـوم الجمعة.

٣١٩ ـ كان يضحى بكبشين أقرنين أملحين، وكان يسمى ويكبر.

٣٢٠ ـ كان يضرب في الخمر بالنعال والجريد.

٣٢١ _ كان يضع اليمني على اليسرى في الصلاة.

٣٢٢ - كان يضمر الخيل.

٣٢٣ ـ كان يطوف على جميع نسائه في ليلة، بغسل واحد.

٣٢٤ - كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد! يانجيح!

٤٢٥ ـ كان يعجبه الثفل.

٣٢٦ - كان يعجبه الحلو البارد.

٣٢٧ _ كان يعجبه الذراع.

٣٢٨ _ كان يعجبه الرؤيا الحسنة.

٣٢٩ _ كان يعجبه الريح الطيبة.

٣٣٠ - كان يعجبه العراجين أن يمسكها بيده.

٣٣١ _ كان يعجبه الفأل الحسن، ويكره الطيرة.

٣٣٢ ـ كان يعجبه القرع.

٣٣٣ _ كان يعجبه أن يلقى العدو عند زوال الشمس.

- ٣٣٤ كان يعرف بريح الطيب إذا أقبل.
 - ٣٣٥ ـ كان يعقد التسبيح (١).
- ٣٣٦ _ كان يعيد الكلمة (ثلاثاً) لتعقل عنه.
- ٣٣٧ ـ كان يغتسل بالصاع، ويتوضأ بالمد.
- ٣٣٨ ـ كان يغتسل هو والمرأة من نسائه من إناء واحد (خ).
 - ٣٣٩ ـ كان يغسل مقعدته ثلاثاً.
 - ٣٤٠ كان يغير الاسم القبيح.
- ٣٤١ ـ كان يفطر على رطبات قبل أن يصلي، فإن لم تكن رطبات فتمرات، فإن لم تكن تمرات حساً حسوات من ماء.
 - ٣٤٢ ـ كان يفلي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه.
 - ٣٤٣ كان يقبل بعض أزواجه، ثم يصلي ولا يتوضأ.
 - ٣٤٤ كان يقبل وهو صائم.
 - ٣٤٥ ـ كان يقبل الهدية ويثيب عليها.
- ٣٤٦ ـ كان يقطع قراءته آية : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم يقف : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِ الْعَالَمِينَ ﴾ ثم يقف .
 - ٣٤٧ كان يقول لأحدهم عند المعاتبة: ما له ترب جبينة؟ (ح).
 - ٣٤٨ ـ كان يقوم إذا سمع الصارخ.
 - ٣٤٩ ـ كان يوقم من الليل حتى تنفطر قدماه.
 - ٣٥ ـ كان يكبر يوم الفطر من حين يخرج من بيته حتى يأتي المصلي.
- ٣٥١ ـ كان يكثر الـذكـر، ويقـل اللغـو، ويـطيـل الصـلاة، ويقصر الخـطبة، وكـان لا يأنف ولا يستكبر أن يمشي مع الأرملة والمسكـين والعبد، حتى يقضى له حاجته.
 - ٣٥٢ _ كان يكره الشكال من الخيل (م).

⁽١)قلت: زاد أبو داود: بيمينه.

۲۵۳ ـ كان يكره المسائل، ويعيبها، فإذا سأله أبورزين أجابه

٣٥٤ _ كان يكره أن يؤخذ من رأس الطعام.

٣٥٥ _ كان بكره أن يطأ أحد عقبه، ولكن يمين وشمال.

٣٥٦ _ كان يلبس النعال السبتية، ويصفر لحيته بالورس والزعفران.

٣٥٧ ـ كان يلحظ في الصلاة يميناً وشمالًا ولا يلوي عنقه خلف

ظهره.

۲۵۸ _ كان يلزق صدره ووجهه بالملتزم.

٣٥٩ _ كان يمد صوته بالقرآن مدأ.

٣٦٠ - كان يمر بالصبيان فيسلم عليهم (خ).

٣٦١ ـ كان يمشي مشيأ يعرف فيه أنه ليس بعاجز، ولا كسلان.

٣٦٢ ـ كان ينام أول الليل، ويحيى آخره.

٣٦٣ _ كان ينام وهو جنب، ولا يمس ماء.

٣٦٤ ـ كان ينحر أضحيته بالمصلى (خ).

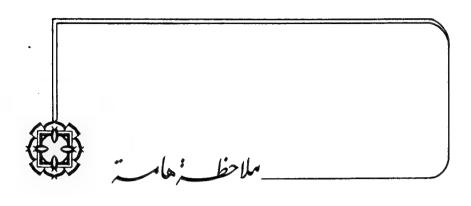
٣٦٥ _ كان ينصرف من الصلاة عن يمينه.

٣٦٦ - كان ينفث في الرقية.

٣٦٧ ـ كان يوتو على البعر.

٣٦٨ _ كان يوتر من أول الليل، وأوسطه وآخره.

٣٦٩ كان يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول: يازوينب! يازوينب! مواداً.



كنا ذكرنا في المقدمة أننا اعتمدنا في دراستنا وتحقيقنا على كتاب «موعظة المؤمنين»، غير أننا خلال الطبع تبين لنا أن بعض الكتب والأبواب في مختصر «منهاج القاصدين» تمتاز على مثيلاتها في «موعظة المؤمنين» فأثبتناها في هذا الكتاب. الذي أصبح بعون الله وتوفيقه قد حوى على مزايا هذين الكتابين.

زد على ذلك أننا أعدنا كثيراً من الرقائق والأشعار والقصص، التي كانت حذفت من المختصرين السابقين، وهذا من العجب! فإنها من المشوقات التي تؤثر بالمستمعين. وقد كان رسول الله على يثني على الشعر الموجه ويستشهد به أحياناً. فمن أحاديثه في ذلك «إن من الشعر حكمة» رواه البخاري. وعن عمرو بن الشريد عن أبيه، قال ردفت(١) رسول الله على يوما فقال: «هل معك من شعر أمية بن أبي الصلت شيء؟ قلت: نعم. قال؛ هيه(٢) فأنشدته بيتاً، فقال: «هيه» حتى أنشدته مئة بيت. رواه مسلم.

وعن أنس رضي الله عنه قال: كان للنبي ﷺ حاد يقال له أنجشة. وكان حسن الصوت، فقال له النبي ﷺ: «رويدك ياأنجشه! لا تكسر

⁽١) أي ركبت.

⁽٢) أي هات. وهو اسم فعل أمر بمعني تكلم.

القوارير، يعني ضعفة النساء» رواه البخاري ومسلم.

أما استحسان الرقائق، فرحم الله تعالى الإمام البخاري، فقد خصص في صحيحه كتاباً خاصاً في الرقاق» ضمنه بعض الأحاديث العاطفية المؤثرة نغتنم هذه الفرصة لنثبت بعضها ليزيد الواعظ من الاستعانة بها في دروسه العامة.

- عن ابن عباس رضي الله عنها أن رسول الله على قال: نعمتان مغبون فيها كثير من الناس: الصحة والفراغ.
- عن بن عمر رضي الله عنها قال: أخذ رسول الله على بنكبي،
 فقال: كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل.
- وكان ابن عمر يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك.
- عن عبد اللَّه رضي اللَّه عنه قال: خط النبي ﷺ خطاً مربعاً، وخط خطاً في الوسط خارجاً منه، وخط خططاً صغاراً إلى هذا الذي في الوسط من جانبه الذي هو في الوسط. وقال: هذا الإنسان، وهذا أجله محيط به، أو قد أحاط به، وهذا الذي هو خارج: أمله. وهذه الخطط الصغار: الأغراض، فإن أخطأه نهشه هذا، وإن أخطأه هذا نهشه هذا.

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: خط النبي ﷺ خطوطاً، فقال: هذا الإنسان، وهذا أجله، فبينها هو كذلك، إذ جاءه الخط الأقرب.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: كنا إذا بايعنا رسول الله على السمع والطاعة يقول لنا: فيها استطعت.

● وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم، وعبد الخميصة (١)، إن أعطي رضي، وإن لم يعط

⁽١) ثوب خز أو صوف معلم.

سخط، تعس وانتكس (۱)، وإذا شيك (۲) فلا انتقش (۳)، طوبي لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة، كان في الحراسة، وان كان في الساقة (٤) كان في الساقة. إن استأذن لم يؤذن له، وان شفع لم يشفع.

وعن عبد اللَّه بن مسعود، قال: قال رسول اللَّه ﷺ: أيكم مال وارثه أحب إليه من ماله؟ قالوا: يارسول اللَّه! مامنا أحد إلا ماله أحب إليه من مال وارثه! قال: فإن ماله ما قدم، ومال وارثه ما أخر.

أحاديث رقاق رواها البخاري ومسلم

- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «حجبت النار بالشهوات، وحجبت الجنة بالمكاره. إلا أن عند مسلم (حفت).
- فـو الله لا الفقـر أخشى عليكم، ولكني أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كم تنافسوها، عليكم الدنيا كم تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم.
- وعن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً» وفي رواية: كفافاً».
- يتبع الميت ثلاثة، فيرجع اثنان، ويبقى معه واحد. يتبعه أهله
 وماله وعمله. فيرجع أهله وماله، ويبقى عمله.
- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس.

⁽١) أي صار ذليلًا، دعاء عليه.

⁽٢) أي دخل الشوك في عضوه.

⁽٣) أي لا يقدر على اخراجه.

⁽٤) مؤخرة الجيش.

رقاق رواها الإمام مسلم

- عن المستورد بن شداد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: والله ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يجعل أحدكم أصبعه في اليم، فلينظر بم يرجع؟
- وعن جابر، أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك^(١) ميت، قال «أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء! قال: «فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»(١).
- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن
 وجنة الكافر».
- عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنها: «قد أفلح من أسلم ورزق كفافاً، وقنعه الله بما آتاه.
- وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول العبد: مالي مالي! وإن ماله من ماله ثلاث: ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو أعطى فاقتنى (٣) وما سوى ذلك فهو ذاهب، وتاركه للناس!».

وعن مطرف عن أبيه قال: أتيت النبي رهبو يقرأ: ﴿ أَهَاكُمُ التَكَاثُرُ ﴾ قال: يقول ابن آدم مالي، مالي، قال: «وهل لك يا ابن آدم إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت (٤).

⁽١) ولد المعز مقطوع الأذن أو عديمها أو صغيرها.

⁽٢) راجع كتاب الدنيا في الجزء الثاني من هذا الكتاب لمعرفة ما يراد من مثل هذا الحديث.

⁽٣) أي جعله قنية وذخيرة للآخرة.

⁽٤) أمضيته من الافناء والابلاء، وأبقيته لنفسك يوم الجزاء.



فهرس الجزء الأول

من كتاب تهذيب موعظة المؤمنين

مقدمة المحققين مقدمة مقدمة مقدمة مقدمة مقدمة كتاب العلم كتاب عقيدة أهل السنة كتاب أسرار الطهارة كتاب أسرار الصلاة كتاب أسرار الركاة كتاب أسرار الصوم كتاب أسرار الحب كتاب الدوة القرآن كتاب آداب تلاوة القرآن كتاب الأذكار والدعوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب الأدكار والدعوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب المرا الحدوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب المرا الحدوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب الأذكار والدعوات كتاب الأدكار والدعوات كتاب الأدكار والدعوات كتاب المرا المرا الحدوات كتاب المرا المرا الحدوات كتاب المرا ال
کتاب العلم ١٥ کتاب عقیدة أهل السنة ٢٩ کتاب أسرار الطهارة ٣١ کتاب أسرار الصلاة ٣٧ کتاب أسرار الزكاة ٤٧ کتاب أسرار الصوم ١٥ کتاب أسرار الحج ١٥ کتاب الجهاد في سبيل الله ٩٥ کتاب آداب تلاوة القرآن ١٥
۲۳ عقیدة أهل السنة ۲۹ کتاب أسرار الطهارة ۷۳ کتاب أسرار الصلاة ۷۳ کتاب أسرار الزكاة کتاب أسرار الصوم ۱٥ کتاب أسرار الحج ۱٥ کتاب الجهاد في سبیل الله ۹٥ کتاب آداب تلاوة القرآن ۲۹
۲۳ عقیدة أهل السنة ۲۹ کتاب أسرار الطهارة ۷۳ کتاب أسرار الصلاة ۷۳ کتاب أسرار الزكاة کتاب أسرار الصوم ۱٥ کتاب أسرار الحج ۱٥ کتاب الجهاد في سبیل الله ۹٥ کتاب آداب تلاوة القرآن ۲۹
۲۹ کتاب أسرار الطهارة کتاب أسرار الصلاة ۳۷ کتاب أسرار الزكاة ٤٧ کتاب أسرار الصوم ١٥ کتاب أسرار الحج ١٥ کتاب الجهاد في سبيل الله ٩٥ کتاب آداب تلاوة القرآن ١٩
۳۱ کتاب أسرار الصلاة کتاب أسرار الزكاة ۷ کتاب أسرار الصوم ۷ کتاب أسرار الحج ۱ کتاب أسرار الحج ۹ کتاب الجهاد في سبيل الله ۹ کتاب آداب تلاوة القرآن ۲۹
۳۷ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۵ ۲۹ <t< th=""></t<>
کتاب أسرار الصوم ١٥ کتاب أسرار الحج ١٥ کتاب الجهاد في سبيل الله ١٥ کتاب آداب تلاوة القرآن ١٥
كتاب أسرار الحج ٥٠ كتاب الجهاد في سبيل اللّه ٥٥ كتاب آداب تلاوة القرآن ٢٩
كتاب الجهاد في سبيل الله
كتاب آداب تلاوة القرآن

۸٩		كتاب أداب الأكل والدعوة والضيافة
1.4		كتاب آداب النكاح
119		كتاب آداب الكسب والمعاش
144		كتاب الحلال والحرام
121		كتاب الغرلة والمخالطة
		كتاب آداب السفر
100	• • • • • • • • • • • • • • • • • • • •	كتاب السماع
179	کر	كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنك
141	ىمدية	كتاب الصفات النبوية والاخلاق المح
Y • 9		ملاحظة هامة

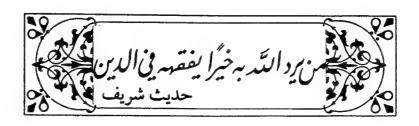
تهنیب مروعظ المرفعنیان

مِن إحياء علوم الدّين للإمام أبي مسامد الغزالي سأليف العلامذ الشيخ محر حمسال لدين العتاسي راجعه ومقعه الماديمه طائفة من الجامعين

كتاب الإحبيكاء اعظم ماالفه المصنعون في الوعظ والارشاد في قوة تأثيره ، وعميب سوه وسرعة فعلد في توجيد النفوس واصلاحها لولا ما فيه من بعض المجازفات والاجادث غيرالصميحة ولاولاء مرة في هذه الطبعة نقدمة محققاً موجزاً ، اشتماعلى المزايا، وخلامن لعثرات.

انجزوالثاين

	•	
		•



	-	
	·	



كناب بياضة لنفس

في علاجِها وإصلاحها

فمعالجتها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَعَ مَن زَكَّاهَا ﴾ . وإهمالها هو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾ ونحن نشير في هذا الكتاب إلى جمل من أمراض القلوب وكيفية القول في معالجتها بعونه تعالى .

بيان فضيلة حسن الخلق ، ومذمة سوء الخلق

قال اللّه تعالى لنبيه مثنياً عليه ومظهراً نعمته لديه : ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقِ عَظِيمٍ ﴾ ، (القلم : ٤) وقالت عائشة رضي اللّه عنها : كان رسول اللّه عنها القرآن (١) . وقال على : ﴿ إنما بعثت لأتم مكارم الأخلاق ، (٢) وعنه على : ﴿ الله عنه الحلق حسن الحلق ، (٣) : وهو أن لا تغضب ، وقال على : ﴿ التّ اللّه حيثها كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن ، (٤) وقيل له : يا رسول اللّه ، إنّ فلانة تصوم النهار وتقوم الليل وهي

⁽١) رواه مسلم .

⁽٢) رواه أحمد والحاكم والبيهقي وسنده صحيح (مم) .

 ⁽٣) رواه مسلم بلفظ: عن النواس بن سمعان سألت رسول الله ﷺ عن البر والإثم فقال:
 ه البرحسن الخلق، والإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس.

 ⁽٤) رواه أحمد والترمذي والحاكم وغيرهم عن أبي ذر وسنده حسن (مج) .

ملاحظة : رمز (مم) في هذا الكتاب يشير إلى المحدث محقق مشكاة المصابيح للخطيب التبريزي و (مت) إلى محقق الترغيب والترهيب للمنذري ، و (مج) إلى محقق الجامع الصغير وزيادته (الفتح الكبير) للسيوطي .

سيئة الخُلق تؤذي جيرانها بلسانها ، قال : « لا خير فيها ، هي من أهل النار »(١) . وقيل : يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضلهم إيماناً ؟ قال « أحسنهم خلقاً »(٢) . وقال وهب : مثل السيء الخلق كمثل الفخارة المكسورة ، لا تُرقع ولا تعاد طيناً . وقال الفُضيل : لأن يصحبني فاجر حسن الخلق ، أحب إليّ من أن يصحبني عابد سيء الخلق .

ما قاله السلف في حسن الأخلاق وشرح ماهيته

أعلم أنه روي عنهم في ذلك ما هو كالثمرة ، والغاية من ذلك ما قاله الحسن رحمه الله : حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى . وقال أيضاً : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء ، وقيل غير ذلك مما هو من ثمرات حسن الخلق . وقد أشار القرآن إلى هذه الأخلاق في أوصاف المؤمنين ، فقال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ اءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ إِثُمَّ الْمُؤْمِنُونَ وَجَهَدُواْ بِأَمْوَلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُوْلَئكُ هُمُ الصَّدِقُونَ وَرَاللهِ وَرَسُولِهِ اللهِ وَرَسُولِهِ اللهِ وَرَاللهِ وَرَسُولِهِ اللهِ وَرَسُولِهِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَمَ اليقين (الحجرات : ١٥) فالإيمان بالله وبرسوله من غير ارتياب هي قوة اليقين وهي ثمرة العقل ومنتهى الحكمة . والمجاهدة بالمال هو السخاء الذي يسرجع إلى ضبط قوة الشهوة ، والمجاهدة بالنفس هي الشجاعة التي تسرجع إلى استعمال قوة الغضب على شرط العقل وحد الاعتدال ، فقد وصف الله الصحابة فقال : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَامً بُيْنَهُمْ ﴾ (الفتح : ٢٩) إشارة الصحابة فقال : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَامً بُيْنَهُمْ ﴾ (الفتح : ٢٩) إشارة إلى أن للشدة موضعاً وللرحمة موضعاً ، فليس الكمال في الشدة بكل حال ولا في الرحمة بكل حال .

⁽١) جزء من حديث رواه أحمد والبزار ، وابن حبان في صحيحه والحاكم وقال : صحيح الإسناد . وهو كها قال (مت) .

 ⁽٢) البزار رواه أحمد وأبو داود وابن حبان والحاكم وسنده صحيح .

بيان قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة(١)

اعلم أن بعض من غلبت عليه البطالة استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق ، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك لقصوره ونقصه وخبث دخيلته ، فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها ، وأن الطباع لا تتبدل ، فنقول : لو كانت الأخلاق لا تقبل التغيير لبطلت الوصايا والمواعظ والتأديبات ، ولما أمر الشارع بوجوب تحسين الأخلاق في آيات وأحاديث كثيرة ! وكيف ينكر هذا في حق الأدمي ، وتغيير خلق البهيمة ممكن إذ يُنقل البازي من الاستيحاش إلى الأنس ، والفرس من الجماح إلى السلاسة والانقياد ، وكل ذلك تغيير للأخلاق . والقول الكاشف للغطاء عن ذلك أن نقول : الموجودات منقسمة إلى ما لا دخل للآدمي واختياره في أصله وتفصيله ، كالسهاء والكواكب بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً وسائر أجزاء الحيوانات .

وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله ، وإلى ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، فإن النواة ليست بتفاح ولا نخل إلا أنها خلقت خلقة يمكن أن تصير نخلة إذا انضافت التربية إليها ، ولا تصير تفاحاً أصلاً ولا بالتربية ، فإذاً صارت النواة متأثرة بالاختيار حتى تقبل بعض الأحوال دون بعض ، فكذلك الغضب والشهوة لو أردنا قمعها وقهرهما بالكلية حتى لا يبقى لها أثر لم نقدر عليه أصلاً ، ولو أردنا سلاستها وقودهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه . وقد أمرنا بذلك وصار ذلك سبب نجاتنا وصولنا إلى الله تعالى . نعم الجبلات مختلفة ، بعضها سريعة القبول وبعضها بطيئة القبول .

⁽۱) يتلخص كلام الغزالي في قوله ﷺ : (إنما العلم بالتعلم ، وإنما الحلم بالتحلم ، ومن يتحر الخير يعطه ، ومن يتق الشريوقه ، رواه الخطيب عن أبي هريـرة وسنده حسن (صج) وهذا الحديث العظيم أساس كل تربية وإصلاح ورد على القائلين بأن الطبع غلب التطبع .

وليس المقصود من المجاهدة قمع هذه الصفات بالكلية ومحوها ، وهيهات ، فإن الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الإنسان ، ولو انقطعت شهوة الوقاع أو الجماع لانقطع النسل ، ولو انقطع الغضب بالكلية لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يهلكه ولهلك ، ومها بقي أصل الشهوة ، فيبقى لا محالة حب المال الذي يوصله إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال ، وليس المطلوب إماطة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الإعتدال الذي هو وسط بين الإفراط والتفريط .

والمطلوب في صفة الغضب حسن الحمية ، وذلك بأن يخلو عن التهور عن الجبن جميعاً _ وبالجملة أن يكون في نفسه قوياً ، ومع قوته منقاداً للعقل _ ولذلك قال الله تعالى : ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَّاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح : ٢٩) وصفهم بالشدة ، وإنما تصدر الشدة عن الغضب ، ولو بـ طل الغضب لبطل الجهاد ، وكيف يقصد قلع الشهوة والغضب بالكلية ، والأنبياء عليهم السلام البشر »(١) . وكان إذا تُكلم بين يديه بما يكرهـ يغضب حتى تحمر وجنتـاه ، ولكن لا يقول إلا حقاً(٢) ، فكان عليه الصلاة والسلام لا يخرجه غضب عن الحق ، وقال تعالى : ﴿ وَٱلْكَ عَلِمِينَ ٱلْفَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَن ٱلنَّاسِ ﴾ (آل عمران : ١٣٤) ولم يقل والفاقدين الغيظ ، فرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال بحيث لا يقهر واحد منهما العقل ولا يغلبه ، بـل يكون العقـل هو الضابط لها والغالب عليها. وهو المراد بتغيير الخلق. فإنه ربما تستولي الشهوة على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على دفعها على الانبساط إلى الفواحش ، وبالرياضة تعود إلى حد الاعتدال . فدل أن ذلك ممكن ، والتجربة والمشاهدة تدل على ذلك دلالة لا شك فيها ، والـذي يدل عـلى أن المطلوب هو الموسط في الأخلاق دون المطرفين ، أن السخاء خُلُق محمود

⁽١) رواه مسلم .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

شرعاً ، وهـ و وسط بين طرفي التبذير والتقتير ، وقـد أثنى الله تعـالى عليه فقـال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَـوَاماً ﴾ (الفرقان: ٧٧) وقـال تعالى: ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَـدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبُسْطِ ﴾ (الإسراء: ٢٩) وكذلك المطلوب في شهوة الطعام: الاعتدال دون الشره والجمود قال الله تعـالى: ﴿ كُلُواْ وَآشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱلْسُرِفِينَ ﴾ (الأعراف: ٣١) وقال في الغضب: ﴿ أَشِدَاءُ عَلَى الْكُقَارِ رُحَاءُ بَيْنَهُم ﴾ (الفتح: ٢٩).

بيان السبب الذي به يُنال حسن الخلق على الجملة

عرفت أن حُسن الخُلق يرجع إلى اعتدال قـوة العقل وكمـال الحكمة ، وإلى اعتدال قوة الغضب والشهـوة ، وكونها للعقـل مطيعـة وللشرع أيضـاً . وهذا الاعتدال يحصل على وجهين :

(أحدهما) بجود إلهي وكمال فطري بحيث يخلق الإنسان ويـولد كـامل العقل حسن الخلق ، وقد كُفي سلطان الشهوة والغضب بل خُلقتًا معتدلتين منقادتين للعقل والشرع .

(والوجه الثاني) اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة ، وأعني به حمل النفس على الأعمال التي يقتضيها الخلق المطلوب ، فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق الجود فطريقة أن يتكلف تعاطي فعل الجود وهو بدل المال ، فلا يزال يطالب نفسه به ويواظب عليه تكلفاً مجاهداً نفسه حتى يصير ذلك طبعاً ، ويتيسر عليه فيصير به جواداً ، وكذا من أراد لنفسه خُلق التواضع وقد غلب عليه الكبر ، فطريقه أن يواظب على أفعال المتواضعين مدة مديدة ، وهو فيها مجاهد نفسه ومتكلف ، إلى أن يصير ذلك خُلقاً له وطبعاً فيتيسر عليه . وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق ، وغايته أن يصير الفعل الصادر منه لذيذاً . فالسخي هو الذي يستلذ بذلَ المال دون الذي يبذله عن كراهة ، والمتواضع هو الذي يستلذ التواضع .

ولن ترسخ الأخلاق الدينية في النفس ما لم تتعود جميع العادات الحسنة ، وما لم تترك جميع الأفعال السيئة ، وما لم تواظب عليها مواظبة من يشتاق إلى الأفعال الجميلة ويتنعم بها ، ويكره الأفعال القبيحة ويتألم بها ، كما قال على و وجُعلت قرة عيني في الصلاة ،(١) .

ومها كانت العبادات وترك المحظورات مع كراهة واستثقال ، فهو النقصان ولا ينال كمال السعادة به ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿ وَإِنّهَا لَكَبِيرَةٌ الْعَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ ثم لا يكفي في نيل السعادة الموعودة على حسن الخُلق استلذاذ الطاعة واستكراه المعصية في زمان دون زمان ، بل ينبغي أن يكون · ذلك على الدوام ، وفي جملة العمر ، ولا ينبغي أن يستبعد مصير الصلاة إلى حد تصير هي قرة العين ومصير العبادات لذيذة ، فإن العبادة تقتضي في النفس عجائب أغرب من ذلك ، فإنا نرى المقامر المفلس قد يغلب عليه من الفرح واللذة بقماره وما هو فيه ما يستثقل معه فرح الناس بغير قمار ، مع أن القمار ربما سلبه ماله وخرب بيته وتركه مفلساً ، ومع ذلك فهو يحبه ويلتذ به ، وذلك لطول إلفه له ، وصرف نفسه إليه مدة .

وكذلك اللاعب بالحمام قد يقف طول النهار في حر الشمس قائماً على رجليه وهو لا يحس بألمها لفرحة الطيور وحركتها وطيرانها وتحليقها في جو السماء ، فكل ذلك نتيجة العادة والمواظبة على نمط واحد على الدوام مدة مديدة ، ومشاهدة ذلك في المخالطين والمعارف ، وإذا كانت النفس بالعادة تستلذ الباطل وتميل إليه ، فكيف لا تستلذ الحق لوردت إليه مدة والتزمت المواظبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبع يضاهي الميل إلى أكل الطين ، فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة .

فأما ميله إلى الحكمة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته ، فهو كالميل إلى المطعام والشراب ، فإنه مقتضي طبع القلب ، فإنه أمر رباني ، وميله إلى

⁽١) وللحديث تتمة ولفظه : «حبب إلى من دنياكم الطيب والنساء ، وجعلت قسرة عيني في الصلاة » رواه أحمد والنسائي وغيرهما بسند صحيح .

مقتضيات الشهوة غريب من ذاته وعارض على طبعه ، إنما غذاء القلب الحكمة والمعرفة وحب الله عز وجل ، ولكن قد ينصرف عن مقتضى طبعه لمرض قد حل به كها قد يحل المرض بالمعدة فلا تشتهي الطعام والشراب ، وهما سببان لحياتها ، فكل قلب مال إلى شيء سوى الله تعالى فلا ينفك عن مرض بقدر ميله ، إلا إذا كان أحب ذلك الشيء ، لكونه معيناً له على حب الله تعالى وعلى دينه ، فعند ذلك لا يدل ذلك على المرض . فإذاً قد عرفت بهذا قطعاً أن هذه الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء فتصير طبعاً . وهذا من عجيب العلاقة بين القلب والجوارح - أعني النفس والبدن فإن كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا يتحرك إلا على وفقها لا محالة كل فعل يجري على الجوارح فإنه قد يرتفع منه أثر إلى القلب ، والأمر فيه دور .

وإذا تحققت أن الأخلاق الحسنة تارة تكون بالطبع والفطرة ، وتارة تكون باعتياد الأفعال الجميلة ، وتارة بمشاهدة أرباب الفعال الجميلة ، ومصاحبتهم ، وهم قرناء الخير وإخوان الصلاح ، إذ الطبع يسرق من الطبع الشر والخير جميعاً ، فمن تظاهرت في حقه الجهات الثلاث حتى صار ذا فضيلة طبعاً واعتياداً وتعلماً ، فهو غاية الفضيلة ، ومن كان رذلاً بالطبع واتفق له قرناء السوء فتعلم منهم وتيسرت له أسباب الشر حتى اعتادها ، فهو في غاية البعد من الله عز وجل ؛ وبين الرتبتين من اختلفت فيه هذه الجهات ، ولكل درجة في القرب والبعد بحسب ما تقتضيه صفته وحالته ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ (الزلزلة : ٧ : ٨) ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (الزلزلة : ٧ : ٨)

بيان تفصيل الطريق إلى تهذيب الأخلاق

قد عرفت من قبل أن الاعتدال في الأخلاق هو صحمة النفس. والميل

⁽۲) رواه النسائي واسناده حسن (مم) .

عن الاعتدال سقم ومرض فيها، كما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له . والميل عن الاعتدال مرض فيه ، فلنتخذ البدن مثالاً فنقول : مثال النفس في علاجها بمحو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها . مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة وجلبها إليه ، كما أن الغالب على أصل المزاج الاعتدال ، وإنما تعتري المعدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال ، فكذلك كل مولود يولد معتدلاً صحيح الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه (۱) ، أي بالاعتياد والتعليم تُكتسب الرذائل ، وكما أن البدن في الابتداء لا يخلق كاملا وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية بالغذاء ، فكذلك النفس تخلق ناقصة قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربية وتهذيب الأخلاق والتغذية بالعلم .

وكما أن البدن إن كان صحيحاً فشأن الطبيب تمهيد القانون الحافظ للصحة ، وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس منك ، إن كانت زكية طاهرة مهذبة ، فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد القوة إليها واكتساب زيادة صفائها وإن كانت عديمة الكمال والصفاء ، فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها ، كما أن العلة الموجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فبالبرودة وبالعكس ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخي ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهيات تكلفاً ، وكما أنه لا بدّ من الاحتمال لمرارة الدواء شدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة . فكذلك لا بد من احتمال مرارة المجاهدة والصبر للداواة مرض القلب ، بل أولى فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ، ومرض القلب والعياذ بالله تعالى مرض يدوم بعد الموت أبد الآباد!

وبالجملة فالطريق الكلي في معالجة القلوب هو سلوك مسلك المضادة لكل ما تهواه النفس وتميل إليه، وقد جمع اللَّه ذلك كله في كتابه العزيز في كلمة

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

واحدة فقال تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى آلنَّفْسَ عَنِ آلْهَوىٰ ، فَإِنَّ آلْجُنَّةَ هِي ٱلْمُأُوىٰ﴾ (النازعات ٤٠) والأصل المهم في المجاهدة الوفاء بالعزم . فإذا عزم على ترك شهوة فقد تيسرت أسبابها ، ويكون ذلك ابتلاء من الله تعالى واختباراً . فينبغي أن يصبر ويستمر ، فإنه إن عود نفسه ترك العزم ألفت ذلك ففسدت . عافانا الله من فسادها .

بيان الطريق الذي يعرف به الانسان عيوب نفسه

إعلم أن الله عز وجل إذا أراد بعبد خيراً بصره بعيوب نفسه . فمن كانت بصيرته نافذة لم تخف عليه عيوبه . فإذا عرف العيوب أمكنه العلاج ، ولكن أكثر الخَلق جاهلون بعيوب أنفسهم ، يرى أحدهم القذى في عين أخيه ، ولا يرى الجذع في عين نفسه . فمن أراد أن يعرف عيوب نفسه فله أربعة طرق :

(الطريق الأول) أن يجلس بين يـدي شيخ بصـير بعيوب النفس (١) ، مطلع على خفايا الآفات ويتبع إشارته في مجاهدته . وهذا شأن التلميذ مع أستاذه فيعرفه أستاذه عيوب نفسه ، ويعرفه طريق علاجه .

(الطريق الثاني) أن يطلب صديقاً صدوقاً بصيراً متديناً يلاحظ أحواله وأفعاله ، فها كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه ينبهه عليه ، فهكذا كان يفعل الأكابر من أثمة الدين . كان عمر رضي الله عنه يقول : رحم الله أمراً أهدى إلي عيوبي ، وكان يسأل حذيفة ويقول له : أنت صاحب سر رسول الله على في المنافقين ، فهل ترى علي شيئاً من آثار النفاق ؟ فهو على جلالة قدره وعلو منصبه ، هكذا كانت تهمته لنفسه رضي الله عنه ، فكل من كان أوفر عقلاً وأعلى منصباً كان أقل إعجاباً ، وأعظم اتهاماً وفرحاً بتنبيه غيره على عيوبه . وقد آل الأمر في أمثالنا إلى أن أبغض الخلق إلينا من ينصحنا ويعرفنا

⁽١) لقد أصبح هذا الطريق ـ ويا للأسف ـ شائكاً ، كثير الخطر بسبب كثرة الأدعياء ، فينبغي أن يكون الطالب على حذر ، وعلى معرفة بسيرة الرسول ﷺ وسيرة علماء السلف لتتم المقارنة .

عيوبنا ، ويكاد هذا أن يكون مفصحاً عن ضعف الإيمان .

فإن الاخلاق السيئة حيّات وعقارب لدّاغة! فلو نبهنا منبه على أن تحت ثوبنا عقرباً لتقلدنا منه منة وفرحنا به ، واشتغلنا بإزالة العقرب وقتلها ، وإنما نكايتها على البدن ، ولا يدوم ألمها يوماً فها دونه ، ونكاية الأخلاق الرديئة على صميم القلب ، وأخشى أن تدوم بعد الموت أبد الأباد ـ ثم إنا لا نفرح بمن ينبهنا عليها ولا نشتغل بإزالتها ، بل نشتغل بمقابلة الناصح بمثل مقالته ، فنقول له : وأنت أيضاً تصنع كيت وكيت ، وتشغلنا العداوة معه عن الانتفاع بنصحه ، ويشبه أن يكون ذلك من قساوة القلب التي أثمرتها كثرة الذنوب ، وأصل ذلك كله ضعف الإيمان . فنسأل الله تعالى أن يلهمنا رشدنا ويبصرنا بعيوبنا ويشغلنا بمداواتها ، ويوفقنا للقيام بشكر من يطلعنا على مساوينا بمنه وفضله .

(الطريق الثالث) أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من ألسنة أعدائه ، فإن عين السخط تبدي المساوياً . ولعل انتفاع الإنسان بعدو مشاحن يـذكر عيوبه ، أكثر من انتفاعه بصديق مُداهن يثني عليه ويمدحه ويخفي عنه عيوبه ، إلا أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقول على الحسد ، ولكن البصير لا يخلو عن الانتفاع بقول أعدائه ، فإن مساويه لا بـد وأن تنتشر على السنتهم .

(الطريق الرابع) أن يخالط الناس فكل ما رآه مذموماً فيها بين الخَلق فليطالب نفسه به وينسبه إليه ، فإن المؤمن مرآة المؤمن فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم أن الطباع متقاربة في اتباع الهوى ، فها يتصف به غيره فلا ينفك هو عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليتفقد نفسه ويطهرها عن كل ما يذمه من غيره ، وناهيك بهذا تأديباً ، فلو ترك الناس كل ما يكرهونه من غيرهم لاستغنوا عن المؤدب ، وهذا كله من حيل من فقد شيخاً (۱) مربياً ناصحاً في الدين ، وإلا فمن وجده فقد وجد الطبيب فليلازمه

⁽١) راجع تعليقنا السابق .

بيان تمييز علامات حسن الخلق

إعلم أن كل إنسان جاهل بعيوب نفسه ، فإذا جاهد نفسه أدنى مجاهدة حتى ترك فواحش المعاصي ، ربما يظن بنفسه أنه قد هذّب نفسه وحسّن خُلقه واستغنى عن المجاهدة ، فلا بد من إيضاح علامة حسن الخُلق ، فإن حسن الخلق هو الإيمان ، وسوء الخلق هو النفاق . وقد ذكر الله تعالى صفات المؤمنين والمنافقين في كتابه وهي بجملتها ثمرة حسن الخلق وسوء الخلق . فلنورد جملة من ذلك لنعلم آية حسن الخلق ، قال الله تعالى : ﴿قَدْ أَفْلَحَ اللَّوْمِنُونَ اللَّذِينَ هُمْ فِي صَلاَتِهِمْ خَشِعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّعْوِ مُعْرِضُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ إللَّ عَلَى اللَّهُ عَلَى وَرَآءَ ذَلِكَ أَوْرَا عَلَى اللَّهُ عَلَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَمُ الْوَرِجِهِم أَوْ مَا مَلكَتْ أَيْمَنَهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ الْبَعْلَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَلُورَ وَجِهِم أَوْ مَا مَلكَتْ أَيْمَنَهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ الْبَعْلَى وَرَآءَ ذَلِكَ فَلُورُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ أَوْرَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَعُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ أَوْرَاتُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ أَوْرَاتُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ الْورْبُونَ ، اللَّه يَعْنَ الْفُرْدُوسَ هُمْ فَعْ اللَّهُ وَلَى اللَّه وَلَا الله عَلَى عَلَى اللَّهُ وَلَّ الله وَلَا الله عَلَى وَالَّذِينَ هُمْ الْعَادُونَ ، وَالَّذِينَ هُمْ الْورْبُونَ ، اللَّذِينَ يَرِثُونَ الْفُرْدُوسَ هُمْ فَيْ اللهُ وَلَى اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَالَ الله عَلَى اللهُ وَلَا اللهُ وَلَوْنَ ، اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ ولَا اللهُ وَلَا اللهُ وَلَا اللهُ اللهُ

وقال عز وجل: ﴿ التَّنِئْبُونَ الْعَنْبِدُونَ الْخَنْمِدُونَ السَّنْئِحُونَ الرَّكِمُونَ الرَّكِمُونَ السَّنْجِدُونَ الأَمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْخَنْفِظُونَ لِحُـدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١١٢).

وقال عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيتُ عَلَيْهِمْ ءَايَنتُهُ زَادَتُهُمْ إِيَنناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ، ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَعَمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنفِقُونَ، أُوْلَئِيكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقّاً لَّهُمْ دَرَجَاتُ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿ (الأنفال: ٢ - ٣) وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّمَانِ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٢ - ٣) وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّمَانِ ٱللَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمْ ٱلجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلَاهُ ﴾ (الفرقان: ٣٣) إلى آخر السورة.

فمن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع .

الصفات علامة حسن الخُلق وفقدُ جميعها علامة سوء الخُلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض ، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده . وقد وصف رسول الله ﷺ المؤمن بصفات كثيرة وأشار بجميعها إلى محاسن الأخلاق ، فقال : « المؤمن يجب لأخيه ما يجب لنفسه »(١) وقال عليه السلام : « من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليكرم جاره »(٢) وقال : « من كان يؤمن بالله واليوم الأخر فليقل خيراً أو ليصمت »(٣) .

وذكر أن صفات المؤمنين هي حسن الخُلق فقال على : « أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم أخلاقاً » (٤) وقال على : « إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل ، فلا يحل لأحدهما أن يفشي على أخيه ما يكرهه » (٤) . وأولى ما يمتحن به حسن الخلق الصبر على الأذى واحتمال الجفاء ، فقد ورد أن رسول الله على كان يوماً يمشي ومعه أنس ، فأدركه أعرابي فجذبه جذباً شديداً وكان عليه برد نجراني غليظ الحاشية ، فقال أنس رضي الله عنه : حتى نظرت إلى عنق رسول الله على قد أثرت فيه حاشية البرد من شدة جذبه ، فقال : يا محمد ، شم هب لي من مال الله الذي عندك ؛ فالتفت إليه رسول الله على وضحك ، ثم أمر بإعطائه (٥) . ولما أكثرت قريش إيذاءه قال : « اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون » (٢) .

قيل للأحنف بن قيس : ممن تعلمت الحلم ؟ فقال : من قيس ابن

⁽١) رواه البخاري ومسلم بلفظ : « لا يؤمن أحدكم حتى يجب لأخيه ما يحب لنفسه » وفي رواية لغيرهما « من الخير » وسندها صحيح (مم) .

⁽٢) وهذان الحديثان من أصل حديث واحد رواه البخاري بلفظ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر ، فلا يؤذ جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليصل رحمه » .

⁽٣) تقدم ذكره وسنده صحيح .

⁽٤) لم يصح بهذا اللفظ ، وإنما صح بلفظ : « إنما المجالس بالأمانة » رواه مسلم وغيره .

⁽٥) رواه البخاري ومسلم .

 ⁽٦) لم يصح من قول النبي ﷺ عن نفسه إنما حكاه عن نبي من الأنبياء عـ ذبه قــومــه كــها رواه
 البخاري ومسلم .

عاصم ، قيل لِه : وما بلغ من حلمه ؟ قال : بينها هو جالس في داره إذ أتته جارية له بسفود عليه شِواء ، فسقط من يدها فوقع على ابن له صغير فمات ، فدهشت الجارية ، فقال : لا رَوع عليك أنت حرة لوجه الله تعالى .

وروى أن علياً رضي الله تعالى عنه دعا غلاماً فلم يجبه ، فدعاه ثانياً وثالثاً فلم يجبه ، فقام إليه فرآه مضطجعاً . فقال أما سمعت يا غلام ؟ قال بلى ، قال : فيها حملك على ترك إجابتي ؟ قال أمِنتُ عقوبتك فتكاسلت . فقال : امض فأنت حر لوجه الله تعالى .

فهذه نفوس قد ذُللت بالرياضة فاعتدلت أخلاقها ، ونُقيت من الغش والغل والحقد بواطنها، فأثمرت الرضا بكل ما قدره الله تعالى ، وهو منتهى حسن الخُلق ، فمن لم يصادف من نفسه هذه العلامات ، فلا ينبغي أن يغتر بنفسه فيظن بها حسن الخلق ، بل ينبغي أن يشتغل بالرياضة والمجاهدة إلى أن يبلغ درجة حسن الخلق ، فإنها درجة رفيعة لا ينالها إلا المقربون والصّديقون .

بيان الطريق في رياضة الصبيان في أول نشوئهم ووجه تأديبهم وتحسين أخلاقهم

إعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها ، والصبي أمانة عند والديه ، وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ، ومائل إلى كل ما يمال به إليه ، فإن عُود الخير وعلمه ، نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب ، وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهلك ، وكان الوزر في رقبة القيم عليه ، وقد قال الله تعالى : ﴿يَنَايُّهَا آلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُواْ النّه الله الله عن نار الآخرة أولى ، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى ، وصيانته بأن يؤدبه ويهذبه ويعلمه عاسن الأخلاق ويحفظه من قرناء السوء .

ولا يعوده التنعم ولا يحبب إليه الزينة وأسباب الرفاهية ، فيضيع عمره في طلبها إذا كبر فيهلك هلاك الأبد ، بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل لحضانته وإرضاعه إلا امرأة صالحة متدينة ، تأكل الحلال ، ومها رأى فيه نخايل التمييز ، فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل الحياء ، فإنه إذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لإشراق نور العقل عليه ، وهذه بشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب ، فالصبي المستحي لا ينبغي أن يُهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتمييزه . وإن كان ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه ، مثل أن لا يأخذ الطعام إلا بيمينه ، وأن يقول : بسم الله عنده ، وأن يأكل عا يليه (۱) .

وأن لا يبادر الطعام قبل غيره ، وأن لا يحدق النظر إليه ولا إلى من يأكل ، وأن لا يبادر الطعام قبل غيره ، وأن يجيد المضغ وأن لا يوالي بين اللقم ، ولا يلطخ يده ولا ثوبه ، وأن يعود الخبز القفار في بعض الأوقات حتى لا يصير بحيث يرى الأدم حتاً ، وأن يقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر من الأكل بالبهائم ، وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الأكل ، ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل الأكل ، وأن يجبب إليه الإيثار بالطعام وقلة المبالاة به ، والقناعة بالطعام الخشن ، أي طعام كان ، وأن يجبب إليه من الثياب ما ليس بملون ولا حرير ، ويقرر عنده أن ذلك شأن النساء والمخنثين ، وأن الرجال يشتنكفون منه ويكرر ذلك عليه ، ومها رأى على صبي ثوباً من الحرير أو ملوناً ، فينبغي أن يستنكره ويذمه ، وأن يحفظ عن الصبيان الذين عودوا التنعم(٢) والرفاهية ، ولبس الثياب الفاخرة ، وعن غالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه .

⁽١) وفي الحديث : « يا غلام سمّ اللّه، وكل بيمينك ، وكل مما يليك » رواه البخاري ومسلم .

⁽٢) إن في الاعتياد على التنعم خطراً رهيباً على الطفل ، وعلى مستقبل أمته ، فإذا شب عليه كره العمل ، وخشي الجهاد ، وأصبح عالمة ، وقد نهى المرسول ﷺ عن التنعم بقوله : « إيالت والتنعم ! فإن عباد الله ليسوا بالمتنعمين » رواه أحمد وغيره وسنده حسن (مج) .

فإن الصبي مها أهمل في إبتداء نشوئه ، خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذاباً حسوداً سروقاً نماماً لحوحاً ذا فضول وضحك وكياد ومجانة ، وإنما يحفظ عن جميع ذلك بالتأديب ، ثم يشتغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار ، وأحوالهم لينغرس في نفسه حب الصالحين ، ولا يحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ، فإن ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد(۱) ، ثم مها ظهر من الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازي بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس ، فإن خالف ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتعافل عنه ولا يهتك ستره ، ولا يكاشفه ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولا سيها إذا ستره الصبي ، واجتهد في إخفائه ، فإن أظهر ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانياً ، فينبغي أن يعاقب سراً ، ويعظم الأمر فيه ، ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا يعلقب عليك فتفتضح بين الناس .

ولا يكثر القول عليه بالعتاب في كل حين ، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ؛ وليكن الأب حافظاً هيئة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأب وتنزجره عن القبائح . وينبغي أن يمنع عن النوم نهاراً ، فإنه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلًا ، ولكن يمنع الفُرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ، ولا يسمن بدنه ، فلا يصبر عن التنعم بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم ، وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله خفية ، فإنه لا يخفيه إلا وهو يعتقد أنه قبيح ، فإذا منع تعود ترك فعل القبيح ، ويُعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة ، منع تعود ترك فعل القبيح ، ويعود أن لا يكشف أطرافه ، ويمنع من أن

⁽١) أين هذا مما يجري في كثير كليات الآداب مما يجبب بحياة الفسق والفساق! والشذوذ الجنسي تحت ستار تقوية اللغة ، كأن أدبنا خلا إلا من هذه الموبقات؟ فهلا أدركنا بعض أسباب انحراف أبنائنا وبناتنا؟!

يفتخر على أقرانه بشيء من مطاعمه وملابسه ، بـل يعود التـواضع والإكـرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم .

ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيئاً بدا له ، بل يُعلم أن الرفعة في الإعطاء لا في الأخذ ، وبالجملة يقبح إلى الصبيان المبالغة في حب الذهب والفضة والطمع فيهما ، فإن آفة التكالب على حب الذهب والفضة أضر من آفة السموم على الصبيان بل وعلى الكبار أيضاً ، وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ، بل ولا يتثاءب بحضرة غيره ، ولا يستدبر غيره ، ولا يضع رجلًا على رجل ، ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده ، فإن ذلك دليل الكسل .

ويعلُّم كيفية الجلوس ، ويمنع كثرة الكلام ، ويُبينّ له أن ذلك يدل على الوقاحة وأنه فعل أبناء اللئام ، ويمنع اليمين رأساً صادقاً كان أو كاذبـاً حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ، ويعوّد حسن الاستماع مها تكلم غيره ممن هو أكبر منه سناً ، وأن يـوسَّع لـه المكان ويجلس بـين يديـه ، ويمنع من لغـو الكـلام وفحشه ومن اللعن والسب ، ومن مخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك ، فإن ذلك يسرى لا محالة من القرناء السوء . وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء ، وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكُتَّاب أن يلعب لعباً جميلًا يستريح إليه من تعب المكتب ، فإن منع الصبي من اللعب وإرهاقه إلى التعلم دائماً يميت قلبه ويبطل ذكاءه ، وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأساً! وينبغى أن يعلّم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سناً من قريب وأجنبي ، وأن ينظر إليهم بعين الاحترام ، وأن يترك اللعب بين أيديهم ، ومهما بلغ سن التمييز ، فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ، ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ، ويعلُّم كل ما يحتاج إليه من حدود الشرع ، ويخوُّف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش ، فإذا وقع نشؤه كذلك في الصبا فمهم قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور .



كالآفات اللسان بيان خطر اللسان

إعلم أن خطر اللسان عظيم ولا نجاة منه إلا بالنطق بالخير. وقال معاذ بن جبل قلت : يا رسول الله أنواخذ بما نقول ؟ فقال: « يا ابن جبل وهل يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم »(١) وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول : يا لسان قبل خيراً تغنم ، واسكت عن شر تسلم ، من قبل أن تندم . وقال ﷺ : « من كان يؤمن باللَّه واليوم الآخـر فليقل خيراً أو ليسكت »(٢) .

قال عقبة بن عامر: قلت: يا رسول الله! ما النجاة؟ قال: « أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك ، وابكِ على خطيئتك »(٢) ، وقال رسول الله ﷺ : « مَن يتكفل لي ما بين لحييــه ، ورجليـه ، أتكفــل لــه الجنة "(") (الآثار) كان أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه يضع حصاة في فيه ، ويمنع نفسه عن الكلام ، وكان يشير إلى لسانه ، ويقول : هذا الـذي أوردني الموارد. وقال عبد اللَّه بن مسعود: واللَّه الذي لا إله إلَّا هو ما شيء أحوج إلى طول سجن من لسان. وقال طاووس: لساني سبع، إن أرسلته أكلني وقال الحسن: ما عقل دينه من لم يحفظ لسانه. قال الأوزاعي رحمه اللَّه تعالى : كتب إلينا عمر بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه : أما بعد فإن من (١) ابن ماجه والترمذي والحاكم وصححه على شرط البخاري ومسلم .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم وقد سبق قبل قليل بلفظه .

⁽٣) رواه البخاري .

أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن عدّ كلامه من عمله ، قلّ كلامه إلا فيها يعنيه . وقال يونس بن عبد الله : ما من الناس يكون منه لسانه على بال إلا رأيت صلاح ذلك في سائر عمله .

وقال أبو بكر بن عياش: اجتمع أربعة ملوك: ملك الهند، وملك الصين، وكسرى، وقيصر، فقال أحدهم: أنا أندم على ما قلت، ولا أندم على ما لم أقل. وقال الآخر: إني إذا تكلمت بكلمة ملكتني، ولم أملكها، وإذا لم أتكلم بها ملكتها، ولم تملكني. وقال الثالث: عجبت للمتكلم إن رجعت عليه كلمة ضرته، وإن لم ترجع لم تنفعه. وقال الرابع: أنا على ردّ ما لم أقل، أقدر مني على رد ما قلت.

جمل من آفات اللسان الأولى : الكلام فيها لا يعني

إعلم أن رأس مال العبد أوقاته: فمهما صرفها إلى ما لا يعنيه ولم يدخر بها ثواباً في الآخرة ، فقد ضيع رأس ماله ، ولهذا قال النبي على : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه هرا) . وسببه الباعث عليه هو الحرص على معرفة ما لا حاجة إليه ، أو تزجية الأوقات بحكايات أحوال لا فائدة فيها . وعلاج ذلك كله أن أنفاسه رأس ماله ، وأن لسانه شبكة يقدر أن يقتنص بها الخيرات الحسان ، فإهماله ذلك وتضييعه خسران مبين .

الآفة الثانية : فضول الكلام

وهو أيضاً مذموم ، وهو يتناول الخوض فيها لا يعني ، والزيادة فيها يعني على قدر الحاجة ، فإن من يعنيه أمر يمكنه أن يذكره بكلام مختصر ، ويمكنه أن يُجسمه ويكرره مهما تأدى مقصوده بكلمة واحدة ، فإن ذكر كلمتين فالثانية

⁽١) رواه مالك وأحمد وسنده صحيح (مم).

فضول ـ أي فضل عن الحاجة ـ وهو أيضاً مذموم لما سبق ، وإن لم يكن فيه إثم ولا ضرر . واعلم أن فضول الكلام لا ينحصر ، بل المهم محصور في كتاب الله تعالى ، قال الله عز وجل : ﴿ لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَجُواهُم إِلا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةَ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصلاحٍ بَيْنَ النّاسِ ﴾ (النساء : ١١٤) . قال عطاء : إن من كان قبلكم كانوا يكرهون فضول الكلام ، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله تعالى وسنة رسول الله على أو أمراً بمعروف أو نهياً عن منكر ، أو أن تنطق لحاجتك في معيشتك التي لا بد لك منها ، أتنكرون أن عليكم حافظين كراماً كاتبين . عن اليمين وعن الشمال قعيد . ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ؟! أما يستحي أحدكم إذا نشرت صحيفته التي أملاها صدر نهاره كان أكثر ما فيها ليس من أمر دينه ولا دنياه ؟ وقال ابن عمر : إن أحق ما طهر الرجل لسانه .

الآفة الثالثة : الخوض في الباطل

وهو الكلام في المعاصي كحكاية أحوال النساء ومجالس الخمر ومقامات الفساق، وتكبر الجبابرة ومراسمهم المذمومة وأحوالهم المكروهة، فإن ذلك عا لا يحل الحوض فيه، وأكثر الناس يتجالسون للتفرج بالحديث، ولا يعدو كلامهم التفكه بأعراض الناس أو الحوض في الباطل. وأنواع الباطل لا يمكن حصرها لكثرتها وتفننها، فلذلك لا مخلص منها إلا بالاقتصار على ما يعني من مهمات الدين والدنيا. قال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: هأعظم الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضاً في الباطل » وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَقْمُدُوا مَعَهُمْ حَيَّ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذا مِثْلُهُمْ ﴾ بقوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَقْمُدُوا مَعَهُمْ حَيَّ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذا مِثْلُهُمْ ﴾ (المدثر: ٤٥). وبقوله (النساء: ١٤٠). وعنه ﷺ: « إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب الله بها رضوانه إلى يوم القيامة، وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ به ما بلغت، فيكتب

الله عليه بها سخطه إلى يوم القيامة »(١).

الآفة الرابعة : المراء والجدال

وذلك منهي عنه قال ﷺ: « ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الحدل (٢٠) .

وقال بلال بن سعيد: إذا رأيت الرجل لجوجاً ممارياً معجباً برأيه ، فقد تحسارته ، وقال ابن أبي ليلى : لا أماري صاحبي ، فإما أن أكذبه وإما أن أغضبه ، والمراء هو كل اعتراض على كلام الغير بإظهار خلل فيه ، إما في اللفظ وإما في المعنى وإما في قصد المتكلم ، وترك المراء بترك الإنكار والاعتراض ، فكل كلام سمعته ، فإن كان حقاً فصدق به ، وإن كان باطلاً أو كذباً ولم يكن متعلقاً بأمور الدين فاسكت عنه .

والواجب إن جرى الجدل في مسألة علمية السكوت ـ أو السؤال في معرض الاستفادة لا على وجه العناد والنكاية ـ أو التلطف في التعريف لا في معرض الطعن ، وأما قصد إفحام الغير وتعجيزه وتنقيصه بالقدح في كلامه ونسبته إلى القصور والجهل فيه ، فهي المجادلة المحظورة التي لا نجاة من إثمها إلا بالسكوت ، وما الباعث عليها إلا الترفع بإظهار العلم والفضل والتهجم على الغير بإظهار نقصه ، وهما صفتان مهلكتان ، ولا تنفك المماراة عن الإيذاء وتهييج الغضب وحمل المعترض عليه ، على أن يعود فينصر كلامه على المتماريين ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار بين المتماريين ، وأما علاجه فهو بأن يكسر الكبر الباعث له على إظهار فضله ، والسبعية الباعثة له على تنقيص غيره .

⁽١) رواه البخاري نحوه وقد تقدم .

 ⁽٢) وتمام الحديث: ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿ ما ضربوه لك إلا جدلاً بل هم قوم
 خصمون ﴾ رواه أحمد والترمذي وابن ماجه وسنده صحيح (مم) .

الآفة الخامسة : الخصومة

وهي أيضاً مذمومة وهي وراء الجدال والمراء ؟ وحقيقتها لجاج في الكلام ليستوفي به مال أو حق مغصوب . وفي الحديث : «إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »(١) ولا تكون الخصومة مذمومة إلا إن كانت بالباطل أو بغير علم ، كالذي يدافع قبل أن يعلم الحق في أي جانب ، أو يمزج بخصومته كلمات مؤذية لا حاجة لها في نصرة الحجة وإظهار الحق ، أو يحمله على الخصومة محض العناد لقهر الخصم وكسره ، مع أنه قد يستحقر ذلك القدر من المال ، وفي الناس من يصرح به ويقول إنما قصدي عناده وكسر غرضه ، وإني إن أخذت منه هذا المال ربما رميت به في بئر ولا أبالي ، وهذا مقصود اللدد والخصومة واللجاج وهو مذموم جداً ، فأما المظلوم الذي ينصر حجته بطريق الشرع من غير لدد وإسراف ، وزيادة لجاج على قدر الحاجة ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد ومن غير قصد عناد وإيذاء ، ففعله ليس بحرام ، ولكن الأولى تركه ما وجد اليه سبيلاً ، فإن ضبط اللسان في الخصومة على قدر الاعتدال متعذر .

والخصومة تُوغر الصدر وتهيج الغضب، وإذا هاج الغضب نسي المتنازع فيه وبقي الحقد بين المتخاصمين حتى يفرح كل واحد بمساءة صاحبه، ويحزن بمسرته ويطلق اللسان في عرضه. فمن بدأ بالخصومة فقد تعرض لهذه المحذورات، وأقل ما فيه تشويش خاطره حتى إنه في صلاته يشتغل بمحاجة خصمه، فلا يبقى الأمر على حد الواجب، فالخصومة مبدأ كل شر، وكذا المراء والجدال، فينبغي أن لا يفتح بابه إلا لضرورة، وعند الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة، وذلك متعذر الضرورة ينبغي أن يحفظ اللسان والقلب عن تبعات الخصومة، وذلك متعذر الله تعالى : ﴿ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْناً ﴾ (البقرة : ٨٣) وقال ابن عباس رضي الله عنها « من سلم عليك من خلق الله فاردد عليه السلام وإن كان

⁽١) رواه البخاري .

بجوسياً »(١) إن الله تعالى يقول: ﴿وَإِذَا حُبِيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُوهَا ﴾ (النساء: ٨٦). وقال ابن عباس أيضاً: « لو قال لي فرعون خيراً لرددت عليه » وفي الحديث « الكلمة الطيبة صدقة »(٢).

وقال عمر رضي الله عنه: « البرشيء هين: وجه طليق وكلام لين » وقال بعض الحكهاء: الكلام اللين يغسل الضغائن المستكنة في الجوارح. وقال آخر: كل كلام لا يسخط ربك إلا أنك ترضي به جليسك، فلا تكن به عليه بخيلاً، فلعله يعوضك منه ثواب المحسنين.

الآفة السادسة: التقعر في الكلام

وهو التشدق وتكلف السجع والفصاحة والتصنع فيه ، فإنه من التكلف الممقوت ، إذ ينبغي أن يقتصر في كل شيء على مقصوده ، ومقصود الكلام التفهيم للغرض ، وما وراء ذلك تصنع مذموم ، ولا يدخل في هذا تحسين ألفاظ التذكير والخطابة من غير إفراط ولا إغراب ، فلرشاقة اللفظ تأثير في ذلك .

الآفة السابعة: الفحش والسب وبذاءة اللسان

وهو مذموم ومنهي عنه ، ومصدره الخبث واللؤم ، قال عليه الصلاة والسلام : « ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ولا البذيء »(٣) وعنه : « إن الله لا يحب الفاحش المتفحش الصياح في الأسواق » وحد الفحش هو التعبير عن الأمور المستقبحة بالعبارات الصريحة ، وأكثر ذلك يجري في ألفاظ الوقاع وما يتعلق به ، فإن لأهل الفساد عبارات صريحة

⁽١) وقد وضع الرسول ﷺ لذلك شروطاً موجودة في كتب الفقه .

⁽۲) رواه مسلم .

⁽٣) رواه الترمذي والبيهقي وقال الترمذي : هذا حديث غريب . وهـو حسن لذاتـه ، صحيح لغيره (مم) .

فاحشة يستعملونها فيه ، وأهل الصلاح يتحاشون عنها ، بل يكنون عنها ويدلون عليها بالرموز والكناية ، قال ابن عباس : إن الله حيى كريم يعفو ويكني ، كنى باللمس عن الجماع ، فالمسيس والمس والدخول كنايات عن الوقاع وليس بفاحشة . وهناك عبارات فاحشة يستقبح ذكرها ويستعمل أكثرها في الشتم والتعيير ، وكل ما يستحى منه فلا ينبغي أن يذكر ألفاظه الصريحة فإنه فحش .

والباعث على الفحش : وإما قصد الإيذاء ، إما الاعتياد الحاصل من مخالطة الفساق وأهل الخبث واللؤم ومن عادتهم السب .

ورد أن أعرابياً قال لرسول الله عين : أوصني ، فقال : «عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ عيرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه يكن وباله عليه ، وأجره لك ولا تسبن شيئاً (١) بعده » . وعنه على : «سباب المؤمن فسوق وقتاله كفر(٢) » وعنه على « من أكبر الكبائر أن يسب الرجل والله » قالوا : يا رسول الله ، كيف يسب الرجل والله ؟ قال : « يسب أبا الرجل ، فيسب الأخر أباه »(٢) .

الآفة الثامنة: اللعن

اللعن إما لحيوان أو جماد أو إنسان ، وكل ذلك مذموم ، قال رسول الله على : « المؤمن ليس بلعان (٤) » واللعن عبارة عن الطرد والإبعاد من الله تعالى ، وذلك غير جائز إلا على من اتصف بصفة تبعده من الله عز وجل ، وهو الكفر والظلم ، وفي لعن فاسق معين خطر غالباً ، فليتجنب ولو بعد

⁽١) رواه أحمد والطبراني بإسناد جيد . قاله الحافظ العراقي .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

⁽٣) رواه البخاري ومسلم .

⁽٤) ورد بلفظ (ليس المؤمن بالطعان ولا اللعان ولا الفاحش ، ولا البذيء) وقد سبق تخريجه في الصفحة السابقة .

موته ، بل قد يكون أشد إن كان فيه أذى للحي ، ويقرب من اللعن الدعاء على الإنسان بالشر .

الآفة التاسعة : الغناء والشعر

والمذموم منهما ما اشتمل على محرم أو دعا إليه كتشبيب بمعين وهجاء وتشبه بالنساء ، وتهييج لفاحشة ولحوق بأهل الخلاعة والمجون وصرف الوقت إليه ونحو ذلك ، وما خلا ذلك فهو مباح (١) .

الآفة العاشرة: المزاح

والمنهي عنه المذموم منه هو المداومة عليه والإفراط فيه ، فأما المداومة فلأنه اشتغال باللعب والهزل ، وأما الإفراط فيه فإنه يورث كثرة الضحك والضغينة في بعض الأحوال ، ويسقط المهابة والوقار ، وأما ما يخلو عن هذه الأمور فلا ينم كما ورد عن النبي على أنه قال : « إني لأمزح ولا أقول إلا حقاً ، وأما غيره إذا حقاً (٢) » إلا أن مثله يقدر على أن يمزح ولا يقول إلا حقاً ، وأما غيره إذا فتح باب المزاح كان غرضه أن يضحك الناس كيفها كان ، وقد قال عمر : من مزح استُخف به . وقال سعيد ابن العاص لابنه : يا بُني لا تمازح الشريف فيحقد عليك ، ولا الدنيء فيجترىء عليك . وقيل : لكل شيء بذر ، وبذر العداوة المزاح ويقال : المزاح مسلبة للنهي مقطعة للأصدقاء .

ومن الغلط العظيم أن يتخذ المزاح حرفة يواظب عليه ويفرط فيه ، ثم يتمسك بفعل الرسول عليه أن يدور نهاره مع الزنوج ينظر إليهم وإلى رقصهم ، ويتمسك بأن رسول الله على أذن لعائشة في النظر إلى لعب الزنوج في يوم عيد ، وهو خطأ . وبالجملة : فإن كنت تقدر على أن تمزح ولا تقول

⁽١) بشرطُ أن يخلو من المعازف لقوله ﷺ : « ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحِر (الـزنى) والحرير والمعازف . . » رواه أبو داود وإسناده صحيح (الأحاديث الصحيحة ١١٠٠١) .

⁽٢) رواه الطبراني بإسناد حسن (مج) .

جاءت امرأة فقالت: يا رسول الله ، احملني على بعير. فقال: «بل على ابن البعير» فقالت: ما أصنع به ، إنه لا يحملني. فقال على «ما من بعير إلا وهو ابن بعير »(١).

وقال أنس: كان لأبي طلحة ابن يقال له أبو عُمير: وكان رسول الله يأتيهم ويقول: « أبا عمير ما فعل النُّغير» (٢) النغير: كان يلعب به، وهو فـرخ العصفور.

وقالت عائشة رضي الله عنها إنها كانت مع رسول الله على في سفر ، وهي جارية ، قالت : لم أحمد اللحم ، ولم أبدن . فقال لأصحابه : تقدموا ، فتقدموا ثم قال : تعالي أسابقك ! فسابقته ، فسبقته على رجلي . فسكت عني حتى إذا حملت اللحم وبدنت ونسيت . خرجت معه في سفر ، فقال لأصحابه : تقدموا ، فتقدموا ، ثم قال : تعالي أسابقك ، ونسيت الذي كان ، وقد حملت اللحم ، فقلت كيف أسابقك يا رسول الله وأنا على هذه الحال ! فقال : لتفعلن ! فسابقته ، فسبقني . فجعل يضحك ، وقال هذه بتلك السقة (٣) .

وقالت أيضاً: كان عند رسول الله على سودة بنت زمعة فصنعت خريراً وجئت به فقلت لسوده: كلي ، فقالت: لا أحبه . فقلت: والله لتأكلن أو لألطخن به وجهك ، فقالت: ما أنا بذائقته فأخذت بيدي من الصفحة شيئاً منه فلطخت به وجهها ورسول الله بيني وبينها ، فخفض لها

⁽١) رواه أبو داود عن أنس بلفظ أن رجلًا استحمل (طلب منه أن يحمله على دابة) فقال: إني حاملك على ولد ناقة! فقال: ما أصنع بولد الناقة؟ فقال رسول الله ﷺ: وهمل تلد الإبل إلا النوق؟! رواه الترمذي وأبو داود وسنده صحيح (مم).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

⁽٣) رواه أحمد وأبو داود والنسائي وسنده صحيح .

ركبته لتستقيد فتناولت من الصفحة شيئاً فمسحت به وجهي ، وجعل رسول الله على يضحك (١) ، وعن أبي سلمة أنه كان على يدلع لسانه للحسن بن على رضى الله عنها فيرى الصبي لسانه فيهش له (٥) .

وقال عيينة الفـزري : واللّه ليكونن إلى الابن قـد تزوج وخـرج وجهه وما قبلته قط ، فقال ﷺ : « إن من لا يَرْحم لا يُرْحم »(٢) .

فأكثر هذه المطايبات منقولة مع النساء والصبيان ، وكان ذلك منه ﷺ معالجة لضعف قلوبهم من غير ميل إلى هزل .

وقال على مرة لصهيب وبه رمد وهو يأكمل غراً: «أتأكل التمر وأنت رمد؟ فقال: إنما آكل بالشق الآخريا رسول الله، فتبسم على (٣)، وقال بعض الرواة حتى نظرت إلى نواجذه.

فهذه مطايبات يباح مثلها على الندور لا على الـدوام ، والمواظبة عليها هزل مذموم .

الآفة الحادية عشرة

(السخرية والاستهزاء) وهو مُحرّم ، قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن السخرية الاستهانة والتحقير ، والتنبيه على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، وقد يكون والتحقير ، والتنبيه على القول والفعل وقد يكون بالإشارة والإيماء ، ومرجع ذلك ذلك بالمحاكاة في القول والفعل وقد يكون بالإشارة والإيماء ، ومرجع ذلك إلى استحقار الغير والضحك عليه والاستهانة به والاستصغار له ، وعليه قوله تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ (الحجرات : ١١) أي لا تستحقره تعالى : ﴿ عَسَى أَن يَكُونُواْ خَيْراً مِّنْهُمْ ﴾ (الحجرات : ١١) أي لا تستحقره

 ⁽١) رواه الزبير بن بكار في كتابه « الفكاهة » بإسناد جيد كها قال الحافظ العراقي .

 ⁽٢) رواه البخاري ومسلم بلفظ: «جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: أتقبلون الصبيان؟!
 فها نقبلهم. فقال النبي ﷺ: «أو أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة؟!

⁽٣) رواه ابن ماجه والحاكم ورجاله ثقات .

استصغاراً فلعله خير منك ، وهذا إنما يحرم في حق من يتأذى به ، فأما من جعل نفسه مسخرة وفرح بمن يسخر به كانت السخرية في حقه من جملة المزاح ، وقد سبق ما يذم منه وما يمدح ، وإنما المحرم استصغار ما يتأذى به المستهزأ به لما فيه من التحقير والتهاون ، وذلك تارة بأن يضحك على كلامه إذ تخبط فيه ولم ينتظم ، أو على أفعاله إذا كانت مشوشة كالضحك على خطه وعلى صنعته أو على صورته وخلقته لعيب فيه ، فالضحك من جميع ذلك داخل في السخرية المنهي عنها .

الآفة الثانية عشرة : إفشاء السر

وهو منهي عنه لما فيه من الإيذاء والتهاون بحق المعارف والأصدقاء . قال النبي على : « إذا حدث الرجل بحديث ثم التفت فهي أمانة (١) » وقال : « الحديث بينكم أمانة (٢) » فإفشاء السر خيانة ، وهو حرام إذا كان فيه إضرار ، ولؤم إن لم يكن فيه إضرار .

الآفة الثالثة عشرة: الوعد الكاذب

فإن اللسان سباق إلى الوعد ثم النفس ربما لا تسمح بالوفاء فيصير الوعد خلفاً وذلك من أمارات النفاق. قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا اللَّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى اللّهِ عَلَى عَلَى اللّه عليه أَوْفُواْ بِٱلْعُقُودِ ﴾ (المائدة: ١) وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسماعيل عليه السلام في كتابه العزيز فقال: ﴿ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ ﴾ (مريم: ٥٥) ولما حضرت عبد الله بن عمر الوفاة قال: إنه كان خطب إليّ ابنتي رجل من قريش وقد كان مني إليه شبه الوعد، فوالله لا ألقى الله بثلث النفاق، أشهدكم أني قد زوجته ابنتي.

⁽١) رواه احمد وأبو داود والترمذي والضياء وسنده حسن (مج) .

 ⁽٢) ورد مرفوعاً عن عثمان وعن ابن عباس بلفظ: « إنما المجالس بالأمانة » وسنده حسن
 (مج) .

وكان ابن مسعود لا يعد وعداً إلا يقول: إن شاء الله وهو الأولى ، ثم إذا فهم مع ذلك الجزم في الوعد فلا بدعن الوفاء إلا أن يتعذر ، فإن كان عند الوعد عازماً على أن لا يفي فهذا هو النفاق ، وقال على أن لا يفي فهذا هو النفاق ، وقال وقل المنافق وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا اؤتمن خان(۱) » وقال على : «أربع من كن فيه كان منافقاً ، ومن كانت فيه خلة منهن كان فيه خلة من النفاق حتى يدعها : إذا حدث كذب وإذا وعد أخلف ، وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر(۲) » وهذا ينزل على من إذا وعد وهو على عزم الخلف أو ترك الوفاء من غير عذر . فأما من عزم على الوفاء فعن له عذر منعه من الوفاء لم يكن منافقاً ، وإن جرى عليه ما هو صورة النفاق ، ولكن ينبغي أن يحترز من صورة النفاق أيضاً كما يحترز من حقيقته ، ولا ينبغى أن يجعل نفسه معذوراً من غير ضرورة .

الآفة الرابعة عشرة: الكذب في القول واليمين

وهي من قبائح الذنوب وفواحش العيوب ، قال ﷺ : « إياكم والكذب فإنه مع الفجور وهما في النار (٣) » وعنه « كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق وأنت له به كاذب (٤) » .

بيان ما رخص فيه من الكذب

إعلم أن الكذب حرام لما فيه من الضرر على المخاطب أو على غيره وقد ، يتعلق به مصلحة فيكون مأذوناً فيه ، وربما كان واجباً كما إذا كان في الصدق سفك دم امرىء قد اختفى من ظالم ، فالكذب به واجب ، وكما إذا كان لا يتم مقصود الحرب أو إصلاح ذات البين أو استمالة قلب المجنى عليه

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

⁽٣) رواه ابن ماجه والنسائي واسناده حسن كها قال الحافظ العراقي .

⁽٤) رواه احمد والطبراني باسناد جيد قاله العراقي .

أو تعاشر الزوجين إلا بكذب ، فالكذب مباح ، إلا أنه يقتصر على حد الضرورة لئلا يتجاوز إلى ما يستغني عنه ، وفي معنى ذلك وردت أحاديث كثيرة ، قال ثوبان : الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلماً أو دفع عنه ضرراً .

الآفة الخامسة عشرة: الغيبة

قد نص الله سبحانه على ذمها في كتابه الكريم، وشبه صاحبها بآكل لحم الميتة فقال تعالى: ﴿وَلاَ يَغْتَب بَعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَمْمَ أَخِيهِ مَنْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ (الحجرات : ١٢) وقال عَنْ : « كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه (١) » والغيبة تتناول العرض ، وعن مجاهد أنه قال في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّلَزَةٍ ﴾ (الهمزة : ١) الهمزة : الطعان في الناس ، واللمزة الذي يأكل لحوم الناس ، وقال ابن عباس : إذا أردت أن تذكر عيوب الناس فاذكر عيوبك . وربما يكون حسدك وقدحك سبب انتشار محسودك كها قيل :

وإذا أراد الله نشر فضيلة طُويت أتاح لها لسان حسود

والقول الجامع في الغيبة ما جاء من قوله على : « الغيبة ذكرك أخاك بما يكره »(٢) وإنما حرم الذكر باللسان لما فيه من تفهيم الغير نقصان أخيه ، وتعريفه بما يكرهه ـ ولذا كان التعريض به كالتصريح والفعل فيه كالقول ، والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة ـ وهو حرام ، فمن أوما بيده إلى قصر أحد أو طوله ، أو حاكاه في المشي كما يمشي فهو غيبة ، والكتابة عن شخص في عيب به غيبة ، لأن القلم أحد اللسانين . وكذا قولك : من قدم من السفر أو بعض من مر بنا اليوم إذا كان المخاطب يفهمه فهو غيبة ـ وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة بنا اليوم إذا كان المخاطب يفهمه فهو غيبة ـ وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة

⁽١) هو جزء من حديث رواه مسلم وأوله : المسلم أخو المسلم . .

 ⁽۲) رواه مسلم بلفظ: « هل تدرون ما الغيبة » ؟ قالوا: الله ورسوله أعلم ، قال: « ذكرك أخاك بما يكره ».

الدعاء كقوله: الحمد للة الذي لم يبتلينا بكذا ـ وكذلك قد يقدم مدح من يريد غيبته ، فيقول ما أحسن أحوال فلان ولكنه ابتلى به كلنا ، وهو كذا ، فليذكر نفسه ، ومقصوده أن يذم غيره في ضمن ذلك . ومن ذلك أن يذكر عيب إنسان فلا يتنبه له بعض الحاضرين ، فيقول : سبحان الله ما أعجب هذا حتى يُصغى إليه ويعلم ما يقول فيذكر الله تعالى ويستعمل اسمه آلة له في تحقيق خبثه ، وكذلك يقول ، ساءني ما جرى على صديقنا من الاستخفاف به ، فيكون كاذباً في دعوى الاغتمام ، لأنه لو اغتم لاغتم بإظهار ما يكرهه وكذلك يقول ذلك المسكين قد بلي بآفة عظيمة تاب الله علينا وعليه ، وهو في كل ذلك يظهر الدعاء ، والله مطلع على خبث ضميره وخفي قصده ، وهو فل جهله لا يدرى أنه قد تعرض لمقت عظيم .

ومن ذلك الإصغاء إلى الغيبة على سبيل التعجب، فإنه إنما يظهر التعجب، ليزيد نشاط المغتاب في الغيبة فيندفع فيها، وكأن يستخرج منه بهذا الطريق فيقول: عجيب! ما علمت أنه كذلك، كنت أحسب فيه غير هذا، عافانا الله من بلائه فإنه كل ذلك تصديق المغتاب والتصديق بالغيبة غيبة، بل الساكت شريك المغتاب إلا أن ينكر بلسانه أو بقلبه إن خاف - وفي الحديث: «من رد عن عرض أخيه بالغيب كان حقاً على الله أن يرد عن عرضه يوم القيامة (۱) ».

الأسباب الباعثة على الغيبة

(منها) التشفي ـ وذلك إذا جرى سبب غضب به عليه فإنه إذا هاج غضبه فيشتفي بذكر مساوئه ، فسبق اللسان إليه بالطبع ، إن لم يكن ثم دين وازع ، وقد يمتنع تشفي الغيظ عند الغضب ، فيحتقن الغضب في الباطن ،

⁽١) جاء في كتاب « الترغيب والترهيب » بلفظ : « من ذب عن عرض أخيه ، ردّ اللّه عنه عذاب النار يوم القيامة » وتلا رسول اللّه ﷺ : (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) رواه ابن أبي الدنيا وأبو الشيخ في كتاب « التوبيخ » وهو حسن الأسناد «مت» .

فيصير حقداً ثابتاً فيكون سبباً دائماً لذكر المساوى، ، فالحقد والغضب من البواعث العظيمة على الغيبة .

(ومنها) موافقة الرفقاء ومساعدتهم على الكلام ، فإنهم إذا كانوا يتفكهون بذكر الأعراض ، فيرى أنه لو أنكر عليهم أو قطع المجلس استثقلوه ونفروا عنه ، فيساعدهم ويرى ذلك من حسن المعاشرة ، وقد يغضب رفقاؤه فيضطر إلى أن يغضب لغضبهم إظهاراً للمساهمة في السراء والضراء ، فيعوض معهم في ذكر العيوب والمساوىء .

(ومنها) إرادة التصنع والمباهاة ، وهو أن يرفع نفسه بتنقيص غيره .

(ومنها) الحسد ، وهو أن يحسد من يثني الناس عليه ، ويحبونه ويكرمونه ، فيريد زوال تلك النعمة عنه ، فلا يجد سبيلاً إليه إلا بالقدح فيه ، حتى يكفوا عن الثناء عليه وإكرامه ، لأنه يثقل عليه ذلك .

(ومنها) اللعب والهزل وتزجية الوقت بالضحك ، فيذكر عيوب غيره بما يضحك الناس على سبيل المحاكاة ، ومنشؤه التكبر والتعجب .

(ومنها) السخرية والاستهزاء استحقاراً له ، ومنشؤه التكبر واستجهال المستهزأ به .

بيان العلاج الذي به يمنع اللسان عن الغيبة

إعلم أن مساوىء الأخلاق كلها إنما تعالج بمعجون العلم والعمل، وعلاج كف اللسان عن الغيبة إجمالاً، أن يعلم أنه يتعرض لسخط الله تعالى إذا اغتاب، لارتكابه ما نهى الله عنه، فمها آمن العبد بما ورد من الأخبار في الغيبة (١) لم يطلق لسانه بها خوفاً من ذلك، وينفعه أيضاً أن يتدبر في نفسه

 ⁽١) هناك أحاديث كثيرة في الترهيب من الغيبة نذكر منها : « من أربى الربا استطالة المرء في عرض أخيه » رواه البزار باسنادين أحدهما قوي . وهمو صحيح « مت » وفي رواية لأبي داود
 « بغير حق » وهو صحيح . وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قلت للنبي : « حسبك من =

فإن وجد فيها عيباً ، اشتغل بعيب نفسه .

ومهما وجد عيباً فينبغي أن يستحي من أن يترك ذم نفسه ويذم غيره ، بل ينبغي أن يتحقق أن عجز غيره عن نفسه في التنزه عن ذلك العيب كعجزه ، وهذا إن كان ذلك عيباً يتعلق بفعله واختياره ، وإن كان أمراً خَلقياً ، فالذم له ذم للخالق ، فإن من ذم صنعة ، فقد ذم صانعها ، وإذا لم يجد العبد عيباً في نفسه ، فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، يجد العبد عيباً في نفسه ، فليشكر الله تعالى ولا يلوثن نفسه بأعظم العيوب ، فإن ثلب الناس وأكل لحم الميتة من أعظم العيوب ، بل لو أنصف ، لعلم أن ظنه بنفسه أنه بريء من كل عيب ، جهل بنفسه ، وهو من أعظم الذنوب ، وينفعه أيضاً أن يعلم أن تألم غيره بغيبته كتألمه بغيبة غيره له ، إذا كان لا يرضى لنفسه أن يُغتاب ، فينبغي أن لا يرضى لغيره ما لا يرضاه لنفسه ، وبالجملة فمن قوي إيمانه انكف عن الغيبة لسانه .

بيان تحريم الغيبة بالقلب وذلك بسوء الظن

إعلم أن سوء الظن حرام مثل سوء القول ، فكما يحرم عليك أن تحدث غيرك بلسانك بمساوى الغير ، فليس لك أن تحدث نفسك وتسيء الظن بأخيك ، ولست أعني به إلا عقد القلب وحكمه على غيره ظناً بأمر سيء . فأما الخواطر وحديث النفس فهو معفو عنه ، ولكن المنهي عنه أن يظن ، والظن عبارة عما تركن إليه النفس ويميل إليه القلب ، فقد قال تعالى ﴿يَاأَيُّهَا اللَّذِينَ ءَامَنُواْ آجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ آلظّنِ إِنَّ بَعْضَ آلظّنِ إِثْمُ ﴾ (الحجرات : آللّذِينَ ءَامَنُواْ آجْتَنِبُواْ كَثِيراً مِّنَ آلظّوب لا يعلمها إلا علام الغيوب ، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءاً إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل ، فإن لم ينكشف كذلك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه ، فإنه أفسق لم ينكشف كذلك فإنما الشيطان يلقيه إليك ، فينبغي أن تكذبه ، فإنه أفسق

صفية كذا وكذا » قال بعض الرواة تعني : « قصيرة » فقال النبي ﷺ : « لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته » رواه البيهقي . وقال الترمذي : حديث حسن صحيح وهو كها قال : « مت » .

الفسق، وقد قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ إِن جَاءَكُمْ فَاسِقُ بِنَبَا فَتَبَيَّنُواْ أَن تُصِيبُواْ قَصُومًا بِجَهَلَةٍ ﴾ (الحجرات: ٦) وفي الحديث: ﴿إِن الله حرم من المسلم دمه وماله ، وأن يُظن به ظن السوء » وحينئذ فإذا خطر لك وسواس سوء الظن ، فينبغي أن تدفعه عن نفسك وتقرر عليها أن حاله عندك مستور كما كان ، وأن ما رأيته منه يحتمل الخير والشر .

بيان الأعذار المرخصة في الغيبة

إعلم أنه إذا لم يمكن التوصل إلى غرض صحيح في الشرع إلا بذكر مساوىء الغير ، فإنه يُرخص فيه ، ولا إثم ، وذلك في أمور (منها) التظلم وذلك كمظلوم يرفع ظلامته على إنسان إلى أمير ليستوفي له حقه ، لا يمكنه استيفاء حقه إلا بنسبته إلى الظلم ، قال على : « إن لصاحب الحق مقالًا(١) » وعنه على « مطل الغني ظلم » .

(ومنها) الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصى إلى منهج الصلاح.

(ومنها) الاستفتاء كأن يقول للمفتي : ظلمني أبي أو زوجتي أو أخي إذا لم يفد الإبهام أو التعريض . وذلك لما ورد عن هند بنت عتبة أنها قالت للنبي : إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني أنا وولدي ، أفآخذه من غير علمه ؟ فقال : «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف (٢) » فذكرت الشح والظلم لها ولولدها ، ولم يزجرها عليه السلام إذ كان قصدها الاستفتاء .

(ومنها) تحذير المسلم من الشر ، كما إذا علمت من إنسان ضرراً فحذرت شخصاً منه ، وكالمزكي يطعن في الشاهد إذا سئل عنه ، وكذلك المستشار في التزويج وإيداع الأمانة ، له أن يذكر ما يعرفه على قصد النصح للمستشير لا على قصد الوقيعة (٣) .

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

⁽٣) جاء في أصل (الأحياء) . وفي الحديث الصحيح : (من كانت لأخيه عنده مظلمة في عرض =

(ومنها) أن يكون الإنسان معروفاً بلقب يعرب عن عيبه ، كالأعرج والأعمش ، فلا حرج في ذكره لضرورة التعريف ، ولأن ذلك قد صار بحيث لا يكرهه صاحبه ، لو علمه بعد أن قد صار مشهوراً به . نعم إن وجد عنه معدلاً وأمكنه التعريف بعبارة أخرى فهو أولى . ولذلك يقال للأعمش البصير ، عدولاً عن اسم النقص .

(ومنها) أن يكون مجاهراً بالفسق متظاهراً به . ولا يكره أن يُذكر به فلا غيبة له بما يتظاهر به .

بيان كفارة الغيبة

إعلم أن الواجب على المغتاب أن يندم ويتوب ويتأسف على ما فعله ليخرج من حق الله سبحانه ، ثم يستحل المغتاب ليحله ، فيخرج من ظلمته ، إن قدر عليه ولم يخش محذوراً (٣) .

وليس المراد إباحة تناول عرضه بل العفو عن جريمته ، وقد قال تعالى : ﴿ خُدِ الْعَفْوَ وَأَمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلجَالِينَ ﴾ (الأعراف: ١٩٩).

الآفة السادسة عشر النميمة

قال الله تعالى : ﴿مُسَّانٍ مُشَّآءِ بِنَمِيمٍ ﴾ (القلم : ١١) ، وقال الله تعالى : ﴿مَّالَةَ تعالى : ﴿مَّالَةَ

__ أو مـال فيستحللها منه من قبـل أن يـأتي يـوم ليس هنـاك دينـار ولا درهم ، إنمـا يؤخـذ من محسنات ، أخذت من سيئات صاحبه ، فزيدت على سيئـات ، رواه البخاري ومسلم .

وسئل عطاء بن أبي رباح عن التوبة من الغيبة قال: أن تمشي إلى أخيك فتقول له: كذبت فيها قلت وظلمتك ، وأسات ، فإن شئت أخذت حقك ، وإن شئت عفوت، قد يقول قائل: يخشى أن يؤدي ذلك إلى فتنة عند بعضهم. فأجيب إذا علم المغتاب كل ذلك تحاشى الغيبة من الأصل ولم يقربها.

الْحَطَبِ ﴾ (المسد : ٤) قيـل إنها نمامـة حمالـة للحديث ، وقــال ﷺ : « لا يدخل الجنة نمام »(١) .

وحد النميمة هو كشف ما يكره كشفه ، سواء كان كرهه المنقول إليه أو كرهه ثالث ، وساء كان الكشف بالقول أو بالكتابة . أو بالرمز أو بالإيماء ، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال ، وسواء كان عيباً ونقصاً في المنقول عنه ، أو لم يكن ، بل حقيقة النميمة إفشاء السر وهتك الستر عها يكره كشفه ، بل كل ما رآه الإنسان من أحوال الناس ، مما يكره ، فينبغي أن يسكت عنه إلا ما في حكايته فائدة لمسلم أو دفع لمعصية ، كها إذا رأى من يتناول مال غيره ، فعليه أن يشهد به مراعاة لحق المشهود له .

والباعث على النميمة إما إرادة السوء للمحكي عنه ، أو إظهار الحب للمحكي له ، والتفرج (أي التسلي) بالحديث والخوض في الفضول والباطل .

وكل من حملت إليه نميمة فيجب أن لا يسارع إلى ظن صدق الحامل لقوله تعالى : ﴿ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُواْ ﴾ (الحجرات : ٦) وأن ينهاه وينصح له ، وأن لا يظن بالغائب سوءاً ، وأن لا يحمله ذلك على التجسس .

وسعى رجل بزياد الأعجم إلى سليمان بن عبد الملك فجمع بينها للموافقة ، فأقبل زياد على الرجل وقال:

فأنت امرؤ إما ائتمنتك خالياً فخنت وإما قلت قولاً بلا علم فأنت من الأمر الذي كان بيننا بمنزلة بين الخيانة والإثم

وقال الحسن: من نم إليك نم عليك. وهذا إشارة إلى أن النمام ينبغي أن يُبغض ولا يوثق بقوله ولا بصداقته ، وكيف لا وهو لا ينفك عن الغدر والخيانة والإفساد بين الناس ، وهو ممن يسعى في قطع ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض ، وقال تعالى : ﴿إِثَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

يَظْلِمُونَ ٱلْنَاسَ وَيَبْغُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْخَقِّ ﴾ (الشورى: ٤٢) وشر النمام عظيم يجب أن يتوقى .

قال حماد بن سلمة : باع رجل عبداً وقال للمشتري : ما فيه عيب إلا النميمة .

قال : رضيت ، فاشتراه ، فمكث الغلام أياماً ثم قال لزوجة مولاه : إن سيدي لا يحبك ، وهو يريد أن يتسرى عليك ، فخذي الموسى واحلقي من شعر قفاه عند نومه شعرات حتى أسحره عليها ، فيحبك .

ثم قال للزوج: إن امرأتك اتخذت خليلًا ، وتريد أن تقتلك ، فتناوم لها حتى تعرف ذلك . فتناوم لها ، فجاءت المرأة بالموسى ، فظن أنها تريد قتله ، فقام إليها وقتلها ، فجاء أهل المرأة فقتلوا الزوج ، ووقع القتال بين القبيلتين ، فنسأل الله حسن التوفيق .

الآفة السابعة عشرة : كلام ذي الوجهين

وهو ذو اللسانين الذي يتردد بين المتعاديين ، ويكلم كل واحد منها بكلام يوافقه من الثناء عليه في معادلته ، وذمه الآخر ووعده بأن ينصره على خصمه ، وهو من علامات النفاق ، نعم إذا دخل على متعاديين وجامل كل واحد منها ، وكان صادقاً فيه ، لم يكن ذا لسانين ولا منافقاً ، فإن الإنسان قد يصادق متعاديين ، وأما نقل كلام كل واحد منها إلى الآخر فهو ذو لسانين ، وهو شر من النمام ، لأن النمام ينقل من أحد الجانبين فقط ، وهذا يريد النقل من الجانب الآخر ويريد أن يحسن لكل واحد منها ما هو عليه من المعاداة مع صاحبه ، نعم من ابتلي بمراعاة أحد الجانبين في قول ما ، لضرورة وخاف من تركه ، فهو معذور ، فإن اتقاء الشر جائز ، قال أبو الدرداء رضي الله عنه : إنا لنكشر في وجوه أقوام وإن قلوبنا لتلعنهم . وقالت عائشة : استأذن رجل على رسول الله عنه ، فها خرج قلت : يا رسول الله قلت فيه

ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال : «يا عائشة : إن شر الناس الذي يُكرم اتقاء شره (١) » ولكن هذا ورد في الإقبال وفي الكشر والتبسم ، وإلا فلا يجوز الثناء ولا التصديق ولا تحريك الرأس في معرض التقرير على كل كلام باطل ، فإن فعل ذلك فهو منافق ، بل ينبغي أن ينكر ، فإن لم يقدر فيسكت بلسانه وينكر بقلبه ، وللضرورات حكمها .

الآفة الثامنة عشرة : المدح

وهو منهي عنه في بعض المواضع ، أما الذم فهو الغيبة والوقيعة وقد ذكرنا حكمها ، والمدح يدخله ست آفات : أربع في المادح ، واثنتان في الممدوح ، فأما المادح (فالأولى) أنه قد يفرط فيه فينتهي به إلى الكذب (والثانية) أنه قد يدخله الرياء ، فإنه بالمدح مظهر للحب ، وقد لا يكون مضمراً له ولا معتقداً لجميع ما يقوله فيصير به مرائياً منافقاً (والثالثة) أنه يقول ما لا يتحققه ولا سبيل له إلى الاطلاع عليه (والرابعة) أنه قد يفرح الممدوح ، وهو ظالم أو فاسق ، وذلك غير جائز ، قال الحسن : من دعا لظالم بطول البقاء ، فقد أحب أن يُعصى الله في الأرض .

وأما الممدوح فيضره من وجهين (أحدهما) أنه يحدث فيه كبراً وإعجاباً ، وهما مهلكان (والثاني) هو أنه إذا أثنى عليه فرح وفتر ورضي عن نفسه وقد تشميره للعمل .

فإن سلم المدح من هـذه الأفات في حق المـادح والممدوح ، لم يكن بـه بأس ، بل ربما كان مندوباً إليه .

وعلى الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب وآفة الفتور ، ويتذكر أنه يعلم من نفسه ما لا يعلمه المادح ، وأنه لو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره ، لكف المادح عن مدحه . وكان عليً

⁽١) رواه البخاري ومسلم :

رضي الله عنه إذا أثنى عليه يقول: «اللهم اغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلني خيراً بما يظنون». وعلى المادح أن لا يجزم القول إلا بعد خبرة باطنة. سمع عمر رضي الله عنه رجلًا يثني على رجل فقال: أسافرت معه ؟ قال: لا، قال: أخالطته في المبايعة والمعاملة ؟ قال: لا، قال: لا، قال: لا، قال: لا، قال: والله قال: لا، قال: لا، قال: لا، فقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أراك تعرفه، وفي الحديث: أن رجلًا مدح رجلًا عند رسول الله على فقال: ويحك قطعت عنق صاحبك، إن كان أحدكم لا بد مادحاً أخاه فليقل: أحسب فلاناً، ولا أزكي على الله أحداً »(١). وفي الحديث: «أحثوا في وجوه المداحين التراب »(٢).

الآفة التاسعة عشرة: الخطأ في دقائق لفظية

ينبغي التنبيه لدقائق الخطأ في فحوى الكلام، والحذر عن الغفلة عنها ، لا سيها فيها يتعلق بالله وصفاته ؛ مثاله ما جاء في الحديث عنه على : « لا يقل أحدكم ما شاء الله وشئت ولكن ليقل ما شاء الله ثم شئت (٣) » وذلك لأن في العطف المطلق تشريكاً وتسوية ، وهو على خلاف الاحترام ، وكان إبراهيم يكره أن يقول الرجل : أعوذ بالله وبك ، ولولا الله وفلان . ويجوز أن يقول الرجل : ولولا الله ثم فلان . وعن ابن عباس رضي الله عنها : إن أحدكم ليشرك حتى يشرك بكلبه فيقول : لولاه لشرقنا الليلة .

وقال عمر: قال رسول الله ﷺ: « إن الله تعالى ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم » قال عمر: فوالله ما حلفت بها منذ سمعتها .

وقال أبو هريرة قال رسول اللَّه ﷺ : « لا يقولن أحدكم عبدي وأمتي

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

⁽٢) رواه مسلم .

⁽٣) رواه أبو داود والنسائي في الكبرى بسند صحيح .

كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماء الله ، ولكن ليقل : غلامي وجاريتي وفتاي و وفتاي ، ولا يقل : ربي ولكن ليقل سيدي وسيدي فكلكم عبيد الله ه(١) .

وقال ﷺ: « لا تقولوا للمنافق: سيدي ، فإنه إن يكن سيداً أسخطتم ربكم (٢٠) » فعلى المتكلم أن يوافقه ورع حافظ ، ومراقبة لازمة ليسلم من الخطر.

الآفة العشرون : الخوض في صفات الله تعالى وكلامه

من حق العوام الاشتغال بالعمل الصالح إلا أن الفضول خفيف على القلب ، والعامي قد يفرح بالخوض في العلم ، إذ الشيطان يخيل إليه أنه من العلماء وأهل الفضل ولا يزال يجبب إليه ذلك حتى يتكلم بما هو كفر ولا يدري . وكل من سأل عن علم غامض ولم يبلغ فهمه تلك الدرجة فهو مذموم فإنه بالإضافة إليه عامي ، وفي الحديث «نهى رسول الله عن عن القيل والقال وإضاعة المال وكثرة السؤال »(٣) .

كتاب ذم الغضب والحقد والحسد

إن الغضب شعلة نار اقتبست من نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ، وإنها لمستكنة في طي الفؤاد استكنان الجمر تحت الرماد ، ويستخرجها الكبر الدفين في قلب كل جبار عنيد ، كاستخراج الحجر النار من الحديد ـ وقد انكشف للناظرين بنور اليقين ، أن الإنسان ينزع منه عرق إلى الشيطان اللعين فمن استفزته نار الغضب ، فقد قويت فيه قرابة الشيطان حيث قال : ﴿ فَلَقْتَنِي مِن نّارٍ وَ فَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾ (الأعراف : ١٢) فإن

⁽١) رواه مسلم .

⁽٢) رواه أبو داود وسنده صحيح (مم) .

⁽٣) حديث النهي عن قيل وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال . رواه البخاري ومسلم .

شأن الطين السكون والوقار وشأن النار التلظي والاستعار والحركة والاضطراب، ومن نتائج الغضب الحقد والحسد، وبها هلك من هلك وفسد من فسد، ومفيضها مضغة إذا صلحت صلح الجسد، وإذا كان الحقد والحسد والغضب مما يسوق العبد إلى مواطن العطب، فها أحوجه إلى معرفة معاطبه ومساوئه، ليحذر ذلك ويتقيه ويميطه عن القلب إن كان وينفيه. وهاك بيان ذلك بعونه تعالى.

بيان ذم الغضب

قال الله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ اللَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْخَمِيّةَ حَيِّةَ الْخَلِيِّةِ فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (الفتح: ٢٦) الآية: ذم الكفار بما تظاهروا به من الحمية الصادرة عن الغضب بالباطل ومدح المؤمنين بما أنزل عليهم من السكينة. وثبت أن رجلاً قال يا رسول الله مسرني بعمسل وأقلل. قال: «لا تغضب» ثم أعدد عليه فقال «لا تغضب» ثم أعداد عليه فقال الذي لا تغضب » ثم أعداد عليه فقال الذي لا تعضب » (١). وقال عليه : « ما تعدون الصرعة فيكم » ؟ قلنا: الذي لا تصرعه الرجال ، قال: « ليس ذلك ولكن الذي يمك نفسه عنه الغضب » (١).

وعن جعفر الصادق: « الغضب مفتاح كل شر » وقال بعض الأنصار: رأس الحمق الحدة وقائده الغضب، ومن رضي بالجهل استغنى عن الحلم، والحلم زين ومنفعة، والجهل شين ومضرة، والسكوت عن جواب الأحمق جوابه. وقال الحسن: من علامات المسلم قوة في دين، وحزم في لين، وإيمان في يقين، وعلم في حلم، وكيس في رفق، وإعطاء في حق، وقصد في غنى، وتجمل في فاقة، وإحسان في رفاقة، وصبر في شدة، لا يغلبه الغضب، ولا تجمح به الحمية، ولا تغلبه شهوة، ولا تفضحه

⁽١) رواه البخاري .

⁽٢) رواه مسلم .

بِطنة ، ولا يستخف حرصه ولا تقصر به نيته ، فينصر المظلوم ، ويرحم الضعيف ، ولا يبخل ولا يبذر ، ولا يسرف ولا يقتر ، يغفر إذا ظُلم ، ويعفو عن الجاهل ، نفسه منه في عناء ، والناس منه في رخاء .

درجات الناس مع الغضب

إعلم أن قوة الغضب محلها القلب ومعناها غليان دم القلب وانتشاره في العروق ، وارتفاعه إلى أعلى البدن كها ترتفع النار والماء الذي يغلي في القدر ، فلذلك ينصب إلى الوجه فيحمر الوجه والعين ، والبشرة لصفائها تحكي لـون ما وراءها من حُرة الدم كها تحكى الزجاجة لون ما فيها .

ثم إن الناس في هذه القوة على درجات ثلاث: من التفريط، والإفراط، والاعتدال (أما التفريط) ففقد هذه القوة أو ضعفها، وذلك مذموم، وهو الذي يقال فيه: إنه لا حمية (١) له، ولذلك قال الشافعي رحمه الله تعالى: من استغضب، ولم يغضب، فهو حمار! فمن فقد قوة الغضب والحمية أصلاً، فهو ناقص: وجاء في حديث رواه جابر: «كان على إذا خطب احمرت عيناه، وعلا صوته، واشتد غضبه» وفي رواية زيادة «كأنه مُنذر جيش، ويقول: صبحكم ومساكم!» (٢)، وقد وصف الله سبحانه أصحاب النبي على الشدة والحمية فقال: ﴿ أَشِدًّاءً عَلَى ٱلْكُفَّارِ ﴾ (الفتح:

⁽١) وهناك فريق من الناس فقدوا حميتهم الدينية ، ولكن حميتهم عن مالهم ودنياهم ، فشديدة وقوية . وعن مثلهم قال الشاعر :

أسني إن من الرجال بهيمة في صورة الرجل السميع المبصر ا فطن لكل مصيبة في ماله وإذا أصيب بدينه لم ينشعر!

⁽٢) رواه مسلم وابن ماجة وابن حبان ، والحاكم ، والزيادة للشلائة الآخرين وهي صحيحة (مج) أقول : فأين هذا النهج القوي في الخطبة ، التي تثير النفوس وتوقظ الغافلين ، من كثير من خطباء المساجد اليوم الذين يخطبون بلهجة واحدة مما يؤدي إلى نوم كثير من المستمعين ومللهم! وخاصة إذا كان موضوع الخطبة لا يتجاوب مع مشكلاتهم .

٢٩) وقال لنبيه ﷺ: ﴿جَهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَفِقِينَ وَآخُلُطْ عَلَيْهِمْ ﴾
 (التحريم : ٩) ، وإنما الغلظة والشدة من آثار قسوة الحمية وهو الغضب .

﴿ وأما الإفراط ﴾ فهو أن تغلب هذه الصفة حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، ولا يبقى للمرء معه بصيرة وفكرة ولا اختيار ، بل يصير في صورة المضطر . ومن آثار هذا الغضب في الظاهر ، تغير اللون ، وشدة الرعدة في الأطراف ، وخروج الأفعال عن الترتيب والنظام ، واضطراب الحركة والكلام ، حتى يظهر الزبد على الأشداق ، وتحمر الأحداق ، وتنقلب المناخر ، وتستحيل الخلقة ، ولو رأى الغضبان في حال غضبه قبح صورته ، لكف غضبه حياء من قبح صوته ، واستحالة خلقته . وقبح باطنه أعظم من قبح ظاهره ، فإن الظاهر عنوان الباطن ، وإنما قبحت صورة الباطن أولاً ثم انتشر قبحها إلى الظاهر ثانياً ؛ فتغير الظاهر ثمرة تغير الباطن ، فقس المثمر بالثمرة ، فهذا أثره في الجسد .

وأما أثره في اللسان فانطلاقه بالشتم ، والفحش من الكلام الذي يستحيي منه ذو العقل ، ويستحيي منه قائله عند فتور الغضب ، وذلك مع تخبط النظم واضطراب اللفظ .

وأما أثره على الأعضاء ، فالضرب والتهجم والتمزيق والقتل والجرح عند التمكن ، وقد يمزق ثوب نفسه ، ويلطم نفسه ، وقد يضرب بيده على الأرض وربما يعتريه مثل الغشية ، وربما يضرب الجمادات والحيوانات أو يكسر القطعة أو يشتم البهيمة أو ترفسه دابة فيرفسها ، ويقابلها بذلك كالمجنون !

وأما أثره في القلب ، فالحقد والحسد وإضمار السوء ، والشماتة بالمساءات ، والحزن بالسرور والعزم على إفشاء السر ، وهتك الستر

والاستهزاء وغير ذلك من القبائح ، فهذه ثمرة الغضب المفرط(١) .

وأما ثمرة الحمية الضعيفة ، فقلة الأنفة مما يؤنف منه من التعرض للحرم والزوجة واحتمال الذل من الأحساء وصغر النفس ، وهو أيضاً مذموم ، إذ من ثمراته عدم الغيرة على الحرم وهو صونها ، قال وأن سعداً لغيور ، وأنا أغير من سعد والله أغير مني (٢) . وإنما خُلقت الغيرة لحفظ الأنساب . ولو تسامح الناس بذلك لاختلطت الأنساب ، ولذلك قيل : كل أمة وضعت الغيرة في رجالها ، وضعت الصيانة في نسائها!

ومن ضعف الغضب الخور والسكوت عند مشاهدة المنكرات . وقد قال تعالى : ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم جِهَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ ﴾ (النور : ٢) .

وفقد الغضب مذموم ، وإنما المحمود غضب ينتظر إشارة العقل والدين ، فينبعث حيث تجب الحمية وينطفىء حيث يحسن الحلم ، وحفظه على حد الاعتدال هو الاستقامة التي كلف الله بها عباده . وهو الوسط الذي قالت فيه الحكمة : « خير الأمور أوسطها ! » .

زوال الغضب بالرياضة وغيرها

إعلم أنه ما دام الإنسان يحب شيئاً ويكره شيئاً ، فلا يخلو من الغيظ والغضب لأنه من مقتضى الطبع ، إلا أنه قد تفيد الرياضة في محو قوته ، وذلك بالمجاهدة وتكلف الحلم والاحتمال مدة حتى يصير الحلم والاحتمال خلقاً راسخاً. فالرياضة ليست لينعدم غلظ القلب ، لأنه غير ممكن ، ولكن ليستعمله على حد يستحبه الشرح ويستحسنه العقل ، وذلك بكسر سورته

⁽١) حدثنا مصنف « الإحياء » فيها سبق عن أضرار الغضب على الدين والأخلاق ، ولا يخفى امتداد هذه الأضرار إلى الجسم والعقل ، وتأثير كل ذلك على القلب . ومما سبق ندرك حكمة الرسول على في وصيته العظيمة : في الحديث الصحيح : « لا تغضب » ! .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

وتضعيفه حتى لا يشتد هيجان الغيظ في الباطن ، وينتهي ضعفه إلى أن لا يظهر أثره في الوجه ، وقد يتصور فقد الغيظ بغلبة نظر التوحيد ، أو بأن يعلم أن الله يجب منه أن لا يغتاظ ، فتطفىء شدة حبه لله تعالى غيظه ، أو بأن يشتغل القلب بضروري أهم من الغضب ، فلا يكون في القلب متسع للغضب ، لاشتغاله بغيره ، فإن استغراق القلب ببعض المهمات ، يمنع الاحساس بجا عداه !

بيان الأسباب المهيجة للغضب

قد عرفت أن علاج كل علة بحسم مادتها وإزالة أسبابها ، فلا بد من معرفة أسباب الغضب ، وأسبابه المهيجة له هي : الزهو ، والعجب ، والمزاح ، والهزل ، والهزء ، والتعيير ، والمماراة ، والمضادة ، والغدر ، وشدة الحرص على حصول المال والجاه ، وهي بأجمعها أخلاق رديئة مذمومة شرعاً ، ولا خلاص من الغضب مع بقاء هذه الأسباب ، فلا بد من إزالتها بأضدادها . فينبغي أن تميت الزهو بالتواضع ، وتميت العجب بمعرفتك بنفسك ، وتزيل الفخر بأنك من جنس البشر ، إذ الناس يجمعهم في الانتساب أب واحد ، وإنما الفخر بالفضائل ، والفخر والعجب أكبر الرذائل ، وأما المزاح فتزيله بالتشاغل بالمهمات الدينية التي تستوعب العمر والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الأخرة (١) . وأما الهزء فتزيله بالتكرم والعلوم الدينية التي تبلغك إلى سعادة الأخرة (١) . وأما الهزء فتزيله بالتكرم الحن إيذاء الناس وبصيانة النفس عن مر الجواب .

وأما شدة الحرص ، فبالصبر على مر العيش بالقناعة ، بقدر الضرورة ، طلباً لعز الاستغناء ، وترفعاً عن ذل الحاجة .

وكل خلق من هذه الأخلاق وصفة من هذه الصفات ، يفتقر في

⁽١) وما أروع قوله على في الحديث الصحيح : « والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ، ولضحكتم قليلاً » رواه البخاري .

علاجه إلى رياضة وتحمل مشقة . وحاصل رياضتها الرجوع إلى معرفة غوائلها ، لترغب النفس عنها ، وتنفر عن قبحها ، ثم المواظبة على مباشرة أضدادها مدة مديدة ، حتى تصير بالعادة هينة مألوفة على النفس : فإذا انمحت عن النفس ، فقد زكت وتطهرت عن هذه الرذائل ، وتخلصت أيضاً من الغضب الذي يتولد منها . وأشد البواعث للغضب عند أكثر الجهال تسميتهم أيضاً من الغضب شجاعة ، وعزة نفس ، حتى تميل النفس إليه ، وتستحسنه . وهذا من الجهل بل هو من مرض قلب ونقصان عقل وضعف نفس ، ودليل ذلك أن المريض أسرع غضباً من الصحيح ، والشيخ الضعيف أسرع غضباً من الكهل ، وذو الخلق السيء والرذائل القبيحة ، أسرع غضباً من صاحب الفضائل فالرذل يغضب لشهوته ، بل القوي من يملك نفسه عند الغضب »(۱) كها قال رسول الله عليه : « ليس الشديد بالصَّرعَة ، بل الشديد من يملك نفسه عند الغضب ، بل ينبغي أن يعالج هذا الجاهل بأن تتلى عليه حكايات أهل الحلم والعفو ، وما استحسن منهم من كظم الغيظ ، فإن ذلك منقول عن الأنبياء والأولياء والحكهاء والعلهاء وأكابر الملوك الفضلاء ، وضد ذلك منقول عن الجهلة والأغبياء الذي لا عقول لهم ولا فضل فيهم .

بيان علاج الغضب بعد هيجانه

ما تقدم هو حسم لمواد الغضب ، حتى لا يهيج ، فإذا جرى سبب هيجه ، فعنده يجب التثبت ، حتى لا يضطر صاحبه إلى العمل به على الوجه المذموم ، وإنما يعالج الغضب عند هيجانه بمعجون العلم والعمل ، أما العلم فهو أمور :

(الأول) أن يتفكر فيها ورد في فضل كظم الغيظ والعفو والحلم والاحتمال ، فيرغب في ثوابه ، ويمنعه الرغبة في الأجر عن الانتقام ، وينطفىء عنه غيظه .

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

(الثاني) أن يخوِّف نفسه بعقاب الله لو أمضى غضبه ، وهل يأمن من غضب الله عليه يوم القيامة وهو أحوج ما يكون إلى العفو . قيل كان فيمن كان قبلكم ملك ومعه حكيم ، إذا غضب أعطاه صحيفة فيها : إرحم المسكين ، واخش الموت ، واذكر الآخرة : فكان يقرؤها حتى يسكن غضبه .

(الشالث) أن يحذر نفسه عاقبة العداوة والانتقام ، وتشمير العدو لمقابلته ، والسعي في هدم أغراضه والشماتة بمصائبه ، وهو لا يخلوعن المصائب ، فيخوف نفسه بعواقب الغضب في السدنيا إن كسان لا يخاف الأخرة .

(الرابع) أن يتفكر في قبح صورته عند الغضب ، بأن يتذكر صورة غيره في حالة الغضب ، ويتفكر في قبح الغضب في نفسه ومشابهة صاحبه للكلب الضاري ، والسبع العادي ؛ ومشابهة الحليم الهادىء التارك للغضب للأنبياء والأولياء والعلماء والحكماء . ويخير نفسه بين أن يتشبه بالكلاب والسباع وأراذل الناس ، وبين أن يتشبه بالعلماء والأنبياء في عادتهم ، لتميل نفسه إلى حب الاقتداء بهؤلاء إن كان بقي معه مسكة من عقل .

(الخامس) أن يتفكر في السبب الذي يدعوه إلى الانتقام ويمنعه من كظم الغيظ ، مثل قول الشيطان له : إن هذا يُحمل منك على العجز والذلة وتصير حقيراً في أعين الناس ، فيقول لنفسه ، ما أعجبك! تأنفين من الاحتمال الأن ولا تأنفين من خزي يوم القيامة ، ولا تحذرين من أن تصغري عند الله والملائكة والنبيين ، فمها كظم الغيظ فينبغي أن يكظمه لله ، وذلك يعظمه عند الله ، فها له وللناس . وأما العمل ، فأن تقول بلسانك : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم (١) ، وإن كنت قائماً فاجلس ، وإن كنت جالساً

⁽۱) الأمر بالتعوذ بالله من الشيطان الرجيم عند الغيظ حديث رواه البخاري ومسلم من حديث سليمان بن صرد قال: كنت جالساً مع النبي على ، ورجلان يستبان ، فأحدهما أحمر وجهه وانتفخت أوداجه . الحديث ، وفيه لو قال أعوذ بالله من الشيطان الرجيم لذهب عنه ما

فاضطجع (١) ، فإن لم يُرل فليتوضأ بالماء البارد ، فإن الغضب من النار ، والنار لا يطفئها إلا الماء (٢) .

قال المعتمر بن سليمان: كان رجل ممن كان قبلكم يغضب، فيشتد غضبه، فكتب ثلاث صحائف، وأعطى كل صحيفة رجلاً وقال للأول: إذا غضبت فأعطني هذه، وقال للثاني: إذا سكن بعض غضبي، فأعطني هذه، وقال للثالث: إذا ذهب غضبي، فأعطني هذه، فاشتد غضبه يوما فأعطي الصحيفة الأولى، فإذا فيها: «ما أنت وهذا الغضب؟! إنك لست بإله! إنما أنت بشر يوشك أن يأكل بعضك بعضاً » فسكن بعض غضبه، فأعطي الثانية، فإذا فيها: «ارحم من في الأرض، يرحمك من في الساء» فأعطي الثالثة، فإذا فيها: «خذ الناس بحق الله، فإنه لا يصلحهم إلا فأعطي الثالثة، فإذا فيها: «خذ الناس بحق الله، فإنه لا يصلحهم إلا ذلك » أي لا تعطل الحدود.

فضيلة كظم الغيظ

قال الله تعالى: ﴿وَسَارِعُواْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَٰتُ وَالْأَرْضُ أَعِدَّتْ لِلْمُتَقِينَ، الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَآءِ وَالضَّرَآءِ وَالْكَيْظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: وَالْكَيْظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُعِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (آل عمران: ١٣٣ و ١٣٤) دلت الآية على أن الكاظمين من المتقين ، وأن مغفرة ربهم تنالهم وجنته أعدت لهم ، فها أفضل هذا الجزاء ، يروى أن رجلاً من جفاة الأعراب قال لعمر رضي الله عنه : والله ما تقضي بالعدل ولا تُعطي الجزل ، فغضب عمر حتى عُرف ذلك في وجهه ، فقال له رجل : يا أمير المؤمنين ألم تسمع قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأُمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَهٰلِينَ ﴾ تسمع قول الله تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْو وَأُمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَهٰلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٩٩) إن هذا من الجاهلين ، فسكن عمر رضي الله عنه وعفا عنه .

⁽١) وهو معنى حديث رواه أحمد والترمذي : « إذا غضب أحدكم ، وهمو قائم فليجلس ، فإن ذهب عنه الغضب ، وإلا فليضجع » وسنده صحيح (مم) .

⁽٢) وهو معنى حديث ولكنه ضعيف ، ولعل معناه صحيح .

فضيلة الحلم

إعلم أن الحلم أفضل من كظم الغيظ ، لأن كظم الغيظ عبارة عن التحلَّم ، أي تكلف الحلم ، ولا يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه ، ويحتاج فيه إلى مجاهدة شديدة ، ولكن إذا تعود ذلك مدة ، صار ذلك اعتياداً ، فلا يهيج الغيظ ؛ وإن هاج ، فلا يكون في كظمه تعب ، وهو الحلم الطبيعي ، وهو دلالة كمال العقل واستيلائه ، وانكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، ولكن ابتداؤه التحلم وكظم الغيظ تكلفاً ، وفي الحديث : « إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم »(۱) إشارة إلى أن اكتساب الحلم طريقة التعلم ، والكون وتكلفه ، كها أن اكتساب العلم طريقة التعلم ، وعن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَهِلُونَ قَالُواْ سَلَهَا ﴾ (الفرقان : ١٣) قال : حلماء ، إن جُهل عليهم لم يجهلوا ، وعن مجاهد في ويفو أي أللَّغو مَرُواْ كِرَاماً » (الفرقان : ٢٧) أي إذا أوذوا ومفحوا .

(ومن الآثار) عن علي رضي الله عنه : « ليس الخير أن يكثر مالك وولدك ، ولكن الخير أن يكثر علمك ويعظم حلمك ، وأن لا تباهي الناس بعبادة الله ، وإذا أحسنت ، حمدت الله تعالى ، وإذا أسأت ، استغفرت الله تعالى » وقال أكثم : دعامة العقل الحلم ، وجماع الأمر الصبر ، وقال معاوية : لا يبلغ العبد مبلغ الرأي حتى يغلب حلمه جهله وصبره شهوته ، ولا يبلغ ذلك إلا بقوة العلم .

وقال معاوية لعمرو بن العاص : أي الرجال أسخى ؟ قال : من بـذل دنياه لصلاح دينه ، وقال معاوية لعرابة : بم سدت قومك ؟ قال كنت أحلم

⁽۱) وتمامة: «ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه» ضعفه العراقي فلم يحالفه الصواب، وهو حديث حسن. يراجع من أجل التثبت من ذلك سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣٤٢) ولهذا الحديث تطبيقات تربوية وعلمية في منتهي الروعة ذكرها الإمام الغزالي في مبحث سبق عند الكلام على قبول الأخلاق للتغيير بطريق الرياضة!

عن جاهلهم ، وأعطي سائلهم ؛ وأسعى في حوائجهم ، فمن فعل مثل فعلي فهو مثلي ، ومن جاوزني فهو أفضل مني ، ومن قصر عني ، فأنا خير منه . وقال أنس بن مالك في قوله تعالى : ﴿ آَدْفَعْ بِاللِّي هِيَ أَحْسَنُ ، فَإِذَا الَّذِي وَمَا يُلَقّنُهَا إِلّا الّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقّنُهَا إِلّا اللّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقّنُها إِلاّ اللّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقّنُها إِلاّ اللّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقّنَها إلله في وَمَا يُلَقّنُها إلله عَنْ وَمَا يُلَقّنُها إلله عنها أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر الحسين رضي الله عنها أنه سبه رجل فرمى إليه بخميصة كانت عليه ، وأمر له بألف درهم ، فقال بعضهم : جمع له خمس خصال محمودة : الحلم ، وهمله على وإسقاط الأذى ، وتخليص الرجل مما يبعده من الله عز وجل ، وحمله على الندم والتوبة ، ورجوعه إلى المدح بعد الذم ، اشترى جميع ذلك بشيء من الدنيا يسر .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: تعلموا العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والحلم . وسبّ رجل ابن عباس رضي الله عنها ، فلما فرغ قال : يا عكرمة ! هل للرجل حاجة ، فتقضيها له ؟ فنكس الرجل رأسه واستحى . وقال رجل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : أشهد أنك من المنافقين . فقال له : ليس تقبل شهادتك _ وقال رجل لجعفر بن محمد : إنه وقع بيني وبين قوم منازعة في أمر ، وإني أريد أن أتركه ، فأخشى أن يقال لي : إن تركك له ذل ، فقال جعفر : إنما الذليل الظالم . وقال رجل لبعض الحكماء : والله لأسبنك سباً يدخل معك في قبرك ، فقال : معك يدخل لا معي .

وقال محمود الوراق :

سألزم نفسي الصفح عن كل مذنب وما الناس إلا واحد من ثلاثة فأما الذي فوقي فأعرف قدره وأما الذي دوني فإن قال صنت عن وأما الذي مثلي فإن زل أو هفا

وإن كثرت منه عليّ الجرائم شريف ومشروف ومثل مقاوم وأتبع فيه الحق والحق لازم إجابته عرضي وإن لام لائم تفضلت أن الفضل بالحلم حاكم ومر المسيح بن مريم عليه الصلاة والسلام بقوم ، فقالوا له شراً ، فقال لهم خيراً فقيل له : إنهم يقولون شراً وأنت تقول لهم خيراً ؟ فقال : كل ينفق مما عنده . وقال لقمان : ثلاثة لا يُعرفون إلا عند ثلاثة ، لا يُعرف الحليم إلا عند الغضب ، ولا الشجاع إلا عند الحرب ، ولا الأخ إلا عند الحاجة إليه . وضرب رجل قدم حكيم ، فأوجعه ، فلم يغضب ، فقيل له في ذلك ، فقال : أقمته مقام حجر تعثرت به ، فذبحت الغضب (١)!

بيان القدر الذي يجوز به الانتصار من الكلام

إعلم أن كل ظلم صدر من شخص ، فلا يجوز مقابلته بمثله ، فلا تجوز مقابلة الغيبة بالغيبة ، ولا مقابلة التجسس بالتجسس ، ولا السب بالسب ، وكذلك سائر المعاصي ، والذي يرخص فيه أن تقول : من أنت ويا أحمق ويا جاهل ، إذ ما من أحد إلا وفيه حمق وجهل ، فقد آذاه بما ليس بكذب ، وكذلك قوله : يا سيء الخُلق ، يا ثلاباً للأعراض ، وكان ذلك فيه ، وكذلك قوله : لو كان فيك حياء لما تكلمت ، وما أحقرك في عيني بما فعلت ، واستدلوا بالحديث : « المستبان ما قالا فعلى البارىء منها حتى يعتدي المظلوم (٢) » فأثبت للمظلوم انتصاراً إلى أن يعتدي .

فهذا القدر الذي أباحه هؤلاء ، وهو رخصة في الإيذاء جزاء على إذائه السابق ، قال الغزالي : ولا تبعد الرخصة في هذا القدر ، ولكن الأفضل تركه ، فإنه يجره إلى ما وراءه ، ولا يمكنه الاقتصار على قدر الحق فيه ، والسكوت عن أصل الجواب ، لعله أيسر من الشروع في الجواب والوقوف على حد الشرع . ولكن من الناس من لا يقدر على ضبط نفسه في فورة الغضب ، ولكن يعود سريعاً ، وورد أن أبا ذر قال لرجل : يا ابن الحمراء ـ أي السوداء ـ في خصومة بينها ، فبلغ ذلك النبي على فقال : يا أبا ذر بلغني

⁽١) كل هذه الرقائق المؤثرة حذفها المختصر ، فأثبتناها .

⁽٢) رواه مسلم .

أنك اليوم عيرت أخاك بأمه ! فقال نعم : فانطلق أبو ذر ليرضي صاحبه فسبقه الرجل . . فسلم عليه ، فذكر ذلك لرسول الله عليه فقال : يا أبا ذر ! ارفع رأسك فانظر . ثم إعلم أنك لست أفضل من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى (١) .

معنى الحقد ونتائجه الوخيمة وفضيلة الرفق

إعلم أن الغضب إذا لزم كظمه لعجز عن التشفي في الحال ، رجعل إلى الباطن واحتقن فيه ، فصار حقداً ، ومعنى الحقد أن يلزم قلبه استثقاله والبغضة له والنفار عنه ، وأن يدوم ذلك ويبقى ؛ والحقد ثمرة الغضب ، وهو يثمر أموراً منكرة (الأول) الحسد وهو أن يحملك الحقد على أن تتمنى زوال النعمة عنه ، فتغتم بنعمة إن أصابها ، وتسر بمصيبة إن نزلت به . وهذا من فعل المنافقين (الشائي) أن يزيد على إضمار الحسد في الباطن ، فيشمت بما أصابه من البلاء (الثالث) أن تهجوه وتصارمه وتنقطع عنه ، وإن طلبك وأقبل عليك (الرابع) وهو دونه أن تعرض عنه استصغاراً له (الخامس) أن تتكلم فيه بما لا يحل من كذب ، وغيبة ، وإفشاء سر وهتك ستر وعورة (السادس) أن تحاكيه استهزاء به وسخرية منه ﴿السابع) إيذاؤه بالضرب وما يؤلم بدنه (الشامن) تمنعه حقه من قضاء دين ، أو صلة رحم ، أو رد مظلمة ، وكل ذلك حرام ، وأقل درجات الحقد لو احترز عن هذه الأفات الثمانية أن يترك البشاشة أو الرفق ، والعناية والقيام بحاجاته ، أو المعاونة على المنفعة يترك البشاشة أو الرفق ، والعناية والقيام بحاجاته ، أو المعاونة على المنفعة يترك البشاشة أو الرفق ، والعناية والقيام بحاجاته ، أو المعاونة على المنفعة له ، وكله مما ينقص الدرجة في الدين ، ويفوت الثواب الجزيل .

ولما حلف أبو بكر رضي الله عنه أن لا ينفق على مسطح وكان قريبه ، لأمر ما نزل قوله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ (٢) أُولُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أَلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أَلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُواْ أَوْلِي ٱلْفُرْبَىٰ ﴾ إلى قول ه ﴿ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْضِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ (النور : ٢٢)

⁽١) إسناده صحيح كما قال الحافظ العراقي ، ورواه البخاري ومسلم بنحوه .

⁽٢) لا يحلف.

فقال أبو بكر: نعم نحب ذلك ، وعاد إلى الإنفاق عليه (١). والأولى أن يبقى على ما كان عليه ، فإن أمكنه أن يزيد في الإحسان مجاهداً للنفس وإرغاماً للشيطان ، فذلك مقام الصّديقين وهو من فضائل أعمال المقربين .

فضيلة العفو والإحسان

إعلم أن معنى العفو أن يستحق حقاً فيسقطه ويبرى، عنه من قصاص أو غرامة قبال الله تعالى: ﴿خُلِهِ ٱلْعَفْوَ وَأُمُسر بِٱلْعُسرُ فِ وَأَعْرِضْ عَنِ آلُخُهِلِينَ ﴾ (الأعسراف: ١٩٩)، وقسال تعسالى: ﴿وَأَن تَعْفُسوا أَقْسرَبُ لِلتَّقُوىٰ ﴾ (البقرة: ٢٣٧).

ومن الآثار عن الحسن البصري رحمه الله: أنه دخل على أمير يعرض له بالعفو ، فذكر الحسن قصة يوسف عليه السلام وما صنع به إخوته من بيعهم إياه وطرحهم له في الجب ، فقال: «باعوا أخاهم وأحزنوا أباهم » وذكر ما لقي من كيد النساء ومن الحبس ، ثم: قال أيها الأمير ماذا صنع الله به ، أداله منهم ، ورفع ذكره ، وأعلى كلمته ، وجعله على خزائن الأرض ، فماذا صنع حين أكمل له أمره وجمع له أهله قال: ﴿لاَ تَشْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيُومَ وَعُنُو اللّهُ لَكُمْ وَهُو أَرْحَمُ ٱلرَّحِمِينَ ﴾ (يوسف: ٢٦) فعفا ذلك الأمير ، وعن ابن مسعود أنه سرقت له دراهم ، فجعلوا يدعون على من أخذها ، فقال لهم : « اللهم إن كان حملته على أخذها حاجة فبارك له فيها ، وإن كان حملته جراءة على الذنب ، فاجعله آخر ذنوبه » ، وقال معاوية : عليكم عليكم والاحتمال ، فإذا أمكنتكم الفرصة فعليكم بالصفح والإفضال .

(ومن الآثار) عن ابن عمر عن أبي بكر رضي الله تعالى عنهم جميعاً قال : بلغنا أن الله تعالى يأمر منادياً يوم القيامة ، فينادي : من كان له عند الله شيء فليقم ، فيقوم أهل العفو ، فيكافئهم الله بما كان من عفوهم عن الناس . وعن مبارك بن فضالة قال : وفد سوار بن عبد الله في وفد من أهل

رواه البخاري ومسلم .

البصرة إلى أبي جعفر المنصور ، قال : فكنت عنده ، إذ أتى برجل ، فأمر بقتله ، فقلت : يقتل رجل من المسلمين ، وأنا حاضر ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ! ألا أحدثك حديثاً سمعته من الحسن ، قال : وما هو ؟ قلت : سمعته يقول : إذا كان يوم القيامة جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد حيث يسمعهم الداعي ، وينفذهم البصر ، فيقوم مناد فينادي : من له عند الله يد ، فليقم ، ولا يقوم إلا من عفا . فقال أبو جعفر : والله لقد سمعته من الحسن ؟! فقلت : والله لسمعته منه . فقال خلينا عنه . وجاء أن سارقاً دخل خباء عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنها بصفين ، فقيل له : اقطعه ، فإنه من أعدائنا ! فقال : بل أستر عليه ، لعل الله تعالى يستر علي يوم القيامة .

فضيلة الرفق

إعلم أن الرفق محمود ويضاده العنف والحِدة ، والعنف نتيجة الغضب والفظاظة ، والرفق واللبن نتيجة حسن الخلق والسلامة ، ولا يحسن الخلق الا بضبط قوة الغضب وحفظها على حد الاعتدال ، ولأجل هذا أثنى رسول الله على على الرفق وبالغ فيه . وقال على : « إذا أحب الله أهل بيت أدخل عليهم الرفق (۱) » وقال على لعائشة « عليك بالرفق فإنه لا يدخل في شيء إلا زانه ولا ينزع من شيء إلا شانه (۲) » .

وسر الترغيب في الرفق والثناء عليه ، هو كون الطباع إلى العنف والحدة أميل ، وإن كان العنف في محله حسناً ، فأن الحاجة قد تدعو إليه ولكن على الندرة ، والكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطي كل أمر حقه .

⁽١) رواه أحمد بسند جيد . قاله الحافظ العراقي .

⁽٢) رواه مسلم ، وهناك أحاديث عديدة في الرفق في « الإحياء » وغيره نذكر منها : «يا عائشة! إن الله يجب المرفق في الأمر كله » رواه البخاري ومسلم ، « إن الله رفيق يجب المرفق » رواه مسلم و « من بجرم الرفق يحرم الخير كله » رواه مسلم .

(ومن الآثار) بلغ عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن جماعة من رعيته اشتكوا من عماله ، فأمرهم أن يوافوه ، فلما أتوه ، قام خطيباً ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : أيها الناس ! أيتها الرعية ! إن لنا عليكم حقاً ، النصيحة بالغيب ، والمعاونة على الخير . أيتها الرعاة ! إن للرعية عليكم حقاً ، فاعلموا أنه لا شيء أحب إلى الله ، ولا أعز من حلم الإمام ورفقه . وليس جهل أبغض إلى الله ، ولا أعم من جهل إمام وخرقه . واعلموا أنه من يأخذ بالعافية فيمن بين ظهريه يرزق العافية عمن هو دونه .

وقال عمر بن عبد العزيز: جاء عن عمرو بن العاص أنه كتب إلى معاوية يعاتبه في التأني، فكتب إليه معاوية: (أما بعد) فإن التفهم في الخير زيادة رشد، وإن الرشيد من رشد عن العجلة، وإن الخائب من حاب عن الأناة، وإن المتثبت مصيب، أو كاد أن يكون مصيباً. وإن العجل مخطىء، أو كاد أن يكون غطئاً، وإن من لا ينفعه الرفق، يضره الخرق، ومن لا تنفعه التجارب، لا يدرك المعالي.

وعن أبي عون الأنصاري قال: ما تكلم الناس بكلمة صعبة إلا وإلى جانبها كلمة ألين تجري مجراها!. وقال أبو حمزة الكوفي: لا تتخذ من الخدم إلا ما لا بد منه ، فإن مع كل إنسان شيطاناً ، واعلم أنهم لا يعطونك بالشدة شيئاً ، إلا أعطوك باللين ما هو أفضل منه . وقال الحسن: إن المؤمن وقاف متأنٍ ، وليس كحاطب ليل! فهذا ثناء أهل العلم على الرفق ، وذلك لأنه محمود ومفيد في أكثر الأحوال وأغلب الأمور . والحاجة إلى العنف قد تقع ، ولكن على الندور! وإنما الكامل من يميز مواقع الرفق عن مواقع العنف ، فيعطي كل أمر حقه ، فإن كان قاصر البصيرة ، كان ترغيبة في الرفق أفضل ، فإنه أنجح معه في الأكثر .

وقد قيل :

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا

مضر، كوضع السيف في موضع الندى

ذم الحسد

إعلم أن الحسد أيضاً من نتائج الحقد الذميم ، وللحسد من الفروع الذميمة ما لا يكاد يحصى ، وقد ورد في ذمه أخبار كثيرة ، منها قوله على « لا تحاسدوا ولا تقاطعوا ولا تباغضوا ولا تدابروا وكونوا عباد إخواناً كما أمركم الله (۱) » (ومن الآثار) قول بعض السلف : إن أول خطيئة كانت هي الحسد : حسد إبليس آدم عليه السلام على رتبته فأبي أن يسجد له ، فحمله الحسد على المعصية . وعن ابن سيرين رحمه الله : « ما حسدت أحداً على شيء من أمر الدنيا ، لأنه إن كان من أهل الجنة فكيف أحسده على أمر الدنيا ، وهي حقيرة في الجنة ، وإن كان من أهل النار فكيف أحسده على أمر الدنيا ، وهو يصير إلى النار » وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا الدنيا ، وهو يصير إلى النار » وقال بعضهم : الحاسد لا ينال من المجالس إلا جزعاً وغماً . ولا ينال عند الموقف إلا فضيحة ونكالاً . وقال معاوية رضي زوالها ، وقد قيل :

كل العداوات قد تُرجى إماتتها إلا عداوة من عاداك من حسد وقال الشاعر:

لله در الحسد ما أعدله بدأ بصاحبه فقتله

حقيقة الحسد وحكمه وأقسامه

الحسد نوعان : (أحدهما) كراهة النعمة وحب زوالها عن المنعَم عليه . (وثانيهما) عدم محبة زوالها مع تمني مثلها ، وهذا يسمى غِبطة .

فالأول حرام بكل حال ، إلا نعمة أصابها فاجر ، وهو يستعين بها على مُحرم كإفساد وإيذاء ، فـلا يضر محبة زوالهـا عنه من حيث هي آلـة الفساد .

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

ويـدل على تحـريم الحسد الأخبـار التي نقلناهـا ، وأن هذه الكـراهـة تسخط لقضاء الله في تفضيل بعض عباده على بعض ، وذلك لا عذر فيه ولا رخصة ، وأي معصية تزيد على كراهتك لراحة مسلم ، من غير أن يكون لك منه مضرة ، وإلى هـذا أشار القـرآن بقولـه : ﴿ إِنْ اتَّمْسَسُّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤُهُمْ ، وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةً يَفْرَحُواْ بِهَا﴾ (آل عمران: ١٢٠) وهذا الفرح شماتة ، والحسد والشماتة يتلازمان . وقال تعالى : ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَـاجَةً مِّمَّا أُوتُواْ﴾ (الحشر : ٩) أي لا تضيق صدورهم ولا يغتمون ، فأثنى عليهم بعدم الحسد . وأما المنافسة فليست بحرام ، بـل قد تكـون مطلوبـة ، قال تعالى : ﴿ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ | ٱلْمُتَنَافِسُونَ ﴾ (المطففين : ٢٦) وقال تعالى : ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ (١) (الحديد : ٢١) وقال ﷺ : ﴿ لا حسد إلا في اثنتين رجل آتــاه اللَّه مالًا ، فسلطه عــلى هلكته في الحتى ، ورجــل آتاه الله علماً ، فهو يعمل به ويعلمه الناس »(٢) فلا حرج على من يغبط غيره في نعمة ويشتهي لنفسه مثلها ، ما دام لم يحب زوالها عنه ، ولم يكره دوامها له . وأما تمني عين نعمة الغير ، بانتقالها إليه لـرغبته فيهـا ، بحيث يكون مـطلوبه تلك النعمة لا زوالها فهو مذموم لقوله تعالى : ﴿ وَلاَ تَتَمَنُّواْ مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضِ ﴾ (النساء : ٣٢) وأما تمنيه لمثـل ذلك فليس مـذمومـاً ، فاعرف الفرق.

أسباب الحسد

للحسد المذموم مداخل كثيرة وأسباب عديدة (فمنها) العداوة والبغضاء، وهذا أشد أسباب الحسد، فإن آذاه شخص بسبب من الأسباب وخالفه في غرض بوجه من الوجوه، أبغضه قلبه وغضب عليه، ورسخ في نفسه الحقد. والحقد يقتضي منه التشفي والانتقام، فإن عجز المنتغص عن أن يتشفى بنفسه، أحب أن يتشفى منه الزمان، وربما يحيل ذلك على كرامة

⁽١) أي فليرغبوا في المبادرة إلى طاعة الله .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

نفسه عند الله تعالى ، فمهما أصابت عدوه بلية فرح بها ، وظنها مكافأة له من جهة الله على بغضه وأنها لأجله !

ومهها أصابته نعمة ، ساءه ذلك ، لأنه ضد مراده ، وربما يخطر له أن لا منزلة له عند الله حيث لم ينتقم له من عدوه الذي آذاه بل أنعم عليه . وبالجملة فالحسد يلزم البغض والعداوة ولا يفارقهما ، وإنحا غاية التقى أن لا يبغى ، وأن يكره ذلك من نفسه .

(ومنها) التعزز ، وهو أن يثقل عليه أن يترفع عليه غيره .

(ومنها) حب الرياسة وطلب الجاه ، بأن يكون منفرداً عـديم النظير ، غير مشارَك في المنزلة ، يسوؤه وجود مناظر له في المنزلة .

(ومنها) خبث النفس وشحها بالخير لعباد الله ، بحيث يشق عليه أن يوصف عنده حسن حال عبد ، فيها أنعم عليه ، ويفرح بذكر فوات مقاصد أحد واضطراب أموره وتنغص عيشه ، فهو أبداً يجب الإدبار لغيره ، ويبخل بنعمة الله على عباده ، كأنهم يأخذون ذلك من ملكه ، وهذا ليس له سبب ظاهر ، إلا خبث في النفس ورذالة في الطبع . ومعالجته شديدة لأنه خبث في الجبلة ، وقد يجتمع بعض هذه الأسباب أو أكثرها أو جميعها في شخص واحد ، فيعظم فيه الحسد بذلك ، ويقوى قوة لا يقدر معها على الإخفاء والمجاملة ، بل ينتهك حجاب المجاملة وتظهر العداوة بالمكاشفة ، أعاذنا المولى من ذلك بلطفه وكرمه .

. بيان الدواء الذي ينفي مرض الحسد عن القلب

إعلم أن الحسد من الأمراض العظيمة للقلوب ، ولا تداوى أمراض القلوب إلا بالعلم والعمل . والعلم النافع لمرض الحسد هو أن تعرف تحقيقاً أن الحسد ضرر عليك في الدنيا والدين ، وأنه لا ضرر فيه على المحسود في الدنيا والدين ، بل ينتفع به فيهما . ومهما عرفت هذا عن بصيرة ، ولم تكن عدو نفسك وصديق عدوك ، فارقت الحسد لا محالة ـ أما كونه ضرراً عليك

في الدِّين ، فهو أنك بالحسد سخطت قضاء الله تعالى ، وكرهت نعمته التي قسمها بين عباده ، وعدله الذي أقامه في ملكه بخفي حكمته ، فاستنكرت ذلك واستبشعته ، وهذه جناية في صدقة التوحيد ، وقذى في عين الإيمان ، وناهيك بهما جناية على الدين ، وقد انضاف إلى ذلك أنك فارقت أولياءه وأنبياءه في حبهم الخير لعباده تعالى ، وشاركت إبليس والكفار في محبتهم للمؤمنين البلايا وزوال النعم . وهذه خبائث في القلب تأكل حسنات القلب كما تأكل النار الحطب ؛ وأما كونه ضرراً في الدنيا ، فهو أنك تتألم بحسدك في الدنيا أو تتعذب به ، ولا تزال في كمد وغم إذ أعداؤك لا يخليهم الله تعالى عن نعم يفيضها عليهم ، فلا تزال تتعذب بكل نعمة تراها ، وتتألم بكل بلية تنصرف عنهم ، فتبقى مغموماً ضيق الصدر قد نزل بك ما يشتهيه الأعداء لك ، وتشتهيه لأعدائك ، فقد كنت تريد المحنة لعدوك فتنجزه في الحال عنتك وغمك نقداً ، ولا تزول النعمة عن المحسود بحسده .

ولو لم تكن تؤمن بالبعث والحساب، لكان مقتضى الفطنة إن كنت عاقلاً أن تحذر من الحسد لما فيه من ألم القلب ومساءته، مع عدم النفع، فكيف وأنت عالم بما في الحسد من العذاب الشديد في الآخرة؟ فها أعجب من يتعرض لسخط الله، من غير نفع يناله، بل مع ضرر يحتمله وألم يقاسيه، فيهلك دينه ودنياه من غير جدوى ولا فائدة. وأما أنه لا ضرر على المحسود في دينه ودنياه، فواضح، لأن النعمة لا تزول عنه بحسدك. وأما أن المحسود ينتفع به في الدين والدنيا فواضح. أما منفعته في الدين فهو أنه مظلوم من جهتك، لا سيها إذا أخرجك الحسد إلى القول والفعل بالغيبة والقدح فيه وهتك ستره، وذكر مساوئه فهذه هدايا تهذيها إليه إذ تهدي إليه حسناتك، حتى تلقاه يوم القيامة مفلساً محروماً، كها حرمت في الدنيا من النعمة. فإذا تأملت هذا عرفت أنك عدو نفسك وصديق عدوك، إذ تعاطيت ما تضررت به في الدنيا والأخرة، وانتفع به عدوك في الدنيا والأخرة، وصرت مذموماً عند الخالق، شقياً في الحال والمآل، ونعمة

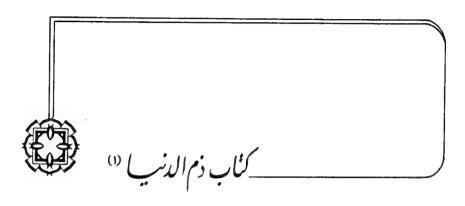
المحسود ـ شئت أم أبيت ـ دائمة باقية ، ومن تفكر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر ، انطفأت نار الحسد من قلبه ، لذلك لا يشتهي عدوك موتك ، بل يشتهي أن تطول حياتك وتكون في عذاب الحسد لتنظر إلى نعمة الله عليه فيتقطع قلبك حسداً ولذلك قيل :

لا مات أعداؤك بل خُلدوا حتى يروا فيك الذي يكمِد لا زلت محسوداً على نعمة فإنما الكامل من يُحسد

ومن تفكّر في هذا بذهن صاف وقلب حاضر انطفأت نار الحسـد من قلمه .

وأما العمل النافع فيه ، فهو أن يكلف نفسه نقيض ما يتقاضاه الحسد ، وذلك بالتواضع للمحسود والثناء والمدح وإظهار السرور بالنعمة ، فتعود القلوب إلى التآلف والتحاب ، وبذلك تستريح القلوب من ألم الحسد وغم التباغض ، فهذه هي أدوية الحسد وهي نافعة جداً إلا أنها مرة على القلوب جداً ، ولكن النفع في الدواء المر ، فمن لم يصبر على مرارة الدواء لم ينل حلاوة الشفاء .





الآيات الواردة في القرآن العزيز بعيب الدنيا ، والتزهيد فيها ، وضرب الأمثال لها كثيرة ، كقوله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَتِ . . إلى قوله : ذَلِكَ مَتَنعُ ٱلْخَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ ٱلْمَثَابِ . قُلْ أَقُنَبِّتُكُم بِخَيْرٍ قوله : ﴿ وَمَا ٱلْخَيَوٰةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مِن ذَلِكُمْ ﴾ الآية (آل عمران : ١٤ - ١٥) وقوله : ﴿ وَمَا ٱلْخَيَوٰةِ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَنعُ الْغُرُورِ ﴾ (آل عمران : ١٨٥) ، وقوله : ﴿ إِمَّا مَثلُ ٱلْخَيَوٰةِ الدُّنيَا كَماآءِ

ومهها كان من شأن الدنيا ، فهي شديدة السحر ، وكم فتنت من البشر ، وأحلت عشاقها (دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار) . والحكيم الحكيم من يجتازها بسلام وغنيمة . وما أحسن وصية الشاعر :

فنخير عباد الله من هنو قنانع فقد تهلك المغرور فيهنا المطامع

عليك بتقوى الله واقسع بسرزقه فسلاتهلك الدنيا، ولا طمع بها

⁽۱) كل ما وردمن الآيات والأحاديث في ذم الدنيا، يراد منه التكالب عليها والغفلة عن الآخرة ، وإلا فالدنيا مزرعة للآخرة إذا طلبت باعتدال وتعقل ولا يترك الدنيا بما خطط لها الاسلام بصير ، وما أصاب المسلمين من تأخر وضعف إلا بسبب فهمهم الخاطىء للآيات والأحاديث الواردة في الدنيا . وقد اتخذها الرسول على صحبه رضي الله عنهم مطية للآخرة ، فأكثروا فيها من الأعمال الصالحة والجهاد في سبيل الله ، مما جعلهم سادة الدنيا والسعداء في الأخرة . هذا وكم كان يحسن بالمؤلف لو جعل عنوان البحث وصف الدنيا ، لا ذمها ! وقد كان من دعائه على حينا يستيقظ من نومه : « الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا ، وإليه النشور ، وهو إن دل على شيء ، فإنما يدل على حرصه على البقاء في الحياة الدنيا ، ليزداد من عمل الصالحات ، وفي ذلك تعليم لأمته . . .

أَنْزَلْنَهُ مِنَ السَّهَآءِ ﴾ (يونس: ٢٤) ، وقوله: ﴿ آعْلَمُوٓا أَثَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبُ وَلَهُ وَزِينَةٌ ﴾ (الحديد: ٢٠) ، وقوله: ﴿ وَإِن كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الحَيَاةِ اللَّهُ ثَيَا ، وَالآخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (زخرف: ٣٥) ، وقوله: ﴿ وَأَعْرِضْ عَن مَّن تَولَىٰ عَن ذَكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنيَا. ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ ﴾ (النجم: ٢٩ - ٣٠).

وأما الأحاديث فعن المسور بن شداد ، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم اصبعه في اليم ، فلينظر بم ترجع (۱) ؟ » . وفي حديث آخر : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (۲) » ، وفي حديث آخر : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء (۳) » .

وقال النبي ﷺ « إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها ، فناظر كيف تعملون (٤) » .

وكتب الحسن إلى عمر بن عبد العزيز في ذم الدنيا كتاباً طويلاً جاء فيه: أما بعد فإن الدنيا دار طعن ليست بدار مقام ، وإنما أنزل إليها آدم عقوبة ، فاحذرها يا أمير المؤمنين ، فإن الزاد منها تركها ، والغنى فيها فقرها ، تذل من أعزها ، وتفقر من جمعها ، كالسم يأكله من لا يعرفه وهو حتفه ، فاحذر هذه الدار الغرارة الختالة الخداعة ، وكن أسرً ما تكون فيها ، أحذر ما تكون لها ، سرورها مشوب بالحزن ، وصفوها مشوب بالكدر ، فلو كان الخالق لم يخبر عنها خبراً ، ولم يضرب لها مثلاً ، لكانت قد أيقظت النائم . ونبهت الغافل ، فكيف وقد جاء من الله عز وجل عنها زاجر ، وفيها واعظ ، فيا لها عند الله سبحانه قدر ولا وزن .

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

⁽۲) رواه مسلم .

⁽٣) رواه الترمذي وصححه وهو صحيح لغيره (مم) .

⁽٤) رواه مسلم .

ولقد عرضت على نبينا على مفاتيحها وخزائنها ، لا ينقصه عند الله جناح بعوضة ، فأبي أن يقبلها ، وكره أن يجب ما أبغض خالقه ، أو يرفع ما وضع مليكه ، زوّاها الله عن الصالحين اختياراً ، وبسطها لأعدائه اغتراراً ، أفيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه كرم بها ؟ ونسي ما صنع الله بمحمد عين شد على بطنه الحجر ، والله ما أحد من الناس بسط له في الدنيا ، فلم يخف أن يكون قد مُكر به ، إلا كان قد نقص عقله ، وعجز رأيه ، وما أمسك عن عبد فلم يظن أنه قد خير له فيها ، إلا نقص عقله وعجز رأيه أيضاً .

وقال مالك بن دينار: اتقوا السَّحارة، فإنها تسحر قلوب العلماء، يعنى الدنيا.

ومن أمثلة الدنيا: قال يوسف بن عبيد: شبهت الدنيا كرجل نائم، فرأى في منامه ما يكرهه وما يحب، فبينها هو كذلك انتبه.

ومثل هذا قولهم : الناس نيام ، فإذا ماتوا انتبهوا .

والمعنى أنهم ينتبهـون بالمـوت ، وليس في أيـديهم شيء ممـا ركنـوا إليـه وفرحوا به .

قيل: إن عيسى عليه السلام رأى الدنيا في صورة عجوز هتهاء (۱) عليها من كل زينة. فقال لها: كم تزوجت ؟ قالت لا أحفظهم. قال: فكلهم مات عنك أو كلهم طلقك ؟ قالت: بل كلهم قتلت. فقال عيسى عليه السلام: بؤساً لأزواجك الباقين، كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين، كيف على حذر.

وعن ابن عباس رضي الله عنه قال : يُؤتى بالدينا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء (٢) زرقاء ، أنيابها بادية ، مشوه خلقها ، فتشرف على الخلق ، فيقال : هل تعرفون هذه ؟ فيقولون : نعوذ بالله من معرفة هذه . فيقال :

⁽١) ليس لها أسنان ، وفي نسخة : سهاء ، وهي الداهية.

⁽٢) طويلة القامة .

هذه الدنيا التي تشاجرتم عليها ، وبها تقاطعتم الأرحام ، وبها تحاسدتم وتباغضتم واغتررتم ، ثم تُقذف في جهنم ، فتقول : يا رب أين أتباعي وأشياعي ؟ فيقول : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وقال عيسى عليه السلام: الدنيا قنطرة ، فاعبروها ولا تعمروها. هذا مثل واضح ، فإن الحياة الدنيا معبر إلى الآخرة ، والمهد هو السركن الأول على أول القنطرة ، واللحد هو الركن الثاني على آخر القنطرة .

ومن الناس من قطع نصف القنطرة ، ومن الناس من قطع ثلثيها ، ومنهم من لم يبق له إلا خطوة واحدة وهو غافل عنها ، وكيفها كان فلا بد من العبور ، فمن وقف يبني على القنطرة ويزينها وهو يستحث للعبور عليها ، فهو في غاية الجهل والحمق .

وقيل : مثل طالب الدنيا مثل شارب ماء البحر ، كلما ازداد شرباً ازداد عطشاً حتى يقتله .

وكان بعض السلف يقول لأصحابه: انطلقوا حتى أريكم الدنيا، فيذهب بهم إلى مزبلة فيقول: أنظروا إلى ثمارهم ودجاجهم وعسلهم وسمنهم.

وعن الحسن قال بلغني عن رسول الله على أنه قال : « إنما مشلى ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتى إذا لم يدروا ، ما سلكوا منها ، أكثر أو ما بقي ، أنفذوا الزاد وخسروا الظهر ، وبقوا بين ظهراني المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ، فبينها هم كذلك ، إذ طلع عليهم رجل في حلة يقطر رأسه . فقالوا : إن هذا قريب عهد بريف ، وما جاءكم هذا إلا من قريب ، فلها انتهى إليهم قال : يا هؤلاء ، علام أنتم ؟ قالوا على ما ترى . قال : أرأيتم إن هديتكم إلى ماء رواء ، ورياض خضر ، ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً . قال عهودكم ومواثيقكم بالله . لا يعصونه شيئاً . قال :

فأوردهم ماء ورياضاً خضراء . فمكث فيهم ما شاء الله ، ثم قال : يا هؤلاء : الرحيل . قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم ، وإلى رياض ليست كرياضكم ، فقال أكثر القوم والله ما وجدنا هذا حتى ظننا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة قليلة : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم ومواثيقكم بالله لا تعصوه ؟ وقد صدقكم في أول حديثه ، فوالله ليصدقنكم في آخره . قال : فراح فيمن اتبعه ، وتخلف بقيتهم ، فنزل بهم عدو ، فأصبحوا من بين أسير وقتيل (١) .

ومن حديث أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله على: (إن مثلي ومثل ما بعثني الله به ، كمثل رجل أتى قومه فقال: يا قوم! إني رأيت الجيش بعيني ، وأنا النذير العُريان ، فالنجاة . فأطاعة طائفة من قومه ، فأدلجوا وانطلقوا على مهلهم ، فنجوا . وكذبته طائفة منهم ، فأصبحوا مكانهم ، فصبحهم الجيش في مكانهم ، فأهلكهم واجتاحهم ، فذلك مثل ما أطاعني واتبع ما جئت به ، ومثل من عصاني وكذب بما جئت به من الحق (٢) .

بيان الدينا المذمومة

إعلم أن معرفة ذم الدنيا لا تكفيك ما لم تعرف الدنيا المذمومة ما هي ، وما الذي ينبغي أن يُجتنب منها ، وما الذي لا يجتنب ، فلا بد وأن نبين الدنيا المذمومة المأمور باجتنابها لكونها عدوة قاطعة لطريق الله، ما هي ، فنقول :

إِن جميع مالك إليه ميل في الدنيا ، وفيه نصيب وحظ فليس بمـذموم بـل هو ثلاثة أقسام :

فضل بيان حقيقة الدنيا والمذموم منها والمحمود

قا. سمع خلق كثير ذم الدنيا مطلقاً ، فاعتقدوا أن الإشارة إلى هذه

⁽١) رواه أحمد والبزار والطبراني من حديث ابن عباس واسناده صحيح قاله الحافظ العراقي .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم .

الموجودات التي خُلقت للمنافع ، فأعرضوا عما يصلحهم من المطاعم والمشارب .

وقد وضع الله في الطباع توقان النفس إلى ما يصلحها ، فكلما ناقت منعوها ظناً منهم أن هذا هو الزهد المراد ، وجهلاً بحقوق النفس ، وعلى هذا أكثر المتزهدين ، وإنما فعلوا ذلك لقلة العلم ، ونحن نصدع بالحق من غير محاباة فنقول :

إعلم أن الدنيا عبارة عن أعيان موجودة للإنسان ، فيها حظ ، وهي الأرض وما عليها ، فإن الأرض مسكن الآدمي . وما عليها ملبس ومطعم ومشرب ومنكح ، وكل ذلك علف لراحلة بدنه السائر إلى الله عز وجل ، فإنه لا يبقى إلا بهذه المصالح ، كها لا تبقى الناقة في طريق الحج إلا بما يصلحها ، فمن تناول منها ما يصلحه على الوجه المأمور به ، مُدح ، ومن أخذ منها فوق الحاجة يكتنف الشره ، وقع في الذم ، فإنه ليس للشره في تناول الدنيا وجه ، لأنه يخرج عن النفع إلى الأذى ؛ ويشغل عن طلب الأخرى ، فيفوت المقصود ، ويصير بمثابة من أقبل يعلف الناقة ويرد لها الماء ، ويغير عليها ألوان الطعام ، وينسى أن الرفقة قد سارت ، فإنه يبقى في البادية فريسة للسباع هو وناقته .

ولا وجه أيضاً للتقصير في تناول الحاجة ، لأن الناقة لا تقوى على السير إلا بتناول ما يصلحها ، فالطريق السليم هي الوسطى ، وهي أن يُؤخذ من الدنيا قدر ما يُحتاج إليه من الزاد للسلوك ، وإن كان مشتهى ، فإن إعطاء النفس ما تشتهيه عون لها ، وقضاء لحقها .

وقد كان سفيان الثوري يأكل في أوقات من طيب الطعام ، ويحمل معه في السفر الفالوذج .

وكان إبراهيم بن أدهم يأكل من الطيبات في بعض أوقات ، ويقول : إذا وجدنا أكلنا أكل الرجال ، وإذا فقدنا صبرنا صبر الرجال !

ولينظر في سيرة رسـول الله صلى الله عليـه وآله وصحـابته ، فـإنهم ما كان لهـم إفراط في تناول الدنيا ، ولا تفريط في حقوق النفس .

وينبغي أن يتلمح حظ النفس في المشتهى ، فإن كان في حظها حفظها وما يقيمها ويصلحها ويبسطها للخير ، فلا يمنعها منه ، وإن كان حظها مجرد شهوة ليست متعلقة بمصالحها المذكورة ، فذلك حظ مذموم ، والزهد فيه يكون .

قال ابن مسعود: ما أصبح أحد من الناس إلا وهو ضيف، وماله عارية، فالضيف مرتحل، والعارية مردودة، وفي ذلك أنشد الشاعر:

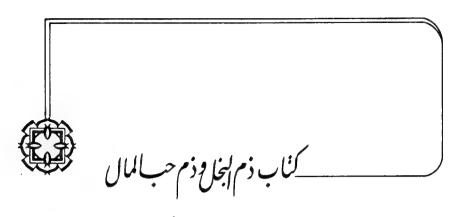
وما المال والأهملون إلا ودائع ولا بدَّ يوماً أن تُرد المودائع وقيل لإبراهيم بن أدهم كيف أنت ؟ فقال :

نرقع دنیانا بتمزیق دیننا فلا دیننا یبقی ولا ما نرقع فطوبی لعبد آثر الله ربه وجاد بدنیاه لما یتوقع

وقال آخر :

وإن امرأ دنسياه أكبر همه مستمسك منها بحبل غرور





ما ذكرناه في كتاب ذم الدنيا لم يكن نظراً في المال خاصة بل الدنيا عامة ، والمال بعض أجزائها الجدير بإفراد البحث عنه ، إذ فيه آفات وغوائل ، ولملانسان من فقده صفة الفقر . ومن وجوده صفة الغنى ، وهما اللتان يحصل بها الاختبار والامتحان ، ثم للفاقد حالتان : القناعة والحرص . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة ، وللحريص حالتان : طمع فيها في أيدي ألناس ، وتشمر للحرف والصناعات مع الياس عن الخلق . والعطمع شر الحالتين . وللواجد إمساك بحكم البخل والشح ، وإنفاق . وإحداهما مذمومة والأخرى محمودة . وللمنفق حالتان : تبذير واقتصاد ، وهذه أمور متشابهة ، وكشف الغطاء عن الغموض فيها مهم ، ونحن نشرحه بعونه تعالى .

بيان ذم المال وكراهة حبه

إعلم أن المال لا يُذم لـذاته ، بـل يقع الـذم لمعنى من الأدمي ، وذلك المعنى ، إمـا شدة حـرصه ، أو تنـاوله من غـير حِلّه أوحبسـه عن حقه ، أو إخراجه في غير وجهه ، أو المفاخرة به ، ولذا قال الله تعالى : ﴿ يَاٰ أَيُّهَا اللّذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمُولُكُمْ وَلاَ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَـٰئِكَ عَامَنُواْ لاَ تُلْهِكُمْ أَمُولُكُمْ وَلاَ أَوْلَـٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ اللّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَـٰئِكَ عَامَدُواْ لاَ تَعْلَى : ﴿ إِنَّمَـا أَمُولُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ هُمُ الْخَنْسِرُونَ ﴾ (المنافقون : ٩) وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَـا أَمُولُكُمْ وَأَوْلَـٰدُكُمْ فِي اللّهُ وَلَده على ما فِينَهُ وَأَنْ اللّه وَولده على ما

عند الله فقد خسر وغُبن خسراناً مبيناً ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى الْوَالِ الله فقد خسر وغُبن خسراناً مبيناً ، وقال ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وقال تعالى : ﴿أَهُ كُمُ التّكَاثُرُ ﴾ (التكاثر: ١) ، وقال على : « تعس عبد الديم . تعس ولا انتعش ، وإذا شيك فلا انتقش » (١) بين أن محبها عابد لها ، ومن عبد حجراً فهو عابد صنم ، أي من قطعة ذلك عن الله تعالى ، وعن أداء حقه ، فهو كعابد صنم ، وهو شرك ، إلا أن الشرك خفي وجلي نعوذ بالله منها ، وقال على : «يقول ابن آدم مالي مالي ، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت أو لبست فأبليت ، أو تصدقت فأمضيت » (٢) ؟ . وقال على : «هلك المكثرون إلا من قال به في عبد الله هكذا وهكذا وقليل ما هم » (٣) وعن يحيى بن معاذ قال : الديم عقرب ، فإن لم تُحسن رقيته في الم التخذه ، فإنه إن لدغك قتلك سمه ، وقيل : وما فإن لم تُحسن رقيته في الأولون والآخرون بمثلها للعبد في ماله عند موته ، قيل : وما هما ؟ يوخذ منه كله ويسأل عنه كله .

بيان مدح المال والجمع بينه وبين الذم

إعلم أن الله تعالى قد سمى المال خيراً في مواضع من كتابه العزيز فقال عز وجل : ﴿ إِنْ تَرَكَ خَيْراً ﴾ (البقرة : ١٨٠) وقال ممتناً على عباده : ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوٰلٍ وَيَثِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهُواً ﴾ (نوح: ١٢) وقال ﷺ . « نعم المال الصالح للرجل الصالح »(٤) ولا تقف على وجه

⁽١) رواه البخاري ولم يقل وانتقش ، وإنما علق آخره بلفظ : « تعس وانتكس » .

⁽۲) رواه مسلم .

⁽٣) رواه البخاري ومسلم بلفظ: « الأخسرون فقال أبو ذر: يـا رسول الله فـداك أبي وأمي من هم ؟ قال: هم الأكثرون أموالًا، إلا من قال هكـذا، وهكذا، وهكذا (من بين يـديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله) وقليل ما هم . . . » والسياق لمسلم.

⁽٤) رواه أحمد وسنده صحيح (مم) .

الجمع بين الذم والمدح إلا بأن تعرف حكمة المال ، ومقصوده . وآفاته ، حتى ينكشف لك أنه خير من وجه وشر من وجه ، وأنه محمود من حيث هو خير ، ومذموم من حيث هو شر . بإنه ليس بخير محض ولا هو شر محض ، بل هو سبب الأمرين جميعاً ، وما هذا وصفه ، فيمدح تارة ويذم أخرى .

بيان تفصيل المال وفوائده

قدّمنا أن المال فيه خير وشر ، فمن عرف فوائده وغوائله ، أمكنه أن يحترز من شره ويستدر من خيره ، أما الفوائد فدنيوية ودينية ، أما الدنيوية فمعروفة ، وأما الدينية فتنحصر في ثلاثة أنواع :

(النبوع الأول) أن ينفقه على نفسه: إما في عبادة كالسفر والحج والعلم ، وإما فيها يقويه على العبادة من مطعم وملبس ومسكن ومنكح وضرورات المعيشة ، وما لا يتوصل إلى العبادة إلا به فهو عبادة .

(النوع الثاني) ما يصرفه إلى الناس ، وهـو أربعة أقسـام : الصدقـة ، والمروءة ، ووقاية العرض ، وأجرة الاستخدام .

(أما الصدقة) فلا يخفى ثوابها .

(وأما المروءة) فنعني بها صرف المال إلى الأغنياء والأشراف في ضيافة وهدية وإعانة ، وما يجري مجراها ، فإن هذه لا تسمى صدقة ، بسل الصدقة ما يسلم إلى المحتاج ، إلا أن هذا من الفوائد الدينية ، إذ به يكتسب العبد الإخوان والأصدقاء ، وبه يكتسب صفة السخاء ويلتحق بزمرة الأسخياء ، فلا يوصف بالجود إلا من يصنع المعروف ، ويسلك سبيل المروءة والفتوة . وهذا أيضاً مما يعظم الشواب فيه ، فقد وردت أخبار كثيرة في الهدايا والضيافات وإطعام الطعام من غير اشتراط الفقر والفاقة في مصارفها .

(وأما وقاية العرض) فنعني به بذل المال لدفع هجو الشعراء ، وثلب السفهاء ودفع شرهم ، وهو أيضاً ـ مع تنجز فائدته في العاجلة ، من الحظوظ

الدينية ؛ وكيف لا وفيه منع المغتاب عن معصية الغيبة واحتراز عـما يثور من كلامه من العداوة التي تحمل على مجاوزة حدود الشريعة .

(وأما الاستخدام) فهو أن الأعمال التي يحتاج إليها الإنسان كثيرة ولـ و تولاها بنفسه ضاعت أوقاته .

(النوع الثالث) ما يصرفه إلى إنسان معين ، ولكن يحصل به خير عام ، كبناء المساجد والقناطر والرباطات(١) ودور المرضى وغير ذلك من الأوقاف المرصدة للخيرات ، وهي من الخيرات المؤبدة الدارة بعد الموت ، المستجلبة بركة أدعية الصالحين وناهيك بها خيراً . فهذه جملة فوائد المال في الدين.

(وأما الآفات) فدينية ودنيوية؛ أما الدينية فثلاث:

(الأولى) أن يجر إلى المعاصي ، فإن المال يحرك داعية المعـاصي وارتكاب الفجور .

(الثانية) أنه يجر إلى التنعم في المباحات لو فات والتمرن عليه حتى يصير عنده ومحبوباً لا يصبر عنه . وإذا اشتد أنسه به ، ربما لا يقدر على التوصل إليه بالكسب الحلال ، فيقتحم الشبهات ويخوض في الكذب والنفاق وسائر الأخلاق الرديئة لينتظم له أمر دنياه ويتيسر له تنعمه ، وذلك من شؤم المال .

(الثالثة) أنه يلهيه إصلاح ماله ، عن ذكر الله تعالى ، وكل ما شغل العبد عن الله فهو خسران ! وأما الآفات الدنيوية فكثيرة كالخوف والحزن ، والحم والتعب في دفع الحساب ، وتجشم المصاعب في حفظ المال وكسبه في خصومة الشركاء ومنازعتهم ، وأودية أفكار الدنيا لا نهاية لها ، فإذا ترياق المال أخذه من حله وصرفه في الخيرات ، وما عدا ذلك سموم وآفات . نسأله تعالى السلامة والعون بلطفه وكرمه ، إنه على كل شيء قدير .

بيان ذم الحرص والطمع ومدح القناعة والاقتصاد

ينبغي للفقير أن يكون قانعاً منقطع الطمع عن الخلق ، غير ملتفت إلى

⁽١) للجهاد وطلب العلم ، لا للكسل !.

ما في أيديهم ، ولا حريص على اكتساب المال كيف كان ، لئلا يتدنس بذل الحرص ، فيجره إلى مساوىء الأخلاق ، وارتكاب المنكرات ، وقد جُبل الأدمي على الحرص والطمع وقلة القناعة . قال رسول الله ﷺ : « لـو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى ثالثاً »(١) وعلاج ذلك لا يكون إلا بأمور :

(الأول) الاقتصاد في المعيشة والرفق في الإنفاق ، وهـو الأصـل في القناعة ، فإن من كثر خرجه واتسع إنفاقه ، لم تمكنه القناعة .

(الثاني) أن يتحقق بأن الرزق الذي قُدر له لا بـدّ وأن يأتيـه ، وإن لم يشتد حرصه .

(الثالث) أن يعرف ما في القناعـة من عز الاستغنـاء ، وما في الحـرص والطمع من الذل والمداهنة .

(الرابع) أن يكثر تأمله في تنعم الكفرة والحمقى ، ثم ينظر أحوال الأنبياء والأولياء ، ويستمع أحاديثهم ويطالع أحوالهم ، ويخير عقله بين أن يكون على مشابهة الفجار أو الأبرار ، فيهون عليه الصبر على القليل والقناعة باليسير .

(الخامس) أن يفهم ما في جمع المال من الخطر كها ذكرنا في آفات المال ، ويتم ذلك بأن ينظر أبداً إلى دونه في الدنيا(١) لا إلى من فوقه ، فبهذه الأمور يقدر على اكتساب خُلق القناعة . وعماد الأمر الصبر .

وقد قيل في ذم البخل والحرص

يا جامعاً مانعاً والدهر يرمقه مفكراً كيف تاتيه منيته جمعت مالاً فقل لي هل جمعت له المال عندك مخرون لوارثه

مقدراً أي باب منه يغلقه أغادياً أو رائحاً بل كيف يتركه يا جامع المال أياماً تفرقه ما المال مالك إلا يوم تنفقه

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

إرفق ببال فتى يعدو على ثقة فالعرض منه مصون ما يدنسه إن القناعة من يحلل بساحتها

أن الذي قسم الأرزاق يرزقه والوجه منه جديد ليس يُخلقه لم يسبق في ظلها هم يورقه

بيان فضيلة السخاء

إعلم أن المال إن كان مفقوداً ، فينبغي أن يكون حال العبد القناعة وقلة الحرص ، وإن كان موجوداً فينبغي أن يكون حاله الإيشار والسخاء واصطناع المعروف ، والتباعد عن الشح والبخل ، فإن السخاء من أخلاق الأنبياء عليهم السلام ، وهو أصل من أصول النجاة . وقد ورد عن النبي فيه أحاديث كثيرة منها قال أنس إن رسول الله على لم يسأل شيئاً على الإسلام إلا أعطاه . وأتاه رجل فسأله فأمر له بشاء كثير بين جبلين من شاء الصدقة فرجع إلى قومه ، فقال يا قوم . . أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخاف الفاقة (۱) ، وقال على «كل معروف صدقة (۱) » وعن الحسن بن علي «الكرم هو التبرع بالمعروف قبل السؤال ، والإطعام في المحل ، والرأفة بالسائل مع بذل النائل » وعن عبد الله بن جعفر : أمطر المعروف مطراً ، فإن أصاب الكرام كانوا له أهلاً ، وإن أصاب اللئام كنت له أهلاً .

ومن سخاء السلف ما حكى أن ابن عامر اشترى داراً بتسعين ألف درهم ، فلها كان الليل سمع بكاء أهلها ، فسأل فقيل يبكون لدارهم . فقال : يا غلام ائتهم فأعلمهم أن المال والدار لهم جميعاً . وكان الليث بن سعد لا يتكلم كل يوم حتى يتصدق على ثلاثمئة وستين مسكيناً . وعن أسهاء بن خارجة قال له عبد الملك : بلغني عنك خصال فحدثني بها ، فأجابه أسهاء ما مددت رجلي بين يدي جليس لي قط ، ولا صنعت طعاماً قط فدعوت عليه قوماً إلا كانوا أمنّ عليّ مني عليهم ، ولا نصب لي رجل وجهه قط ، يسألني

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم لما جاء أسنى المطالب .

شيئاً فاستكثرت شيئاً أعطيته إياه . وعن الشافعي أن حماد بن أبي سليمان انقطع زره وهو راكب ، فمر على خياط وأراد النزول ، فبادره الخياط ، وجلف عليه أن لا ينزل وأصلح له زره ، وهو راكب ، فأخرج له صرة فيها عشرة دنانير وسلمها له ، واعتذر إليه من قلتها ! وأنشد الشافعي لنفسه :

يا لهف قلبي على مال أجود به على المقلِّين من أهل الملوءات إن اعتذاري إلى من جاء يسألني ما ليس عندي ، من إحدى المصيبات

وعن الربيع بن سليمان: قال أخذ رجل بركاب الشافعي رحمه الله ، فقال: أعطه أربعة دنانير واعتذر إليه عني . وقام رجل إلى سعيد بن العاص فسأله فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى ، فقال له سعيد: ما يبكيك ؟ قال أبكي على الأرض أن تأكل مثلك . فأمر له بمائة ألف أخرى ، وجاء أن علياً رضي الله عنه بكى فقيل ما يبكيك . فقال لم يأتني ضيف منذ سبعة أيام ، وأخاف أن يكون الله قد أهانني . وجاء أن رجلاً أق صديقاً له فدق عليه الباب فقال ما جاء بك ؟ قال علي أربعمائة درهم ، دين فوزن أربعمائة درهم وأخرجها إليه وعاد يبكي فقالت له امرأته : لم أعطيته إذ شق عليك ؟! فقال إنما أبكي لأني لم أتفقد حاله حتى احتاج إلى مفاتحتي ، فرحم الله من هذه أخلاقهم وغفر لهم .

بيان ذم البخل

قال الله تعالى: ﴿ وَمَن يُـوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ (التغابن: ١٦) وقال تعالى ﴿ وَلاَ يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ إِمِن فَضْلِهِ هُو خَيْراً هُمْ بَلْ هُو شَرَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِ يَـوْمَ القِيَامَةِ ﴾ (آل عمران: ١٨٠) وقال ﷺ: « إياكم والشح فإنه أهلك من كان قبلكم ، ملهم على أن يسفكوا دماءهم ويستحلوا محارمهم »(١) وعن على رضي الله عنه: « سيأتي على الناس زمان عضوض يعض الموسر فيه على ما في يـده ولم

⁽١) رواه مسلم بلفظ : اتقوا الشح فإن الشح . . الحديث .

يؤمر بذلك . قال الله تعالى : ﴿ وَلاَ تَنْسُواْ ٱلْفَصْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ (البقرة : ٢٣٧) وقال الشعبي : لا أدري أيها أبعد غوراً في نار جهنم البخل أو الكذب . وقال على لوفد بني لحيان : « من سيدكم ؟ » قالوا جد بن قيس إلا أنه رجل (۱) فيه بخل ، فقال على : « أي داء أدوأ من البخل ولكن سيدكم عمرو ابن الجَموح » وكان عمرو يولم على رسول الله على إذا تزوج . وعن على رضي الله عنه قال : والله ما استقصى كريم قط حقه . قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَبُّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَ لُهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ ﴿ فَلَمَّا نَبُّ أَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ ٱللّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَ لُهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ ﴾ (التحريم : ٣) وقال بشر : النظر إلى البخيل يقسي القلب ولقاء البخلاء كرب على قلوب المؤمنين . وقال ابن المعتز : أبخل الناس بما له أجودهم بعرضه !

بيان الإيثار وفضله

إعلم أن السخاء والبخل كل منها ينقسم إلى درجات ، فأرفع درجات السخاء الإيثار ، وهو أن يجود بالمال مع الحاجة إليه ، وإغما السخاء عن بدل ما لا يحتاج إليه لمحتاج أو غير محتاج ، والبذل مع الحاجة أشد ، وكما أن السخاوة قد تنتهي إلى أن يسخو الإنسان على غيره مع الحاجة ، فالبخل قد ينتهي إلى أن يبخل على نفسه مع الحاجة ، فكم من بخيل يُمسك المال ويمرض فلا يتداوى ، ويشتهي الشهوة فلا يمنعه منها إلا البخل بالثمن . ولو وجدها مجاناً لأكلها ، فهذا بخيل على نفسه مع الحاجة ، وذلك يؤثر على نفسه غيره مع أنه محتاج إليه ، فانظر ما بين الرجلين !

وليس بعد الإيثار درجة في السخاء ، وقد أثنى الله على الصحابة رضي الله عنهم به فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩) وقد ورد أنه نزل برسول الله ﷺ ضيف فلَم يجد عند أهله شيئاً ، فدخل عليه رجل من الأنصار ، فذهب بالضيف إلى أهله ، ثم وضع

⁽١) رواه البخاري في الأدب المفرد وهو حديث حسن .

بين يديه الطعام ، وأمر امرأته بإطفاء السّراج ، وجعل يمد يده إلى الطعام كأنه يأكل ، ولا يأكل حتى أكل الضيف الطعام . فلما أصبح قال له رسول الله على : « لقد عجب الله من صنيعكم اللّيلة إلى ضيفكم »(٢) ونزلت ﴿ وَيُؤْثُرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ (الحشر: ٩) فالسخاء خُلق من أخلاق الله تعالى ، والإيثار أعلى درجات السخاء ، وكان ذلك من دأب رسول الله على ماه الله تعالى [خُلقاً] عظياً . فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

قيل خرج عبد الله بن جعفر رضي الله عنهما إلى ضيعة له ، فنزل على نخيل قوم ، وفيه غلام أسود يعمل فيه ، إذ أتى الغلام بقوته ، فدخل الحائط كلب ودنا من الغلام فرمى إليه الغلام بقرص فأكله ، ثم رمى إليه الثاني والثالث فأكلها ، وعبد الله ينظر إليه ، فقال يا غُلام كم قوتُك كل يوم ؟ قال ما رأيت ؟ قال : فلِمَ آثرت به هذا الكلب ؟ قال ما هي بأرض كلاب ، إنه جاء من مسافة بعيدة جائعاً ، فكرهت أن أشبع وهو جائع . قال فيا أنت صانع اليوم ؟ قال أطوي يومي هذا . فقال عبد الله بن جعفر ألام على السخاء وإن هذا الغلام لأسخى مني ، فاشترى الحائط والغلام وما فيه من الألات فأعتق الغلام ووهبه منه . ؟

وقال عمر رضي الله عنه أهدي لـرجل من أصحـاب رسول الله ﷺ رأس شاة ، فقال إن أخي كان أحوج مني إليه ، فبعث به إليه ، فلم يزل كل واحد يبعث به إلى آخر ، حتى! تداوله سبعة أبيات ، ورجع إلى الأول .

وقال حذيفة العدوي: انطلقت يوم اليرموك من أيام فتوح الشام - أطلب ابن عم لي ومعي شيء من ماء ، وأنا أقول: إن كان به رمق سقيته ومسحت به وجهه ، فإذا أنا به ، فقلت أسقيك ؟ فأشار إلي : أن نعم ، فإذا رجل يقول: آه ، فأشار ابن عمي إلي ؛ أن انطلق به إليه . قال فجئته ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت أسقيك فأشار إلي : أن نعم ، فسمع به

⁽١) رواه البخاري ومسلم .

آخر فقال آه ، فأشار هشام : أن أنطلق به إليه ، فجئته فإذا هـو قد مـات ، فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هـو قد مات ، فرجعت إلى ابن عمي ، فإذا هـو قد مات رحمة الله عليهم أجمعين .

بيان حد السخاء والبخل وحقيقتها

إعلم أن المال خُلق لحكمة ، وهو صلاحه لحاجات الخلق ، فيمكن المساكه عن صرفه إلى ما خُلق الصرف إليه ، ويمكن التصرف فيه بالعدل ، وهو أن يُحفظ حيث يجب الجفظ ، ويبذل حيث يجب البذل ، فالإمساك حيث يجب البذل بخل ، والبذل حيث يجب الإمساك تبذير . وبينها وسط ، وهو المحمود ، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذ لم يؤمر رسول الله المحمود ، وينبغي أن يكون السخاء والجود عبارة عنه ، إذ لم يؤمر رسول الله على المسخاء وقد قيل له (ولا تَجْعَلْ يَدَكَمَ عُلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلا نَسُطْهَا كُلَّ الْبُسْطِ (الإسراء : ٢٩) وقال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لم يُسْرِفُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً ﴾ (الفرقان : ٢٧) .

فالجود وسط بين الإسراف والإقتار، وبين البسط والقبض، وهو أن يقدر بذله وإمساكه بقدر الواجب، ولا بد أن يكون قلبه طيباً به غير منازع له فيه، ثم إن الواجب بذله قسمان: واجب بالشرع، وواجب بالمروءة والعادة، والسخي هو الذي لا يمنع واجب الشرع ولا واجب المروءة، فإن منع واحداً منها فهو بخيل ولكن الذي يمنع واجب الشرع أبخل، كالذي يمنع أداء الزكاة، ويمنع عياله وأهله النفقة _ أو يؤديها، ولكنه يشق عليه فإنه بخيل باللطبع _ أو الذي يتيمم الخبيث من ماله، ولا يطيب أن يعطي من أطيب ماله أو من وسطه فهذا كله بخل.

ومن واجب المروءة ترك المضايقة والاستقصاء في المحقرات ، فإن ذلك مستقبح ، واستقباح ذلك يختلف بالأحوال والأشخاص، فمن كثر ماله استقبح ما لا يستقبح من الفقير من المضايقة ، ويستقبح من الرجل المضايقة مع أهله وأقاربه ، ما لا يستقبح مع الأجانب ويستقبح مع الجار ما لا يستقبح

مع البعيد ، ويُستقبح في الضيافة من المضايقة ما لا يُستقبح في المعاملة . وبالجملة ، فالبخيل هو الذي يمنع حيث ينبغي أن لا يمنع ، إما بحكم الشرع . وإما بحكم المروءة ، ومن أدّى واجب الشرع ، وواجب المروءة اللائقة به ، فقد تبرأ من البخل . نعم لا يتصف بصفة الجود والسخاء ، ما لم يبذل زيادة على ذلك لطلب الفضيلة ونيل الدرجات ، فاصطناع المعروف وراء ما توجبه العادة والمروءة هو الجود ، ولكن بشرط أن يكون عن طيب نفس ولا يكون عن طمع ورجاء خدمة أو مكافأة أو شكر أو ثناء ، فإن من طمع في الشكر والثناء فهو بياع وليس بجواد ، فإنه يشتري المدح بماله ، ومثله من يبعثه عليه الحوف من الهجاء أو ملامة الخَلق ، فإنه ليس بالجود لأنه مضطر إليه بهذه البواعث وهي أعواض معجلة له عليه فهو معتاض لا جواد .

حكايات الأسخياء

قد صح عن النبي على : أنه كان أجبود بالخير من الريح المرسلة ، وأنه ما سئل شيئاً قط فقال : لا ، وأن رجلًا سأله ، فأعطاه غنها بين جبلين ، فأت الرجل قومه ، فقال : يا قوم : أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر .

وقيل : كان لعثمان على طلحة رضي الله عنهما خمسون ألف درهم ، فخرج إلى المسجد ، فقال له طلحة : قد تهيأ مالك فاقبضه ، فقال : هو لك يا أبا محمد معونة على مروءتك .

وجاء أعرابي إلى طلحة ، فسأله ، وتعرف إليه برحم . فقال : إن هذه الرحم ، ما سألني بها أحد قبلك ، فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم .

وقال عروة: رأيت عائشة رضي الله عنها تقسم سبعين ألفاً ، وهي ترقع درعها . وعنها أنها قسمت في يوم ثمانين ومئة ألف بين الناس ، فلها أمست قالت : يا جارية ، علي فطوري . فجاءتها بخبز وزيت : فقالت لها أم درة : أما استطعت فيها قسمت اليوم أن تشتري لنا بدرهم لحها نفطر

عليه ؟ فقالت : لو ذكرتني لفعلت .

واشترى عبد الله بن عامر من خالد بن عقبة داره التي في السوق بتسعين ألف درهم ، فلما كان الليل ، سمع بكاء أهل خالد. فقال لأهله : ما لهؤلاء ؟ قالوا : يبكون على دارهم . قال : يا غلام : اثتهم ، فأعلمهم أن الدار والمال لهم جميعاً .

وبعث رجل إلى عبد الله أنه قد وصف لي لبن البقر ، فابعث لي ببقرة أشرب من لبنها . فبعث إليه بسبعمائة بقرة ورعاتها ، وقال : القرية التي كانت ترعى فيها لك .

ودخل علي بن الحسين على محمد بن أسامة بن زيد في مرضه ، فجعل يبكي : فقال : ما شأنك ؟ قال : عليّ دين . قال : كم هو ؟ قال : خسة عشر ألف دينار أو بضعة عشرة ألف دينار . فقال : فهي عليّ .

وجاء رجل إلى معن ، فسأله . فقال : يا غلام ، ناقتي الفلانية وألف دينار ، فدفعها إليه وهو لا يعرفه .

وبلغنا عن معن أن شاعراً أقام ببابه مدة فلم يتهيأ له لقاؤه . فقال لبعض خدمه : إذا دخل الأمير البستان فعرّفني . قال : فلما دخل عرّفه ، فكتب الشاعر بيتاً على خشبة ، وألقاها في الماء الذي يدخل البستان ، فلما بصرُ معن بالخشبة ، أخذها ، فإذا فيها مكتوب :

أبا الجود معن ناج معناً بحاجتي فمالي إلى مَعنٍ سواك شفيع

فقال من صاحب هذه ؟ فدعا الرجل ، فقال له : كيف قلت ؟ فقاله ، فأمر له بعشر بدر^(۱) ، فأحذها ، ووضع الأمير الخشبة تحت بساطه ، فلما كان اليوم الثاني أخرجها من تحت البساط ، وقرأ ما فيها ، ودعا الرجل ، فلما خدفع إليه مائة ألف درهم أخرى ، فلما أحذها الرجل ، خاف أن يعود

⁽١) البدرة : عشرة آلاف درهم .

فيستعيدها منه ، فخرج ، فلم كان اليوم الثالث ، قرأ ما فيها ، فدعا الرجل فلم يوجد . فقال معن : حق علي أن أعطيه حتى لا يبقى في بيت مالي درهم ولا دينار .

ومرض قيس بن سعد بن عبادة ، فاستبطأ إخوانه . فقيل له : إنهم يستحيون مما لك عليهم من الدين . فقال : أخزى الله مالاً يمنع الإخوان من الزيارة ، ثم أمر منادياً ينادي : من كان عليه لقيس حق ، فهو منه في حِل . قال : فانكسرت درجته بالعشي لكثرة من عاده .

وقام رجل إلى سعيد بن العاص يسأله ، فأمر له بمائة ألف درهم ، فبكى . فقال : سعيد : ما يبكيك ؟ قال : أبكي على الأرض أن تأكل مثلك ، فأمر له بألف أخرى .

(الآثار): قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا أقبلت عليك الدنيا ، فأنفق منها ، فإنها لا تفنى ، وإذا أدبرت عنك ، فأنفق منها ، فإنها لا تبقى ، وأنشد:

لا تبخلن بدنيا وهي مقبلة فليس ينقصها التبذير والسرف وإن تولت فأحرى أن تجود بها فالحمد منها إذا ما أدبرت خلف

وسأل معاوية الحسن رضي الله تعالى عنها عن المروءة والنجدة والكرم فقال: أما المروءة فحفظ الرجل دينه ، وحذره نفسه ، وحسن قيامه بضيفه ، وحسن المنازعة والإقدام في الكراهة ، وأما النجدة ، فالنّب عن الجار ، والصبر في المواطن ، وأما الكرم فالتبرع بالمعروف قبل السؤال والطعام في المحل ، والرأفة بالسائل مع بذل السائل .

ورفع رجل إلى الحسن بن علي رضي الله تعالى عنها رقعة . فقال : حاجتك مقضية ، فقيل له : يا ابن رسول الله ، لو نظرت في رقعته ثم رددت الجواب على قدر ذلك ؟! فقال : يسألني الله عز وجل عن ذل مقامه بين يدي ، حتى أقرأ رقعته . وقال ابن السماك : عجبت لمن يشتري بين يدي ، حتى أقرأ رقعته . وقال ابن السماك : عجبت لمن يشتري

المماليك بماله ، ولا يشتري الأحرار بمعروفه . وسئل بعض الأعراب : مَن سيدكم ؟ فقال : من احتمل شتمنا ، وأعطى سائلنا ، وأغضى عن جاهلنا . وعن الأحنف بن قيس أنه رأى رجلًا في يده مال ، فقال : لمن هذا المال ؟ فقال : لي ، فقال : أما أنه ليس لك حتى يخرج من يدك ، وفي معناه قيل :

أنت للمال إذا أمسكت فإذا أنقصته فالمال لك

وسمي واصل بن عطاء الغزّال ، لأنه كان يجلس إلى الغزالين ، فإذا رأى امرأة ضعيفة أعطاها شيئاً ، وقيل لسفيان بن عيينة : ما السخاء ؟ قال : السخاء البر بالإخوان ، والجود بالمال ، وقال : وورث أبي خمسين ألف درهم ، فبعث بها صرراً إلى إخوانه ، وقال : قد كنت أسأل الله تعالى لإخواني الخير في صلاتي ، أبخل عليهم بالمال ؟!

بيان علاج البخل

إعلم أن البخل سببه حب المال ، ولحب المال سببان :

(أحدهما) حب الشهوات التي لا وصول إليها إلا بالمال مع طول الأمل .

(الثاني) أن يجب عين المال ويتلذذ بوجوده ، وإن علم أنه زائد عن ساجاته وبقية عمره ، وقدّمنا أن علاج كل علة بمضادة سببها . فيعالَج حب الشهوات بالقناعة باليسير وبالصبر ، ويعالج طول الأمل بكثرة ذكر الموت والنظر في موت الأقران ، وطول تعبهم في جمع المال وضياعه بعدهم ، ويعالج إلتفات القلب إلى الولد بأن خالقه خلق معه رزقه ، وكم من ولد لم يرث من أبيه مالاً وحاله ، أحسن عمن ورث ، وبأن يعلم أنه يجمع المال لولده يريد أن يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر ، ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل في يترك ولده بخير ، وينقلب هو إلى شر ، ويعالج قلبه أيضاً بكثرة التأمل في الأخبار الواردة في ذم البخل ومدح السخاء ، وما توعد الله به على البخل من العقاب العظيم .

ومن الأدوية النافعة كثرة التأمل في أحوال البخلاء ونفرة الطبع عنهم

واستقباحهم له فإنه ما من بخيل إلا ويستقبح البخل من غيره ويستثقل البخيل من أصحابه ، فيعلم أنه مستثقل ومستقدر في قلوب الناس مثل سائر البخلاء في قلبه . ويعالج قلبه أيضاً ، بأن يتفكر في مقاصد المال وأنه لماذا خُلق فلا يحفظ منه إلا قدر حاجته والباقي يدخره لنفسه في الآخرة ، بأن يحصل له ثواب بذله _ فهذه الأدوية من جهة المعرفة والعلم ، فإذا عرف بنور البصيرة أن البذل خير له من الإمساك في الدنيا والآخرة هاجت رغبته في البذل إن كان عاقلاً ، فإذا تحركت الشهوة فينبغي أن يجيب الخاطر الأول ولا يتوقف ، فإن الشيطان يعده الفقر ويخوفه البذل ويصده عنه .

من حكايات البخلاء

عن ابن عباس رضي الله عنه قال : كان الحاجب رجلاً من أجل العرب ، وكان بخيلاً ، وكان لا يوقد ناراً بليل كراهة أن يراها راء فينتفع بضوئها ، فإذا احتاج إلى إيقادها فأوقد ثم إذا بصر بمستضيء بها أطفأها .

وقيـل : كان مـروان بن أبي حفصة من أبخـل الناس ، فخـرج يـريـد المهدي ، فقالت له امرأته : مالى عليك إن رجعت بالجائزة ؟

قال : إن أُعطيت مائة ألف درهم ، أعطيتك درهماً ، فأعطي ستين ألف درهم ، فأعطاها أربع دوانق .

وقيل: كان بعض البخلاء موسراً كثير المال، وكان ينظر في دقائق الأشيا فاشترى شيئاً من الحوائج، ودعا حمالاً وقال: بكم تحمل هذه الحوائح؟ قال: بحبة. قال: أبخس. قال ما أقل من حبة؟ لا أدري ما أقول. قال: نشترى بالحبة جزراً، فنجلس جميعاً ناكله.





⁽١) هناك درجة وسطى بين طلب العلو وطلب الخمول ، ينبغي أن تكون سمة المسلم ومن دعاء ابراهيم عليه السلام كها جاء في القرآن الكريم : ﴿وَاجْعَلْنَا لَلْمُتَقَيْنَ إِمَاماً ﴾

⁽٢) رواه مسلم .

 ⁽٣) رواه مسلم بلفظ « رب أشعث مدفوع بالأبواب ، لو أقسم على الله لأبره » ورواه البزار بلفظ
 « رب ذي طمرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله لأبره » وسنده صحيح (مج) .

لو أقسم على الله لأبره ، وأهل النار كل متكبر مستكبر جواظ^(۱) » والأخبار في مذمة الشهرة وفضيلة الخمول كثيرة . ومعلوم أن المطلوب بالشهرة وانتشار الصيت هو الجاه والمنزلة في القلب ، وحب الجاه منشأ كل فساد . ثم إن المذموم هو طلب الشهرة والحرص عليها ، فأما وجودها من الله تعالى من غير تكلف من العبد فليس بمذموم .

بيان الحد الذي يباح فيه الجاه

إعلم أن الجاه والمال هما ركنا الدنيا . ومعنى المال ملك الأعيان المنتفع بها ، ومعنى الجاه ملك القلوب ، المطلوب تعظيمها وطاعتها ، أي القدرة على التصرف فيها ، ليستعمل بوساطتها أربابها في أغراضه ، فحكم الجاه حكم ملك الأموال ، فإنه عرض من أعراض الحياة الدنيا ، وينقطع بالموت ، والدنيا مزرعة الآخرة . فكل ما خلق في الدنيا يمكن أن يتزود منه للآخرة ؛ فحب الجاه والمال لأجل التوسل بهما إلى مهمات البدن غير مذموم ، وحبهما لأعيانها فيها يجاوز ضرورة البدن وحاجته مذموم ، ولكنه لا يوصف صاحبه بالفسق والعصيان ، ما لم يحمله الحب على مباشرة معصية وما لم يتوصل إلى اكتسابه بكذب وخداع وارتكاب محظور ، وما لم يتوصل إلى اكتسابه بعبادة ، فإن التوصل إلى الجاه والمال بالعبادة جناية على الدين ، وهو حرام .

والقول الفصل في طلب المنزلة والجاه في قلوب الناس أن يُقال يطلب ذلك على ثلاثة أوجه : وجهان مباحان ، ووجه محظور .

(أما الوجه المحظور) فهو أن يطلب قيام المنزلة في قلوبهم باعتقادهم فيه صفة هو منفك عنها ، مثل العلم والورع والنسك ، فيظهر لهم أنه عالم أو ورع وهو لا يكون كذلك فهذا حرام ، لأنه كذب وتلبيس ، إما بالقول أو المعاملة .

⁽١) رواه البخاري ومسلم والجواظ المختال في مشيته ، والطمر : الثوب الخلق .

(وأما أحد المباحين) فهو أن يطلب المنزلة بصفة هو متصف بها ، كقول يسوسف ﷺ فيها أخبر عنه السرب تعالى : ﴿آجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ آلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ (يوسف : ٥٥) فإنه طلب المنزلة في قلبه بكونه حفيظاً عليهاً ، وكان محتاجاً إليه وكان صادقاً فيه .

(والثاني) أن يطلب إخفاء عيب من عيوبه ومعصية من معاصيه ، حتى لا يُعلم فلا تزول منزلته به ، فهذا أيضاً مُباح ، لأن حفظ الستر على القبائح جائز ، ولا يجوز هتك الستر كالذي يخفي عمن يريد استئجاره أنه يشرب الخمر ولا يلقي إليه أنه ورع ، فإن قوله إني ورع تلبيس وعدم إقراره بالشرب ، لا يوجب اعتقاد الورع بل يمنع العلم بالشرب .

ومن جملة المحظورات تحسين الصلاة بين يديه ، ليحسن فيه اعتقاده ، فإن ذلك رياء ، وهو ملبّس ، إذ يخيل له أنه من المخلصين الخاشعين لله ، وهو مراء بما يفعله ، فكيف يكون مخلصاً . فطلب الجاه بهذا الطريق حرام ، وكذا بكل معصية وذلك يجري مجرى اكتساب المال الحرام من غير فرق ، وكها لا يجوز له أن يتملك مال غيره بتلبيس في عوض أو غيره ، فلا يجوز له أن يتملك على وخداع ، فإن مُلك القلوب أعظم من ملك الأموال .

سبب حب المدح وبغض الذم

لا يُعرف طريق العلاج لذلـك ، ما لم يعـرف سببه ، لأن مـا لم يعرف سببه لا يمكن معالجته ، إذ العلاج عبارة عن حل أسباب المرض .

لحب المدح والتذاذ القلب به أسباب : (الأول) وهو الأقوى : شعور النفس بالكمال ، ومهما شعرت بكمالها وارتاحت ، اهتزت وتلذذت ، والمدح يُشعر نفس الممدوح بكمالها (والسبب الشاني) أن المدح يدل على أن قلب المادح مملوك للممدوح ، وأنه مريد له ومعتقد فيه ومسخر تحت مشيئته ، وملك القلوب محبوب ، والشعور بحصوله لذيد (الثالث) أن ثناء المثني ومدح المادح ، سبب الصطياد قلب كل من يسمعه ، الاسيما إن كان ممن يعتد بثنائه في ملأ ، فيكون المدح ألذ ، والذم أشد على النفس . فأما العلة الأولى وهي

استشعار الكمال ، فتندفع بأن يعلم الممدوح أنه غير صادق في قوله ، كما إذا مدح بأنه نسيب^(۱) أو سخي أو عالم بعلم أو متورع عن المحظورات ، وهو يعلم من نفسه ضد ذلك ، فتزول اللذة التي سببها استشعار الكمال ، وتبقى لذة الاستيلاء على قلبه وعلى لسانه ، وما بعدها ، فإن كان يعلم أن المادح ليس يعتقد ما يقوله ويعلم خلوه عن هذه الصفة ، بطلت اللذة الثانية وهو استيلاؤه على قلبه فبطلت اللذات كلها .

بيان علاج حب الجاه

إعلم أن من غلب على قلبه حب الجاه ، صار مقصور الهم على مراعاة الخلق ، مشغوفاً بالتودد إليهم والمراءاة لأجلهم ، ولا يزال في أقواله وأفعاله ملتفتاً إلى ما يُعظم منزلته عندهم ، وذلك بذر النفاق وأصل الفساد ، ويجر ذلك لا محالة إلى التساهل في العبادات والمراءاة بها ، وإلى اقتحام المحظورات ، للتوصل إلى اقتناص القلوب ، فإذاً حب الجاه من المهلكات ، فيجب علاجه وإزالته عن القلوب ، وعلاجه مُركب من علم وعمل . أما العلم فهو أن يعلم السبب الذي لأجله أحب الجاه ، وهو كمال القدرة على قلوب الناس ، وإن صفا وسلم فآخره الموت ، فليس هو من الباقيات الصالحات ، فلا ينبغي أن يترك به الدين الذي هو الحياة الأبدية التي لا انقطاع لها ، وأما العمل فبأن يأنس بالخمول(٢) ، ويستعين عليه بالأخبار الواردة في ذم الجاه ومدح الحمول ، وبنظره في أحوال السلف وإيشارهم ثواب الأخرة على زخرف الحياة الدنيا .

بيان وجه العلاج لحب المدح وكراهة الذم

إعلم أن أكثر الخلق إنما هلكوا بخوف مـذمة النـاس وحب مدحهم ،

⁽١) أي من آل بيت رسول الله ﷺ.

⁽٢) بل بالتواضع وكره الشهرة .

فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس ، رجاء للمدح وخوفاً من الذم . وذلك من المهلكات فيجب معالجته ، وطريقة : ملاحظة الأسباب التي لأجلها يحب المدح ويكره الذم . فمن الأسباب استشعار الكمال بسبب قول المادح ، فطريقتك أن ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك : هذه الصفة التي يمدحك بها ، أنت متصف بها أم لا ؟ فإن كنت متصفاً بها ، فإن كانت كالثروة والجاه ، فهذه لا تستحق المدح كالفرح بنبات الأرض الذي يصير على القرب هشياً تذروه الرياح . وهذا من قلة العقل ، وإن كانت كالعلم والورع ، فهذه وإن استحقت المدح إلا أنه لا ينبغي الفرح بها ، لأن الخاتمة عير معلومة ، وإن كانت الصفة التي مدحت بها أنت خال عنها ، ففرحك بالمدح غاية الجنون . ومن الأسباب : الخشية التي اضطرت المادح إلى المدح ، بل وهو أيضاً يرجع إلى قدرة عارضة لا ثبات لها ، ولا تستحق الفرح ، بل ينبغي أن يغمك مدح المادح وتكرهه وتغضب به ، كها نقل عن السلف ، لأن أفات المدح على الممدوح عظيمة كها تقدم في آفات اللسان ، وقال النبي المدح مرة للمادح « ويحك قصمت ظهره » (١) .

بيان علاج كراهية الذم

يُفهم ذلك مما تقدم والقول الوجيز فيه أنّ من ذمك لا يخلو من ثلاثة أحوال: إما أن يكون قد صدق فيها قال، وقصد به النصح والشفقة، وإما أن يكون صادقاً، ولكن قصده الإيذاء والتعنت. وإما أن يكون كاذباً. فإن كان صادقاً وقصده النصح، فلا ينبغي أن تذمه وتغضب عليه وتحقد بسببه، بل ينبغي أن تتقلد منه، فإن من أهدى إليك عيوبك، فقد أرشدك إلى المهلك حتى تتقيه، فينبغي أن تفرح به وتشتغل بإزالة الصفة المذمومة عن نفسك إن قدرت عليها. فأما اغتمامك بسببه وكراهتك له وذمك إياه، فإنه

⁽۱) وفي الأصل المختصر (ظهري) وهو تصحيف . ورواه البخاري ومسلم بنحوه بلفظ : « ويلك قطعت عنق أخيك » ثلاثاً « من كان منكم مادحاً لا محالة فليقل أحسب فلاناً ، والله حسيبه إن كان يرى أنه كذلك ، ولا يزكي على الله أحداً » .

غاية الجهل. وإن كان قصده التعنت ، فأنت قد انتفعت بقوله ، إذ أرشدك الى عيبك إن كنت جاهلاً به لتُقلع عنه ، وذلك من أسباب سعادتك ، فينبغي أن تفرح به ، لأن تنبهك بقوله غنيمة ، وجميع مساوىء الأخلاق مهلكه في الآخرة ، والإنسان إنما يعرفها من قول أعدائه ، فينبغي أن تغتنمه . وأما قصد العدو التعنت فجناية منه على دين نفسه وهو نعمة منه عليك ، فلم تغضب عليه بقول انتفعت به أنت وتضرر هو به !؟

(الحالة الثالثة) أن يفتري عليك بما أنت بريء منه عند الله تعالى ، فينبغي أن لا تكره ذلك ولا تشتغل بذمه بل تتفكر في ثلاثة أمور:

(أحدها) إن خلوت من ذلك العيب فلا تخلو عن أمثاله وأشباهه. وما يستره الله من عيوبك أكثر، فاشكر الله تعالى إذ لم يطلعه على عيوبك، ودفّعه عنك بذكر ما أنت بريء عنه (والثاني) إن ذلك كفارة لبقية مساوئك وذنوبك، وكل من اغتابك فقد أهدى إليك حسناته، وكل من مدحك، فقد قطع ظهرك، فها بالك تفرح بقطع الظهر، وتحزن لهذايا الحسنات التي تقربك إلى الله سبحانه وتعالى، وأنت تزعم أنك تحب القرب من الله (وأما الشاكن) فهو المسكين قد جنى على دينه حتى سقط من عين الله، وأهلك نفسه بافترائه وتعرض لعقابه الأليم. فلا ينبغي أن تغضب عليه مع غضب الله عليه، فتشمت به الشيطان، وتقول: اللهم أهلكه، بل ينبغي أن تقول: اللهم أصلحه، اللهم أعلمه أبل عليه، اللهم الحمه كما قال عليه اللهم اغفر لقومي، اللهم إهد قومي فإنهم لا يعلمون (()).

ومما يُهون عليك كراهية المذمة قطع الطمع ، فإن من استغنيت عنه مهما ذمك ، لم يعظم أثر ذلك في قلبك ، وأصل الدين لقناعة ، وبها ينقطع الطمع عن المال والجاه ، وما دام الطمع قائماً ، كان حب الجاه والمدح في قلب من طمعت فيه غالباً ، وكانت همتك إلى تحصيل المنزلة في قلبه

⁽١) قاله رسول اللَّه ﷺ على لسان نبي لما عذبه قومه ، وقد تقدم ، رواه البخاري ومسلم .

مصروفة ، ولا ينـال ذلك إلا بهـدم الدين ، لا ينبغي أن يـطمع طـالب الجاه ومحب المدح ومبغض الذم في سلامة دينه ، فإن ذلك بعيد جداً .

بيان ذم الرياء

وهو طلب الجاه والمنزلة بالعبادات إعلم أن الرياء حرام ، والمرائي عند الله ممقوت ، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار (أما الآيات) فقول ه تعالى ﴿ فَوَيْلُ لِلْمُصَلِّينَ آلَّذِينَ هُمْ عَن صَلاتِهِمْ سَاهُونَ آلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ (الماعون : ٤ و ٦) وقوله عز وجل : ﴿ وَٱلَّذِينَ يَكُرُونَ ٱلسَّيَّفَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴾ (فاطر : ١٠) قال مجاهد : هم أهل الرياء . وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِـوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُـرِيدُ مِنكُمْ جَـزَآءً وَلَا شُكُوراً ﴾ (الانسان : ٩) فمدح المخلصين : بنفي كل إرادة سوى وجه الله ، والرياء ضده، وقال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَـرْجُواْ لِقَـآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَـلْ عَمَلًا صَـٰلِحَـأَ وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ١١٠) نـزل ذلك فيمن يـطلب الأجر والحمد بعبادته له(١) (ومن الأحاديث) قوله ﷺ : «يقول الله عز وجل «من عمل لى عملًا أشرك فيه غيرى، فهو له كله وأنا منه برىء وأنا أغني الأغنياء عن الشرك»(٢). وقال على « إن أحوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر » قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله ؟ قال: « الرياء » يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جاز العباد بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم الجزاء ٣٦٠ وقال ﷺ : « إن في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله رجلًا تصدق بيمينه فكان يخفيها عن شماله »(٤)

⁽١) والحديث في ذلك لم يصح .

 ⁽٢) رواه مسلم بلفظ: « أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري ،
 تركته وشركه » وفي رواية : « فأنا منه بريء ، هو الذي عمله » .

⁽٣) رواه أحمد والبغوي واسناده جيد (سلسلة الأحاديث الصحيحة ٩٥١ ، .

⁽٤) رواه البخاري ومسلم في حديث طويل ، أوله : « سبعة يظلهم الله في ظله ، يوم لا ظل إلا ظله » جاء فيه « ورجل تصدق بصدقة ، فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما أنفقت يمينه » .

وعن المسيح عليه السلام كان يقول: « إذا كان يوم صوم أحدكم فليدهن رأسه ولحيته ، ويمسح شفتيه لئلا يرى الناس أنه صائم ، وإذا أعطى بيمينه فليخف عن شماله ، وإذا صلى فليرخ ستربابه » .

ومن الأثار ما ورد أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلاً يطأطىء رقبته فقال: يا صاحب الرقبة، ارفع رقبتك، ليس الخشوع في الرقاب إنما الخشوع في القلوب. ورأى أبو أمامة الباهلي رجلاً في المسجد يبكي في سجوده فقال: أنت أنت لو كان هذا بيتك. وقال الضحاك: لا يقولن أحدكم هذا لوجه الله ولوجهك. ولا يقولن هذا الله وللرحم، فإن الله تعالى لا شريك له.

بيان حقيقة الرياء وجوامع ما يراءى له

إعلم أن الرياء مشتق من الرؤية ، وأصله طلب المنزلة في قلوب الناس بأرائهم خصال الخير ، والمراد به كثير ، ويجمعه خسة أقسام ، وهي مجامع ما يتزين به العبد للناس وهو : البدن ، والدزي ، والقول ، والعمل ، والأتباع ، والأشياء الخارجة . فأما الرياء في الدين بالبدن فكإظهار النحول والصغار ، ليوهم بذلك شدة الاجتهاد ، وعظم الحزن على أمر الدين ، غلبة خوف الأخرة ، وكتشعيث الشعب ليدل به على استغراق الهم بالدين وعدم التفرغ لتسريح الشعر ، ومثله خفض الصوت وإغارة العينين ، ليستديل بذلك على أنه مواظب على الصوم أو متوقر للدين .

وأما الرياء بالهيئة والزي ، فمثل تشعيث الشعر وإطراق الرأس في المشي والهدوء في الحركة وإبقاء أثر السجود على الوجه ، كل ذلك يراءى به ، ومنه التقنع فوق العمامة وإسبال الرداء على العينين . ومنه الطيلسان يلبسه من هو خال عن العلم ليوهم أنه من أهل العلم . والمراؤون بالزي على طبقات ، كل طبقة منهم يرى منزلته في زي مخصوص ، فيثقل عليه الانتقال إلى ما دونه وإلى ما فوقه ، وإن كان مباحاً بل هو عنده بمنزلة الذبح . وذلك

لخوفه أن يقول الناس قد بدا له من الزهد ورجع عن تلك الطريقة ورغب في الدنيا .

وأما الرياء بالقول ، فرياء أهل الدين بالوعظ والتذكير والنطق بالحكمة وحفظ الأخبار والآثار ، لإظهار شدة العناية بأحوال الصالحين ، وتحريك الشفتين بالذكر في محضر الناس ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمشهد الخلق ، وإظهار الغضب للمنكرات وإظهار الأسف على مقارفة الناس للمعاصي ، وتضعيف الصوت في الكلام ، والمبادرة إلى أن الحديث صحيح أو غير صحيح لإظهار الفضل فيه(١) ، والمجادلة على قصد إفحام الخصم .

وأما الرياء في العمل فكمراءاة المصلي بطول القيام وطول السجود والركوع وإطراق الرأس وترك الالتفات .

وأما المراءاة بالأصحاب والزائرين والمحافظين ، كالذي يتكلف أن يستزير عالماً من العلماء ، ليقال إن فلاناً قد زار فلاناً ، أو عابداً من العباد ، ليقال إن أهل الدين يتبركون بزيارته ويترددون عليه ، أو أميراً من الأمراء ، ليقال إنهم يتبركون به ، وكالذي يكثر ذكر الشيوخ وطواف البلاد ليتباهى عند خصمه ، فهذه مجامع ما يراثي به المراؤون ، وكلهم يطلبون بذلك الجاه والمنزلة في قلوب العباد ، لاعتقادهم أنه نوع قدرة وكمال في الحال ، وإن كان سريع الزوال ، ولا يغتر به إلا الجهال ، ولكن أكثر الناس جهال !

ومن المرائين من لا يقتنع بقيام منزلته ، بل يلتمس مع ذلك إطلاق اللسان بالثناء والحمد ، ومنهم من يريد انتشار الصيت ، ومنهم من يريد الاشتهار عند الأمراء ، لتقبل شفاعته فيقوم له جاه عند العامة ، ومنهم من يقصد التوصل بذلك إلى جمع حطام الدنيا وكسب المال ، ولو كان من الحرام ، وهؤلاء شر طبقات المرائين .

⁽١) كل هذا واجب إذا قصد به إظهار الحقيقة ، لا الرياء . وقد أعلمني بعضهم أن أحد الشيوخ الجريثين بدمشق سمع خطيباً يخطب يوم الجمعة ، مكثراً من الأحاديث الضعيفة والموضوعة ، فغضب لله ووبخه وأمره بترك ذلك .

حكم الرياء

اعلم أن الرياء إما أن يكون بالعبادات أو بغير العبادات _ فأما المراءاة عما ليس في العبادات، فقد تكون مباحة كتسوية العمامة والشعر وتحسين الثوب، لئلا تزدريه أعين الناس واحترازاً من ألم المذمة وطلباً لراحة الأنس بالإخوان، وقد تكون طاعة كها إذا كان متبوعاً، وعمله المذكور يرغب في اتباعه واستمالة القلوب إليه، وقد تكون مذمومة كها إذا حملت على ما لا يجوز، أودعت إلى أمور محظورات، وبالجملة فحكمها تابع للغرض المطلوب بها، وأما العبادات كالصدقة والصلاة والصيام والغزو والحج، فالمرائي فيها يبطل عبادته ويعصى ويأثم والمعنى فيه أمران:

(أحدهما) يتعلق بالعبادة، وهو التلبيس والمكر، لأنه خُيل إليهم أنه مخلص مطيع لله وأنه من أهل الدين وليس كذلك.

(الثاني) يتعلق بالله، وهو أنه مها قصد بعبادة الله تعالى خُلْق الله، فهو مستهزيء بالله، ومثاله أن يمثل بين يدي ملك من الملوك طول النهار كما جرت عادة الخدم، وإنما وقوفه لملاحظة جارية من جواريه أو غلام من غلمانه، فإن هذا استهزاء بالملك، إذ لم يقصد التقرب إليه بخدمته، بل قصد بذلك عبداً من عبيده، فأي استحقار يزيد على أن يقصد العبد بطاعة الله مراءاة عبد ضعيف لا يملك ضراً ولا نفعاً، وهل ذلك إلا لأنه يظن أن ذلك العبد أقدر على تحصيل أغراضه من الله، وأنه أولى إليه بالتقرب من الله، إذ آثره على ملك الملوك فجعله مقصود عبادته، وأي استهزاء يزيد على رفع العبد فوق المولى، فهذا من كبائر المهلكات، ولذا سماه رسول الله على الله، والشرك الأصغر»(١)

⁽١) رواه احمد في «المسند» والبغوي في «شرح السنة» بلفظ: «إن اخوف ما أخاف عليكم الشرك الاصغر، قالوا: وما الشرك الاصغر؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل لاصحاب ذلك يـوم القيامة إذا جازى الناس: اذهبوا الى الذين كنتم تـراؤون في الدنيا، فانـظروا هل تجدون عندهم جزاء؟!» وإسناده جيد كها جاء في سلسلة الاحاديث الصحيحة (٩٥١).

لكان فيه كفاية، فإنه وإن لم يقصد التقرب إلى الله، فقد قصد غير الله. فعن هذا كان شركا خفياً، وذلك غاية الجهل ولا يقدم عليه إلا من خدعه الشيطان، وأوهم عنده أن العباد يملكون من مصالح حاله أكثر مما يملكه الله تعالى، مع أن العباد كلهم عاجزون عن أنفسهم، لا يملكون لها ضراً ولا نفعاً، فكيف يملكون لغيرهم؟ هذا في الدنيا فكيف في يوم ﴿لا يَجْزِي وَالِدُ عَن وَالِدِهِ شَيْئاً ﴾ (لقمان: ٣٣) بل تقول الأنبياء فيه: نفسي نفسي؟ فكيف يستبدل الجاهل عن ثواب الآخرة ما يرتقبه بطمعه الكاذب في الدنيا من الناس، فلا ينبغي أن نشك في أن المرائي بطاعة الله في سخط الله تعالى.

درجات الرياء

اعلم أن أغلظ الرياء هو الرياء بأصل الإيمان، وصاحبه مخلد في النار، وهو الذي يظهر كلمتي الشهادة وباطنه مشحون بالتكذيب، وهذا هو النفاق المذكور في القرآن الكريم في مواضع شتى، وذلك مما يقل في زماننا ويلحق به من يجحد الجنة والنار والدار الأخرة، أو يعتقد طي بساط الشرع والأحكام ميلا إلى أهل الإباحة أو يعتقد كفراً وهو يظهر خلافه، فهؤلاء من المنافقين المرائين المخلدين في النار.

وقسم من الرياء دون الأول بكثير كمن يحضر الجمعة أو الصلاة، ولولا خوف المذمة لكان لا يحضرها، أو يصل رحمه أو يبر والديه، لا عن رغبة لكن خوفاً من الناس، أو يزكي أو يحج كذلك، فيكون خوفه من مذمة الناس أعظم من خوفه من عقاب الله، وهذا غاية الجهل وما أجدر صاحبه بالمقت.

وقسم يرائي بالنوافل يكسل عنها في الخلوة، ثم يبعثه الرياء على فعلها كحضور الجماعة(١)، وعيادة المريض، واتباع الجنازة، وصوم عرفة وعاشوراء

⁽۱) صلاة الجماعة: ليست نافلة، وقد صح أنه ﷺ لم يسمح حتى للأعمى الذي ليس له قائد، بتركها وقال له: وأجب الداعي، كما جماء في الحديث الصحيح. وهناك أحماديث عديمدة في التشديد على تاركي صلاة الجماعة مذكورة في كتب فقه السنة.

خوفاً من المذمة وطلباً للمحمدة، ويعلم الله تعالى أنه لـو خلا بنفسـه لما زاد على أداء الفرائض وهذا عظيم ولكن دون ما قبله.

وقسم يرائي بفعل ما في تركه نقصان العبادة، كالذي غرضه أن يخفف الركوع والسجود ولا يطول القراءة، فإذا رآه الناس أحسن الركوع والسجود وترك الالتفات وتم القعود بين السجدتين، وكذلك الذي يعتاد إخراج الزكاة من الدنانير الرديئة أو من الحب الرديء، فإذا اطلع عليه غيره أخرجها من الجيد خوفاً من مذمته، وكذلك الصائم يصون صومه عن الغيبة والرفث لأجل الخلق لا إكمالاً لعبادة الصوم خوفاً من المذمة. فهذا أيضاً من الرياء المحظور، لأن فيه تقديماً للمخلوقين على الخالق، فإن قال المرائي: إنما فعلت ذلك صيانة لألسنتهم عن الغيبة، فيُقال له: هذه مكيدة للشيطان عندك وتلبيس، وليس الأمر كذلك فإن ضررك من نقصان صلاتك وهي خدمة منك لمولاك أعظم من ضررك بغيبة غيرك، فلو كان باعثك الدين لكانت شفقتك على نفسك أكثر.

وقسم يرائي بفعل ما لا نقصان في تركه، ولكن فعله في حكم التكملة والتتمة لعبادته، كالتطويل في الركوع والسجود ومد القيام وتحسين الهيئة ورفع اليدين والمبادرة إلى التكبيرة الأولى وتحسين الاعتدال والزيادة في القراءة على الصورة المعتادة، وكذلك كثرة الخلوة في صوم رمضان وطول الصمت، ومما لو خلا بنفسه لكان لا يقدم عليه.

وقسم يرائي بزيادات خارجة عن النوافل نفسها أيضاً، كحضوره الجماعة قبل القوم وقصده للصف الأول وتوجهه إلى يمين الإمام، وما يجري مجراه، وكل ذلك مما يعلم الله منه أنه لو خلا بنفسه، لكان لا يبالي أين وقف ومتى يحرم بالصلاة، فهذه درجات الرياء بالإضافة إلى ما يرائي به، وبعضه أشد من بعض والكل مذموم.

بيان المرائي لأجله

اعلم أن للمرائي مقصوداً لا محالة، وإنما يراثي لإدراك مال أو جاه أو غرض من الأغراض، وله درجات: (أحداها) أن يكون مقصوده التمكن من معصية، كالذي يرائي بعبادته ويظهر التقوى والورع، وغرضه أن يُعرف بالأمانة، فيولى منصباً أو يسلم إليه تفرقة مال، ليستأثر بما قدر عليه منه، أو يودع الودائع فيأخذها، أو يتوصل إلى التحبب بامرأة لفجور ونحوه، أو يحضر مجالس العلم والتذكير، وقصده النظر لأمرد، هؤلاء أبغض المرائين إلى الله تعالى، لأنهم جعلوا طاعة ربهم سُلماً إلى معصيته، ويقرب منهم من يقترف جريمة وهو مصر عليها، فيظهر التقوى لينفي التهمة عن نفسه.

(ثانيها) أن يكون غرضه نيل حظ من حظوظ الدنيا من مال أو نكاح امرأة جميلة أو شريفة، كالذي يظهر العلم والعبادة ليرغب في تزويجه أو إعطائه، فهذا رياء محظور، لأنه طلب بطاعة الله متاع الحياة الدنيا ولكنه دون الأول.

(الشالثة) أن لا يقصد نيل حظ وإدراك مال أو نكاح، ولكن يظهر عبادته خوفاً من أن ينظر إليه بعين النقص، ولا يعد من الخاصة والزهاد، ويعتقد أنه من جملة العامة، كالذي يمشي مستعجلاً فيطلع عليه الناس فيحسن المشي، ويترك العجلة(١)، كيلا يقال إنه من أهل السهو، لا من أهل الوقار.

وكذلك من يسبق إلى الضحك أو يبدو منه المزاح، فيخاف أن ينظر إليه بعين الاحتقار، فيتبع ذلك بالاستغفار وتنفس الصعداء، وإظهار الحزن، ويقول: ما أعظم غفلة الآدمي عن نفسه، والله يعلم منه أنه لو كان في خلوة

⁽١) أخشى أن يكون الغزالي في هذا الكلام متأثراً بحديث: «سرعة المثني تذهب بهاء المؤمن» وهو حديث منكر جداً كها قال الذهبي. وقد صحت الاحاديث في ان السرسول ﷺ كان إذا مشى اسرع...

لما كان يثقـل عليه ذلـك، وإنما يخـاف أن ينظر إليـه بعين الاحتقـار لا بعـين التوقـر.

(وكالذي) يرى جماعة يصلون التراويح ويتهجدون أويصومون الخميس والاثنين أو يتصدقون، فيوافقهم خيفة أن ينسب إلى الكسل ويلحق بالعوام، ولو خلا بنفسه لكان لا يفعل شيئاً من ذلك.

(وكالذي) يعطش يوم عرفة أو عاشوراء فلا يشرب خوفاً من أن يعلم الناس أنه غير صائم، أو يدعي إلى الطعام فيمتنع، ليظن أنه صائم، وقد لا يصرح بأني صائم، ولكن يقول لي عذر، وهو جمع بين خبيثين، فإنه يرى أنه صائم ثم يرى أنه غلص، ليس بمراء، وأنه يحترز من أن يذكر عبادته للناس، فيكون مرائياً، فيريد أن يقال إنه ساتر لعبادته، ثم إن اضطر إلى شرب لم يصبر على أن يذكر لنفسه فيه عذراً تصريحاً أو تعريضاً بأن يتعلل بمرض، يقتضي فرط العطش، ويمنع من الصوم أو يقول أفطرت تطيباً لقلب فلان، لأنه محب للاخوان شديد الرغبة في أن يأكل الإنسان من طعامه، وقد ألح على اليوم ولم أجد بُداً من تطييب قلبه، ومثل أن يقول إن أبوي أو أحدهما يشفقان على يظنان أني لو صمت لمرضت، فلا يدعاني أصوم، فهذا أحدهما يشفقان على يظنان أني لو صمت لمرضت، فلا يدعاني أصوم، فهذا الرياء في الباطن.

(أما المخلص) فإنه لا يبالي كيف نظر الخلق إليه، فإن لم يكن له رغبة في الصوم، وقد علم الله ذلك منه، فلا يريد أن يعتقد غيره ما يخالف علم الله، فيكون مُلبساً، وإن كان له رغبة في الصوم لله، قنع بعلم الله تعالى، ولم يشرك فيه غيره، وقد يخطر له أن في إظهاره اقتداء غيره به، وتحريك رغبة الناس فيه، وفيه مكيدة وغرور. فهذه درجات الرياء ومراتب أصناف المرائين، وجميعهم تحت مقت الله وغضبه، وهو من أشد المهلكات.

بيان الرياء الخفى الذي هو أخفى من دبيب النمل

اعلم أن الرياء جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل، ويحمل عليه ولو قصد الثواب، وهو أجلاه، وأخفى منه قليلاً، وهو ما لا يحمل على العمل بمجرده، إلا أن يخف العمل الذي يريد به وجه الله، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة، ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه، وأخفى من ذلك ما لا يؤثر في العمل ولا بالتسهيل والتخفيف أيضاً، ولكنه مع ذلك مستبطن في القلب، وأجلى علاماته أن يُسر باطلاع الناس على طاعته، فرب عبد مخلص في عمله ولا يعتقد الرياء، بل يكرهه ويرده ويتمم العمل كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس، سره ذلك وارتاح له، وروع ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه الناس، فلقد كان الرياء مستكناً في القلب استكنان النار في الحجر، فأظهر يرشح السرور، ولولا التفات القلب إلى الناس، ما ظهر سروره عند اطلاع منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور؛ ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضياً خفياً أن يتكلف سبباً يطلع عليه بالتعريض، أو بالشمائل كخفض الصوت وآثار الدموع.

وأخفى من ذلك أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسر بظهور طاعته، ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه وأن ينشطوا في قضاء حوائجه وأن يسامحوه في البيع والشراء وأن يوسعوا له المكان، فإن قصر فيه مقصر ثقل ذلك على قلبه، ووجد لذلك استبعاداً في نفسه، كأنه يتقصى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها، ومها لم يكن وجود العادة كعدمها في كل ما يتعلق بالحلق، لم يكن خالياً عن شوب خفي من الرياء أخفي من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يجبط الأجر ولا يسلم منه إلا الصديقون.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي، يجتهدون في إخفائه أعظم

مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في يوم القيامة بإخلاصهم، إذ علموا أن لا يقبل في القيامة إلا الخالص، وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة، وأنه يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، ولا يجزي والدعن ولده.

فإذاً شوائب الرياء الخفي كثيرة لا تنحصر، ومها أدرك من نفسه تفرقة بين أن يطلع على عبادته إنسان، ففيه شعبة من الرياء، فلو كان مخلصاً لما بالى بالناس، لعلمه أنهم لا يقدرون له على رزق، ولا أجل، ولا زيادة ثواب ولا نقصان عقاب، فإن قلت فها نرى أحداً ينفك عن السرور إذا عرفت طاعاته، فالسرور مذموم كله، أو بعضه محمود وبعضه مذموم، فنقول: السرور منقسم إلى محمود ومذموم، فالمحمود مثل أن يكون قصده إخفاء الطاعة والإخلاص لله، ولكن لما اطلع عليه الخلق علم أن الله أطلعهم وأظهر الجميل من أحواله فيستدل به على حسن صنع الله به والطافه به إذ لا لطف أعظم من أستر القبيح وإظهار الجميل، فيكون فرحه بجميل نظر الله له لا بحمد الناس، وقيام المنزلة في قلوبهم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ آللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ ﴾ (يونس: ٥٨).

ومثل أن يظن رغبة المطلعين على الاقتداء به في الطاعة فيتضاعف بذلك أجره، فيكون له أجر العلانية بما أظهر وأجر السر بما قصده أولا، ومن اقتدى به في طاعة، فله مثل أجر أعمال المقتدين به من غير أن ينقص من أجورهم شيء، وتوقع ذلك جدير بأن يكون سبب السرور.

ومثل أن يحمده المطلعون على طاعته، فيفرح بطاعاتهم لله في مدحهم وبحبهم للمطيع وبحيل قلوبهم إلى الطاعة، فهذا فرح بحسن إيمان عباد الله، وعلامة الإخلاص في هذا الورع أن يكون فرحه بحمدهم غيره مثل فرحه بحمدهم إياه. وأما السرور المذموم فهو أن يكون فرحه لقيام منزلته في قلوب الناس حتى يمدحوه ويعظموه ويقوموا بقضاء حوائجه ويقابلوه بالإكرام فهذا مكروه.

بيان ما يحبط العمل من الرياء وما لا يحبط

إذا عقد العبد العبادة على الإخلاص، ثم ورد عليه وارد الرياء فلا يخلو إما أن يرد عليه بعد فراغه من العمل أو قبل الفراغ ، فإن ورد بعد الفراغ سرور مجرد بالظهور من غير إظهار، فهذا لا يفسد العمل إذ العمل قد تم على نعت الإخلاص، سالماً عن الرياء، إلا إذا ظهرت له بعده رغبة في الإظهار، فتحدّث به وأظهره، فهذا مخوّف، وفي الآثار والأخبار ما يدل على أنه محبط، وأما إذا ورد وارد الرياء قبل الفراغ من العمل، وكان عقد على الإخلاص، فإن كان مجرد سرور، فلا يؤثر في العمل، وإن كان رياء باعثاً على العمل وختم العبادة به، حبط أجره، لأن الواجب عليه أداء عمل خالص لوجه الله، والخالص ما لا يشوبه شيء، فلا يكون مؤدياً للواجب مع هذا الشوّب، وأما الرياء الذي يقارن حال العقد كأن يبتديء الصلاة على قصد الرياء، فإن استقر عليه حتى سلم فلا خلاف في أنه يقضي ولا يعتد بصلاته، وإن ندم عليه في أثناء ذلك واستغفر ورجع قبل التمام، فالأرجح بالعقد دون امتثال الأمر فلم ينعقد افتتاحه، فلم يصح ما بعده.

بيان دواء الرياء وطريق معالجة القلب فيه

عرفت مما سبق أن الرياء محبط الأعمال، ومسبب للمقت عند الله تعالى، وأنه من كبائر المهلكات، وما هذا وصفه، فجدير بالتشمير عن ساق الجد في إزالته.

وفي علاجه مقامان: (أحدهما) قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه. (والثاني) دفع ما نخطر منه في الحال.

المقام الأول في قلع عروقه وأصوله

وأصله حب المنزلة والجاه. وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي:

حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيها في أيدي الناس. فهذه الثلاثة هي التي تحرك المراثي إلى الرياء، وعلاجه أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق، وفي الأخرة من المنزلة عند الله تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر، فمها تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال، فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ، ولكن إذا بان له أن فيه سماً أعرض عنه.

ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم، ولا ينيده حمدهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة، وأما الطمع فيها في أيديهم، فبأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الحلق مضطرون إليه ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الحلق لم يخل من الذل والحيبة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فسد، وقد يصيب وقد يخطيء، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته، وأما ذمهم فلم يحذر منه؟ ولا يزيده من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محموداً عند الله. فالعباد كلهم عجزة، لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً؛ فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته وأقبل على قلبه، والعاقل لا يرغب فيها يكثر ضرره ويقل نفعه، فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس يرغب فيها يكثر ضرره ويقل نفعه، فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس دونها، كها تغلق الأبواب دون الفواحش، فلا تنازعه نفسه إلى طلب غير الله دونها، كها تغلق الأبواب دون الفواحش، فلا تنازعه نفسه إلى طلب غير الله ميادا.

المقام الثاني في دفع العارض منه أثناء العبادة

وذلك لا بد أيضاً من تعلمه، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء وقطع الطمع واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة، بل يعارضه بخظرات الرياء، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق، دفع ذلك بأن قال لنفسه: مالك وللخلق، علموا أو لم يعلموا، والله عالم بحالك، فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد، ذكر ما رسخ في قلبه من قبل آفة الرياء، وتعرضه للمقت الإلهي وخسرانه الأخروي.

بيان الرخصة في قصد إظهار الطاعات

اعلم أن في إسرار الأعمال فائدة الإخلاص، والنجاة من الرياء، وفي الإظهار فائدة الاقتداء وتسرغيب الناس في الخير، ولكن فيه آفة الرياء. قال الحسن: إن السر أحرز العملين، ولكن في الإظهار أيضاً فائدة، ولذلك أثنى الله تعالى على السر والعلانية. فقال: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُنْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ (البقرة: ٢٧١) والإظهار قسمان:

(أحدهما) في العمل نفسه. (والآخر) بالتحدث بما عمل.

(القسم الأول) إظهار العمل نفسه كالصدقة في الملأ لترغيب الناس فيها، كما ورد عن الأنصاري الذي جاء بالصرة فتتابع الناس بالعطية لما رأوه، فقال النبي على: (من سن سُنة فعمل بها كان له أجرها وأجر من اتبعه»(١) وتجري سائر الأعمال هذا المجرى من الصلاة والصيام والحج والغزو وغيره. ولكن الاقتداء في الصدقة على الطباع أغلب، فالسر أفضل من علانية، لا

[«]الاحياء» بغير هذا اللفظ.

⁽۱) ولفظ الحديث كما رواه مسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء... الحديث. ويراجع في أسباب وروده كتاب «رياض الصالحين» وقد فهم منه الكثيرون غير المراد. كالقول بالبدعة الحسنة، وهو غير صحيح.

قدوة فيها، أما العلانية للقدوة فأفضل من السر، ويدل على ذلك أن الله عز وجل أمر الأنبياء بإظهار العمل للاقتداء. وقوله عليه السلام: «له أجرها وأجر من عمل بها» ولكن على من يظهر العمل وظيفتان.

(إحداهما) أن يظهره حيث يعلم أن يقتدي به أو يظن ظناً، ورب رجل يقتدي به أهله دون جيرانه. وربما يقتدي به جيرانه دون أهل السوق. وربما يقتدي به أهل محلته. وإنما العالم المعروف هو الذي يقتدي به الناس كافة. فغير العالم إذا أظهر بعض الطاعات ربما نُسب إلى الرياء والنفاق وذموه ولم يقتدوا به، فليس له الإظهار من غير فائدة، و إنما يصح الإظهار بنية القدوة ممن هو في محل الاقتداء به.

(الشانية) أن يراقب قلبه، فإنه ربما يكون فيه حب الرياء الخفي، فيدعوه إلى الإظهار بعذر الاقتداء. وإنما شهوته التجمل بالعمل وبكونه مقتدى به. فليحذر العبد خدع النفس. فإن النفس خدوع! والشيطان مترصد، وحب الجاه على القلب غالب، وقلما تسلم الأعمال الظاهرة عن الأفات، فلا ينبغي أن يعدل بالسلامة شيئاً. والسلامة في الإخفاء. وفي الإظهار من الأخطار ما لا يقوى عليه أمثالنا. فالحذر من الاظهار أولى بنا وبجميع الضعفاء.

(القسم الثاني) أن يتحدث بما فعله بعد الفراغ، وحكمه حكم إظهار العمل نفسه، والخطر في هذا أشد لأن مؤنة النطق خفيفة على اللسان، وقد تجري في الحكاية زيادة ومبالغة، وللنفس لذة في إظهار الدعاوي عظيمة، إلا أنه لو تطرق إليه الرياء لم يؤثر في إفساد العبادة الماضية بعد الفراغ منها، فهو من هذا الوجه أهون، والحكم فيه أن من قوي قلبه، وتم إخلاصه، وصغر الناس في عينه، واستوى عنده مدحهم وذمهم، وذكر ذلك عند من يرجو الاقتداء به، والرغبة في الخير بسببه، فهو جائز بل مندوب إليه، إن صفت النية وسلمت عن جميع الآفات، لأنه ترغيب في الخير، والترغيب في الخير خبر، وقد نُقل مثل ذلك عن جماعة من السلف الأقوياء.

بيان الخطأ في ترك الطاعات خوفاً من الرياء

من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط وموافقة للشيطان وجر إلى البطالة وترك للخير؛ فيها دمت تجد باعثاً دينياً على العمل، فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء، فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه، وخوفك منه وحياتك من الله تعالى، وإن لم يبق باعث ديني بل تجرد باعث الرياء، فاترك العمل عند ذلك.

بيان ما على المريد قبل العمل وبعده فيه

اعلم أن أولى ما يزلم المريد قلبه في سائر أوقاته القناعة بعلم الله في جميع طاعاته، ولا يقنع بعلم الله إلا من لا يخاف إلا الله، ولا يسرجو إلا الله، فأما من خاف عيره وارتجاه، واشتهى إطلاعه على محاسن أحواله، فإن كان في هذه الرتبة، فليلزم قلبه كراهة ذلك من جهة العقل والإيمان، لما فيه من خطر التعرض للمقت وإحباط العمل، وليراقب نفسه عند الطاعات العظيمة الشاقة، فإن النفس تكاد تغلي حرصاً على الإفشاء، فينبغي أن يثبت قدمه ويتذكر في مقابلة عظم عمله، ملك الأخرة ونعيم الجنة أبد الآباد، وعظم غضب الله على من طلب بطاعته ثواباً من عباده. ثم يلزم قلبه ذلك بعد الفراغ حتى لا يظهره ولا يتحدث به. وإذا فعل جميع ذلك، فينبغي أن يكون وجلاً من عمله، خائفاً أنه ربما داخله من الرياء الخفي، ما لم يقف عليه. فيكون شاكا في قبوله ورده، مجوزاً أن يكون الله قد أحصى عليه من عمله وبعده، وأما الابتداء فيكون متيقناً أنه مخلص ما يريد بعمله إلا نيته حمله وبعده، وأما الابتداء فيكون متيقناً أنه مخلص ما يريد بعمله إلا

إن كان قد سبق وهو غافل عنه.

والذي يتقرب إلى الله بالسعي في حوائج الناس وإفادة العلم، ينبغي أن يُلزم نفسه رجاء الثواب على دخول السرور على قلب من قضى حاجته فقط ورجاء الثواب على عمل المتعلم بعلمه فقط، دون شكر ومكافأة وحمد وثناء من المتعلم والمنعم عليه، فإن ذلك يجبط الأجر. فمها توقع من المتعلم مساعدة في شغل وخدمة أو مرافقة في المشي في الطريق ليستكثر باستتباعه، أو تردداً منه في حاجة فقد أخذ أجره فلا ثواب له غيره. نعم إن لم يتوقع هو ولم يقصد إلا الثواب على عمله بعلمه، ليكون له مثل أجره، ولكن خدمه التلميذ بنفسه فقبل خدمته فنرجو أن لا يحبط ذلك أجره إذا كان لا يريده ولا يستبعده منه لو قطعه، ومع هذا فقد كان العلماء يخذرون هذا، حتى أن يعضهم، وقع في بئر، فجاء قوم فأدلوا حبلاً ليرفعوه، فحلف عليهم أن لا يقف فيهم من قرأ عليه آية من القرآن أو سمع منه حديثاً خشية أن يجبط أجره، ويجب على المتعلم أن يلزم قلبه حمد الله ويتعلم لله ويعبد الله ويخدم المعلم لله، لا ليكون له في قلبه منزلة ولا في قلب الخلق، فإن العباد ما أمروا المعام يعبد الله ولا يوبدوا بطاعتهم غيره.

وقال شقيق البلخي: أهديت لسفيان الثوري ثوباً، فرده على، فقلت: يا عبد الله، لست أنا عمن يسمع الحديث منك حتى ترده على! قال علمت ذاك، ولكن أخاك يسمع مني الحديث، فأنا أخاف أن يلين قلبي لأخيك، أكثر مما يلين لغيره.

قال ابراهيم بن أدهم: تعلمت المعرفة من راهب يقال له سمعان، دخلت عليه في صومعته، فقلت: يا سمعان! منذ كم أنت في صومعتك؟ قال: منذ سبعين سنة. قلت: فما طعامك؟ قال: يا حنيفي، وما دعاك إلى هذا؟ قلت: أحببت أن أعلم. قال: في كل ليلة حمصة(١). قلت: فما الذي

⁽١) لعله حمصات.

يهيج من قلبك حتى تكفيك هذه الحمصة. قال: ترى الدير الذي بحذائك؟ قلت: نعم. قال: إنهم يأتونني في كل سنة يوماً واحداً، فيزينون صومعتي، ويطوفون حولها، ويعظمونني. فكلها تثاقلت نفسي عن العبادة، ذكرتها عز تلك الساعة، فأنا أحتمل جهد سنة لعز ساعة. فاحتمل يا حنيفي جهد ساعة لعز الأبد، فوقر في قلبى المعرفة.

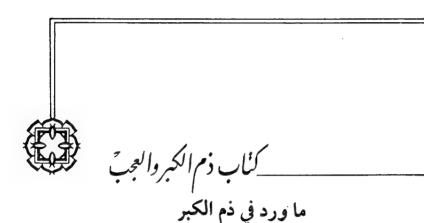
ثم قال الراهب: حسبك أو أزيدك؟ فقلت: بلى. قال: انول عن الصومعة فنزلت، فأدلي لي ركوة فيها عشرون حمصة. فقال لي: ادخل الدير، فقد رأوا ما أدليت إليك. فلها دخلت الدير، اجتمع علي النصارى، فقالوا: يا حنيفي، ما الذي أدلى إليك الشيخ؟ قلت: من قوته. قالوا: فها تصنع به، ونحن أحق به. ثم قالوا: ساوم قلت عشرين ديناراً. فأعطوني عشرين ديناراً، فرجعت إلى الراهب: فقال يا حنيفي! ما الذي صنعت؟ قلت: بعته منهم قال: بكم؟ قلت: بعشرين ديناراً. قال: أخطأت. لوساومتهم بعشرين ألف دينار، لأعطوك. هذا عز من لا تعبده، فكيف يكون عز من تعبده يا حنيفي. أقبل على ربك...

وأما المعتزل عن الناس فينبغي له أن يلزم قلبه ذكر الله والقناعة بعلمه، ولا يخطر بقلبه معرفة الناس زهده واستعظامهم محله، فإن ذلك يغرس الرياء في صدره. حتى تتيسر عليه العبادات في خلوته به، وإنما سكونه لمعرفة الناس باعتزاله واستعظامهم لمحله وهو لا يدري أنه المخفف للعمل عليه.

والمقصود أن استشعار النفس عز العظمة في القلوب، يكون باعثاً في الخلوة. فينبغي أن يلزم نفسه الحذر منه. وعلامة سلامته أن يكون الخلق عنده والبهائم بمثابة واحدة فلو تغيروا عن اعتقادهم به لم يجزع ولم يضق به ذرعاً، إلا كراهة ضعيفة إن وجدها في قلبه فيردها في الحال بعقله وإيمانه، ولو كان في عبادة واطلع الناس كلهم عليه لم يزده ذلك خشوعاً ولم يدخله سرور بسبب اطلاعهم عليه، ومن علامة الصدق فيه أنه لو كان له صاحبان أحدهما

غني والآخر فقير فلا يجد من إقبال الغني زيادة هـزة في نفسه لإكـرامه إلا إذا كان في الغني زيادة علم، أو زيادة ورع، فيكون مُكرّماً لـه بذلـك الوصف لا بالغنى. فمن كان استرواحه الى مشاهدة الأغنياء أكثر فهو مراء أو طمّاع.

ومكايد النفس وخفاياها في هذا الفن لا تنحصر، ولا ينجيك منها إلا أن تخرج ما سوى الله من قلبك، وتتجرد بالشفقة على نفسك بقية عمرك ولا ترضي لها بالنار بسبب شهوات منغصة في أيام متقاربة.



قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَنِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْخَوِيَ وَالْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْخَوِيَ (الأعراف: ١٤٦) وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتُحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ (غافر: ٣٥) وقال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْتُحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ (أبراهيم: ١٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ ٱللسَّتَكْبِرِينَ ﴾ (النحل: ٣٢) وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّيْنَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ (غافر: ٢٠).

وقال ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردك من كبر» (١) وقال عليه السلام: «يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منها ألقيته في جهنم ولا أبالي» (٢) وقال ﷺ: «لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بطراً» (٣) وجاء في فضل التواضع قوله ﷺ: «ما زاد الله عبداً يعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعة الله» (٤) (الأثار) وقال الفضيل ـ وقد سئل عن التواضع ـ أن تخضع للحق وتنقاد له، ولو سمعته من جهال الناس قبلته.

- (١) رواه البخاري.
- (٢) رواه مسلم بنحوه.
- (٣) رواه البخاري ومسلم.
 - (٤) رواه مسلم.

وقال أبو بكر رضي اللَّه عنه: لا يحقرن أحد أحداً من المسلمين، فإن حق المسلمين عند اللَّه كبير، وقال وهب: لما خلق اللَّه جنة عدن نظر إليها، فقال: أنت حرام على كل متكبر. وكان الأحنف بن قيس يجلس مع مصعب ابن الزبير على سريره، فجاء يوماً، ومصعب ماد رجليه فلم يقبضها، فقعد الأحنف، فزهمه بعض الزهمة، فرأى أثر ذلك في وجهه، فقال: عجباً لابن آدم يتكبر، وقد خرج من مجرى البولين مرتين. وقال الحسن: العجب من ابن آدم يغسل الخرء بيده كل يوم مرة أو مرتين، ثم يعارض جبار السموات. وقال محمد بن الحسين: ما دخل امرأ شيء من الكبر قط، إلا نقص من عقله بقدر ما دخل من ذلك قل أو كثر. وسئل سليمان عن السيئة التي لا تنفع معها حسنة، فقال: الكبر(۱). نسأل اللَّه تعالى العفو والعافية في الدنيا والأخرة بمنه وكرمه.

بيان حقيقة الكبر وآفته

اعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خُلق في النفس والظاهر، وهو أعمال تصدر من الجوارح، وتلك الأعمال أكثر من أن تحصى، وآفته عظيمة وغائلته هائلة، وكيف لا تعظم آفته. وقد قال على الله الله المناه الجنة من في قلبه مثقال ذرة من كبر (٢) وإنما صار حجاباً دون الجنة، لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين كلها وتلك الأخلاق هي أبواب الجنة، والكبر وعزة النفس يغلقان تلك الأبواب كلها، لأن المتكبر لا يقدر على أن

(١) وما أحسن ما قاله الشاعر:

لمو فكسر الناس فسيما في بطونهم هل في ابن آدم مثل السرأس مكسرمة أنف يسيل، وأذن ريحها سهك يا ابن التراب، ومأكول التراب غداً

وهو بخمس من الاقدار مضروب والعين مرفضة والشغر ملعوب أقصر! فإنك مأكول ومشروب

ما استشعر الكبر شبان ولا شيب

سهك: كريه. مرفضة: سائلة. ملعوب: ذو لعاب.

(٢) رواه البخاري.

يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه، ولا يقدر على التواضع، وهو رأس أخلاق المتقين، ولا يقدر على ترك الحقد، ولا يقدر أن يدوم على الصدق، ولا يقدر على ترك الخضب، ولا يقدر على كظم الغيظ، ولا يقدر على ترك الحسد، ولا يقدر على النصح اللطيف، ولا يقدر على قبول النصح، ولا يسلم من الإزراء بالناس ومن اغتيابهم، وبالجملة فيا من خُلق ذميم إلا وصاحب العز والكبر مضطر إليه ليحفظ به عزه. وما من خُلق محمود إلا وهو عاجز عنه، خوفاً من أن يفوته عزه. فمن هذا لم يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة منه! وشر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم، وقبول الحق، والانقياد له. وفيه وردت الآيات التي فيها ذم الكبر والمتكبرين.

ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره، ولذلك شرح رسول الله الكبر بهاتين الآفتين بقوله: «الكبر بطر الحق وغمط الخلق»(۱) أي ازدراؤهم واستحقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه. وهذه الآفة الأولى، وبطر الحق هو رده وهي الآفة الثانية، فكل من رأى أنه خير من أخيه، واحتقر أخاه وازدراه ونظر إليه بعين الاستصغار، أو رد الحق وهو يعرفه، فقد تكبر ونازع الله حقه.

ووجه الآفة الأولى أن الكبر والعز والعظمة لا يليق إلا بالملك القادر، فأما العبد المملوك الضعيف العاجز الذي لا يقدر على شيء، فمن أين يليق بحاله الكبر واستعظام النفس واستحقار الغير؟ فمهما تكبر العبد فقد نازع الله تعالى في صفة لا تليق إلا بجلاله، ومثاله أن يأخذ الغلام تاج الملك فيضعه على رأسه ويجلس على سريره، فها أعظم استحقاقه للمقت، وما أعظم استهدافه للخزي والنكال، وما أشد استجراءه على مولاه، وما أقبح ما تعاطاه! فالخلق كلهم عباد الله، وله العظمة والكبرياء عليهم، فمن تكبر على

⁽١) رواه مسلم بلفظ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر، فقال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً. قال: «ان الله تعالى جميل يحب الجمال، الكبر بطر الحق، وغمط الناس، ومعنى غمط الناس؛ الازدراء بهم واحتقارهم.

عبد من عباد اللَّه، فقد نازع اللَّه في حقه.

ووجه الآفة الثانية: أن من سمع الحق من عبد من عباد الله واستنكف عن قبوله وتشمر لجحده، فها ذاك إلا للترفع والتعاظم واستحقار غيره، حتى يأبى أن ينقاد له، وذلك من أخلاق الكافرين والمنافقين، إذ وصفهم الله تعالى فقال: ﴿ وَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ فِلَذَا القُرْآنِ وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ فقال: ﴿ وَقَالَ آلَّذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَسْمَعُواْ فِلَذَا القُرْآنِ وَالغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَيْهُ وَلَا كَاللَّهُ مَا يَتضح له الحق على لسان أحد، ويأنف من قبوله أو يناظر للغلبة والإفحام، لا ليغتنم الحق إذا ظفر به، فقد شاركهم في هذا الخُلق، وكذلك من تحمله الأنفة على عدم قبول الوعظ، كما قال في هذا الخُلق، وكذلك من تحمله الأنفة على عدم قبول الوعظ، كما قال تعلى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ آتَقِ آللَّهَ أَخَذَتُهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ ﴾ (البقرة: تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ آتَقِ آللَّهَ أَخَذَتُهُ ٱلْعِزَّةُ بِآلْإِثْم فَحَسْبُهُ جَهَنَّم ﴾ (البقرة: ٢٠٣).

بيان ما به التكبر

اعلم أنه لا يتكبر إلا من استعظم نفسه، ولا يستعظمها إلا وهو يعتقد لها صفة من صفات الكمال، وجماع ذلك إلى كمال ديني أو دنيوي، فالديني هو العلم والعمل، والدنيوي هو النسب والجمال والقوة والمال وكثرة الأنصار، فهذه سبعة أسباب:

(الأول العلم) وما أسرع الكبر إلى بعض العلماء! فلا يلبث أن يستشعر في نفسه كمال العلم، فيستعظم نفسه ويستحقر الناس، ويستجهلهم، ويستخدم من خالطه منهم، وقد يرى نفسه عند الله تعالى أعلى وأفضل منهم، فيخاف عليهم أكثر مما يخاف على نفسه، ويرجو لنفسه أكثر مما يرجو لمم، وسبب كبره بالعلم أمران:

(أحدهما) أن يكون اشتغاله بما يسمى علماً، وليس علماً في الحقيقة، فإن العلم الحقيقي ما يعرف به العبد ربه ونفسه، وخطر أمره في لقاء اللَّه والحجاب منه، وهذا يورث الخشية والتواضع دون الكبر! قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَغْشَى آللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَا وَأَلُهُ (فاطر: ٢٧).

(ثانيها) أن يخوض في العلم وهو خبيث الدخيلة رديء النفس سيء الأخلاق، فإنه لم يشتغل أولاً بتهذيب نفسه وتزكية قلبه بأنواع المجاهدات، فبقي خبيث الجوهر، فإذا خاض في العلم صادف العلم من قلبه منزلاً خبيثاً، فلم يطب ثمره ولم يظهر في الخير أثره، وقد ضرب وهب لهذا مثلاً، فقال: العلم كالغيث ينزل من السهاء حلواً صافياً، فتشربه الأشجار بعروقها فتحوله على قدر طعومها، فيزداد المر مرارة والحلو حلاوة. فكذلك العلم تحفظه الرجال فتحوله على قدر هممها وأهوائها، فيزيد المتكبر كبراً والمتواضع تواضعاً، وهذا لأن من كانت همته الكبر وهو جاهل، فإذا حفظ العلم وجد ما يتكبر به فازداد كبراً، وإذا كان الرجل خائفاً مع علمه، فازداد علماً، علم أن الحجة قد تأكدت عليه فيزداد خوفاً.

(الثاني العمل والعبادة) وليس يخلو عن رذيلة الكبر، واستمالة قلوب الناس، كحال العباد فترشح منهم الكبر في الدين والدنيا، أما في الدنيا، فهو أنهم يوقعون ذكرهم بالورع والتقوى، وتقويمهم على سائر الناس، وكأنهم يرون عبادتهم منة على الخلق. وأما في الدين فهو أن يرى الناس هالكين ويرى نفسه ناجياً، وهو الهالك تحقيقاً مها رأى ذلك، قال على: «إذا سمعتم الرجل يقول هلك الناس فهو أهلكهم»(۱) وإنما قال ذلك لأن هذا القول منه يدل على أنه مزدر بخلق الله، مغتر بالله، آمن من مكره، غير خائف من سطوته، وكيف لا يخاف؟ ويكفيه شراً، احتقاره لغيره. قال على: «كفى بالمرء شراً أن يحقر أحاه المسلم»(۱) وكثير من العباد إذا استخف به مستخف أو آذاه مؤذ، استبعد أن يغفر الله له، ولا يشك في أنه صار محقوتاً عند الله، وذلك لعظم قدر نفسه عنده وهو جهل، وجمع بين الكبر والعجب والاغترار بالله، وقد ينتهي الحُمق والغباوة ببعضهم، إلى أن يتحدى ويقول سترون ما يجري

رواه مالك واحمد ومسلم.

 ⁽۲) رواه مسلم (۱۲۱/۱٦ من شرح النووي عليه) بلفظ «بحسب امريء من الشر أن يحقر أخاه
 المسلم»، وهو جزء من حديث طويل.

عليه، وإذا أصيب بنكبة زعم أن ذلك من كراماته، وأن الله ما أراد إلا الانتقام له، مع أنه يرى طبقات من الكفار يسبون الله ورسوله، وعُرف جماعة آذوا الأنبياء صلوات الله عليهم، فمنهم من قتلهم، ومنهم من ضربهم، ثم إن الله أمهل أكثرهم ولم يعاقبهم في الدنيا، بل ربما أسلم بعضهم، فلم يُصبه مكروه في الدنيا ولا في الآخرة، أفيظن هذا الجاهل المغرور أنه أكرم على الله من أنبيائه؟! وأنه قد انتقم له بما لم ينتقم لأنبيائه به؟! ولعله في مقت الله بإعجابه وكبره، وهو غافل؟ هلاك نفسه.

فهذه عقيدة المغترين. وأما الأكياس من العباد، فيقولون ما كان يقوله بعض السلف بعد انصرافه من عرفات: «كنت أرجو الرحمة لجميعهم لولا كوني فيهم» فانظر إلى الفرق بين الرجلين، هذا يتقي الله ظاهراً وباطناً، وهو وجل على نفسه مزدر لعمله، وذاك يضمر من الرياء والكبر والغِل ما هو ضحكة للشيطان به! ثم إنه يمتن على الله بعمله، ومن آثار الكبر في العابد أن يعبس وجهه كأنه متنزه عن الناس مستقذر لهم، وليس يعلم المسكين أن الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الرقبة حتى تُطأطاً، ولا في الذيل الورع ليس في الجبهة حتى تقطب، ولا في الرقبة حتى تُطأطاً، ولا في الذيل وأشار إلى صدره(١)، فقد كان على أكرم الخلق وأتقاهم، وكان أوسعهم خُلقاً وأكثرهم بشراً وتبسيا وانبساطاً (٢) كما قبال تعالى: ﴿وَآخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ

(الثالث) الكبر بالحسب والنسب: فالذي له نسب شريف يستحقر من ليس لمه ذلك النسب، وإن كان أرفع منه عملاً وعلماً. وقد يتكبر بعضهم فيأنف من مخالطة الناس ومجالستهم، وقد يجري على لسانه التفاخر به، فيقول لغيره: من أنت ومن أبوك؟ فأنا فلان بن فلان، ومع مثلي تتكلم، وقد جاء أن أبا ذر رضى الله عنه قال: قاولت رجلاً عند النبي على معيرته بأمه.

⁽١) رواه مسلم وهو جزء من الحديث السابق.

⁽٢) وقد صح ذلك من سيرته ﷺ راجع ذلك في القسم الاخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

فغضب ﷺ. وقال: «يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية! هم إخوانكم»(١).

(الرابع) التفاخر بالجمال: وذلك أكثر ما يجري بين الناس، ويـدعو ذلك إلى التنقص والثلب والغيبة وذكر عيوب الناس.

(الخامس) الكبر بالمال: وذلك يجري بين الأمراء والتجار في لباسهم وخيولهم ومراكبهم، فيستحقر الغني الفقير ويتكبر عليه، وكل ذلك جهل منه بفضيلة الفقر وآفة الغني.

(السادس) الكبر بالقوة وشدة البطش والكبر به على أهل الضعف.

(السابع) التكبر بالأتباع والأنصار والعشيرة والأقارب، فهـذه مجامـع ما يتكبر به بعضهم على بعض، نسأله تعالى العون بلطفه ورحمته.

بيان أخلاق المتواضعين ومجامع ما يظهر فيه أثر التواضع والتكبر

اعلم أن الكبر في شمائل الرجل كصعر في وجهه، ونظره شزراً، وفي أقواله حتى في صوته ونغمته وصيغته في الإيراد، ويظهر في مشيته وتبختره وقيامه وجلوسه وحركاته وسكناته، فمن المتكبرين من يجمع ذلك كله، ومنهم من يتكبر في بعض ويتواضع في بعض. فمنها التكبر بأن يجب قيام الناس له أو بين يديه، ومنها أن لا يمشي إلا ومعه غيره يمشي خلف، ومنها أن لا يزور غيره، وإن كان يحصل من زيارته خير لغيره في الدين وهو ضد التواضع، ومنها أن يستنكف من جلوس غيره بالقرب منه إلا أن يجلس بين يديه والتواضع خلافه. والتواضع خلافه. وعمر بن عبد العزيز أتاه ليلة ضيف، وكان يكتب، فكاد السراج يُطفأ فقال الضيف: أقوم إلى المصباح فأصلحه؟ فقال: ليس من كرم الرجل أن

⁽١) رواه البخاري ومسلم، وهذا اللفظ مختصر عن رواية مسلم.

يستخدم ضيفه! قال: أفأنبه الغلام؟ فقال: هي أول نومة نامها، فقام وملأ المصباح زيتاً، فقال الضيف: قمت أنت بنفسك يا أمير المؤمنين؟ فقال ذهبت وأنا عمر، ورجعت وأنا عمر، ما نقص مني شيء، وخير الناس من كان عند الله متواضعاً.

ومنها أن لا يأخذ متاعه ويحمله إلى بيته وهو خلاف عادة المتواضعين، وكان رسول الله على يفعل ذلك، وقال على: لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله، ومنها اللباس إذ يظهر به التكبر(۱) والتواضع، وعلامة المتكبر فيه حرضه على التزين للناس للشهرة والمخيلة، وأما طلب التجمل لذاته في غير سرف ولا نحيلة، فليس من الكبر، والمحبوب الوسط من اللباس الذي لا يوجب شهرة بالجودة ولا بالرداءة، وقد قال على: «إن وكلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرف ولا نحيلة الا وقال الله يجب أن يرى أثر نعمته على عبده (٣). ومنها أن لا يتواضع بالاحتمال إذا سبب واوذي وأخذ حقه، فذلك هو الأصل.

وبالجملة فمجامع حسن الأخلاق والتواضع سيرة النبي على فينبغي أن يُقتدى به، ومنه ينبغي أن يتعلم، وقد قال ابن أبي سلمة قلت لأبي سعيد الخدري: ما ترى فيها أحدث الناس من الملبس والمشرب والمركب والمطعم فقال: يا ابن أخي كُل لله، واشرب لله، والبس لله، وكل شيء من ذلك دخله زهو أو مباهاة أو رياء أو سمعة، فهو معصية وسرف، وعالج في بيتك

فلا تمش يسوماً في شيباب خميلة ولله نعساء علينا عظيمة وما الدهر يوماً واحداً في اختلافه ازور قبسور المترفين فلا ادى

⁽١) وما أحسن ما قاله الشاعر:

فإنك من طين خلقت وماء ولله إحسان وفضل عطاء وما كل أيام الفتى بسواء بهاء، وكانوا قبل أهل بهاء

 ⁽٢) رواه أحمد، والنسائي، وابن ماجه بلفظ: «كلوا واشربوا وتصدقوا، والبسوا ما لم يخالط
إسراف ولا نخيلة واسناده حسن.

⁽٣) رواه الترمذي والحاكم وسنده حسن. (مج).

من الخدمة ما كان يعالج رسول اللّه على في بيته، كان يحلب الشاة ويخصف النعل ويرقع الثوب، ويأكل مع خادمه ويشتري الشيء من السوق، ولا يمنعه الحياء أن يلعق الإناء بيده، ويصافح الغني والفقير، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير، يجيب إذا دُعي، ولا يحقر ما دُعي إليه، لين الخُلق، جميل المعاشرة. طليق الوجه، شديداً في غير عنف؛ متواضعاً في غير مذلة، جواداً من غير سرف؛ رقيق القلب، زادت عائشة رضي الله عنها(١٠) وأنه على لم يمتليء قط شبعاً، ولم يبث إلى أحد شكوى وكان يقول: «البذاذة من الإيمان»(١٠) فقال هرون: سألت عن معنى البذاذة، فقال: هو الدون من اللباس. فمن طلب التواضع فليقتد به على ومن لم يرض لنفسه بذلك، فها أشد جهله! فلقد كان أعظم خلق الله منصباً في الدنيا والدين فلا عز ولا رفعة إلا في الاقتداء به.

(ومن الآثار) قال جرير بن عبد الله، انتهيت مرة إلى شجرة تحتها رجل قد استظل بنطع (٣) له، وقد جاوزت الشمس النطع، فسويته عليه، ثم إن الرجل استيقظ، فإذا هو سلمان الفارسي، فذكرت له ما صنعت، فقال لي: يا جرير تواضع لله في الدنيا، فإنه من تواضع لله في الدنيا، رفعه الله يوم القيامة، يا جرير! أتدري ما ظلمة الناريوم القيامة؟ قلت: لا، قال: إنه ظلم الناس بعضهم بعضاً في الدنيا. وقال كعب: ما أنعم الله على عبد من نعمة في الدنيا، فشكرها لله وتواضع بها لله، إلا أعطاه الله نفعها في الدنيا، ورفع بها درجته في الأخرة. وقال موسى بن القاسم: كانت زلزلة وريح، فذهبت إلى محمد بن مقاتل، فقلت: يا أبا عبد الله! أنت إمامنا فادع الله عز وجل لنا، فبكى ثم قال: ليتني لم أكن سبب هلاككم. قال موسى: فرأيت

⁽١) راجع تفصيلها ومصدرها في القسم الاخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

⁽٢) رواه أحمد وابن ماجه والحاكم وسنده صحيح (مج).

⁽٣) النطع بساط من الجلد.

النبي على المنام (١) فقال: إن الله عز وجل رفع عنكم بدعاء محمد بن مقاتل. وعن عمر بن شعبة قال: كنت بمكة بين الصفا والمروة، فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان، وإذا هم يفضُّون الناس عنه، قال ثم عدت بعد حين فدخلت بغداد، فكنت على الجسر، فإذا برجل حاف، حاسر طويل الشعر، فجعلت أنظر إليه وأتأمله. فقال لي: مالك تنظر إلي؟! فقلت له: شبهتك (٢) برجل رأيته بمكة، ووصفت له الصفة. فقال: أنا ذلك الرجل: فقلت له: ما فعل الله بك؟ فقال: إني ترفعت في موضع يتواضع الناس فيه، فوضعني الله حيث يترفع الناس.

بيان الطريق في معالجة الكبر واكتساب التواضع

اعلم أن الكبر من المهلكات، وإزالته فرض عين، ولا يزول بمجرد التمني بل بالمعالجة، وفي معالجته مقامان (أحدهما) قلع شجرته من مغرسها في القلب. (الثاني) دفع العارض منه بالأسباب التي قد يتكبر فيها.

المقام الأول في استئصال أصله

علاجه علمي وعملي، ولا يتم الشفاء إلا بمجموعها، (أما العلمي) فهو أن يعرف نفسه ويعرف صفات ربه تعالى، ويكفيه ذلك في إزالة الكبر، فإنه مهما عرف نفسه حق المعرفة، علم أنه لا يليق به إلا التواضع، وإذا عرف صفات ربه علم أنه لا تليق العظمة والكبرياء إلا بالله، أما معرفته ربه وعظمته ومجده فالقول فيه يطول. وأما معرفته نفسه، فهو أيضاً يطول، ولكنا نذكر من ذلك ما ينفع في إثارة التواضع، ويكفيه أن يعرف معنى آية واحدة في كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿ وَتُعِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ، مِنْ أَي شِي عَلَقَهُ ،

 ⁽١) راجع بحث الرسول صلى الله عليه وآله وسلم في القسم الأخير من الجزء الأول من هذا
 الكتاب.

⁽٢) لا مانع من سعي الحاج راكباً وقد فعله السلف.

مِن نُنطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ، ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ، ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ، ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴾ (عبس: ١٧ ـ ٢٢) فقد أشارت الآية إلى أول خلق الإنسان وإلى آخر أمره، وإلى وسطه، فلينظر الإنسان ذلك ليفهم معنى هذه الآية.

أما أول الإنسان فهو أنه لم يكن شيئاً مذكوراً وقد كان في حين العدم دهـورا، وأي شيء أخس من العدم، ثم خلقـه اللّه من أقذر(١) الأشيـاء، إذ خلقه من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة، ثم جعله عظماً ثم كسا العظم لحماً. فهذه بداية وجوده، فها صار شيئاً مذكوراً إلا وهو على أخس الأوصاف والنعوت إذ لم يخلق في ابتـدائه كـاملًا، بـل خلقه جمـاداً ميتـاً، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يحس، ولا يتحرك، ولا ينطق، ولا يبطش، ولا يدرك، ولا يعلم، فبدأ بموته قبل حياته، ويضعفه قبل قوته، ويجهله قبل علمه، وبعماه قبل بصره، وبصممه قبل سمعه؛ وببكمه قبل نطقه، وبضلاله قبل هداه، وبفقره قبل غناه، وبعجزه قبل قدرته. فهذا معنيّ قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَـيْءٍ خَلَقَهُ مِن نَّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ (عبس: ١٩) ثم امتن عليه فقال: ﴿ ثُمُّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴾ ، وهذا إشارة إلى ما تيسر له في مدة حياته إلى الموت، وإنما حلقه من التراب الذليل، الذي يوطأ بالأقدام والنطفة القذرة (٢) بعد عدمها ليعرف خِسة ذاته فيعرف بها نفسه، وإنما أكمل النعمة عليه ليعرف بها ربه ويعلم بها عظمته وجلاله، وأنه لا يليق الكبرياء إلا لـه جل وعلا، فمن كان هذا بدؤه، وهذه أحواله، فمن أين له البطر والكبرياء والفخر والخيلاء، وهـ و على التحقيق أضعف؟! ولكن هـ ذه عادة الخسيس إذا رُفع من خسته شمخ بأنفه وتعظم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

نعم لو أكمله وفوض إليه أمره وأدام له الوجود باختياره، لجاز أن يطغى وينسى المبدأ والمنتهى، ولكنه سلط عليه في دوام وجوده الأمراض

⁽١) لوقال: أضعف الأشياء لكان أفضل، فقد كرم سبحانه بني آدم.

 ⁽٢) من قال بأن نطفة الانسان قذرة؟ وقد خلق سبحانه منها الانسان الذي كرمه، وما جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَم نخلقكم من ماء مهين﴾ أراد به الضعيف كها قال كثير من المفسرين.

والأفات، يهدم البعض من أجزائه البعض، شاء أم أبى، فيجوع كرهاً ويعطش كرهاً ويمرض كرهاً، ويموت كرهاً لا يملك لنفسه نفعاً ولا شراً، ولا خيراً ولا شراً، يريد أن يعلم الشيء فيجهله، ويريد أن يذكر الشيء فينساه، ويريد أن ينسى الشيء ويغفل عنه، ولا يأمن في لحظة من ليله أو نهاره أن يسلب سمعه وبصره وتفلج أعضاؤه ويختلس عقله، وتخطف روحه، ويسلب جميع ما يهواه في دنياه، فهو مضطر ذليل، إن ترك بقي وإن اختطف فني، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ولا شيء من غيره، فأي شيء أذل(١) منه لو عرف نفسه، وأن يليق الكبر به لولا جهله، فهذا وسط أحواله فليتأمله.

وأما آخره فهو الموت المشار إليه بقوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَفْبَرَهُ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ (عبس: ٢١) ومعناه أنه يُسلب روحه وسمعه وبصره، وعلمه وقدرته وحسه وإدراكه وحركته، فيعود جماداً كما كان أول مرة، لا يبقى إلا شكل أعضائه وصورته، لا حسّ فيه ولا حركة، ثم يوضع في التراب جيفة منتنة، ثم تبلى أعضاؤه، وتُفتت أجزاؤه، وتنخر عظامه، ويأكل الدود أعضاءه، فيصير روثاً في أجواف الديدان، ويكون جيفة يهرب منه الحيوان، ويستقذره كل إنسان، ويهرب منه لشدة الإنتان.

وليته بقي كذلك، لا بل يحييه بعد طول البلى، ليقاسي شديد البلاء، فيخرج من قبره بعد جمع أجزائه المتفرقة، ويخرج الى أهوال القيامة، فينظر إلى قيامة قائمة، وساء مشققة ممزقة، وأرض مبدلة، وجبال مسيرة، ونجوم منكدرة، وشمس منكسفة، وأحوال مظلمة، وملائكة غلاظ شداد، وجهنم تزفر، وجنة ينظر إليها المجرم فيتحسر.

ويرى صحائف منشورة فيقال له: «اقرأ كتابك» فيقول: وما هو؟ فيقال: كان قد وكل بك في حياتك التي كنت تتكبر بنعيمها، وتفخر

⁽١) لوقال: اضعف لكان افضل.

بأسبابها، ملكان رقيبان، يكتبان عليك ما تنطق به، أو تعمله من قليل أو كثير وصغير وكبير، وقد نسيت ذلك وأحصاه الله عليك، فهلُم إلى الحساب، واستعد للجواب، أو تساق إلى دار العذاب، فينقطع قلبه فزعاً من هول هذا الخطاب، قبل أن تنشر الصحيفة، ويشاهد ما فيها من مخازيه، فإذا شاهده قال: ﴿ يَنُو يُلْتَنَا مَال ِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لاَ يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَنها ﴾ (الكهف: ٤٩) فهذا آخر أمره، وهو معنى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنشَرَهُ ﴾ .

في لمن هذا حاله والتكبر والتعظم؟ بل ما له وللفرح (١) فضلا عن البطر؟! فقد ظهر له أول حاله ووسطه، ولو ظهر آخره، والعياذ بالله تعالى، ربما اختار أن يصير مع البهائم تراباً، ولا يكون إنساناً يسمع خطاباً أو يلقى عذاباً، فمن هذا حاله في العاقبة إلا أن يعفو الله عنه وهو على شك من العفو، فكيف يفرح ويبطر وكيف يتكبر ويتجبر، حقاً يكفيه ذلك حزناً وخوفاً وإشفاقاً ومهانة وذلاً، فهذا هو العلاج العلمي القامع لأصل الكبر.

(وأما العلاج العملي) فهو التواضع للّه بالفعل، ولسائر الخلق بالمواظبة على أخلاق المتواضعين كما وصفناه من شمائل() رسول اللّه على، ومن أحوال الصالحين، ولا يتم التواضع بعد المعرفة إلا بالعمل، وللذلك أمر العرب، الذي تكبروا على الله ورسوله، بالإيمان والصلاة جميعاً، وقيل الصلاة عماد الدين، وفي الصلاة أسرار لأجلها كانت عماداً، ومن جملتها ما فيها من التواضع بالمثول قائماً، وبالركوع والسجود. وقد كان العرب قديماً يأنفون من الانحناء، فكان يسقط من يد الواحد سوطه، فلا ينحني لأخذه، وينقطع شراك نعله فلا ينكس رأسه لإصلاحه، فلما كان السجود عندهم هو منتهى الذلة والضعة، أمروا به لتنكسر بذلك خيلاؤهم، ويزول كبرهم، ويستقر التواضع في قلومهم.

⁽١) لقد جاء في الحديث الصحيح: «لو علمتم ما أعلم، لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثيراً!».

⁽٢) راجع هذا البحث الهام في القسم الاخير من الجزء الأول من هذا الكتاب.

المقام الثاني فيها يعرض من التكبر بالأسباب السبعة المتقدمة

ذكرنا في كتاب ذم الجاه أن الكمال الحقيقي هو العلم والعمل، فأما ما عداه مما يفني بالموت، فكمال وهمي، ونحن نذكر طريق العلاج من العلم والعمل في جميع أسبابه السبعة (الأول النسب) فمن يعتريه الكبر من جهة النسب فليداو قلبه، بمعرفة أن هذا جهل من حيث إنه تعزز بكمال غيره، ولذلك قال الشاعر:

لئن فخُرت بآباء ذوي نسب لقد صدقت، ولكن بئس ما ولدوا

ومن كان خسيساً، فمن أين تجبر خسته بكمال غيره، وبمعرفة نسبه الحقيقي أعني: أباه وجده، فإن أباه القريب نطفة وجده البعيد تراب، وقد عرف الله تعالى نسبه فقال: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنْسَنِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن مَلْلَةً مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ ﴾ (السجدة: ٦ - ٨) فإذا كان أصله من التراب وفصله من النطفة، فمن أين تأتيه الرفعة؟! فهذا هو السبب الحقيقي للانسان، ومن عرفه لا يتكبر بالنسب.

(الثاني الكبر بالجمال) ودواؤه أن ينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى الظاهر نظر البهائم، ومهما نظر إلى باطنه رأى من القبائح ما يكدر عليه تعززه بالجمال! إذ خلق من أقذار ووكل به في جميع أجزائه الأقذار، وسيموت فيصير جيفة أقذر من سائر الأقذار، وجماله لا بقاء له، بل هو في كل حين يتصور أن يزول بمرض أو سبب من الأسباب، فكم من وجموه جميلة قد سمجت بهذه الأسباب، فمعرفة ذلك تنزع من القلب داء الكبر بالجمال لمن أكثر تأملها.

(الثالث الكبر بالقوة) ويمنعه من ذلك أن يعلم ما سُلط عليه من العلل والأمراض، وأنه لو توجع عرق واحد في يده، لصار أعجز من كل عاجز، أو شوكة لو دخلت في رجله لأعجزته، وأن حمي يوم تحلل من قوته ما لا ينجبر في مدة، فمن لا يطيق شوكة ولا يقاوم بقة، فلا ينبغي أن يفتخر بقوته، ثم

إن قـوي الإنسان فـلا يكون أقـوى من حمـار أو بقـرة أو فيـل أو جمـل، وأي افتخار في صفة يسبقك بها البهائم؟!

(السبب الرابع والخامس) الغني وكثرة المال، وفي معناه كثرة الأتباع والأنصار، والتكبر بالمناصب والولايات، وكل ذلك تكبر بمعنى خارج عن ذات الإنسان، وهذا أقبح أنواع الكبر، فلو ذهب ماله أو احترقت داره لعاد ذليلًا، وكم في اليهود من يزيد عليه في الغني والثروة والتجمل، فأف لشرف يسبقه به يهودي، أو يأخذه سارق في لحظة فيعود ذليلًا مفلساً!

(السادس الكبر بالعلم) وهو أعظم الآفات وعلاجه بأمرين: (أحدهما) أن يعلم أن حجة الله على أهل العلم آكد، وأنه يُحتمل من الجاهل، ما لا يحتمل عُشره من العالم، فإن عصى الله تعالى عن معرفة وعلم، فجنايته أفحش وخطره أعظم. (ثانيهما) أن يعرف أن الكبر لا يليق إلا بالله عز وجل وحده، وأنه إذا تكبر صار ممقوتاً عند الله بغيضاً، فهذا مما يزيل التكبر، ويبعث على التواضع، وإذا دعته نفسه للتكبر على فاسق أو مبتدع (١)، فليتذكر ما سبق من ذنوبه وخطاياه، لتصغر نفسه في عينه، وليلاحظ إبهام عاقبته، وعاقبة الآخر، فلعله يختم له بالسوء ولذاك بالحسنى، حتى يشغله الخوف عن التكبر عليه، ولا يمنعه ترك التكبر عليه أن يكرهه ويغضب لنفسه، بل يبغضه ويغضب لربه، إذ أمره أن يغضب من تكبر عليه.

(السابع) التكبر بالورع والعبادة ، وذلك فتنة عظيمة على العبّاد ، وسبيله أن يلزم قلبه التواضع لسائر العباد ، قال وهب بن منبه : ما تم عقل عبد حتى يكون فيه خصال ، وعد منها خصلة التواضع ، قال : بها ساد مجده وبها علا ذكره : أن يرى الناس كلهم خيراً منه ، وإنما الناس عنده فرقتان : فرقة هي أفضل منه وأربع ، وفرقة هي شر منه وأدني ، فهو يتواضع

⁽١) عليه أن يسارع لنصحها ولا يهملهما بسبب التكبر.

للفرقتين (١) جميعاً بقلبه ، وإن رأى من هو خير منه ، سره ذلك وتمنى أن يلحق به ، وإن رأى من هو شر منه قال : لعل هذا ينجو وأهلك أنا ، فلا تراه إلا خائفاً من العاقبة ، ويقول : لعل برّ هذا باطن (٢) ، فذلك خير له ولا أدري لعل فيه خُلقاً كريماً بينه وبين الله ، فيرحمه الله ويتوب عليه ، ويختم له بأحسن الأعمال ، ويرى ظاهر عمله ، فيقول ذلك شر لي ، فلا يأمن فيها أظهره من الطاعة أن يكون دخلتها الآفات فأحبطتها ، قال : فحينئذ كمل عقله وساد أهل زمانه .

والذي يدل على فضيلة هذا الإشفاق قوله تعالى : ﴿ وَيُؤْتُونَ مَا ءَاتُواْ وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ، أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَجِعُونَ ﴾ (المؤمنون : ٢٠) أي أنهم يُؤتون الطاعات، وهم على وجل عظيم من قبولها، وقال تعالى : ﴿ إِنَّا لَلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةٍ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ (المؤمنون : ٧٥) وقال تعالى : ﴿ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴾ (الطور : ٢٦) وقد وصف الله تعالى الملائكة عليهم السلام مع تقديسهم عن الذنوب ومواظبتهم على العبادات بالدؤوب على الإشفاق فقال تعالى غبراً عنهم : ﴿ يُسَبِحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لاَ يَفْتُرُونَ وَهُمْ مُنْ خَشْيَةٍ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٨) فمتى زال الإشفاق والحذر ، غلب الأمن من مكر الله ، وذلك يُوجب الكبر وهو الهلاك ، فالكبر دليل الأمن ، والتواضع دليل الخوف وهو مُسعد .

فإذاً ما يفسده العابد بإضمار الكبر واحتقار الخَلق ، أكثر مما يصلحه بظاهر الأعمال ، فهذه معارف بها يُزال داء الكبر عن القلب ، إلا أن النفس بعد هذه المعرفة ، قد تضمر التواضع ، وتدعي البراءة من الكبر ، وهي كاذبة ، فإذا وقعت الواقعة عادت إلى طبعها ، فمن هذا لا ينبغي أن يكتفى في المداواة بمجرد المعرفة ، بل ينبغي أن تكمل بالعمل ، وتُجرب بأفعال المتواضعين في مواقع هيجان الكبر من النفس .

⁽١) لا نرى التواضع للاشرار، إلا إذا كانت الغاية هدايتهم.

⁽٢) لا يصح أن يبالغ في ذلك، فيعتمد على الباطن إذا فسد الظاهر!

وبيانه أن تُمتحن النفس بالامتحانات الدالة على استخراج ما في الباطن ، والامتحانات كثيرة ، (فمنها) وهو أولها : أن يناظر في مسألة مع واحد من أقرانه ، فإن ظهر شيء من الحق على لسان صاحبه فثقل عليه قبوله ، والانقياد له والشكر له على تنبيهه ، فذلك يدل أن فيه كبراً دفيناً! فليتق اللّه فيه ويشتغل بعلاجه ، أما من حيث العلم ، فبأن يذكر نفسه خستها وخطر عاقبته ، وأن الكبر لا يليق إلا بالله تعالى ، وأما العمل فبأن يكلف نفسه ما ثقل عليه من الاعتراف بالحق ، وأن يطلق اللسان بالحمد والثناء ، ويقر على نفسه بالعجز ، ويشكره على الاستفادة ، ويقول من ما فطنت له ، وقد كنت غافلاً عنه ، فجزاك الله خيراً كما نبهتني فالحكمة ضالة المؤمن ، فإذا وجدها ينبغي أن يشكر من دله عليها ، فإذا واظب على ذلك مرات متوالية صار ذلك له طبعاً ، وسقط ثقل الحق عن قلبه ، وطاب له قبوله ، ومها ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه قلبه ، وطاب له قبوله ، ومها ثقل عليه الثناء على أقرانه بما فيهم ، ففيه

(الامتحان الثاني) أن يجتمع مع الأقران والأمثال في المحافل ، ويقدمهم على نفسه ، ويمشي خلفهم (١) ، فإن ثقل ذلك عليه فهو متكبر ، فليواظب عليه تكلفاً حتى يسقط عنه ثقله ، فبذلك يزايله الكبر .

وههنا للشيطان مكيدة ، وهو أن يجلس في صف النعال أو يجلس بينه وبين الأقران بعض الأراذل ، فيظن أن ذلك تواضع وهو عين الكبر ، فإن ذلك يخف على نفوس المتكبرين ، إذ يوهمون أنهم تركوا مكانهم بالاستحقاق والتفضل ، فيكون قد تكبر بإظهار التواضع أيضاً ، بل ينبغي أن يقدم أقرانه ويجلس بجنبهم ، ولا ينحط عنهم إلى صف النعال ، فذلك هو الذي يخرج خبث الكبر من الباطن !

(الامتحان الثالث) أن يجيب دعوة الفقير ويمر إلى السوق في حاجة

⁽١) في هذا مبالغة لا تصح، فالحركات الظاهرة لها آدابها في الإسلام، فـلا تصح مخـالفتها، ومـع ذلك لا يكتفى بها!

الرفقاء والأقارب ، فإن ثقل ذلك عليه فهو كبر ، فإن هذه الأفعال من مكارم الأخلاق والثواب عليها جزيل ، فنفور النفس عنها ، ليس إلا لخبث في الباطن ، فليشتغل بإزالته بالمواظبة عليه ، مع تذكر جميع ما ذكرناه من المعارف التي تزيل داء الكبر .

(الامتحان الرابع) أن يحمل حاجة نفسه وحاجة أهله ورفقائه من السوق إلى البيت ، فإن أبت نفسه ذلك فهو كبر أو رياء .

وكل ذلك من أمراض القلوب وعلله المهلكة له ، إن لم تتدارك ، وقد أهمل الناس طب القلوب واشتغلوا بطب الأجساد ، مع أن الأجساد قد كتب عليها الموت لا محالة ، والقلوب لا تُدرك السعادة إلى بسلامتها . إذ قال تعالى ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ مِقَلْبِ سَلِيمٍ ﴾ (الشعراء: ٨٩).

بيان غاية الرياضة في خلق التواضع

إعلم أن هذا الخلق كسائر الأخلاق ، له طرفان ووسط ، فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يمسى تكاسساً ومذلة ، والوسط يسمى تواضعاً ، والمحمود أن يتواضع في غير مذلة وتخاسس ، فإن كلا طرفي الأمور ذميم ، وأحب الأمور إلى الله تعالى أوساطها ، فمن يتقدم على أمثاله فهو متكبر ، ومن يتأخر عنهم فهو متواضع ، أي وضع شيئاً من قدره الذي يستحقه . والعالم إذا دخل عليه دنيء فتنحى له عن مجلسه وأجلسه فيه ثم تقدم وسوّى له نعله ، وغدا إلى باب الدار خلفه ، فقد تخاسس وتذلل ، وهو أيضاً غير محمود ، بل المحمود عند الله العدل ، وهو أن يعطي كل ذي حق حقه . فينبغي أن يتواضع بمثل هذا لأقرانه ، ومن يقرب من درجته ، فأما تواضعه للسوقي ، فبالبِشر في الكلام والرفق في السؤال وإجابة دعوته والسعي في حاجته وأمثال ذلك ، وأن لا يرى نفسه خيراً منه ، فلا يحتقره ولا يستصغره ، وهو لا يعرف خاتمة أمره .

بيان ذم العُجب وآفاته

إعلم أن العُجب مذموم في كتاب الله تعالى وسنة رسوله على ، قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ خُنَيْنَ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْن عَنكُمْ شَيْمًا ﴾ (التوبة: ٢٥) ذكر ذلك في معرَض الإنكار ، وقال عز وجل : ﴿ وَظَنَّوٓاْ أَنَّهُمْ مُّلَّانِعَتُّهُمْ حُصُوبُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَــأَتَنهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَخْتَسِبُــواْ ﴾ (الحشر: ٢١) فــرد على الكفار في إعجابهم بحصونهم وشوكتهم ، وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ الْحِسْبُونَ أَنُّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ﴾ (الكهف: ١٠٤) وهـذا أيضاً يـرجع إلى العجب بالعمل ، وقد يعجب الإنسان بعمل هو مخطىء فيه ، كما يعجب بعمل هـو مصیب فیـه ، وقال ﷺ : « ثــلاث مهلکــات : شــح مـطاع وهــوی متبـع ، وإعجاب المرء بنفسه (١٠٠٠) وقال على : « بينها رجل يتبختر في بُردين ، وقد أعجبت نفسه ؛ خسف الله بـ الأرض ؛ فهو يتجلجل فيها إلى يـوم القيامة » (٢) . وقال ابن مسعود : الهلاك في اثنتين : القنوط والعُجب ، وإنما جمع بينها لأن السعادة لا تنال إلا بالسعي والطلب والجد والتشمير ، والقانط لا يسعى ولا يطلب ، والمعجّب يعتقد أنه قد سعد ، وظفر بمراده ، فلا يسعى ، وقد قال الله تعالى : ﴿ فلا تُـزَكُّواْ أَنفُسَكُمْ ﴾ (النجم : ٣٢) أي لا تعتقدوا أنها بارَّة ، وقال تعالى : ﴿لاَ تُبْطِلُواْ صَـدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ (البقرة: ٢٦٤) والمن نتيجة استعظام الصدقة ، واستعظام العمل هـو العُجِب .

بيان آفة العجب

إعلم أن آفات العُجب كثيرة ، فإن العجب يدعو إلى الكبر ، لأنه أحد

⁽۱) رواه البيهةي بلفظ: «ثلاث منجيات وثلاث مهلكات، ضاما المنجيات، فتقوى الله في السر والعلانية، والقول بالحق في الرضا والسخط، والقصد في الغني والفقر، وأما المهلكات، فهوى متبع، وشع مطاع، وإعجاب المرء بنفسه، وهي أشدهن والحديث حسن لطرقه (مم).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم، وتجلجل في الأرض ساخ فيها.

أسبابه ، فيتولد من العجب الكبر ، ومن الكبر الأفات الكثيرة التي لا تخفى . هذا مع العباد ، وأما مع الله تعالى ؛ فالعجب يدعو إلى نسبان الذنوب وإهمالها ، فبعض ذنوبه لا يذكرها ، لظنه أنه مستغن عن تفقدها ، وما يتذكره منها فيستصغره فلا يجتهد في إزالته ، بل يظن أنه يُغفر له . وأما العبادات والأعمال قإنه يستعظمها ويمن على الله بفعلها وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكن منها ، ثم إذا أعجب بها عمي عن آفاتها ، وذلك أن المعجب يغتر بنفسه وبرأيه ، ويأمن مكر الله وعذابه ، ويظن أنه عند الله عكان ، وأن له عند الله منة وحقاً بأعماله التي هي نعمة من نعمه . ويخرجه العجب إلى أن يُثني على نفسه ويحمدها ويزكيها ، وإن أعجب برأيه وعمله وعقله ، منعه ذلك من الاستفادة ومن الاستشارة والسؤال ، فيستبد بنفسه ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأي الخطإ ورأيه ويستنكف من سؤال من هو أعلم منه ، وربما يعجب بالرأي الخطإ عليه ، ولا يضرح بخواطر غيره ، فيصر عليه عليه ، ولا يسمع نصح ناصح ولا وعظ واعظ ، بل ينظر إلى غيره بعين الاستهجان ، ويصر على خطاياه .

فهذا وأمثاله من آفات العُجُب ، فلذلك كان من المهلكات ، ومن أعظم آفاته أن يغتر في السعي ، لظنه أنه قد فاز ، وأنه قد استغنى وهو الهلاك الصريح . نسأل الله العظيم حسن التوفيق لطاعته .

بيان علاج العجب على الجملة

إعلم أن علاج كل علة هو مقابلة سببها بضده ، وعلة العُجب الجهل المحض ، فعلاجه المعرفة المضادة لذلك الجهل ، وذلك أن المعجب بجماله أو قوته أو نسبه وما لا يدخل تحت اختياره ، إنما يعجب بما ليس له ، لأن كل ذلك من فضل الله ، وإنما هو محل لفيضان جوده تعالى ، فله الشكل والمنة إذا أفاض على عبده ما لا يستحق ، وآثره به على غيره من غير سابقة ووسيلة ، فإذاً منشأ العجب بذلك هو الجهل ، وإزالة ذلك بالعلم المحقق ،

بأن العبد وعمله وأوصافه كلها من عند الله تعالى نعمة ابتدأه بها قبل الاستحقاق. وهذا ينفي العجب والإدلال ، ويورث الخضوع والشكر ، لخوف من زوال النعمة . قال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ اللّهِ عَلَيْكُمْ مَن أَحَدٍ أَبَداً ﴾ (النور: ٢١) ، قال النبي الله لأصحابه وهم حير الناس: «ما منكم من أحد ينجيه عمله » قالوا: ولا أنت يا رسول الله ؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمته »(١) . ومهما غلب الخوف على القلب شغله خشية سلب هذه النعمة ، عن الإعجاب بها ، وأني لذي بصيرة أن يعجب بعمله ولا يخاف على نفسه ؟ فإذا هذا هو العلاج القامع لمادة العجب من الفلب .

بيان أقسام ما به العجب وتفصيل علاجه

إعلم أن مجموع ما به العجب ثمانية أقسام: (الأول) أن يعجب ببدنه في جماله ، وهيئته ، وصحته وقوته ، وحسن صوته ، وينسى أنه نعمة من الله تعالى ، وهو عرضة للزوال في كل حال ، وعلاجه التفكر في أقذار باطنه في أول أمره وفي آخره ، وفي الوجوه الجميلة والأبدان الناعمة ، كيف تمزقت في التراب ، وأنتنت في القبور حتى استقذرتها الطباع .

(الثاني) البطش والقوة كما حكي عن قوم عاد حين قالوا فيما أخبر الله عنهم : ﴿ مَنْ أَشَدُّ مِنًا تُوَّةً ﴾ وعلاجه أن يعلم أن حمّى يوم تضعف قوته ، وأنه إذا أعجب بها ربما سلبها الله تعالى بأدنى آفة يسلطها عليها .

(الثالث) العجب بالعقل والكياسة والتفطن لدقائق الأمور من مصالح النين الدنيا، وثرته الاستبداد بالرأي، وترك المشورة، واستجهال الناس المخاتفين لم ولرأيه، ويخرج إلى قلة الإصغاء إلى أهل العلم إعراضاً عنهم بالاستناء بالرأي والعقل، وعلاجه أن يشكل الله تعالى على ما رزقه من العقل، ويتفكر أنه بأدنى مرض يصيب دماغه، كيف يوسوس ويجن بحيث

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

يُضحك منه ، فلا يأمن أن يُسلب عقله إن أعجب به ، ولم يقم بشكره ويستقصر علمه وعقله ، وليعلم أنه ما أوي من العلم إلا قليلا وإن اتسع علمه ، وأن ما جهله مما عرفه الناس أكثر مما عرفه ، فكيف بما لم يعرفه الناس من علم الله تعالى ، وأن يتهم عقله وينظر إلى الحمقى كيف يعجبون بعقولهم ويضحك الناس منهم ، فيحذر أن يكون منهم ، وهو لا يدري ، فإن القاصر العقل لا يعلم قصور عقله ، فينبغي أن يعرف مقدار عقله من غيره لا من نفسه ، ومن أعدائه ، لا من أصدقائه ، فإن من يداهنه يثني عليه فيزيده عجباً ، وهو لا يظن بنفسه إلا الخير ولا يفطن لجهل نفسه ، فيزداد به عجباً .

(الرابع) العجب بالنسب الشريف حتى يظن بعضهم أنه ينجو بشرف نسبه ، ونجاة آبائه وأنه مغفور له ، وعلاجه أن يعلم أنه مها خالف آباءه في أفعالهم وأخلاقهم ، وظن أنه ملحق بهم فقد جهل ، وإن اقتدى بآبائه فا كان من أخلاقهم العجب بل الخوف ومذمة النفس (الأمارة بالسوء) . ولقد شرفوا بالطاعة والعلم والخصال الحميدة لا بالنسب فليشرف بما شرفوا به ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْتَكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنفَى ﴾ أي لا تفاوت في أنسابكم لاجتماعكم في أصل واحد . ثم ذكر فائدة النسب فقال : ﴿ وَجَعَلْنَكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ الْتَعَارَفُوا ﴾ ثم بين أن الشرف بالتقوى لا بالنسب فقال : ﴿ إِنَّ أَكُرُ مَكُمْ عِندَ آللّهِ أَنْقَلَكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) وقال عَلَيْ : ﴿ إِن اللّه أذهب عنكم عيبة الجاهلية (١) ـ أي كبرها ـ كلكم بنو آدم وآدم من تراب » ولما نزل قوله تعالى : ﴿ وَأُنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء : ٢١٣) ناداهم بطناً بعد بطن حتى قال : ﴿ يا فاطمة بنت محمد ، يا صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله إعملا لأنفسكها ، فإني لا أغني عنكها من بالله شيئاً »(٢) فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب الرسول . فمن الله شيئاً »(٢) فبين أنهم إذا مالوا إلى الدنيا لم ينفعهم نسب الرسول . فمن

⁽١) رواه أبو داود والترمذي وحسنه من حديث أبي هريرة وهو جيد الاسناد.

⁽۲) رواه مسلم.

عرف هذه الأمور ، علم أن شرف بقدر تقواه ، وقد كان من عادة آبائه التواضع ، فاقتدى بهم في التقوى والتواضع ، وإلا كان طاعناً في نسب نفسه بلسان حاله ، مهم انتمى إليهم ، ولم يشبههم في التواضع والتقوى والخوف والإشفاق .

(الخامس) العجب بنسب الأمراء وأعوانهم دون نسب العلم والدّين ، وهذا غاية الجهل ، وعلاجه أن يتفكر في منكراتهم وما جروا على الناس من المحظورات ويشكر الله أن عصمه من تبعاتهم .

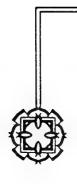
(السادس) العجب بكثرة العدد من الأولاد والخدم والعشيرة والأقارب كما أخبر تعالى عن الكفار إذ قالوا: ﴿ نَحْنُ أَكْتُرُ أَمُولاً وَأَوْلَداً ﴾ (سبأ: ٣٥) وكما قال المؤمنون يوم حُنين: لا نُغلب اليوم من قلة. وعلاجه ما ذكرناه في الكبر، وهو أن يتفكر في صمنة وضعفهم، وأن كلهم عجزه لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً، ثم كيف يعجب وهم سيفارقونه إذا مات ودُفن وحده ذليلاً مهاناً، ويسلمونه إلى البلى والحيات والعقارب ولا يغنون عنه شيئاً، ويهربون منه يوم القيامة ﴿ يَوْمُ يَفِرُ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَلَحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴾ (عبس: ٣٤-٣٦) فكيف تعجب بمن يفارقك في أشد أحوالك ويهرب منك، وكيف تتكل على من لا ينفعك وتنسى نعم من يملك نفعك وضرك؟!

(السابع) العجب بالمال . كما أخبر تعالى عن ذلك الكافر إذ قال : ﴿ أَنَا أَكْثَرُ مِسْكَ مَالاً وَأَعَزُ نَفَراً ﴾ (الكهف : ٣٤) وعلاجه أن يتفكر في أفات المال وكثرة حقوقه ، أن في اليهود من يزيد عليه في المال ، وينظر إلى فضيلة الفقراء وخفة حسابهم ، وكيف يتصور من المؤمن أن يعجب بماله ولا يخلو من تقصير في القيام بحقوق المال من أخذه من حله ووضعه في حقه ، وأن مآل المتهور في الجمع والمنع إلى الخزي والبوار .

(الشامن) العجب بالرأي الخطإ . قال تعالى : ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَـهُ سُوَّةً

عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَناً ﴾ (فاطر : ٨) وقال تعالى : ﴿ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أُمُّمْ يُحْسِبُونَ مُعْتِهِ فَنَ وَالْكُهُ فَ الله صلوات الله عليه أن بذلك هلكت الأمم السالفة ، إذ افترقت فرقاً وكل معجب برأيه ، ﴿ كُلُّ عِزْبِ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم: ٣١) وعلاجه أن يتهم رأيه أبداً ، فلا يغتر به إلا أن يشهد له قاطع من كتاب أو سنة ، أو دليل تمقلي صحيح جامع لشروط الأدلة ، ولن يعرف الإنسان أدلة الشرع والعقل وشروطها ومكامن الغلظ فيها إلا بقريحة تامة ، وعقل ثاقب ، وجد ، وتشمير في الطلب ، وممارسة للكتاب والسنة ، ومجالسة لأهل العلم طول العمر ، ومدارسة للعلوم ، ومع ذلك فلا يؤمن عليه الناظ في بعض الأمور ، والمراب لمن لم يتفرغ لاستغراق عمره في العلم أن لا يخوض في المذاهب (١) بل يشتغل بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات وبالشفقة على المسلمين . نسأله بالتقوى واجتناب المعاصي وأداء الطاعات وبالشفقة على المسلمين . نسأله تعالى العصمة من الضلال ونعوذ به من الاغترار بخيالات الجهال .

⁽١) الخوض في المذاهب الفلسفية خطر وحرام، وقد ضل فيها الكنير ٥٠.



_كناب ذم الغرور

إن مفتاح السعادة التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة الغرور والغفلة، والمغرور هو الذي لم تتفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلاً، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائداً والشيطان دليلاً(١). ولما كان الغرور أبا الشقاوات، ومنبع المهلكات، لزم شرح مداخله ومجاريه، وتفصيل ما يكثر وقوع الغرور فيه، ليحذره المريد بعد معرفته فيتقيه. فالموفق من العباد من عرف مداخل الأفات والفساد، فأخذ منها حذره، وبنى على الجزم والبصيرة أمره.

بيان ذم الغرور وأمثلته

أعلم أن قوله تعالى: ﴿ فَلاَ تَغُرَّنَكُمُ ٱلْحَيَوةُ ٱلدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَكُم بِٱللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ (لقمان: ٣٣) وقوله تعالى: ﴿ وَلَكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَالْكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَالْعَرور هو وَآرْتَبُتُمْ وَغَرَّتُكُمُ ٱلْأُمَانِيُ ﴾ (الحديد: ١٤) كاف في ذم الغرور. فالغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه بالطبع عن شبهة وخدعة من الشيطان. فمن اعتقد أنه على خير، إما في العاجل أو في الأجل عن شبهة إلشيطان.

أيها الشامت المغتر بالدهر أم لديك العهد الوثيق من الأيام من رأيت المنون خلد أم من

أأنت المبرأ الموقور؟! بل أنت جاهل مغرور ذا عليه من أن يضام خفير؟!

⁽١) وما أروع ما قاله الشاعر:

فاسدة فهو مغرور، وأكثر الناس يـظنون بـأنفسهم الخير وهم مخـطئون فيـه، فأكثر الناس إذاً مغرورون وإن اختلفت أصناف غرورهم.

وأشد الغرور غرور الكفار، وغرور العصاة والفساق. فأما غرور الكفار(۱) فقد أشير إليه في قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰئِكَ الَّذِينَ اَشْتَرَوُا الْخَيَوٰةَ الدُّنْيَا فِي الْمُخْرَةِ فَلاَ يُخَفِّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ (البقرة: ٨٦) وعلاج هذا الغرور إما التصديق بالإيمان، وإما بالبرهان، أما التصديق بمجرد الإيمان، فهو أن يصدق اللَّه تعالى في قوله: ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَذُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَالِيمان، فهو أن يصدق اللَّه تعالى في قوله: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ (القصص: بَاقٍ ﴾ (النحل: ٩٦) وفي قوله عز وجل: ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ ﴾ (القصص: ١٦) وقوله ﴿ وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ (الأعلى: ١٧) وقوله: ﴿ فَلَا تَغُرَّ نَكُمُ اللَّهُ اللَّهُ أَلِيهُ لَهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلْولُولُهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ أَلِيهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعَلَادُ اللَّهُ اللَّهُ الْعَلَى الللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الْعُرُور. وَلَا اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ الللَّهُ الللَّهُ اللَّهُ اللَ

وأما المعرفة بالبيان والبرهان، فأن تعرف فساد ما وسوس به الشيطان من الغرور بالتبصر في دعوى الأنبياء وعلماء السنة وتصديفهم، فإنه أيضاً يزيل الغرور، وهو مدرك يقين العلوم وأكثر الخواص، ومشالهم مريض لا يعرف دواء علته، وقد اتفق الأطباء وأهل الصناعة عن آخرهم على أن دواءه النبت الفلاني، فإن نفس المريض تطمئن إلى تصديقهم، ولا يطالبهم بتصحيح ذلك بالبراهين الطبية، بل يثق بقولهم ويعمل به، ولو بقي معتوه يكذبهم في ذلك وهو يعلم بالتواتر وقرائن الأحوال أنهم أكثر منه علماً وأغزر منه فضلاً، وأعلم منه بالطب، بل لا علم له بالطب، فيعلم كذبه بقولهم ولا

⁽١) يدخل في الكفار الدهرية الطبيعية، فهذا البحث والاحتجاج ينفعان في إلقامهم الحجر، فليكن على بالمنك فإنه مهم جداً اهـ مختصره.

⁽۲) الرسول لا يطالب بالبرهان.

⁽٣) رواه البخاري ومسلم.

يعتقد كذبهم بقوله، ولا يغتر في علمه بسببه، ولو اعتمد قوله وترك قول الأطباء كان معتوهاً مغروراً.

فكذلك من نظر إلى المقرين بالآخرة والمخبرين عنها، والقائلين بأن التقوى هي الدواء النافع في الوصول إلى سعادتها، وجدهم خير الناس وأعلاهم رتبة في البصيرة والمعرفة والعقل: وهم الأنبياء، واتبعهم عليه الخلق على أصنافهم، وشذ منهم آحاد ممن غلبت عليهم الشهوة، ومالت نفوسهم إلى التمتع، فعظم عليهم ترك الشهوات، وعظم عليهم الاعتراف بأنهم من أهل النار. فجحدوا الآخرة وكذّبوا الأنبياء، فكما أن قول الصبي والمعتوه لا يزيل طمأنينة القلب إلى ما اتفق عليه الأطباء، فكذلك قول هذا الغبي الذي استرقته الشهوات لا يشكك في صحة أقوال الأنبياء، وهذا القدر من الإيمان كاف لجملة الخلق، وهو يقين جازم يستحث على العمل لا محالة، والغرور يزول به.

وأما غرور العصاة من المسلمين فبقولهم: إن اللَّه كريم وإنا نـرجـو عفوه، وكما أحسن في الدنيا، فهو يحسن أيضاً في الآخرة، كما قال الشاعر:

لقد أحسن فيها مضى كذلك يحسن فيها بقى

إذ يقول: لولا أني كريم عند الله، ومحبوب، لما أحسن إليّ. والتلبيس تحت ظنه أن كل محسن محب، لا بل تحت ظنه أن انعامه عليه في الدنيا إحسان، فقد اغتر بالله، إن ظن أنه كريم عنده، بدليل لا يدل على الكرامة (١)، بل عند ذوي البصائر يدل على الهوان. ومثاله أن يكون للرجل عبدان صغيران، يبغض أحدهما، ويحب الآخر، فالذي يحبه يمنعه اللعب (أحياناً) ويلزمه المكتب، ليعلمه الأدب، ويمنعه من ملاذ الأطعمة التي تضره، ويسقيه الأدوية التي تنفعه.

⁽١) قال الله تعالى: ﴿ قَامًا الْإِنسَانَ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبِهُ فَأَكْرُمُهُ وَنَعْمُهُ، فَيقُولَ: رَبِي أَكْرَمَنُ، وَمَا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدْرُ عَلَيْهُ رِزْقَهُ، فَيقُولَ رَبِي اهَائَنُ، كَلَا! ﴾ (الفجر: ١٥ - ١٦) وقوله: ﴿ إِنَّا تَحْلَيُ عَلَمْ لِيَرْدَادُوا إِنْهَا ﴾ (آل عمران: ١٧٨).

والذي يبغضه يهمله ليعيش كيف يريد، فَيَلْعَب، ولا يدخل المكتب، ويأكل كل ما يشتهي. فيظن هذا العبد المهمل أنه عند سيده محبوب كرّيم، لأنه مكنه من شهواته، ولذاته، وساعده على جميع أغراضه، فلم يمنعه ولم يحجر عليه، وذلك محض الغرور.

واتكالهم على ذلك وإهمالهم الأعمال، وتحسين ذلك بتسمية تمنيهم واغترارهم رجاء، وظنهم أن الرجاء مقام محمود في الدين، وأن نعمة الله واسعة ورحمته شاملة، وكرمه عميم، وأين معاصي العباد في بحار كرمه، وإنا موحدون! فنرجوه بوسيلة الإيمان، وربما كان مستدرجاتهم: التمسك بصلاح الآباء وعلو رتبتهم، كاغترار بعض آل البيت بنسبهم، ومخالفة سيرة آبائهم في الخوف والتقوى والورع، وظنهم أنهم أكرم على الله من آبائهم، إذ آباؤهم مع غاية الورع والتقوى كانوا خائفين، وهم مع غاية الفسق والفجور آمنون!

وذلك نهاية الاغترار باللَّه تعالى. أينسى المغرور أن نوحاً عليه السلام أراد أن يستصحب ولده معه في السفينة، فلم يرد اللَّه، فكان من المغرقين في أَهْلِي فقال تعالى: ﴿ وَيَنْوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلُ غَيْرُ صَلِحٍ ﴾ (هود: ٢٦) وأن إبراهيم عليه السلام استغفر لأبيه فلم ينفعه، ومن ظن أنه ينجو بتقوى أبيه، كمن ظن أنه يشبع بأكل أبيه، ويروي بشرب أبيه، ويصير عالماً بعلم أبيه، ويصل الكعبة ويراها بمشي أبيه. فالتقوى فرض عين، فلا يجيز فيه والد عن ولده شيئاً، وكذا العكس.

بيان الغلط في تسمية التمني والغرور رجاء

(فإن قلت) فأين الغلط في قول العصاة والفجار: إن الله كريم نرجو رحمته ومغفرته، وقد قال «أنا عند ظن عبدي بي»(١) (فالجواب) أن الحكمة البالغة وهي: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني» هذا هو التمني على الله تعالى غيَّر الشيطان

⁽١) رواه أحمد والحاكم والطبراني وإسناده صحيح (مج).

اسمه، فسماه رجاء حتى خدع به الجهال(١)، وقد شرح الله الرجاء فقال: ﴿إِنَّ اللَّذِينَ ءَامَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللّهِ (البقرة: ٢١٨) يعني أن الرجاء بهم أليق. وهذا لأنه ذكر أن ثواب الآخرة أجر وجزاء على الأعمال، قال اللّه تعالى: ﴿جَزَآءَ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ (الواقعة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوفُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمُ القِيامَةِ ﴾ (آلعمران: (الواقعة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَإِنَّمَا تُوفُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمُ القِيامَةِ ﴾ (آلعمران: الشارط كريماً، يفي بالوعد مها وعد ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الشارط كريماً، يفي بالوعد مها وعد ولا يخلف بل يزيد، فجاء الأجير وكسر الأواني وأفسد جميعها، ثم جلس ينتظر الأجر، ويزعم أن المستأجر كريم؟ أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟! وهذا الفرق بين الرجاء أفيراه العقلاء في انتظاره متمنياً مغروراً أو راجياً؟! وهذا الفرق بين الرجاء والخوف. قيل للحسن: قوم يقولون: نرجو اللّه ويضيعون العمل، فقال: هيهات هيهات! تلك أمانيهم يترجحون فيها. من رجا شيئاً طلبه ومن خاف شيئاً هرب منه (۲).

وكما أن الذي يرجو في الدنيا ولداً، وهو بعد لم ينكح، فهو معتوه، كذلك من رجا رحمة الله، ولم يعمل صالحاً، ولم يترك المعاصي، فهو مغرور(٣)، فكما أنه إذا نكح بقي متردداً في الولد، يخاف ويرجو فضل الله في خلق الولد ودفع الأفات عن الرحم وعن الأم، إلى أن يتم فهو كيس، فكذلك إذا آمن وعمل الصالحات وترك السيئات، وبقى متردداً بين الخوف

قبل للموامل: إن الموت في أشرك فيمن مفى لك إن فكرت معتبر دار تسسافر عنها في غد سفراً تضحي غداً سمراً للذاكرين كا (٢) إلا الله تعالى، فإن المؤمن إذا خافه لجأ إليه.

(٣) وما أحسن ما قاله الشاعر:

يا أيها الواقف بالقبور قد سكنوا في خرب معمور ينتظرون صيحة النشور

وليس يخفى عليك الأمر في نظرك ومن يت كل يدوم فهدو من ندرك فلا تؤوب إذا سافرت من سفرك كان الذين مضوا بالأمس من سمرك

بين أناس غيب حضور بين الشرى وجندل الصخور لاتك في حظك في (غرور)

⁽١) وقد قال الشاعر:

والرجاء يخاف أن لا يقبل منه، ويرجو أن يُثبته حتى يموت على التوحيد، ويحرس قلبة عن الميل إلى الشهوات بقية عمره، حتى لا يميل إلى المعاصي فهو كيّس، ومن عدا هؤلاء فهم المغرورون بالله. ﴿وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَسَرُونَ العَدَابَ مَنْ أَضَلَّ سَبِيلًا﴾ (الفرقان: ٤٢).

موضع الرجاء المحمود

فإن قلت: فأين موضع الرجاء المحمود؟ فأعلم أنه محمود في مرضعين:

(أحدهما) في حق العاصي المنهمك إذا خطرت له التوبة، فقال له الشيطان: وأنى تقبل توبتك فيقنطه من رحمة الله تعالى، فيجب عند هذا أن يقمع القنوط بالرجاء، ويتذكر أن الله يغفر الذنوب جميعاً، وأن الله كريم يقبل التوبة عن عباده، وأن التوبة طاعة تكفر الذنوب. قال تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفّارٌ لِمَن وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ آهْتَدَى ﴾ (طه: ٨٢) فإذا توقع المغفرة مع التوبة فهو راج، وإن توقع المغفرة مع الإصرار فهو مغرور.

(الشاني) أن تفتر نفسه عن فضائل الأعمال ويقتصر على الفرائض، فيُرجّي نفسه نعيم اللَّه تعالى وما وعد به الصالحين، حتى ينبعث من الرجاء نشاط العبادة، فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ اللَّهِمَ فَي صَلَاتِهِمْ خَسْمِعُونَ ﴾ الآيات. (المؤمنون: ١ و ٢).

فالرجاء الأول يقمع القنوط المانع من التوبة، والرجاء الثاني يقمع الفتور المانع من النشاط والتشمير، فكل توقع حث على توبة أو على تشمير في العبادة فهو رجاء، وكل رجاء أوجب فتوراً في العبادة وركوناً إلى البطالة فهو غرور، كها إذا خطر له أن يترك الذنب ويشتغل بالعمل، ففتره الشيطان عن التوبة والعبادة وقال له: لك رب كريم، فهذا غرة، وعند هذا يجب أن يستعمل الخوف، فيخوف نفسه بغضب الله وعظيم عقابه، ويقول: إنه مع أنه غافر الذنب وقابل التوب: شديد العقاب، وإنه مع أنه كريم حلّد الكفار

في النار أبد الآباد، وقد خوفني عقابه، فكيف لا أخافه وكيف أغتر به(١٠؟!

فالخوف والرجاء قائدان وسائقان، يبعثان الناس على العمل، في الا يبعث على العمل فهو تمنٍ وغرور، ورجاء كافة الخلق، هو سبب فتورهم وسبب إقبالهم على الدنيا، وسبب إعراضهم عن الله تعالى وإهمالهم السعي للآخرة، فذلك غرور، وقد كان السلف يبالغون في التقوى والحذر من الشبهات والشهوات، ويبكون على أنفسهم في الخلوات، وأما الآن فترى الخلق آمنين مسرورين، غير خائفين، مع إكبابهم على المعاصي، وإنهماكهم في الدنيا، وإعراضهم عن الله تعالى، زاعمين أنهم واثقون بكرم الله وعفوه، كأنهم يزعمون أنهم عرفوا من فضله وكرمه ما لم يعرفه الأنبياء والصحابة والسلف الصالحون، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا، فعلام والسلف الصالحون، فإن كان هذا الأمر يدرك بالمنى وينال بالهوينا، فعلام كان بكاء أولئك وخوفهم وحزنهم؟! وقد قال تعالى: ﴿وَلَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾ (ابراهيم: كان بكاء أولئك وخوفهم خوفه إلى آخره تحذير وتخويف، لا يتفكر فيه متفكر إلا ويطول حُزنه ويعظم خوفه إن كان مؤمناً بما فيه!

بيان بعض أصناف المغترين

فمنهم (فرقة) أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله تعالى بمكان لا يعذب مثلهم، ولو نظروا بعين البصيرة، لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة، وكيفية علاجها، والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون

(1)

يا ناظراً يسرنسو بعيسني راقد تصل الذنسوب إلى الذنسوب وترتجي أنسسيست ربك حسين أخسرج آدماً

ومشاهداً للأمر غير مشاهد درج إلجنان، ونيل فوز العابد منها إلى الدنيا بذنب واحد؟!

العمل، وقد ورد فيمن لا يعمل بعمله، ما فيه أشد الترهيب كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ مُمِّلُواْ التَّورَاةَ ثُمَ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسُفَاراً ﴾، فأي خزى أعظم من التمثيل بالحمار؟!

(وفرقة) أخرى أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم، ليمحوا عنها الصفات الذميمة من الكبر والحسد والرياء، وطلب الجاه وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا بواطنهم، ونسوا قوله على: «إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(١) فتعهدوا الأعمال، وما تعهدوا القلب، والقلب هو الأصل! إذ لا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم، ومثال هؤلاء قبور الموتى، ظاهرها مزين وباطنها جيفة!

وفرقة اقتصروا على علم الفصل في الحكومات والخصومات وتفاصيل المعاملات الدنيوية الجارية بين الخلق لمصالح العباد، وخصصوا اسم الفقه بها.

وربما ضيعوا مع ذلك الأعمال الظاهرة والباطنة، فلم يتفقدوا الجوارح كاللسان عن الغيبة، ولا البطن عن الحرام، ولم يحرسوا قلوبهم عن الكبر والحسد والرياء وسائر المهلكات، هؤلاء مغرورون من وجهين: من حيث العمل، ومن حيث العلم، أما من حيث العمل فقد قدمنا أولا وجه الغرور فيه، ومثالهم مثال المريض إذا تعلم نسخة الدواء، واشتغل بتكرارها وتعليمها للمرضى، ولم يشتغل بشربها واستعمالها، أفترى أن ذلك يغني عنه من مرضه شيئاً؟! هيهات هيهات، فلا بد من شربه والصبر على مرارته، على أنه بعد على خطر من شفائه.

وأما غروره من حيث العلم: فحيث اقتصر على علم المعاملات، وظن

⁽١) رواه مسلم.

أنه علم الدين، وترك علم كتاب اللَّه تعالى وسنة رسول اللَّه ﷺ، وربما طعن في المحدثين (۱)! وقال: إنهم نقلة أخبار وحملة أسفار لا يفقهون! وترك أيضاً علم تهذيب الأخلاق، وترك الفقه عن اللَّه تعالى، بإدراك جلاله وعظمته، وهو الذي يورث الخوف والهيبة والخشوع ويحمل على التقوى، فإن الفقه هو الفقه عن اللَّه ومعرفة صفاته المخوفة والمرجوة، ليستشعر القلب الخوف، ويلازم التقوى إذ قال تعالى: ﴿ فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةً لِيَتَفَقَّهُ واْ في الذي يحصل به الإنذار غير هذا العلم؟!

وفرقة اشتغلوا بالوعظ والتذكير والتكلم في أحلاق النفس والزهد والإخلاص وهم مغرورون، يظنون بأنفسهم أنهم إذا تكلموا بهذه الصفات ودعوا الخلق إليها فقد صاروا موصوفين بها وهم منفكون عنها عند الله، لحرصهم على السمعة وحسدهم لمن يتقدمهم من أقرانهم، وغيظهم على من يثني على معاصريهم، وجمعهم لحطام الدنيا، فهؤلاء أعظم الناس غرة.

(وفرقة) منهم قنعوا بحفظ كلام الزهاد وأحاديثهم في ذم الدنيا فهم يحفظون الكلمات ويؤدونها من غير إحاطة بمعانيها ولو في الأسواق مع الجلساء وكل منهم يظن أنه إذا حفظ كلام الزهاد فقد أفلح ونال الغرض وصار مغفوراً له، من غير أن يحفظ باطنه عن الأثام، وغرور هؤلاء أظهر من غرور من قبلهم.

(وفرقة) اشتغلوا بعلم النحو واللغة، والشعر وغريب اللغة، واغتروا به وزعموا أنهم قد غُفر لهم، وأنهم من علماء الأمة، فأفنوا أعمارهم في ذلك وأعرضوا عن معرفة معاني الشريعة والعمل بها، كمن ضيع عمره في تصحيح

⁽١) إن الإيمان ويغض أهل الحديث الصالحين، قل أن يجتمعا، فإن لهم فضلا على الناس، وقد حدثني بعضهم أن شيخه كان يقول له ولسائر طلابه: «بارك الله تعالى لنا بأهل الحديث، فإنهم كلما رأونا انحرفنا عن الجادة أرشدونا إليها، ولله در القائل:

أهمل الحمديث ممو أهمل النبي وإن لم يصحبوا نفسه، أنفساسه صحبوا!

خارج الحروف في القرآن واقتصر عليه. وهو في غرور، إذ المقصود من الحروف المعاني، وإنما الحروف أدوات، فاللب هو العمل والذي فوقه كالقشر للعمل، فالقانعون به مغترون إلا من اتخذه منزلاً فلم يعرج عليه إلا بقدر حاجته، فتجاوزه حتى وصل إلى لباب العمل. فحمل نفسه عليه، فصفاها من الشوائب والأفات.

غرور أرباب العبادة وهم فرق عديدة

منهم (فرقة) تعمقوا حتى خرجوا إلى العدوان والسرف، كالذي يغلب عليه الوسوسة في الوضوء فيبالغ فيه، ولا يرضى المحكوم بطهارته في الشرع، ويقدر الاحتمالات البعيدة قريبة في النجاسة، ولو انقلب هذا الاحتياط من الماء إلى الطعام لكان أشبه بسيرة الصحابة، إذ توضأ عمر رضي الله عنه بماء في جرة نصرانية مع ظهور احتمال النجاسة، وكان مع هذا يدع أبواباً من الحلال مخافة من الوقوع في الحرام.

ومنهم (فرقة) غلب عليها الوسوسة في نية الصلاة. فلا يدعه الشيطان حتى يعقد نية صحيحة _ على زعمه _ وقد يـوسوسـون في التكبير حتى قـد يغيرون صيغة التكبير لشدة الاحتياط فيه _ على زعمهم _ يفعلون ذلك في أول الصلاة، ثم يغفلون في جميع الصلاة فلا يحضرون قلوبهم، ويغترون بـذلك ويظنون أنهم على خير عند ربهم.

(وفرقة) تغلُب عليهم الوسوسة في إخراج حروف الفاتحة وسائر الأذكار من نحارجها، فلا يزال يحتاط في التشديدات والفرق بين الضاد والظاء وتصحيح المخارج في جميع صلاته لا يهمه غير ذلك، ذاهلًا عن معنى القرآن والاتعاظ به وصرف الفهم إلى أسراره، وهذا هو أقبح أنواع الغرور فإنه لم يكلف الخلق في تلاوة القرآن من تحقيق نحارج الحروف إلا بما جرت به عاداتهم في الكلام، ومثل هؤلاء مثال من حمل رسالة إلى مجلس سلطان، وأمر أن يؤديها على وجهها، فأخذ يؤدي الرسالة ويتأنق في نحارج الحروف،

ويكررها ويعيدها، مرة بعد أخرى، وهو في ذلك غافل عن مقصود الرسالة، ومراعاة حرمة المجلس، فيها أحراه بأن يقام عليه التأديب ويحكم عليه بفقد العقل!

(وفرقة) اغتروا بقراءة القرآن: فيهذرمونه هذرمة، وربحا يختمونه في اليوم والليلة مرة، ولسان أحدهم يجري وقلبه يتردى في أودية الأماني، إذ لا يتفكر في معاني القرآن، لينزجر بزواجره، ويتعظ بمواعظه، ويقف عند أوامره ونواهيه، ويعتبر بمواضع الاعتبار فيه، فهو مغرور، يظن أن المقصود من إنزال القرآن الهمهمة به، مع الغفلة عنه. ومثاله مثال عبد كتب إليه مولاه كتاباً وأشار عليه بالأوامر والنواهي، فلم يصرف عنايته إلى فهمه والعمل به، ولكن اقتصر على حفظه، فهو مستمر على خلاف ما أمره به مولاه، إلا أنه يكرر الكتاب بصوته ونغمته كل يوم مئة مرة، فهو مستحق للعقوبة، ومها ظن أن ذلك هو المراد منه فهو مغرور، نعم تلاوته إنما تراد لكيلا ينسى بل لحفظه، وحفظه يراد لمعناه، ومعناه يراد للعمل به والانتفاع بمعانيه، وقد يكون له صوت طيب، فهو يقرؤه ويلتذ به، ويغتر باستلذاذه، ويظن أن لنة مناجاة صوت طيب، فهو يقرؤه ويلتذ به، ويغتر باستلذاذه، ويظن أن لنة مناجاة وسوت طيب، فهو يقرؤه ويلتذ به، ويغتر باستلذاذه، ويظن أن لنة مناجاة

(وفرقة) اغتروا بالصوم، وربما صاموا الدهر(١) أو الأيام الشريفة، وهم فيها لا يحفظون ألسنتهم عن الغيبة، وخواطرهم عن الرياء، وبواطنهم عن الحرام عند الإفطار، وألسنتهم عن الهذيان بأنواع الفضول طول النهار، وهم مع ذلك ينظنون بأنفسهم الخير، فيهملون الفرائض ويطلبون النفل، ثم لا يقومون بحقه، وذلك غاية الغرور.

(وفرقة) اغتروا بالحج: فيخرجون إلى الحج من غير إخراج المظالم وقضاء الديون، واسترضاء الوالدين، وطلب الزاد الحلال، وقد يفعلون ذلك بعد سقوط حجة الإسلام، ويضيعون في الطريق الصلاة والفرائض، ولا

⁽١) صبوم الدهير منهي عنه بقبوله ﷺ: ولا صبام من صلم السده، وهنو قطعة من حديث رواه البخاري ومسلم، وذلك ليبقى المسلم قوياً قادراً على العمل والجهاد.

يحذرون من الرفث والخصام، ثم يحضر الواحبد منهم البيت بقلب ملوث بذميم الأخلاق، لم يقدم تطهيره على حضوره، وهو مع ذلك ينظن أنه على خير من ربه، فهو مغرور.

(وفرقة) جاوروا بمكة والمدينة، واغتروا بذلك، ولم يراقبوا قلوبهم، ولم يطهروا ظاهرهم وباطنهم، فقلوبهم معلقة ببلادهم، ملتفتة إلى قول من يقول إن فلاناً مجاور بمكة كذا وكذا سنة، ثم إنه قد يجاور ويمد عين طمعه إلى أوساخ أموال الناس، ويظهر فيه الرياء، وجملة من المهلكات، كان عنها بمعزل لو ترك المجاورة، ولكن أحب المحمدة، وأن يقال إنه من المجاورين ألزمه المجاورة مع التضمخ بهذه الرذائل، فهو أيضاً مغرور.

(وفرقة) أخرى اشتغلوا بعلم الكلام، والمجادلة في الأهواء، والرد على المخالفين، وتتبع مناقضاتهم، واشتغلوا بتعلم الطرق في مناظرة أولئك وإفحامهم، وافترقوا في ذلك بسبب علم الكلام فرقاً كثيرة، واعتقدوا أنه لا يكون لعبد إيمان وعمل إلا بأن يتعلم جدلهم، وما سموه أدلة عقائدهم، وظنوا أنه لا أحد أعرف بالله وصفاته منهم، وأنه لا إيمان لمن لم يعتقد مذهبهم.

وعلماء الكلام فرق كثيرة، يكفر بعضهم بعضاً. وإنما أوتيت من حيث إنها لم تتهم رأيها، فرأى أحدهم الشبهة دليلا، والدليل شبهة، وزعموا أن من صدق الله ورسوله من غير تعلم علم الكلام، فليس بمؤمن، أو ليس كامل الإيمان، ولا مقرباً عند الله، فلهذا الظن الفاسق قطعت أعمارها في تعلم الكلام والجدل وهذيان المبتدعة ومناقضاتهم، وعميت أبصارهم فلم يلتفتوا الى القرن الأول، فإن النبي على شهد لأهله بأنهم خير الخلق، وإنهم قد أدركوا كثيراً من أهل البدع والهوى، فها جعلوا أعمارهم ودينهم غرضاً للخصومات والمجادلات(١).

⁽١) لقد نقلنا هذا التفصيل في محاذير علم الكلام من أصل «الاجياء» للغزالي، بسبب وقـوع كثير من المسلمين ومعاهد الدينية في هذا الضلال، وتركوا تعلم التوحيد من كتاب الله تعالى وسنة

(وفرقة) زهدت في المال، وقنعت من اللباس والطعام بالدون، ومن المسكن بالمسجد أو المدارس، وظنت أنها أدركت رتبة الزهاد، وهي مع ذلك راغبة بالرياسة والجاه، إما بالعلم أو بالوعظ أو بمجرد الزهد، ومن كان هذا شأنه، فقد ترك أهون الأمرين وباء بأعظم المهلكين، فهذا مغرور! إذ ظن أنه من الزهاد في الدنيا، وهو لم يفهم معنى الدنيا ولم يدر أن منتهى لذاتها الرياسة، وأن الراغب فيها لا بدّ وأن يكون منافقاً، وحسوداً، ومتكبراً ومرائياً، ومتصفاً بجميع خبائث الأخلاق، وقد يؤثر الخلوة والعزلة وهو مع ذلك مغرور، إذ يتطاول بذلك على الناس، وينظر إليهم بعين الاستحقار،

نبيه هندا العلم. حتى إن كثيراً من علماء السلف وأثمة المذاهب رضي الله تعالى عنهم جميعاً من تعلم هندا العلم. حتى إن كثيراً من علماء الكلام ندموا في آخر عمرهم على الأوقات التي أضاعوها في هذا العلم ورجعوا الى دراسة التوحيد من القرآن والسنة. جاء في شرح العقيدة الطحاوية (طبعة ٣ ص ١٦٥):

قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم، في كتابه: «تهافت التهافت»: «ومن الذي قال في الإلهيات (أي علم الكلام) شيئاً يعتد به؟!» وكذلك الغزالي، انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق، واقبل على أحاديث الرسول شخ فمات، وكتاب البخاري على صدره وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه (اقسام الذات) (نادماً على ما أضاعه في حياته بعلم الكلام):

نهايسة إقدام السعسقسول عسقسال وأرواحنا في وحشسة من جسسومنسا ولم نستفسد من بحثنا طسول عمسرنا

وغايسة سعي السعالمين ضلال وحاصل دنسانا أذى ووسال سوى أن جعنا فيه قيل وقالوا

ثم قال: ولقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فيا رأيتها تشفي عليلا، ولا تروي غليلا، ورأيت أقرب الطرق _ أي في تعلم التوحيد _ طريقة القرآن. ثم قال: وومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكذلك قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم الشهرستاني: وإنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحيرة والندم! حيث قال:

لعمسري لقد طفت المعناهد كلهما وسيسرت طرفي يدن تملك المعمالم فسلم أد إلا واضعماً كسف حاشر عمل ذقسته أو قدارعماً سمن نادم وكذلك قال أبو المعالي الجويني: «يا اصحابنا لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت ان الكلام يبلغ بي الى ما بلغ ما اشتغلت به ١٤ هـ باختصار.

ويعجب بعمله ويتصف بجملة من خبائث القلوب، وربما يُعطى المال فلا يأخذه خيفة من أن يُقال بَطُل زهده، فهو راغب في حمد الناس، وهو من ألـذ أبواب الدنيا، ويرى نفسه أنه زاهد في الدنيا وهو مغرور.

ومع ذلك فربما لا يخلو من توقير الأغنياء، وتقديمهم على الفقراء، والميل إلى المريدين له، المثنين عليه، والنفرة على المائلين إلى غيره، وكل ذلك خدعة وغرور من الشيطان، نعوذ بالله منه، وفي العباد من يشدد على نفسه في أعمال الجوارح. ولا يخطر له مراعاة القلب وتفقده، وتطهيره من الرياء والكبر والعُجْب وسائر المهلكات، ويتوهم أنه مغفور له لعمله الظاهر، وأنه غير مؤاخذ بأحوال القلب، وقد يظن أن العبادات الظاهرة تترجح بها كفة حسناته، وهيهات!! ذرة من ذي تقوى وخُلق واحد من أخلاق الأكياس، أفضل من أمثال الجبال عملاً بالجوارح! ثم لا يخلو هذا المغرور من سوء خُلقه مع الناس وخشونته، وتلوث باطنه بالرياء وحب الثناء؛ فإذا قيل له: أنت من أوتاد الأرض وأولياء الله وأحبابه، فرح المغرور وصدّق به، وظن أن تزكية الناس له دليل على كونه مرضياً عند الله. ولا يدري أن ذلك لجهل الناس بخبائث باطنه.

(وفرقة) أخرى استغرقوا أوقاتهم في علم الحديث، أعني في سماعه، وجمع الروايات الكثيرة منه. وطلب الأسانيد الغريبة العالية. فهمة أحدهم أن يدور في البلاد ويرى الشيوخ ليقول: أنا أروي عن فلان. ولقد رأيت فلاناً، ومعي من الأسناد ما ليس مع غيري. وغرورهم من وجوه. منها أنهم حملة أسفار!. فإنهم لا يصرفون العناية إلى فهم معاني السنة. فعلمهم قاصر، وليس معهم إلا النقل، ويظنون أن ذلك يكفيهم. ومنها أنهم إذا لم يفهموا معانيها لا يعملون بها، وقد يفهمون بعضها أيضاً ولا يعملون به.(١).

⁽۱) لا شك أن علماء الحديث هم مصابيح الهدي ومنارات العلم، فمن تركهم ضل، ومن تبعهم العرور احياناً.

(وفرقة) حرصت على النوافل. ولم يعظم اعتدادها بالفرائض. ترى أحدهم يفرح بصلاة الضحى وبصلاة الليل وأمثال هذه النوافل. ولا يجد للفريضة لذة. ولا يشتد حرصه على المبادرة بها في أول الوقت. وينسي قوله عن ربه: «ما تقرب المتقربون إليّ بمثل أداء ما افترضت عليهم»(١).

غرور المتصوفة وهم فرق كثيرة

(ففرقة) منهم اغتروا بالزي والهيئة والنطق، فيجلسون على السجادات مع إطراق الرأس وإدخاله في الجيب كالمتفكر، وفي تنفس الصَّعداء، وفي خفض الصوت في الحديث، ولم يُتعبوا أنفسهم قط في المجاهدة والرياضة ومراقبة القلب وتطهير الباطن والظاهر من الآثام الخفية والجلية، وكل ذلك من أوائل منازل الزهد مع أنهم لم يحوموا قط حولها ولم يكلفوا أنفسهم شيئاً منها.

(وفرقة) ادعت علم المعرفة، والوصول إلى القلب، ويظن فاعل ذلك أن ذلك أعلى من علم الأولين والآخرين، فهو ينظر إلى الفقهاء والمفسرين والمحدثين وأصناف العلماء بعين الازدراء، فضلا عن العوام، حتى إن الفلاح ليترك فلاحته والحائك يترك حياكته ويلازمهم، ويتلقف منهم تلك الكلمات المزيفة فيرددها، كأنه يتكلم على الوحي، ويخبر عن سر الأسرار، ويستحقر بذلك جميع العباد! والعلماء، ويقول إنهم عن الله محجوبون، ويدعي لنفسه

من طلابهم الشباب هذا الفن العزيز الغريب على الرغم من رجاء هؤلاء الشبان والحاحهم والحاح الغيورين ويحتجون بعدم الوقت ناسين أو متناسين ان إعداد خلفاء لهم من أوجب الواجبات ومها عاشوا، فلن يستطيعوا إنجاز ما يأملون، ولو اعدوا هؤلاء الخلفاء، لأتموا ما عجزوا عنه. والغريب انهم يحتجون بضيق الوقت، بينها يضيعون كثيراً منه في الذهاب الى العمرة والحج من عام إلى آخر بعد أن حجوا حجة الإسلام، فنسأل الله تعالى لهم طول العمر وبعد النظر والنجاة من الغرور.

⁽١) رواه البخاري بنحوه.

الـوصول إلى الحق، وأنه من المقربين، وهو عند الله من المنافقين، وعند أرباب القلوب من الحمقى الجاهلين! لم يحكم قط علماً، ولم يهذبُ خلقاً، ولم يرتب عملاً ولم يراقب قلباً، سوى اتباع الهوى وتلقف الهذيان وحفظه.

(وفرقة) وقعت في الإباحة، وطووا بساط الشرع، ورفضوا الأحكام وسووا بين الحلال والحرام؛ فبعضهم يقول: إن الله مستغن عن عملي، فلم أتعب نفسي، وبعضهم يقول: الأعمال بالجوارح لا وزن لها، وإنما النظر إلى القلوب، وقلوبنا والهة بحب الله، وواصلة إلى معرفة الله، وإنما نخوض في الدنيا بأيدينا، وقلوبنا عاكفة في حضرة الربوبية، فنحن مع الشهوات بالظواهر لا بالقلوب! ويزعمون أنهم قد ترقوا عن رتبة العوام، واستغنوا عن تهذيب النفس بالأعمال البدنية، وأن الشهوات لا تصدهم عن طريق الله لقوتهم فيها. وكل هذا من وساوس الشيطان يخدعهم بها، ومن إباحية الكفار المارقين، نعوذ بالله أن نكون من الجاهلين.

(وفرقة) ادعوا حسن الخُلق والتواضع والسماحة. فتصدوا لخدمة الزّهاد فجمعوا قوماً وتكلفوا بخدمتهم، واتخذوا ذلك شبكة للرياسة وجمع المال، فيجمعون من الحرام والشُبُهات، وينفقون عليهم لتكثر أتباعهم، وما باعثهم إلا الرياء والسمعة.

وثمة (فرق أخر) لا يحصى غرورها، والغرض من ذلك التنبيه على أمثلة تُعرف الأجناس دون الاستيعاب، فإن ذلك يطول.

غرور أرباب الأموال

والمغترون منهم فِرق: (فرقة) منهم يحرصون على بناء المساجد، وما يظهر للناس ليخلّد ذكرهم أو يذيع صيتهم، وهم يظنون أنهم قد استحقوا المغفرة بذلك، وقد يكون بناؤها من جهات محظورة، تعرضوا لسخط الله في كسبها، وكان الواجب ردها إلى مُلاكها، إما بأعيانها، وإما بردّ بدلها عند العجز، وقد يكون الأهم التوسعة على المساكين، وهم لا يفعلون ذلك خيفة

أن لا يظهر ذلك للناس، فيكون غرضهم في البناء الرياء وجلب الثناء، مع أن صرف المال إلى من في جواره أو بلده من فقراء وأيتام أهم وأفضل، وأولى من الصرف إلى المساجد وزينتها، في خف عليهم الصرف إلى المساجد إلا ليظهر ذلك بين الناس، وهناك محظور آخر، وهو أنه قد يصرف المال إلى زخرفة المسجد وتزيينه بالنقوش المنهي عنها، لشغلها قلوب(١) المصلين. والمقصود من الصلاة الخشوع وحضور القلب، وذلك يفسد قلوب المصلين، فوبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات! مع فوبال ذلك كله يرجع إليه، وهو مع ذلك يغتر به ويرى أنه من الخيرات! مع أنه تعرض لما لا يرضي الله تعالى. إذ المساجد للتواضع ولحضور القلب مع الله تعالى.

قال الحواريون للمسيح عليه السلام: انظر إلى هذا لمسجد ما أحسنه! فقال: أمتي! أمتي، بحق أقول لكم، لا يترك الله من هذا المسجد حجراً قائماً على حجر إلا أهلكه بذنوب أهله، إن الله تعالى لا يعبأ بالذهب والفضة، ولا بهذه الحجارة التي تعجبكم شيئاً، وإن أحب الأشياء إلى الله تعالى القلوب الصالحة، بهذا يعمر الله الأرض، وبها يخرب إذا كانت على غير ذلك.

وقال أبو الدرداء: «إذا زخرفتم مساجدكم، فالدمار عليكم»(٢).

(وفرقة) ينفقون الأموال في الصدقات على المساكين ويطلبون أن يكون ذلك في المحافل الجامعة، ويعطون من الفقراء من عادته الشكر وإفشاء

⁽١) ومن أضرار زُخرفة المساجد علاوة على شغلها قلوب المصلين، إضاعة أموال المسلمين سدى، بدلًا من إنفاقها على التسليح والجهاد والمشروعات العامة المفيدة.

⁽٢) الاصل في بناء المساجد الإيواء والبساطة، والمتانة إذا تيسرت، قبال الخليفة عمر بن الخطاب لن أراد أن يبني المسجد: «أكن الناس، ولا تحمر، ولا تصفر»، وعما يؤسف له ان كثيراً من اللجان تسارع الى جمع الأموال من المسلمين لبناء المساجد، وهي لا تعرف الاصول التي اوجبها الإسلام لهذا البناء وأهمها عدم الزخرفة، والاقلال من السواري مهما امكن، خشية قطع صفوف المصلين، وعدم الغلو في فرشه. . . فتهمل كل ذلك وتبذر الاموال جزافاً على بناء القباب التي لا فائدة منها، وهي آثمة في ذلك، وكل ذلك من الغرور. . .

المعروف، ويكرهـون التصدق في السر، ويـرون إخفاء الفقـير لما يـأخَّذه منهم جناية عليهم وكفراناً، وربما تركوا جيرانهم جياعاً، ولذلك قال ابن مسعود: في آخر الزمان يكثر الحجاج بلا سبب، يهون عليهم السفر ويبسط لهم في الرزق، ويرجعون محرومين مسلوبين، يهوي بأحدهم بعيره بين الرمال والقفار وجاره مأسور إلى جنبه لا يواسيه، وقال أبو نصر التمار: إن رجلًا جاء يودع بشر بن الحارث وقال: عزمت على الحج، أفتأمرني بشيء؟ فقال له: كم أعددت للنفقة؟ فقال: ألفي درهم، قال بشر: لأي شيء تبتغي لحجتك؟ تزهداً أو اشتياقاً إلى البيت أو ابتغاء مرضاة الله؟ قال: ابتخاء مرضاة الله، قال: لأن أصبت مرضاة الله تعالى وأنت في منزلك وتنفق ألفي درهم، وتكون على يقين من مرضاة الله تعالى، أتفعل ذلك(١)؟ قـال: نعم، قال: اذهب فأعطها لعشرة أنفس: مديون يقضى دينه، وفقير يلم شِعثه، ومعيل يحييى عياله، ومربي يتيم يفرحه، وإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل، فـإن إدخالك السرور على قلب مسلم، وإغاثة اللهفان، وكشف الضر، وإعانة الضعيف، أفضل من مئة حجة بعد حجة الإسلام، قم فأخرجها كما أمرناك، وإلا فقل لنا ما في قلبك؟ فقال: يا أبا نصر، سفري أقـوى في قلبي، فتبسم بِشرِ رحمه اللَّه تعالى، وأقبل عليه وقال له: المال إذا جُمع من وسخ التجارات والشُّبهات، اقتضت النفس أن تقضي بـ وطـراً، فـأظهـرت الأعمـال الصالحات، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين.

(وفرقة) من أرباب الأموال اشتغلوا بها يحفظون الأموال ويمسكونها بحكم البخل، ثم يشتغلون بالعبادات البدنية التي لا يحتاج فيها إلى نفقة كصيام النهار وقيام الليل وختم القرآن، وهم مغرورون، لأن البخل المهلك قد استولى على بواطنهم، والواحد منهم يحتاج إلى قمعه بإخراج المال، فقد اشتغل بطلب فضائل، وهو مستغن عنها، ومثاله مثال من دخل في ثوبه حية، وقد أشرف على الهلاك وهو مشغول بطبخ دواء يسكن به الصفراء، ومن قتلته

⁽١) ويقصد بذلك غير حجة الفرض.

الجية متى يحتاج إلى دواء!؟ ولـذلك قيـل لبِشر: إن فلانـاً الغني كثير الصوم والصلاة، فقال: المسكين ترك حاله، ودخـل في حال غيـره، وإنما حـال هذا إطعام الطعام للجياع والإنفاق على المساكين، فهذه أفضل له من تجويعه نفسه ومن صلاته لنفسه، مع جمعه للدنيا ومنعه للفقراء.

(وفرقة) غلبهم البُخل، فلا تسمح نفوسهم إلا بأداء الزكاة فقط، ثم إنهم يخرجون من المال الخبيث الرديء الذي يرغبون عنه، ويطلبون من الفقراء من يخدمهم ويتردد في حاجاتهم، أو من يحتاجون إليه في المستقبل، للاستسخار في خدمة، أو من لهم فيه على الجملة غرض. أو يسلمون إلى من يعينه واحد من الأكابر، عمن يستظهر بحشمة، لينال بذلك عنده منزلة فيقوم بحاجاته. وكل ذلك من مفسدات النية وعبطات العمل، وصاحبه مغرور، ويظن أنه مطيع للَّه تعالى وهو فاجر، إذ طلب بعبادة اللَّه عوضاً عن غيره. وغرور أصحاب الأموال لا يُحصى، وإنما ذكرنا هذا القدر للتنبيه على أجناس الغرور.

(وفرقة) أخرى س عوام أرباب الأموال اغتروا بحضور مجالس الذّكر، واعتقدوا أن ذلك يغنيهم ويكفيهم، واتخذوا ذلك عادة، ويظنون أن لهم على مجرد سماع الوعظ دون العمل والاتعاظ أجراً. وهم مغرورون، لأن فضل مجلس الذكر لكونه مرغباً في الخير، فإن لم يُهيج الرغبة فلا خير فيه، والرغبة محمودة، لأنها تبعث على العمل، فإن ضُعفت عن الحمل على العمل، فلا خير فيها، وما يراه لغيره، فإذا قصر عن الأداء إلى ذلك الغير فلا قيمة له. وربحا يسمعه من الواعظ وتدخله رقة كرقة النساء فيبكي ولا عزم، وربحا يسمع كلاما مخوفاً فلا يزيد على أن يصفق بيديه ويقول: يا سلام سلم!! أو يعوذ بالله أو سبحان الله، ويظن أنه أتى بالخير كله، وهو مغرور. وإنما مثال المريض الذي يحضر مجالس الأطباء فيسمع ما يجري، أو الجائع الذي يخضر عنده من يصف له الأطعمة اللذيذة الشهية، ثم ينصرف، وذلك لا يغني عنه من مرضه وجوعه شيئاً، فكذلك سماع وصف الطاعات دون العمل

بها، لا يغني من الله شيئاً، فكل وعظ لم يغير منك صفة تغييراً يغير أفعالك حتى تُقبل على الله تعالى إقبالاً قوياً أو ضعيفاً وتُعرض عن الدنيا، فذلك الوعظ زيادة حجة عليك! فإذا رأيته وسيلة لك كنت مغروراً.

(فإن قلت): ما ذكرته من مداخل الغرور، أمر لا يمكن الاحتراز منه، إذ لا يقوى أحد على الحذر من خفايا هذه الأفات.

(قلت): الإنسان إذا فترت همته في شيء، أظهر اليأس منه، واستعظم الأمر واستوعر الطريق، وإذا صحّ منه الهوى اهتدى إلى الحيّل، واستنبط بدقيق النظر خفايا الطريق في الوصول إلى الغرض، حتى إن الإنسان إذا أردا أن يستنزل الطير المحلّق في جو السهاء مع بعده منه، استنزله، وإذا أراد أن يستسخر السباع والفيلة وعظيم الحيوانات استسخرها، إلى غير ذلك من دقائق حيل الآدمي، كل ذلك لأنه أهمه أمر دنياه، فلو أهمه أمر آخرته، فليس عليه إلا شغل واحد، وهو تقويم قلبه، ولما تخاذل عن تقويم قلبه ظنه محالا، وليس ذلك محال، لأنه شيء لم يعجز عنه السلف الصالحون، ومن اتبعهم بإحسان، فلا يعجز عنه أيدنا ونظم أسبابها:

(فإن قلت): قد قربت الأمر فيه مع أنبك أكثرت في ذكر مداخل الغرور، فيم ينجو العبد من الغرور؟

فاعلم أنه ينجو منه بثلاثة أمور: بالعقل، والعلم، والمعرفة، فهذه ثلاثة أمور لا بدّ منها، أما العقل فأعني به الفطرة الغريزية، والنور الأصلي الذي به يُدرك الإنسان حقائق الأشياء، لأن أساس السعادات كلها العقل والكياسة.

وأما المعرفة فأن يعرف نفسه وربه، ويعرف الدنيا والآخرة، فإذا عـرف ذلك ثار في قلب بمعرفة اللَّه حُب اللَّه، وبمعرفة الآخرة شـدة الرغبة فيها، وبمعرفة الدنيا الرغبة عنها، ويصير أهم أموره ما يوصله إلى اللَّه تعالى وينفعه

في الآخرة، وإذا غلبت هذه الإرادة على قلبه، صحت نيته في الأمور كلها، واندفع عن كل غرور، منشؤه تجاذب الأغراض والنزوع إلى الدنيا والجاه والمال. وما دامت الدنيا أحب إليه من الآخرة، وهوى نفسه أحب إليه من رضاء الله تعالى، فلا يمكنه الخلاص من الغرور. فإذا غلب حب الله على قلبه بمعرفته بالله، وبنفسه الصادرة عن كمال عقله فيحتاج إلى المعنى الثالث، وهو العلم.

أعني العلم بما يقربه من الله وما يبعده عنه (١)، فيعرف من العبادات شروطها فيراعيها، وآفاتها فينقيها. ومن العادات أسرار المعايش، وما هو مضطر إليه، فيأخذه بأدب الشرع، وما هو مستغن عنه فيعرض عنه. ومن المهلكات، يعلم جميع العقبات المانعة في طريق الله، فإن المانع من حب الله الصفات المذمومة في الخلق، فيعلم المذموم، ويعلم طريق علاجه، ويعرف من المنجيات الصفات المحمودة التي لا بدّ وأن توضع خلفاً عن المذمومة بعد عوها، فإذا أحاط بجميع ذلك، أمكنه الحذر من الأنواع التي أشرنا إليها من الغرور، وأصل ذلك كله أن يغلب حبّ الله على القلب، ويسقط حب الدنيا منه، حتى تقوى به الإرادة وتصح به النية، ولا يحصل ذلك إلا بالمعرفة التي ذكرناها، نسأل الله العون والتوفيق وحسن الخاتمة آمين.

⁽١) وهو علم الكتاب والسنة لقوله (صلى الله عليه وآله وسلم): «تـركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهها: كتاب الله، وسنة رسوله، رواه في الموطإ وسنده حسن (مم).

		٠
,		



كابالنوب

شروطها وأركانها وما يتعلق بذلك

اعلم أن الذنوب حجاب عن المحبوب، والانصراف عما يبعد عن المحبوب واجب.

وإنما يتم ذلك بالعلم والندم والعزم، فإنه متى لم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب، لم يندم على الذنوب، ولم يتوجع بسبب سلوكه طريق البعد، وإذا لم يتوجع لم يرجع.

وقد أمر الله تعالى بالتوبة فقال: ﴿وَتُوبُسُوۤا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا المُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (النور: ٣١) وقال سبحانه: ﴿يَنَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوٓا إِلَى اللّهِ تَوْبُوَا اللّهَ يُحِبُ التحريم: ٨) الآية. وقال: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُ التحريم: ٨) الآية. وقال: ﴿إِنَّ اللّهَ يُحِبُ التحريم: ٢٢٢).

وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إلى اللَّه في اليوم مائة مرة»(١).

وفي «الصحيحين» من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن رسول الله عنه، أن رسول الله عنه، أن رسول الله عليه الله عليه أرض دويًة (٢) مهلكة، معه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذهبت،

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) الأرض الدوية: الصحراء التي لا نبات فيها.

فطلبها حتى أدركه العطش، ثم قال: أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه، فأنام حتى أموت، فوضع رأسه على ساعده ليموت، فاستيقظ وعنده راحلته، عليها زاده وطعامه وشرابه، فالله أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته(١) الحديث،

والاحاديث في هذا كثيرة، والإجماع منعقد على وجوب التوبة، لأن الذنوب مهلكات مبعدات عن الله تعالى، فيجب الهرب منها على الفور.

بيان وجوب التوبة وفضلها

والتوبة واجبة على الدوام: فإن الإنسان لا يخلو عن معصية، ولو خلا عن معصية الجوارح لم يخل عن الهم بالذنب بقلبه، وإن خلا عن ذلك لم يخل عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المتفرقة المذهلة عن ذكر الله تعالى، ولو خلا عنه لم يخل عن غفلة وقصور في العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص، ولا يسلم أحد من هذا النقص، وإنما الخلق يتفاوتون في المقادير، وأما أصل ذلك، فلا بد منه.

ولهذا قال النبي على: «إنه ليغان على قلبي، فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»(٢). ولذلك أكرمه الله تعالى بقوله: ﴿لِيَغْفِرَ لَنكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح: ٢)، فأما غيره فكيف يكون حاله؟ ومتى اجتمعت شروط التوبة كانت صحيحة مقبولة. قال الله تعالى: ﴿وَهُمُ لَ اللَّهِي يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ ﴾ (الشورى: ٢٥).

وفي الحديث: أن رسول الله على قال: «إن الله يقبل تـوبة العبـد ما لم يغرغر» (٣). والأحاديث في ذلك كثيرة.

⁽١) رواه مسلم.

⁽٢) رواه مسلم إلا أنه قال: مثة مرة وكذلك عند إبي داود، وللبخاري من حديث ابي هريرة: إني لأستغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة.

⁽٣) رواه الترمذي وابن ماجه وسنده حسن (مم).

وجوب التوبة على الفور وعلى الدوام

أما وجوبها على الفور، فلا يستراب فيه، إذ معرفة كون المعاصي مهلكات هي من نفس الإيمان، وهو واجب على الفور، والعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثاً على تركها، فمن لم يتركها فهوفاقد لهذا الجزء من الإيمان، وهو المراد بقوله على: «لا ين الناني حين ين وهو مؤمن» (١). وما المراد به نفي الإيمان الذي يرجع إلى العلوم، كالعلم ببالله، ووحدانيته، وصفاته، وكتبه، ورسله، فإن ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي، وإنما أراد به نفي الإيمان، لكون الزنا مبعداً عن الله تعالى، موجباً للمقت، كما إذا قال الطبيب: هذا سم فلا تتناوله، فإذا تناوله يقال: تناوله وهو غير مؤمن، لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب، وكونه طبيباً، وغير مصدق به، بل المراد أنه غير مصدق بقوله: إنه سم مهلك. فإن العالم بالسم لا يتناوله أصلاً، فالعاصى بالضرورة ناقص الإيمان.

إن الإيمان كالإنسان، وفقد شهادة التوحيد يوجب البطلان بالكلية، كفقد الروح، والذي ليس له إلا شهادة لله بالألوهية ولنبيه بالرسالة، هو كإنسان مقطوع الأطراف، مفقوء العينين، فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة، لا أصل الروح، وكها أن من هذا حاله قريب من أن يموت، فتزايله الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأعضاء التي تمدها وتقويها، فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان، وهو مقصر في الأعمال، قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه، إذا صدمتها الرياح العاصفة، فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله، ولم تنتشر في الأعمال فروعه، لم يثبت على عواصف الأهوال عند ظهور ناصية ملك الموت، وخيف عليه سوء الخاتمة، لا كمن يسقي بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت.

وقول العاصي للمطيع: إني مؤمن كها أنك مؤمن، كقول شجرة القرع

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

لشجرة الصنوبر: أنا شجرة، وأنت شجرة. وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت: ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف، فعند ذلك تنقطع أصولك، وتتناثر أوراقك، وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع الغفلة عن أسباب ثبوت الأشجار:

وسوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار وهذا يظهر عند الخاتمة. وإنما انقطع نياط العارفين خوفاً من دواعي الموت ومقوماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأقلون.

وأما وجوب التوبة على الدوام وفي كل حال، فهو أن كل بشر لا يخلو عن معصية بجوارحه، فإن خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن الهم بالذنوب بالقلب، فان خلا في بعض الأحوال عن الهم فلا يخلو عن وسواس الشيطان بإيراد الخواطر المذهلة عن ذكر الله، فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وقصور في العلم بالله وصفاته وأفعاله، وكل ذلك نقص وله أسباب، وترك أسبابه بالتشاغل بضدها رجوع عن طريق إلى ضده، والمراد بالتوبة الرجوع، ولا يتصور الخلو في حق الأدمي عن هذا النقص وإنما يتفاوتون بالمقادير، فأما الأصل فلا بد منه ولهذا قال عليه السلام «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة»(١) الحديث، ولذلك أكرمه الله تعالى بأن قال: ﴿ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّر ﴾ (الفتح: ٢) وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره؟

وإنما أطلقنا الوجوب في كل حال. والتوبة عن بعض ما ذكر من الفضائل لا الفرائض، لأنا نعني بالواجب ما لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين، والمقام المحمود بين الصدِّيقين، والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه، كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي

⁽۱) ولفظ الحديث كما رواه مسلم: «إنه ليغان على قلبي، وإني لاستغفر الله في اليوم مئة مرة» والمراد بالغين ـ كما قال القاضي عياض ـ فتران عن الذّكر الذي شأنه أن يداوم عليه، فإذا فتر لامر ما، عدّ ذلك ذنباً فاستغفر منه المنتقل عنه المنتقل منه المنتقل من المنتقل من المنتقل من المنتقل من المنتقل من المنتقل منه المنتقل من المنتقل م

لمن يريدها، فإنه لا يتوصل إليها إلا بها.

واعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلا، وليس معنى التوبة تركها فقط. بل تمام التوبة بتدارك ما مضى، وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجه المرآة الصقيلة، فإن تراكمت ظلمة الشهوات صارت ريناً، كما يصر بخار النفس في وجه المرآة عند تراكمه خبثاً كما قال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (المطففين: ١٤) فإذا تراكم الرين صار طبعاً، فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرآة إذا تراكم وطال زمانه، غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده، وصار كالمطبوع من الخبث، ولا يكفي في تدارك اتباع الشهوات تركها في المستقبل، بل لا بند من محو، تلك الأريبان التي انطبعت في القلب، كما لا يكفى في ظهور الصور في المرآة قطع الأنفاس والبخارات المسودة لوجهها في المستقبل، ما لم يشتغل بمحو ما انطبع فيها من الأريان، وكما ترتفع إلى القلب ظلمة من المعاصى والشهوات، فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات فتمحى ظلمة المعصية بنور الطاعة، وإليه الاشارة بقول عليه السلام: «أتبع السيئة الحسنة تمحها»(١) فإذاً لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها تلك السيئات.

ولقد صدق أبو سليمان الداراني حيث قال: لو لم يبك العاقل فيها بقي من عمره إلا على تفويت ما مضى منه في غير الطاعة لكان خليقاً أن يحترنه ذلك إلى الممات، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ما مضى من جهله، وإنما قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وضاعت منه بغير فائدة، بكى عليها لا محالة، وإن ضاعت منه وصار ضياعها سبب هلاكه، كان بكاؤه عليها أشد، وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة لا

⁽١) ران: غلب على قلوبهم فغشيها فعلاه الصدأ.

⁽٢) رواه الترمذي وقال حسن صحيح وأوله اتق الله واتبع وهو كما قال (مم).

خلف لها ولا بدل منها، فإنها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد، وتنقذك من شقاوة الأبد، وأي جوهر أنفس من هذا، فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسراناً مبيناً، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك، ومصيبتك بجهلك أعظم من كل مصيبة، ونوم الغفلة يحول بينه وبين معرفته و «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»، فعند ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته، وقد رفع الناس عن التدارك كما قال تعالى: ﴿وانفقوا مِن مًّا رَزَقْنَكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي أَحَدَكُمُ ٱلمُوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلاً أَخَرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلُهَا ﴾ (المنافقون: ١٠ و ١١).

بيان أقسام الذنوب

إعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما يتعلق بحقوق الأدميين، وإلى ما بين

⁽١) تقدم قبل قليل.

العبد وبين ربه.

فها يتعلق بحقوق العباد، فالأمر فيه أغلظ، والذي بين العبد وبين ربه، فالعفو فيه أرجى وأقرب، إلا أن يكون شرْكـاً والعياذ بـالله، فذلـك الذي لا يُغفر.

واعلم أن الذنوب تنقسم أيضاً إلى صغائر وكبائس، وقد كثر الاختلاف فيها، واختلفت الأحاديث في عدد الكبائر.

والأحاديث الصحاح في ذكرها خسة:

الأول: حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي على قال: «اجتنبوا السبع الموبقات. قالوا: يا رسول الله: وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات»(١).

الشاني: حديث ابن مسعود رضي الله عنه، أن النبي ﷺ، سئل أي اللذنب أكبر! قال: أن تجعل لله نداً وهو خلقك. قال: ثم أي؟ قال: أن تقتل ولدك خشية أن يُطعم معك. قال: ثم أي؟ قال: أن تزاني حليلة حادك(٢).

الثالث: حديث عبد الله بن عمر، أن النبي على قال: «الكبائر: الإشراك بالله، وعقوق الوالدين» (٣).

الرابع: وفي حديث آخر: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر: قـول الزور - أو قال ـ شهادة الزور»(٤).

⁽١) رواه أبو داود والنسائي والبيهقي وسنده صحيح (مج).

⁽٢) وتمام الحديث فأنزل الله تعالى تصديقها: ﴿وَاللَّذِينَ لا يَدْمُونَ مَعَ اللَّهُ إِلَمَّ آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفُسِ التَّي حرَّم اللَّهُ إِلا بِالحقّ ولا يزنون﴾ الآية (الفرقان ٦٨ - ٧٠) رواه البخاري ومسلم وتمامه: ووقعل النفس، واليمين الغموس، رواه البخاري. واليمين الغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار (المرقاة).

⁽٣) و (٤) ولفظه: والا أنبئكم باكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، ألا وقول

الخامس: حديث أبي بكرة أن النبي ﷺ، ذُكرت عنده الكبائر قال: الاشراك بالله، وعقوق الوالدين، وكمان متكئاً فجلس فقال: ألا وقول الزور، وشهادة الزور، فها زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت(١).

وقد اختلف العلماء فيها على أقوال كثيرة، والأحاديث في الكبائر لا تدل على حصرها فيها، ولعل الشارع قصد الابهام ليكون على الناس وجل من الذنوب.

بيان ما تعظم به الصغائر من الذنوب

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب: منها الإصرار والمواظبة.

قال بعضهم: «لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع الاستغفار».

واعلم أن العفو عن كبيرة قد انقضت ولم يتبعها مثلها، أرجي من العفو عن صغيرة يواظب عليها العبد.

ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على حجر متواليات، فإنها تؤثر فيه، ولمو جمعت تلك القطرات في مرة وصبت عليه لم تؤثر، ولهذا قال عليه السلام: «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل» (٢)!

ومن الأسباب التي تعظم بها الصغائر، أن يُستصغر الذنب، فإن الذنب كلم استعظمه العبد صغر عند الله تعالى، وكلما استعظمه العبد، كبر عند الله تعالى، فإن استعظامه يصدر عن نفور القلب منه وكراهيته له.

قال ابن مسعود رضي اللَّه عنه: إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه. فقال به: هكذا(۳)؟

___ الزور، ألا وشهادة الزور، فها زال يكررها حتى قلنا ليته سكت. رواه البخاري.

⁽١) راجع الحديث السابق.

⁽٢) متفق عليه (مم).

⁽٣) رواه البخاري ومسلم.

وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لعلمه بجلال الله تعالى، فإذا نظر إلى عظمة من عصى، رأى الصغيرة كبيرة.

وفي البخاري، من حديث أنس رضي الله عنه: إنكم لتعملون أعمالاً هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعهدها على عهد رسول الله على من المربقات.

وقال بلال بن سعد رضي الله عنه: لا تنظر إلى صغر الخطيئة، ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ومن الأسباب أن يفرح بالصغيرة ويتمدح بها، كما يقول: أما رأيتني كيف مزَّقت عرض فلان، وذكرت مساويه حتى أخجلته، أو يقول التاجر: أما رأيت كيف روجت عليه الزائف، وكيف خدعته وغبنته، فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر.

ومنها أن يتهاون بستر الله تعالى وحلمه عنه وإمهاله إياه ولا يدري أن ذلك قد يكون مقتاً ليزداد بالإمهال إثهاً.

ومنها أن يأتي بالذنب ثم يذكره بمحضر من غيره. وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي على قال: «كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل العمل بالليل، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستر الله عليه (١).

ومنها أن يكون المذنب عالماً يُقتدى به، فإذا عُلم منه الذنب، كبر ذنبه، كلبسه الحرير، ودخوله على الظلمة مع ترك الإنكار عليهم، وإطلاقه اللسان في الأعراض، واشتغاله من العلوم بما لا يقصد منه إلا الجاه، كعلم الجدل،

⁽۱) ولفظه: كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجانة أن يعمل الرجل عملاً بالليل ثم يصبح، وقد ستره الله، فيقول: يا فلان، إعملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف ستر الله عنه، والمجانة: أن لا يبالي الانسان بماصنع رواه البخاري ومسلم.

فهذه ذنوب يتبع العالم عليها، فيموت ويبقى شره مستطيراً في العالم، فطوب لمن إذا مات معه ذنوبه!

وفي الحديث: «من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمـل بها بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء (١٠).

فعلى العالم وظيفتان:

إحداهما: ترك الذنب. والثانية: إخفاؤه إذا أتاه.

وكها تتضاعف أوزار العلماء إذا اتبعوا على الذنوب، كلذلك تتضاعف حسناتهم إذا اتبعوا على الخير.

وينبغي للعالم أن يتوسط في ملبسه ونفقته، وليكن إلى التقلل أميل، فإن الناس ينظرون إليه.

وينبغي له الاحتراز مما يُقتدى به فيه، فإنه متى ترخص في الدخول على السلاطين وجمع الحطام؛ فاقتدى به غيره؛ كان الاثم عليه، وربما سلم هو في دخوله، ولم يفهموا كيفية سلامته.

وقد روينا أن ملكاً كان يُكره الناس على أكل لحم الخنزير، فجيء برجل عالم، فقال له حاجب الملك: قد ذبحت لك جدياً فكل منه، فلما دخل قرب إليه فلم يأكل، فأمر بقتله، فقال له الحاجب: ألم أقل لك إنه جدي. فقال: ومن أين يعلم حالى من يقتدي بي؟!

ما يفعله التائب بعد الذنب

اعلم أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزماً وقصداً. وذلك الندم يـورث العلم بأن تكون المعاصي حائلًا بين الانسان وبين محبوبه.

⁽١) رواه مسلم بلفظ: «من سنّ في الاسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعله، من غير أن ينقص من أجورهم شيء. ومن سنّ في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينقص من أوزارهم شيءه.

والندم هو توجع القلب عند شعوره بفراق المحبوب. وعلامته طول الحزن والبكاء، فإن من استشعر عقوبة نازلة بولده أو من يعزَّ عليه، طال بكاؤه، واشتدت مصيبته، وأي عزيز أعز عليه من نفسه؟ وأي عقوبة أشد من النار؟ وأي سبب أدل على نزول العقوبة من المعاصي؟ وأي مخبر أصدق من رسول الله؟ ولو أخبره طبيب أن ولده لا يبرأ من مرضه، لاشتد في الحال حزنه، وليس ولده بأعز من نفسه، ولا الطبيب بأعلم من الله ورسوله، ولا الموت بأشد من النار، ولا المرض أدل على الموت من المعاصي على سخط الله، والتعرض بها للنار.

وينبغي للتائب أن يتفقد ما عليه من صلاة فائتة (١)، أو واقعة بغير شرطها؟ مثل أن يكون صلاها في ثوب نجس، أو بنية غير صحيحة، لجهله بذلك، فيقضيها.

وكذلك إن كان عليه صوم، أو زكاة، أو حــج، أو غير ذلك من الواجبات، يقضيها كلها، ويفتش عن ذلك ويتداركه.

وأما المعاصي، فينبغي أن يفتش من أول بلوغه عن كل معصية صدرت منه، وينظر فيها، فها كان من ذلك فيها بينه وبين الله تعالى، فالتوبة منه الندم والاستغفار.

ثم ينظر إلى مقادير ذنوبه، فيطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها، فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَتِ مُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّقَاتِ﴾ (هود: ١١٤) وقال النبي ﷺ: «أتبع السيئة الحسنة تحمها» (٢)!

 ⁽١) بشروط الحديث «من نسي صلاة، أو نام عنها، فكفارتها أن يصليها إذا ذكرها، وفي رواية:
 ولا كفارة لها إلا ذلك، وكلاهما صحيح (مج).

 ⁽٢) وهو بلفظ: «اتق الله حيثها كنت، واتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخلق حسن»
 رواه احمد والترمذي والحاكم عن أبي ذر وسنده حسن (مج).

مثال ما ذكرنا: أن يكفِّر سماع الملاهي بسماع القرآن ومجالس الذُّكر ويكفِّر شرب الخمر بالتصدق بالشراب الحلال، وعلى هذا فاسلك سبيل المضادة، فإنما الأمراضُ تعالى بضدها، فهذا حكم ما بينه وبين اللَّه تعالى.

وأما مظالم العباد، ففيها أيضاً معصية الله تعالى، لأنه ينهي عن ظلم العباد، فالظالم لهم قد ارتكب نهيه، فيتدارك ذلك بالندم والعزم على ترك مثل ذلك في المستقبل، والإتيان بالحسنات المضادة لتلك المظالم كما تقدم في القسم الأول، فيقابل إيذاء الناس بالإحسان إليهم، ويكفر غصب الأموال بالتصدق بمال الحلال، ويكفر تناول أعراضهم بالثناء على أهل الدين، ويكفر قتل النفوس بالعتق.

هـذا فيها يتعلق بحق اللَّه تعـالى. فإذا فعـل ذلك، لم يكفـه حتى يُخرج مظالم العباد.

ومظالمهم إما في النفوس، أو الأموال، أو الأعراض، أو إيذاء القلوب.

أما الأول: فإنه إذا قتل نفساً خطأ أوصل الدية _ إلى مستحقها. إما منه أو من عاقلته، وإن قتل عمداً، وجب عليه القصاص بشروطه، فعليه أن يبذل نفسه لولي الدم، إن شاء قتله، وإن شاء عفا عنه. ولا يجوز له إخفاء أمره، بخلاف ما لو زنا، أو سرق، أو شرب الخمر، أو باشر ما يجب فيه حد الله تعالى، فإنه لا يلزمه لصحة التوبة أن يفضح نفسه، بل عليه أن يستر نفسه، فإن رُفع أمره إلى الوالي حتى أقام عليه الحد، وقع ذلك موقعه، وكانت توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى، بدليل قصة ماعز والغامدية.

وكذلك حد القذف، لا بد فيه من تحكيم المستحق فيه.

الثاني: المظالم المتعلقة بالأموال، نحو الغصب، والخيانة، والتلبيس في المعاملات فيجب عليه رده إلى أصحابه والخروج عنه.

وليكتب إلى أصحاب المظالم وليؤد إليهم حقوقهم، ويستحلهم، فإن

كثر ظلمه بحيث لا يقدر على أدائه، فليفعل ما يقدر عليه من ذلك، ولم يبق له طريق إلا الاستكثار من الحسنات: لتُؤخذ منه في الاقتصاص يوم القيامة فتوضع في موازين أرباب المظالم، فإن لم تكف بذلك أخذ من سيئاتهم، فتوضع فوق سيئاته.

هذا حكم المظالم الثابتة في الذمة والأموال الحاضرة، فإن كان عنده مال من شيء من ذلك لم يعرف مالكه ولا ورثته، تصدق به عنه، وإن اختلط الحلال بالحرام، عرف قدر الحرام بالاجتهاد، وتصدق بمقداره.

الثالث: الجناية على الأعراض، وإيذاء القلوب، فعليه أن يطلب كل واحد منهم، وليستحله، وليعرفه قدر الجناية، فإن الاستحلال المبهم لا يكفي. وربحا لو عرف ذلك لم تطب نفسه بالإحلال، إلا أن تكون تلك الجناية إذا ذكرت كثر الأذى، كنسبته إلى عيب من خفايا عيوبه، أو كزن بجاريته، فليجتهد في اللطف به والإحسان إليه، ثم ليستحله مبها، ولا بد أن يبقى في مثل ذلك مظلمة تجبر بالحسنات يوم القيامة، وكذلك من مات من هؤلاء، فإنه يفوت أمره؛ ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات، لتؤخذ منه عوضاً يوم القيامة، ولاخلاص إلا برجحان الحسنات.

تمام التوبة وشروطها

«ومن شروط التوبة الصحيحة، العزم على أن لا يعود في المستقبل إلى تلك الذنوب، ولا إلى أمثالها، ويعزم على ذلك عزماً مؤكداً.

مثال ذلك المريض الذي يعلم أن الفاكهة تضره في مرضه، فيعزم عزماً جزماً أن لا يتناول شيئاً من الفاكهة ما دام في مرضه ذلك، فإن هذا العزم يتأكد في الحال، وإن كان يتصور أن تغلبه الشهوة في تالي الحال، ولكن لا يكون تائباً ما لم يتأكد عزمه في الحال.

وقد ذكرنا أن التائب ينبغي له أن يأتي بحسنات تضاد ما عمل من السيئات، لتمحوها وتكفرها، والحسنات المكفرة تكون بالقلب واللسان

والجوارح على حسب السيئات، فها كان بالقلب، فنحو التضرع والتذلل، وأما اللسان، فالاعتراف بالظلم والاستغفار، مثل أن يقول: رب ظلمت نفسى فاغفر لي.

وجاء في الحديث، أن النبي على قال: «ما من رجل يذنب ذنباً، فيتوضأ ويحسن الوضوء، ثم يصلي ركعتين، ويستغفر الله عز وجل، إلا غفر له»(١).

وأما الجوارح فبالطاعات، والصدقات، وأنواع العبادات».

دواء التوبة وطريق علاج حل عقدة الإصرار

اعلم أنه لا يقف على الدواء من لا يقف على الداء، إذ لا معنى للدواء إلا بمناقضة أسباب الداء، ولا يبطل الشيء إلا بضده، وسبب الاصرار الغفلة والشهوة، ولا تضاد الشهوة إلا بالصبر على قطع الأسباب المحركة، للشهوة، والغفلة رأس الخطايا، فلا دواء إذاً للتوبة إلا معجون يعجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر، كما يجمع في السكنجبين حلاوة السكر وحموضة الخل، فيحصل بمجموعها قمع الصفراء.

والأطباء لهذا المرض هم العلماء: لأنه مرض القلوب، ومرض القلوب أكثر من مرض الأبدان، وإنما صار مرضها أكثر لأمور:

أحدها: أن المريض لا يدري أنه مريض.

الثاني: أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم، بخلاف مرض الأبدان، فإن عاقبته موت مشاهد ينفر الطبع عنه، وما بعد الموت غير مشاهد. فقلت النفرة عن الذنوب وإن علم مرتكبها، فلذلك تراه يتكل على فضل الله في

 ⁽١) وتمامه، ثم قرأ: ﴿والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله، فاستغفروا للنوبهم﴾ (آل عمران) ١٣٥) رواه الترمذي وابن ماجه، إلا أن ابن ماجه لم يذكر الآية وسنده حسن (مم).

مرض القلب، ويجتهد في علاج البدن من غير إتكال.

الأمر الثالث: وهو الداء العضال: فقد الطبيب، فإن الأطباء هم العلماء، وقد مرضوا في هذه الأعصار! لأن الداء المهلك هو حب الدنيا، وقد غلب هذا الداء على الأطباء، فلم يقدروا من تحذير الخلق استنكافاً أن يقال لهم: فها لكم تأمرون بالعلاج وتنسون أنفسكم؟ فهذا السبب عمّ الداء وانقطع الدواء.

فإن قيل: فها الذي ينبغى للواعظ سلوكه مع الخلق؟

فالجواب: أن ذلك يطول، لكنا نشير إلى الأعمال النافعة في ذلك، وهي أربعة أنواع.

الأول: أن يذكر ما في القرآن العزيز من الآيات المخوفة للمذنبين، وما ورد في الأخبار والآيات من ذلك، ويمزج ذلك بمدح التائبين.

النوع الثاني: حكايات الأنبياء عليهم السلام، وما أصابهم من المصائب بسبب الذنوب، كحال آدم عليه السلام، وما لقي في عصيانه من الإخراج من الجنة، وما جرى لداود عليه السلام، ويوسف عليه السلام، ولم يذكر القرآن والأخبار هذه الأشياء إلا للاعتبار.

وكان من سعادتهم معالجتهم بذلك، والأشقياء يُمهلون ليزدادوا إثهاً، ولأن عذاب الآخرة أشد، فينبغي أن يكثر من هذا على سماع المصرين، فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة.

النوع الثالث: أن يقرر عندهم، أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع، وأن كل ما يصيب العبد من المصائب، فهو بسبب جناياته (غالباً)، فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة، يخاف عقوبة الدنيا أكثر لفرط جهله. والذنوب قد يتعجل في الدنيا شؤمها، كما قال النبي ﷺ: «إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»(١)؟.

⁽١) رواه أحمد والنساثي وغيرهما بأطول من هذا، وإسناده ضعيف (مج).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله على: «إن المؤمن إذا أذنب كان نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب وفزع واستغفر، صقل قلبه، فإن زاد زادت حتى تعلو قلبه، وذلك الران الذي ذكر الله تعالى في كتابه: ﴿كَلّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُومِهم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴾ (١) (المطففين: ١٤).

وقال الحسن رحمه الله: الحسنة نور في القلب، وقوة في البدن، والسيئة ظُلمة في القلب، ووهن في البدن.

وقال بعض الصوفية: نظرت إلى غلام نصراني حسن الوجه، فوقفت أنظر إليه، فمر بي ابن الجلاء الدمشقي، فأخذ بيدي فاستحيت منه، فقلت: يا أبا عبد الله، سبحان الله! تعجبت من هذه الصورة الحسنة، وهذه الصفة المحكمة، كيف خُلقت للنار.

فغمز يدي، وقال: لتجدّن عقوبتها بعد حين. فقال: فعوقبت بهـا بعد ثلاثين سنة.

النوع الرابع: ذكر ما ورد من العتوبات في آحاد الذنوب: كشرب الخمر، والزنى، والقتل، والكِبر، والحسد، والغيبة.

وينبغي أن يكون طبيباً يعلم الداء، ويدري كيف يصنع الدواء، فإن رجلًا سأل النبي على فقال: أوصني. قال: لا تغضب(٢).

وقال آخر: أوصني فقال: عليك باليأس مما في أيدي الناس(٣).

فكأنه تخايل من الأول مخايل الغضب.

⁽١) رواه الترمذي وابن ماجه وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح، وهو حسن (مم).

⁽٢) رواه البخاري.

⁽٣) رواه الترمذي وابن ماجه بلفظ: جاء رجل، فقال: يا رسول الله! دلني على عمل إذا أنا عملته أحبني الله، وأحبني الناس. قال: «ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيها عند الناس يحبك الناس» وهو صحيح لغيره (مم).

وفي الثاني مخايل الطمع، فإن قلت: فإن كان الواعظ في جميع، أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه، فكيف يفعل؟ فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه، إما على العموم، وإما على الأكثر، فإن في علوم الشرع أغذية وأدوية للكافة، والأدوية لأرباب العلل، ومثاله ما جاء أن رجلًا قال لأبي سعيد الخدري، أوصني. قال: عليك بتقوى الله عز وجل، فإنها رأس كل خير. وعليك بالجهاد، فإنه رهبانية الاسلام، وعليك بالقرآن، فإنه نور لك في أهل الأرض، وذِكر لك في أهل الساء، وعليك بالصمت إلا من خير، فإنك بذلك تغلب الشيطان.

«وهذا الذي ذكرنا هو العلاج، فيبقى علاج الشهوة، وعلاجها يؤخذ عا ذكرنا في كتاب رياضة النفس، ولا بد من الصبر، فإن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره، وإنما يحمله على ذلك شدة شهوته، أو غفلته عن مضرَّته، ولا بد من مرارة الصبر، وكذلك يعالج الشهوة في المعاصي (كالشاب مثلاً إذا غلبته الشهوة، فصار لا يقدر على حفظ عينه وقلبه وجوارحه في السعي وراء الشهوة فينبغي أن يستحضر المخوفات التي جاءت في كتاب الله تعالى، وسنة رسوله على فإذا اشتد خوفه تباعد عن الأسباب المهيجة للشهوة».

والذي يهيج الشهوة من خارج، هو حضور المشتهى، والنظر إليه. وعلاجه الجوع والصوم الكثير، وكل ذلك لا يتم إلا بصبر، ولا يصبر إلا عن خوف، ولا يخاف إلا عن علم، ولا يعلم إلا عن بصيرة، فأول الأمر حضور مجالس الذّكر، والاستماع بقلب مجرد من الشواغل، ثم التفكر فيها قيل، فيبعث الخوف، ويسهل الصبر، وتتيسر الدواعي لطلب العلاج وتوفيق الحق سبحانه من وراء ذلك كله.

فمن أُعطي من قلبه حسن الإصغاء، واستشعر الخوف، فاتقى، وانتظر الثواب، وصدّق بالحسنى، فسييسره اللّه تعالى لليسرى، وأما من بخل واستغنى، وكذّب بالحسنى، فسييسره اللّه للعُسرى..

وإذ كان الصبر ركناً من أركان دوام التوبة، فلا بد من بيان الصبر، فنذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى.

فإن قيل: ما بال الإنسان يقع في الذنب مع علمه بقبح عواقبه؟

فمن ذلك أجوبة. منها أن العقاب الموعود ليس بحاضر، ومنها أن المؤمن إذا أذنب لا بد أن يعزم على التوبة، وقد وُعد أن التوبة تجبر ما فعل، وطول الأمل غالب على الطباع، فلا يزال يسوّف بالتوبة، فلما رجا التوبة أقبل على الذنب.

ومنها أنه يرجو عفو اللَّه عنه، وعلاج هذه الأسباب أن يفكر في نفسه أن كل ما هو آتٍ قريب، وأنه لا يأمن هجوم الموت، ويعالج التسويف. والمسوف يبني الأمر على ما ليس إليه، وهو البقاء، فلعله لا يبقي، وإن بقي فربما لا يقدر على الترك غداً كما يقدر عليه اليوم، وهو عاجز في الحال لغلبة الشهوة وهي غير مفارقة لمه غداً؟ بل تتأكد بالاعتياد، ومن هذا هلك المسوفون، لأنهم يظنون الفرق بين المتماثلين، وما مثال المسوف إلا مثال من احتاج إلى قلع شجرة فرآها قوية لا تنقلع إلا بمشقة شديدة، فقال: أؤخرها سنة، ثم أعود إليها، وهو لا يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها، وهو كلما طال عمره ازداد ضعفه، فالعجب من عجزه مع قوته عن مقاومتها في حال ضعفها، كيف ينتظر الغلبة إذا ضعف وقويت!

وأما انتظار عفو الله تعالى، فعفو الله سبحانه ممكن، إلا أن الإنسان ينبغي له الأخذ بالجزم، وما مثال ذلك إلا كمثل رجل أنفق أمواله كلها، وترك نفسه وعياله فقراء، ينتظر من الله تعالى أن يرزقه العثور على كنز في خربة، وهذا ممكن، إلا أن صاحبه ملقب بالأحمق، والله سبحانه وتعالى أعلم.

قُم في السدّجى يا أيها المتعبد قم وادعُ مولاك الذي خلق الدُّجى واستغفر اللَّه العظيم بندِّلة واندُب ما مضى واندُب ما مضى واضرع وقُل: يار ب عفوك إنني أسفاً على عمري الذي ضيعته أسفاً على عمري الذي ضيعته يا رب لم أحسب مرارة مصدر(٢) يا رب إن أبعدْتُ عنك، فإن لي يا رب مالي غير لطفيك ملجأ يا رب مالي غير لطفيك ملجأ يا رب هب لي توبة أقضي بها يا رب هب لي توبة أقضي بها أنت الحبير بحال عبدك إنه أنت المجيب لكل داع يلتجي من أي بحر غير بحرك نستقي من أي بحر غير بحرك نستقي

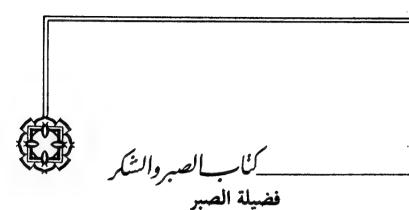
حتى متى فوق الأسرة ترقُدُ والصبح وامض فقد دعاك المسجد واطلب رضاه فإنه لا يحقد بالأمس واذكر ما يجيء به الغد من دون عفوك ليس لي ما يعضد تحت الذنوب، وأنت فوقي ترصد عن زَلّة قد طاب فيها المورد بإزاء عين لم تزل تتردد طمعاً برحمتك التي لا تَبعُد ولعالي عن بابه لا أطرد ولعالي عن بابه لا أطرد يشاعلي، به جلالك يشهد بسلاسل الوزر (٣) الثقيل مُقيدُ أنت المُجير لكل من يَستنجد ولأي باب غير بابك نقصد أو

⁽١) من اختيارنا.

⁽٢) أي عاقبة.

⁽٣) الإثم.

•		
	·	



وصف اللّه تعالى الصابرين بأوصاف كثيرة، وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً، وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له، فقال عز من قاثل: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَثِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ﴾ (السجدة: ٢٤) وقال تعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٦) وقال تعالى ﴿أَوْلَنْكَ يُوْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ إِبَا صَبَرُواْ ﴾ (النحل: ٥٠) وقال تعالى ﴿أَوْلَنْكَ يُوْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ إِبَا صَبَرُواْ ﴾ (القصص: ٥٥) وقال تعالى: ﴿إِنَّا يُسُوقِي الصَّابِرُونَ الْجُرَهُم بِغَيْر حِسَابِ إلا الصبر، حِسَابِ ﴾ (الزمر: ١٠) فيا من قُربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر، ووعد الصابرين بأنه معهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّنِرِينَ ﴾ (الأنفال: ووعد الصابرين بأنه معهم. فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّنِرِينَ ﴾ (الأنفال: صَلَوْتُ مِّن رَبِّهِم وَرَحْةٌ وَأُونَائِكَ هُمُ ٱلمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٧).

عن خباب بن الأرت قال: أتينا رسول الله على وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة، فشكونا إليه، فقلنا: يا رسول الله! ألا تدعو الله تستنصره لنا، فجلس، محمراً لونه، ثم قال: «إن من كان قبلكم ليُؤتى بالـرجل، فيُحفر له في الأرض حُفرة، ويجاء بالمنشار فيوضع على رأسه، فيُجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه!!».

حقيقة الصبر وأقسامه

اعلم أن الصبر عبارة عن ثبات باعث المدِّين في مقابلة باعث الهوى،

وباعث الدين هو ما هُدي إليه الإنسان من معرفة الله ورسوله، ومعرفة المصالح المتعلقة بالعواقب وهي الصفة التي بها فارق الإنسان البهاثم في قمع الشهوات. وباعث الهوى هو مطالبة الشهوات بمقتضياتها. فمن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة التحق بالصابرين. وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين.

ثم إن باعث الدِّين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال:

وقد قيل: الصبر بالله غناء، والصبر لله بقاء، والصبر مع الله وفاء، والصبر عن الله جفاء، وقد قيل في معناه.

الصبر عنك فمذموم عواقبه والصبر في سائر الأشياء محمود وقيل أيضاً:

الصبر يحمل في المواطن كلها إلا عمليك فإنه لا يحمل

(أحدها): أن يقهر داعي الهوى فلا تبقى له قوة المنازعة، ويتوصل إليه بدوام الصبر، وعند هذا يقال «من صبر ظفر» والواصلون إلى هذه الرتبة هم الصّديقون المقربون الذين قالوا ربنا اللّه ثم استقاموا.

(الحالة الثانية): أن تَغلِب دواعي الهوى وتسقط بالكلية منازعة باعث الدين، فيسلم الإنسان نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد، وهؤلاء هم الغافلون وهم الأكثرون وهم السذين استرقتهم شهواتهم، وغلبت عليهم شقوتهم فحكموا أعداء الله في قلوبهم، أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالأخرة فخسرت صفقتهم.

(الحالة الثالثة): أن تكون الحرب سِجالاً بين الجندين، فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه، وهذا يُعد من المجاهدين لا من الطافرين، وأهل هذه الحالة هم الذين ﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَيئِاً عَسَى اللّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾.

والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلا، إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها تجاهد مقتضى الشهوات، وهذا قد خلق له ذلك وعطّله فهو الناقص حقاً، وإذا دامت التقوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسنى تيسر الصبر(١).

بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغني عنه في حال من الأحوال

إعلم أن جميع ما يَلقي العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين: ما يوافق هواه وما لا يوافقه بل يكرهه، وهو يحتاج إلى الصبر في كل واحد منها، وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن هذين النوعين، فإذاً لا يستغنى قط عن الصبر.

(١) هناك أحاديث عديدة ذكرها صاحب الإحياء عن الصبر، وهي غير صحيحة، ونذكر فيها يلي بعض الأحاديث الصحيحة في هذا الموضوع:

عن صهيب، قال: قال رسول الله (義): وعجباً لأمر المؤمن! إنّ أمره كله له خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء، صبر، فكان خيراً له، (養) وعن ابن مسعود، قال: كأني أنظر إلى رسول الله (養) يحكي نبياً من الأنبياء، ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون (٢) وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله (養): «ليس الشديد بالصَّرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب» (٣).

عن عروة قال: سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله (義) قال: رأيت عقبة بن معيط جاء إلى النبي (義)، وهو يصلي، فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فجاء أبو بكر فدفعه عنه (غنه وعن أنس قال: لقد ضربوا رسول الله (義) حتى غشي عليه: فقام أبو بكر فجعل ينادي: ويلكم أتقتلون رجلًا أن يقول: ربي الله (ه).

⁽۲) رواه مسلم.

⁽٣) رواه البخاري ومسلم، وقد اشتهر ذلك عن نبينا محمد (義) ذلك (ولم يصح) (مم).

⁽٤) رواه البخاري ومسلم، والصرعة: البطل المصارع.

⁽٥) رواه البزاز وأبو نعيم ولم أجده في كتب السنن.

(النوع الأول): ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشيرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا، وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور، فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها المباحة، أخرجه ذلك إلى البطر والطغيان، ولذلك حذّر الله عباده من فِتنة المال والزوج والولد، فقال تعالى: ﴿ يَنَا أَلُهُ مُ اللّهُ عَلَى اللّهُ وَاللّهُ عَلَى اللّهُ وَلَا أَوْلَدُكُمْ عَن ذِكُر اللّهِ وَلاَ أَوْلَدُكُمْ عَن ذِكُر اللّهِ وَلاَ أَوْلَدُكُمْ عَن ذِكُر اللّهِ وَاللّهُ وَلّهُ وَاللّهُ وَل

(النوع الثاني): ما لا يوافق الهوى والطبع، وذلك إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصي، أولا لا يرتبط باختياره كالمصائب، أو لا يرتبط باختياره، ولكن له اختيار في إزالته كالتشفي من المؤذي بالانتقام منه، فهذه ثلاثة أقسام:

(القسم الأول): ما يرتبط باختياره، وهو ضربان:

(الضرب الأول): الطاعة. والعبد يحتاج إلى الصبر عليها لأن منها ما تنفر منه النفس بسبب الكسل كالصلاة، أو بسبب البُخل كالزكاة، أو بسببها جميعاً كالحج والجهاد، وكل ذلك يحتاج إلى صبر.

(الضرب الثاني): المعاصي. وقد جمع اللّه تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الفَحْشَآءِ وَالمُنْكَرِ وَالبَعْي ﴾ فما أحوج العبد إلى الصبر عنها سيها ما لا يثقل منها على النفس كالغيبة والكذب والحِراء، والثناء على النفس

تعريضاً وتصريحاً، وأنواع المزاح المؤذي للقلوب، وضروب الكلمات التي يقصد بها الازدراء والاستحقار والقدح في الموتى، ولمصير ذلك معتاداً في المحاورات، بُطل استقباحها من القلوب لعموم الأنس بها، وهي من أكبر الموبقات.

(القسم الثاني): ما لا يرتبط هجومه باختياره وله اختيار في دفعه، كما لو أُذي بفعل أو قول، وجُني عليه في نفسه أو ماله، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً، وتارة يكون فضيلة. قال تعالى: ﴿وَآصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَآهْجُرْهُمْ هَجْراً جَبِيلاً ﴾ (المزمل: ١٠) وقال تعالى: ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ اللَّذِينَ أُوتُواْ أَذَى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتُقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦) أي تصبروا على المكافأة. ولذلك مدح الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصاص وغيره، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بَيثل مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ هَلُو خَيرً للطَّيْرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦).

قال أبو حامد الغزالي: رأيت في الانجيل ـ وهـ و ما ينسب إلى عيسى عليه السلام: «لا تقاوم الشر بالشر، بل من ضربك على خدك الأيمن، فحوّل إليه الأيسر، ومن أخذ رداءك، فأعطه إزارك، ومن سخرك ميلاً فسر معه ميلين»(١).

(القسم الشالث): ما لا يدخل تحت حصر الاختيار كالمصائب، مثل موت الأعزة، وهلاك الأموال، وزوال الصحة بالمرض وعمي العينين وفساد الأعضاء وسائر أنواع البلاء. فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر، وإنما تنال درجة الصبر في المصائب بترك الجزع وشق الجيوب وضرب الخدود، والمبالغة في الشكوى وإظهار الكآبة وتغيير العادات في الملبس والفرش

⁽١) سامح الله أبا حامد الغزالي على هذا الاستدلال، فإن العفو المرغوب فيه شرعاً هو ما كان عند المقدرة، وإلا كان ضعفاً غير مشروع قال سبحانه: ﴿والذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون﴾ (الشورى: ٣٩).

والمطعم، لأن هذه الأمور داخلة تحت اختياره. فينبغي أن يجتنبها جميعها، ويُظهر الرضاء بقضاء اللّه تعالى، ويبقى مستمراً على عادته، ويعتقد أن ذلك وديعة فاستُرجعت. كها جاء أن أم سليم رحمها اللّه قالت: توفي ابن لي، وزوجي أبو طلحة غائب، فقمت فسجيته في ناحية البيت، ثم حضر أبوه، فهيأت له إفطاره فجعل يأكل، فقال: كيف الصبي؟ فقلت: بحمد الله لم يكن منذ اشتكى بأسكن منه الليلة، ثم تصنّعت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك، حتى أصاب مني حاجته. ثم قلت: ألا تعجب من جيراننا؟ قال: مالهم؟ قلت: أعيروا عارية فلها طُلبت منهم واسترجعوا جزعوا: فقال بئس ما صنعوا. فقلت: هذا ابنك كان عنارية من اللّه تعالى وإن اللّه قبضه إليه. فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول اللّه يَشِيُ فأخبره، فقال: «اللهم فحمد الله واسترجع، ثم غدا على رسول اللّه يَشِيُ فأخبره، فقال: «اللهم على قله في ليلتهما» قال الراوي: فلقد رأيت لهم بعد ذلك في المسجد سبعة، كلهم قد قرؤوا القرآن»(١).

ولا يخرجه عن حد الصابرين توجُع القلب، ولا فيضان العين بالدمع، لأن ذلك مقتضى البشرية. ولذلك لما مات إبراهيم ولد النبي على فاضت عيناه، فقيل له في ذلك، فقال: «هذه رجمة، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»(٢) بل ذلك لا يخرج أيضاً عن مقام الرضاء.

وقد ظهر لك بهذه التقسيمات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال، حتى من اعتزل وحده لا يستغني عن الصبر على وساوس الشيطان باطناً، فإن اختلاج الخواطر لا يسكن، ولا ينزال في شغل دائم بسببها يضيع به الزمان، وقد يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات، ولا تنظنن أن الشيطان يخلو عنه قلب فارغ، بل هو سيال يجري من ابن آدم مجرى الدم، وسيلانه مثل الهواء في القدح، فإنك إن أردت أن يخلو القدح عن الهواء من

⁽١) رواه البخاري بنحوه.

⁽٢) الحديث طويل رواه البخاري ومسلم، وهنو بلفظ: وهذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده الرحماء فإنما يرحم الله من عبادة الرحماء.

غير أن تشغله بالماء وبغيره، فقد طمعت في غير مطمع، بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة، فكذلك القلب المشغول بفكر مهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان، وإلا فمن غفل ولو في لحظة، فليس له في تلك اللحظة قرين إلا الشيطان. ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَناً فَهُو لَهُ قَرِينٌ ﴾ (الزخرف: ٣٦).

وقال بعض الحكاء: «إن اللَّه تعالى يبغض الشاب الفارغ» وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بمباح يستعين به على دينه، كان ظاهره فارغاً ولم يبق قلبه فارغاً، بل يعشش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزدوج أفراخه أيضاً وهكذا. قال أحدهم: «هي نفسك إن لم تشغلها شغلتك» فإذاً حقيقة الصبر وكماله، الصبر عن كل حركة مذمومة، وحركة الباطن أولى بالصبر عن ذلك، وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت. نسأل الله حسن التوفيق بمنه وكرمه.

جزاء الصبر

قد قال عليه الصلاة والسلام: «من يرد الله به خيراً يصب منه (١٠).

وقريب من هذا القسم، الصبر على أذى الناس، كالـذي يُؤذى بقول، أو فعل، وجناية على نفسه أو ماله، والصبر على ذلك يكون بترك المكافآت.

والصبر على أذى الناس من أعلى المراتب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُواْ وَتَتَقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَرْمِ ٱلْأُمُورِ ﴾ (آل عمران: ١٨٦). وقال: ﴿وَلَئِنَ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾ (الحجر: ٩٧). وقال: ﴿وَلَئِن صَبْرُتُمْ لَهُو خَيْرٌ لِلصَّبْرِينَ ﴾ (النحل: ١٢٦).

ومن أنواع الصبر: الصبر على المصائب، عن عائشة قالت: قال رسول الله عنه المام، إلا كفَّر اللَّه عز وجل بها عنه، حتى

⁽١) رواه احمد والبخاري.

الشوكة يشاكها» (١) وقال (ﷺ): «ما يصيب المسلم، من وصب، ولا نصب، ولا وهم، ولا حزن، ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفّر اللّه له من خطاياه» (٢).

وقال (ﷺ): «لا يزال البلاء بالمؤمن أو المؤمنة، في جسده وفي ماله وفي ولده، حتى يلقي الله وما عليه خطيئة» (٣). وفي حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قلت: يارسول الله: أي الناس أشد بالاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلي الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صُلباً، أشتد بالاؤه، وإن كان في دينه رقة ابتلي على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض وليس عليه خطيئة» (٤).

آداب الصبر

ومن آداب الصبر استعماله في أول صدمة، لقوله عليه السلام: «الصبر عند الصدمة الأولى»(٥).

ومن الآداب. الاسترجاع(٦) عند المصيبة، لحديث أم سلمة رضي الله عنها، (ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول: (إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم اأجرني في مصيبتي واخلف لي خيراً منها، إلا آجره الله في مصيبته وأخلف له خيراً منها» (٧).

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) رواه التبرمذي وقبال حديث حسن صحيح، وصححه الحاكم ووافقه الذهبي ورواه أحمد وسنده حسن (مم).

⁽٤) أحمد والبخاري والنسائي.

 ⁽٥) رواه البزار وأبو يعلى ورواه البزار بلفظ «الصبر عند أول صدمة» وكلاهما صحيح (مج).

 ⁽٦) الاسترجاع: هو أن يقول: ﴿إِنَا لَلَّهُ وإِنَّا إِلَيْهُ رَاجِعُونَ﴾.

⁽Y) رواه مسلم.

ومن الأدب، سكون الجوارح واللسان. فأما البكاء فجائز. قال بعض الحكماء: الجزع لا يرد الفائت، ولكن يسر الشامت.

ومن حسن الصبر، أن لا يظهر أثر المصيبة على المصاب، كما فعلت أم سليم امرأة أبي طلحة لما مات ابنها، وحديثها مشهور.

وقال ثابت البناني: مات عبد الله بن مطرف، فخرج مطرف على قومه في ثياب حسنة، وقد ادهن، فغضبوا وقالوا: يموت عبد الله، ثم تخرج في ثياب من هذه مدهناً؟ قال: أفأستكين لها؟ وقد وعدني ربي تبارك وتعالى ثلاث خصال، كل خصلة منها أحب إليً من الدنيا وما فيها:

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿ ٱلَّـذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَجِمُونَ، أُوْلَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ (البقرة: ١٥٦).

وكان صلة بن أشيم في غزوة له ومعه ابنه، فقال: أي بني! تقدم فقاتل حتى أحتسبك، فحمل فقاتل حتى قتل، ثم تقدم فقتل، فاجتمع النساء عند أمه معاذة العدوية، فقالت: مرحباً إن كنتن جئتن لتهنئتي، وإن كنتن جئتن لغير ذلك فارجعن!.

وإذا كانت المصيبة مما يمكن كتمانها، فكتمانها من نعم الله عزّ وجل الخفية.

(الأثار): قال علي رضي اللَّه عنه: «من إجلال اللَّه ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك، ولا تذكر مصيبتك».

وقال الأحنف: لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة، ما ذكرتها لأحد.

وقال رجل للامام أحمد: كيف تجدك يا أبا عبىد اللَّه؟ قال: بخير في عافية، عافية. فقال له: حمت البارحة؟ قال: إذا قلت لك: أنا في عافية، فحسبك، لا تحرجني إلى ما أكره.

وقال الحكماء: من كنوز البر كتمان المصائب، وقد كانوا يفرحون بالمصائب نظراً إلى ثوابها، وقد جاء في الحديث: «من يُرد الله به خيراً يُصب منهورة في ذلك.

منها ما جاء أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز، لما مات دفنه عمر، وسوّى عليه، ثم استوى قائماً، فأحاط به الناس، فقال: رحمك الله، يا بني! قد كنت براً بأبيك، والله ما زلت مذ وهبك الله لي مسروراً بك، ولا والله ما كنت قط أشد بك سروراً، ولا أرجي بحظي من الله تعالى فيك منذ وضعتك في هذا المنزل الذي صيّرك الله إليه.

فإن قيل: إن كان المراد من الصبر عدم كراهية المصائب، فلا قدرة للآدمي على ذلك، وإن كان الفرح بوجودها كها حكيتم، فهو أبعد وأبعد.

والجواب: أن الصبر لا يكون إلا عن محبوب أو على مكروه، ولا ينهي عما لا يدخل تحت الكسب، وهو ارتجاع الباطن، وإنما ينهي عن المكتسب، كشق الجيوب، ولطم الخدود، والقول باللسان، فأما ما ذكرنا من فرح بعضهم، فذلك فرح شرعي، لا طبعي، إذ البطبع لا بدله من كراهة المصائب.

ومثال هذا، مثال رجل مريض وصف له شربة لمرضه، فسعى في طلب حوائجها، وأنفق عليها مالاً، فلما تمت فرح بتمامها وتناولها لما يرجو لها من العافية، فأما طبعه، فما زالت عنه كراهة التناول أصلاً، ولو أن ملكاً قال لرجل فقير: كلما ضربتك بهذا العود اللطيف ضربة، أعطيتك ألف دينار، لأحب كثرة الضرب، لا لأنه لا يؤلم، ولكن لما يرجو من عاقبته، وإن أنكاه الضرب، فكذلك السلف طلبوا الثواب، فهان عليهم البلاء.

والصبر أقسام، وقد جمع الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَٱلصَّبِرِينَ فِي النَّهُ مِنْ فِي النَّاسَاءِ (أي المصيبة) وَٱلضَّرَّآءِ (أي الفقر) وَحِينَ ٱلْبَأْسِ (أي المحاربة)أُولَـٰئِكَ

⁽١) رواه البخاري.

آلَّذِينَ صَدَقُواْ ، وَأُوْلَئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (البقرة: ١٧٧).

بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه

إعلم أن الذي أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقاً، فتحصيله ممكن بمعجون العلم والعمل، فمنها تركب الأدوية لأمراض القلوب كلها، فيحتاج كل مرض إلى علم وعمل يليق به، فإن العلل إذا اختلفت اختلف العلاج، إذ معنى العلاج مضادة العلة.

ونضرب لك مثالاً، فنقول: إذا افتقر الإنسان إلى الصبر عن شهوة الجماع، وقد غلبت عليه بحيث لا يملك فرجه ولا عينه ولا قلبه، فعلاج ذلك بثلاثة أشياء:

أحدها: مواظبة الصوم، والاقتصار عند الإفطار على قليل من الطعام.

الثاني: قطع أسبابه المهيجة له، فإنه إنما يهيج بالنظر، والنظر بالقلب، والقلب يحرك الشهوة، ودواء هذه الاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهاة، فإن النظر سهم مسموم من سهام إبليس، ولا يمنع عنه إلا غمض الحفن أو الهرب.

الثالث: تسلية النفس بالمباح من حبس المشتهي، وذلك بالنكاح، وكل ما يشتهيه الطبع من الحرام، ففي المباحات غنية عنه، وهذا هو العلاج الأرفع في حق أكثر الناس، لأن قطع الغذاء يضعف، ولا يقمع الشهوة، بخلاف هذا.

وينبغي للانسان أن يعوِّد نفسه المجاهدة، فإن من عوَّد نفسه مخالفة الهوى، غلبها متى أراد.

واعلم أن أشد أنواع الصبر والمجاهدة: كف الباطن من حديث النفس، وإنما يشتد ذلك على من تفرغ واعتزل، فان الوساوس لا تزال تحادثه، ولا علاج لهذا إلا قطع العلائق، وجعل الهم هماً واحداً، وصرف

الفكر إلى ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع اللّه تعالى، وجميع أبواب معرفة اللّه تعالى، حتى إذا استولى ذلك على قلبه، دفع اشتغاله بذلك محادثة الشيطان ووسواسه، وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينجيه إلا الأوراد المتواصلة، من القراءة، والأذكار، والصلوات، ويحتاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور.

بيان فضيلة الشكر

إعلم أن اللَّه تعالى قرن الشكر بالذِّكر في كتابه، فقال تعالى: ﴿ فَاذَكُرُونِ اللَّهُ تِعَالَى وَلاَ تَكْفُرُونِ ﴾ (البقرة: ١٥٢) وقال تعالى: ﴿ مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَءَامَتُمْ ﴾ (النساء: ١٤٧) وقال تعالى: ﴿ مَنْ جُزِي الشَّكرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٥) وقطع تعالى بالمزيد مع الشكر فقال سبحانه: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ (إسراهيم: ٧) وفي الحديث «الطاعم الشاكر بمنزله الصائم الصابر» (١٠).

حقيقة الشكر

إعلم أن الشكر ينتظم من علم وحال وعمل، فالعلم معرفة النعمة من المنعم، والحال هو الفرح الحاصل بإنعامه، والعمل هو القيام بما هو مقصود المنعم ومحبوبه، ويتعلق ذلك العمل بالقلب وبالجوارح واللسان: أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق، وأما باللسان فإظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه، وأما بالجوارح فباستعمال نعم الله تعالى في طاعته، والتوقي من الاستعانة بها على معصيته.

ولا تظنن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب! فسبحان الله كلمة تدل على التقديس، ولا إله إلا الله كلمة تدل على معرفة النعمة من

⁽١) رواه أمسلم.

الـواحد الحق، فـالحسنات بـإزاء هـذه المعـارف التي هي من أبـواب الإيمـان واليقين.

وإعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك عن الأفعال، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء، فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلاً في تيسير ذلك وايصاله إليه، فهو إشراك في النعمة، فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه. بل منه بوجه، ومن غيره بوجه، فيتوزع فرحه عليها، فلا يكون موحداً في حق الملك...

فكل من وصل إليك نعمة من نعم الله تعالى على يده، فهو مضطر! إذ سلط الله عليه الإرادة، وهيج عليه الدّواعي، وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن يعطيك ما أعطاك. وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد، لا يجد سبيلًا إلى تركه. وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك. . فإذا عرفت الأمور كذلك فقد عرفت الله تعالى، وعرفت فعله، وكنت موحداً، وقدرت على شكره، بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكراً.

قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان، وسبحان الله والحمد لله تملأان أو تملأ ما بين السهاء والأرض»(١).

بيان الشكر في حق الله تعالى

إعلم أن العبد لا يكون شاكراً لمولاه إلا إذا استعمل نعمته في محبته، أي فيها أحبه لعبده لا لنفسه، وأما إذا استعمل نعمته فيها كرهه فقد كفر نعمته، كها إذا أهملها وعطّلها، وإن كان هذا دون الأول إلا أنه كفران للنعمة بالتضييع، وكل ما خُلق في الدنيا إنما خلق آلة للعبد ليتوصل به إلى سعادته.

ثم إن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يجبه الله تعالى عها يكرهه، ولتمييز ذلك مدركان: (أحدهما) السمع ومستنده الآيات والأخبار.

⁽۱) رواه مسلم.

(الشاني) بصيرة القلب، وهو النظر بعين الاعتبار لإدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه، إذ ما خلق شيئاً في العالم إلا وفيه حكمة، وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب، وبالجملة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر.

السبب الصارف للخلق عن الشكر

واعلم أن الخلق لم يقصروا عن شكر النعمة إلا للجهل والغفلة، فإنهم منعوا بذلك عن معرفة النعم، ولا يتصور شكر النعمة بدون معرفتها، ثم إن عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول أحدهم بلسانه: الحمد لله، والشكر لله، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن تستعمل النعمة في إتمام الحكم التي أريدت بها، وهي طاعة الله تعالى.

أما الغفلة عن النعم فلها أسباب:

منها: أن الناس لجهلهم لا يعدون ما يعم الخلق في جميع أحوالهم نعمة، فلذلك لا يشكرون على جملة مما ذكرناه من النعم، لأنها عامة للخلق، مبذولة لهم في جميع أحوالهم، فلا يرى واحد منهم اختصاصاً به، فلا يعده نعمة، فلا تراهم يشكرون الله على رَوْح الهواء، ولو أخذ بمخنقهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا، ولو حبسوا في حمام أو بئر ماتوا غماً، فإن ابتلي أحدهم بشيء من ذلك ثم نجا، قدر ذلك نعمة يشكر الله عليها، وهذا غاية الجهل، إذ صار شكرهم موقوفاً على أن تسلب عنهم النعمة، ثم ترد إليهم في بعض الأحوال، فالنعم في جميع الأحوال أولى بالشكر، فلا ترى البصير يشكر صحة البصر، إلا أن يعمى، فإذا أعيد بصره أحس بالنعمة وشكرها وعدها نعمة، وهو مثل عبد السوء يضرب دائهاً، فإذا ترك ضربه ساعة، شكر وتقلد ذلك منة، وإن ترك ضربه أصلاً، غلبه البطر وترك الشكر، فصار الناس لا يشكرون إلا المآل الذي يطرق الاختصاص إليه من حيث الكثرة والقلة، وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم.

كها روي أن بعضهم شكا فقره إلى بعض أرباب البصيرة، وأظهر شدة اغتمامه بذلك، فقال له: أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أخرس ولك عشرة آلاف درهم؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك أقطع اليدين والرجلين ولك عشرون ألفاً؟ قال: لا. قال: أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف؟ قال: لا. قال: أما تستحي أن لا تشكر مولاك وله عندك عروض بخمسين ألفاً؟

وحكي عن بعض الفقراء أنه اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعاً، فرأى في المنام كأن قائلًا يقول له: أتود أنا أنسيناك سورة الأنعام ولك ألف دينار؟ قال: لا. قال: لا. قال: لا. قال: لا. قال: فمعك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو؟! فأصبح وقد سري عنه.

ودخل ابن السماك على الرشيد في عظة، فبكى ثم دعا بماء في قدح، فقال: يا أمير المؤمنين! لو منعت هذه الشربة إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفديها؟ قال: نعم. قال: فاشرب رياً، بارك الله فيك. فلما شرب. قال له: يا أمير المؤمنين: أرأيت لو منعت إخراج هذه الشربة منك إلا بالدنيا وما فيها، أكنت تفتدي ذلك؟ قال: نعم.

قال: فما تصنع بشيء شربة ماء خير منه؟ وهذا يبين أن نعمة الله تعالى على العبد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض، ثم تسهيل خروج الحدث من أعظم النعم، وهذه إشارة وجيزة إلى النعم الخاصة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا نظر أحدكم إلى من فضّل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه (١).

وقد رواه الترمذي(٢) بلفظ آخر: «انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) بل مسلم.

تنظروا إلى من فوقكم، فهو أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم».

فإن من اعتبر حال نفسه، وفتش على ما خص به، وجد لله تعالى عليه نعماً كثيرة، لا سيما من خص بالإيمان، والقرآن، والعلم، والسنة، ثم الفراغ، والصحة والأمن، وغير ذلك.

قال الشاعر بهذا المعنى:

في ديست ثم في دنسياه إقبالاً ولينظرن إلى من دونه مالا من شاء عيشاً رحيباً يستطيل به فلينظرن إلى من فوقه وَرَعـاً

وقال بعضهم :

كنذاك الصحو والأمن فلا فارقك الحزن!

إذا ما القوت يأتيك وأصبحت أخاحزن



كناب الرجساء والخوف

إعلم أن السرجاء والحسوف جناحان، بهما يسطير المقربون إلى كل مقسام محمود، ومطيتان بهما يقطع من طريق الآخرة كل عقبة كؤود، ولا بدّ من بيان حقيقتهما وسببهما، وما يتعلق بذلك. ونحن نذكرهما في شطرين:

الأول: في الرجاء. والثاني: في الخوف.

إعلم أن الرجاء هو ارتياح لانتظار ما هو محبوب عنده، ولكن ذلك المتوقع، لا بد له من سبب حاصل، فإن لم يكن السبب معلوم الوجود ولا معلوم الانتفاء، سُمي تمنياً، لأنه انتظار من غير سبب، ولا يُطلق اسم الرّجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه، فأما ما يقطع به فلا، إذ لا يُقال: أرجو طلوع الشمس، وأخاف غروبها، لأن ذلك مقطوع به عند طلوعها وغروبها، ولكن يُقال: أرجو نزول المطر، وأخاف انقطاعه.

وقد علم أرباب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة، والقلب كالأرض، والإيمان كالبذر فيه، والطاعات جارية مجرى تنقية الأرض وتطهيرها، ومجرى حفر الأنهار وسياقة الماء إليها. وإن القلب المستغرق بالدنيا، كالأرض السبخة التي لا ينمو فيها البذر.

ويوم القيامة هو يـوم الحصاد، ولا يحصد أحد إلا ما زرع، ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان، وقل أن ينفع إيمان مع خُبث القلب وسوء أخلاقه،

كما لا ينمو البذر في الأرض السبخة.

فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع، فكل من طلب أرضاً طيبة، وألقى فيها بذراً جيداً غير مسوس ولا عفن، ثم ساق إليها الماء في أوقات الحاجة، ونقي الأرض من الشوك والحشيش وما يفسد الزرع، ثم جلس ينتظر من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات المفسدة، إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته، فهذا يُسمى انتظاره رجاءً.

فأما إن بذر في أرض سبخة صلبة مرتفعة لا يصل إليها الماء، ولم يتعاهدها أصلاً ثم انتظر الحصاد، فهذا يسمى انتظاره حمقاً وغروراً، لا رجاءً.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجري على اليبس

وإن بث البذر في أرض طيبة، ولكن لا ماء لها، وأحمد ينتظر المياه سمى انتظاره تمنياً لا رجاءً.

فإذن اسم الرجاء إنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد، ولم يبق إلا ما ليس إلى اختياره، وهو فضل الله سبحانه، بصرف الموانع المفسدات، فالعبد إذا بثّ بذر الإيمان، وسقاه ماء الطاعات، وطهّر القلوب من شوك الأخلاق الرديئة، وانتظر من فضل الله تعالى ثباته على ذلك إلى الموت، وحُسن الخاتمة المفضية إلى المغفرة، كان انتظاره لذلك رجاءً محموداً، باعثاً على المواظبة على الطاعات، والقيام بمقتضى الإيمان إلى الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب الموت، وإن قطع بذر الإيمان عن تعهده بماء الطاعات، أو ترك القلب مشحوناً برذائل الأخلاق، وانهمك في طلب لذات الدنيا، ثم انتظر المغفرة، كان ذلك حقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُواْ كَانُ ذلك حقاً وغروراً. قال الله تعالى: ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ أَلْفُ وَرِثُواْ الْكَهْفَ: الْكَوْنُ سَيَغْفُرُ لَنَا ﴾ (الأعراف: ١٦٩) وذم القائل: ﴿ وَلَثِن رَدِدتُ إِلَى رَبِي لَاجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقلَباً ﴾ (الكهف: وثم القائل: ﴿ وَلَثِن رَدِدتُ إِلَى رَبِي لَاجِدَنَّ خَيْراً مِّنْهَا مُنقلَباً ﴾ (الكهف: ٣١).

واعلم أن الرجاء محمود، لأنه باعث على العمل، واليأس مذموم، لأنه صارف عن العمل، إذ من عرف أن الأرض سبخة، وأن الماء مغور، وأن البذر لا ينبت، ترك تفقد الأرض، ولم يتعب في تعاهدها.

وأما الخوف، فليس بضد الرجاء، بل رفيق له، كما سيئاتي إن شاء الله تعالى.

وحال الرجاء يُورث طريق المجاهدة بالأعمال، والمواظبة على الطاعات كيفها تقلبت الأحوال، ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله عز وجل، والتنعم بمناجاته، والتلطف في الثناء عليه، فإن هذه الأحوال لا بدّ أن تظهر على كل من يرجو ملكاً من الملوك، أو شخصاً من الأشخاص، فكيف لا يظهر ذلك في حق الله سبحانه وتعالى؟ فمتى لم يظهر، استدل به على حرمان مقام الرجاء، فمن رجا أن يكون مراداً بالخير من هذه العلامات، فهو مغرور.

فضيلة الرجاء

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قبال: «قال الله عنه وجل: أنا عند ظن عبدي بي» (١). وفي حديث آخر: أن النبي ﷺ قبال: «لا يموتنَّ أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله» (٢). وأوحى الله تعالى إلى داود عليه

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه مسلم.

السيلام: أحبني، وأحب من يجبني، وحببني إلى خُلقي. قال: يـا رب: كيف أحببك إلى خلقك؟ قـال: اذكرني بـالحسن الجميل، واذكر آلائي وإحساني. وعن مجاهد رحمة الله قال: يُؤمر بالعبد يوم القيامة إلى النّار، فيقول: مـا كان هذا ظني؟ فيقول: ما كان ظنك؟ فيقول: أن تغفر لي. فيقول: خلوا سبيله.

دواء الرجاء والسبب الذي يحصل به

اعلم أن دواء الرجاء يحتاج إليه رجلان: إما رجل قد غلب عليه اليأس حتى ترك العبادة. وإما رجل غلب عليه الخوف حتى أضر بنفسه وأهله.

فأما العاصي المغرور المتمني على الله مع الإعراض عن العبادة، فلا ينبغي أن يُستعمل في حقه إلا أدوية الخوف، فإن أدوية الرجاء يُقلب في حقه شموماً، ولهذا يجب أن يكون واعظ الناس متلطفاً، ناظراً إلى موضع العلل، معالجاً كلّ علة بما يليق بها! وهذا الزمان لا ينبغي أن يُستعمل فيه مع الخلق أسباب الرجاء، بل المبالغة في التخويف! وإنما يذكر الواعظ فضيلة أسباب الرجاء إذا كان مقصوده استمالة القلوب إليه، لإصلاح المرض.

وأخبر تعالى أنه أعدّ النّار لأعدائه، وإنما خَوْف بها أولياءه، فقال: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ آلنّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ آللّهُ بِهِ
عِبَادَهُ ﴾ (الزمر: ١٦). وقال تعالى: ﴿ وَآتَقُواْ آلنّارَ آلَّيَ أُعِدّتْ لِلْكَنْفِرِينَ ﴾
(آل عمران: ١٣١). وقال: ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَاراً تَلَظّىٰ، لاَ يَصْلَنهاۤ إِلاَّ آلاَ شُقَى اللّهُ عَمران: ١٤). وقال: ﴿ وَاللّهُ لَا يَصْلَنهاۤ إِلاَّ آلاَ شُقَى اللّهُ عَلَىٰ عَلَىٰ اللّهُ اللهُ اللّهُ الللّهُ اللّهُ الللّهُ اللللّهُ الللّهُ اللّهُ الللللّهُ الللّهُ الللللّهُ الللللّهُ اللّهُ

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عنه «والذي نفسي بيده، لو لم تذنبوا لذَهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون فيغفر لهم»(١). ومن حديث عائشة رضي الله عنها، أن النبي على قال:

⁽١) رواه مسلم.

«سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لن يُدخل أحداً الجنة عملهُ. قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة»(١).

ومن حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي على قال: «يقول الله عز وجل يوم القيامة: يا آدم: قم فابعث بعث النار فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك. يا رب: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعون، فحينتذ يشيب المولود، وتضع كلّ ذات حمل حلها» (٢) الحديث.

حقيقة الخوف ودرحاته

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال.

مثال ذلك، من جنى على ملك جناية، ثم وقع في يده، فهو يخاف الفتل، ويرجو العفو، ولكن يكون تألم قلبه بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية الى قلته، وتفاحُش جنايته، وتأثيرها عند الملك، وبحسب ضعف الأسباب يضعف الخوف. وقد يكون الخوف لا عن سبب جناية، بل عن صفة المخوف وعظمته وجلاله، إذ قد عُلم أنّ الله سبحانه، لو أهلك العالمين لم يبال، ولم يمنعه مانع، فبحسب معرفة الإنسان بعيوب نفسه، وبجلال الله تعالى واستغنائه، وأنه لا يُسأل عما يفعل، يكون خوفه.

وأخوف الناس أعرفهم بنفسه وبربه، ولذلك قبال النبي على: «أنبا أخوفكم لله»(٢). وقال تعبالى: ﴿إِنَّمَا يَغْشَى آللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَنُواْ ﴾ (فاطر: ٢٨) وإذا كملُت المعرفة، آثرت الخوف، ففياض أثره عبلى القلب، ثم ظهر

⁽١) رواه أحمد وغيره وسنده صحيح (مج).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) حديث وأنا أخوفكم»: في البخاري من حديث أنس: وللبخاري ومسلم من حديث عائشة: ووالله إني لاعلمكم بالله وأشدكم له خشية».

على الجوارح والصفات بالنّحول والاصفرار والبكاء والغشي، وقد يفضي إلى الموت، وقد يَصعد إلى الدِّماغ فيُفسد العقل.

وأما ظهور أثره على الجوارح، فبكفها عن المساصي، والزامهسا الطاعات، تلافياً لما فرّط، واستعداداً للمستقبل.

وقال بعضهم: ليس الخائف من بكى، إنما الخائف من ترك ما يقدر عليه. وقال أبو القاسم الحكيم: «من خاف شيئاً هرب منه، ومن خاف الله هرب إليه!».

ومن ثمرات الخوف، أن يقمع الشهوات، ويكدّر اللذات، فتصير المعاصي المحبوبة عنده مكروهة، كها يصير العسل مكروها عند من يشتهيه إذا علم أن فيه سُها، فتحترق الشهوات بالخوف، وتتأدب الجوارح، ويخضع القلب ويستكين، ويفارقه الكبر والحقد والحسد، ويصير مستوعب الهم لخوفه، والنظر في خطر عاقبته، فلا يتفرغ لغيره، ولا يكون له شغل إلا المراقبة، والمحاسبة، والمجاهدة، والفيطنة، بالأنفاس واللحظات، ومُؤاخذة النفس في الخطرات والخطوات والكلمات، ويكون حاله كحال من وقع في غالب سبع ضار، لا يدري أيغفلا عنه فيُفلت، أو يهجم عليه فيهلكه، ولا شغل له إلا ما وقع فيه، فقوة المراقبة والمحاسبة بحسب قوة الخوف، وقُوة الخوف، ومُوافع بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما الخوف بحسب قوة المعرفة بجلال الله تعالى، وصفاته، وبعيوب النفس، وما بين يديها من الأخطار والأهوال.

وأقل درجات الخوف مما يسظهر أثسره في الأعمال، أن يمنسع من المحظورات. فإن منسع ما يتطرق إليه إمكان التحريم، سُمي ورَعاً، وإن انضم إليه التّجرد والاشتغال بذلك عن فضول العيش، فهو الصّدق.

أقسام الخوف

اعلم أن الخوف سوط الله تعالى، يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل، لينالوا بها رتبة القرب من الله تعالى.

والخوف له إفراط، وله اعتدال، وله قصور.

والمحمود من ذلك الاعتدال، وهو بمنزلة السوط للبهيمة، فإن الأصلح للبهيمة أن لا تخلو عن سوط، وليست المسالغة في الضرب محمودة، ولا المتقاصر عن الخوف أيضاً محموداً، وهو كالذي يخطر بالبال عند سماع آية، أو سبب هائل، فيُورث البكاء، فإذا غاب ذلك السبب عن الحس، رجع القلب إلى الغفلة، فهو خوْف قاصر قليل الجدوى، ضعيف النفع، وهو كالقضيب الضعيف الذي يُضرب به دابة قوية فلا يؤلمها ألماً مُبرّحاً، فلا يسوقها إلى المقصد، ولا يصلح لرياضتها، وهذا هو الغالب على الناس كلهم، إلا العارفين والعلماء، أعني العلماء بالله وبآياته، وقد عزّ وجودهم. وأما المرتسمون برسوم العلم فإنه أبعد الناس عن الخوف!

وأما القسم الأول، وهو الخوف المفرط، فهو كالذي يقوي ويجاوز حدّ الاعتدال حتى يخرج إلى الياس والقنوط، فهو أيضاً مذموم، لأنه يمنع من العمل، وقد يُؤدي إلى المرض والوّله والموت، وليس ذلك محموداً، وكل ما يراد لأمر، فالمحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه، وما يقصر عنه أو يجاوزه، فهو مذموم، وفائدة الخوف: الحذر، والوّرع، والتقوى، والمجاهدة، والفكر، والدِّكر، والتعبُّد، وسائر الأسباب التي تُوصل إلى الله تعالى، وكل ذلك يستدعي الحياة، مع صحة البدن وسلامة العقل، فإذا قدح في ذلك شيء، كان مذموماً.

فضيلة الخوف والرجاء وما ينبغي أن يكون الغالب منها

فضل كل شيء بقدر إعانته على طلب السعادة، وهي لقاء الله تعالى، والقرب منه، فكل ما أعان على ذلك فهو فضيلة. قال الله تعالى: ﴿وَإِلَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ (الرحمن: ٤٦). وقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ، ذَلِكَ لِمَنْ خِشِيَ رَبَّهُ ﴾ (البينة: ٨). وقال النبي ﷺ: قال اللَّه عزَّ وجل: «وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن أمنني في عزَّ وجل: «وعزتي وجلالي، لا أجمع لعبدي أمنين ولا خوفين، إن أمنني في

الدنيا، أخفته يوم أجمع عبادي، وإن خافني في الدنيا، أمنته يـوم أجمع عبادي (١٠).

وقال النبي ﷺ: «سبعة ينظلمهم الله في ظله، ينوم لا ظل إلا ظله» وذكر منهم: «رجلًا ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»(٢).

وعَن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي الله أنه قبال: (عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله، (٣).

أيهيا أفضل الخوف أو الرجاء

اعلم أن قـول القائـل: أيما أفضـل الخوف، أو الـرجاء؟ كقـوله: أيمـا أفضل الخبز أو الماء؟

وجوابه: أن يُقال: الخبز للجائع أفضل، والماء للعنطشان أفضل، فإن اجتمعا، نُظر إلى الأغلب، فإن استويا، فها متساويان، والخنوف والرجاء تداوي بها القلوب، ففضلها حسب الداء الموجود، فإن كان الغالب على القلب الأمن من مكر الله، فالخنوف أفضل، وكذلك إن كان الغالب على العبد المعصية. وإن كان الغالب عليه اليأس والقنوط، فالرجاء أفضل. ويجوز أن يُقال: مطلقاً الخوف أفضل، كما يقال: الخبز أفضل من السكنجبين لأن الخبز يعالج به مرض الجوع، والسكنجبين يعالج به مرض الصفراء، ومرض الجوع أغلب وأكثر، فالحاجة الى الخبز أكثر، فهو أفضل بهذا الاعتبار، لأن المعاصي والاغترار من الخلق أغلب.

وإن نظرنا إلى موضع الخوف والرجاء، فالسرجاء أفضل، لأن الرجاء يُستقى من بحر الغضب.

⁽١) رواه أبو نعيم في الحلية وسنده حسن (مج).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) رواه الضياء وغيره وسنده صحيح (مم).

وأما المتقي، فالأفضل عنده اعتدال الخوف والرجاء، ولـذلك قيـل: لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه، لاعتدلا.

قال منحول الدمشقي: من عبد الله بالخوف فهو حروري، ومن عبده بالرجاء فهو مرجيء، ومن عبده بالحبة فهو زنديق، ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد.

قال بعض السلف: لو نُودي: ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً، لخشيت أن أكون أنا ذلك الرجل. ولو نُودي. ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً، لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل. وهذا ينبغي أن يكون مختصاً بالمؤمن المتقي.

وأما عند نزول الموت، فالأصلح للانسان الرجاء، لأن الخوف كالسَّوط الباعث على العمل، وليس ثمة عمل، لأن المشرف على الموت لا يقدر عليه، فلا يستفيد الخائف حينئذ إلا تقطيع نشاط قلبه، والرجاء في هذه الحال يقوي قلبه، ويحبب إليه ربه، فلا ينبغي لأحد أن يفارق الدنيا، إلا عباً للَّه تعالى، عباً للقائه، حسن الظن به لقوله على «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه» (۱).

قال سليمان التيمي عند الموت لمن حضره: حدثني بالرُّخص، لعلي الله وأنا أُحسن الظن به.

بيان الدواء الذي يستجلب به الخوف

وذلك يحصل بطريقين:

أحدهما: أعلى من الآخر. مثاله: إن الصبي إذا كان في بيت، فدخل عليه سبع، أوْ حيَّة، ربما لم يخف منه، وربما مد يده إلى الحيمة ليأخذها يلعب

⁽١) رواه مسلم.

بها، ولكن إذا كان معه أبوه فهرب منها وخافها، هرب الصبي، وحاف موافقة لأبيه، فخوف الأب عن معرفة، وخوف الولد من غير معرفة، بل هو تقليد لأبيه.

ومن قصر عن الخوف، فسبيله أن يعالج نفسه بسماع الأخبار والآثار، فيطالع أحوال الخائفين وأقوالهم، وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين المغرورين، فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى، لأنهم الأنبياء والأولياء.

ومن أعجب ما ظاهره الرجاء وهو شديد التخويف، قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّنَ إِنَّابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَلِحاً ثُمَّ آهْتَدَىٰ ﴾ (طه: ٨٢)، فإنه علق المغفرة على أربعة شروط، يبعد تصحيحها.

ومن الخوفات قول تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ، إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ (العصر: ١-٢)، ثم ذكر أبعة (١) شروط، بها يقع الخلاص من الخسران. وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ مُلَانًا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِي لَأَمْلَانً جَهَنَم مَن الجُنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة: ١٣).

ولما حضرت سفيانَ النوري الوفاة، جعل يبكي. فقال له رجل: يا أبا عبد الله: أراك كثير الذنوب، فرفع شيئاً من الأرض وقال: والله لذنوبي أهون عندي من هذا، ولكن أخاف أن أسلب التوحيد قبل الموت.

⁽۱) الشرط الأول: العلم، وهو معرفة اللَّه تعالى، ومعرفة نبيه (ﷺ) ومعرفة دين الاسلام بالادلة وهذا معنى قوله تعالى ﴿اللَّهِ والشرط الثاني: العمل بهذا العلم: ﴿وعملوا الصالحات﴾ والشرط الثالث: ﴿والدعوة إلى اللَّه﴾ وهذا معنى ﴿وتواصوا بالحق﴾، والشرط الرابع (الصبر على الاذى في سبيل هذه الدعوة الى اللَّه) وهذا معنى قوله: ﴿وتواصوا بالصبر﴾ فأين المسلمون اليوم من فهم وتدبر هذه السورة الصغيرة؟!

أسباب سوء الخاتمة ومعناه

ولسوء الخاتمة أسباب تتقدم على الموت، مثل البدعة (١)، والنفاق والكِبر، ونحو ذلك من الصفات المذمومة، ولذلك اشتد خوف السلف من النّفاق.

قال بعضهم: لو أعلم أني بريء من النفاق، كان أحب إلي مما طلعت عليه الشمس، ولم يريدوا بذلك نفاق العقائد، إنما أرادوا نفاق الأعمال، كما جاء في الحديث الصحيح: «أربع من كنّ فيه، فهو منافق خالص، وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم، وإن كانت فيه خصلة منهن، ففيه شعبة من النفاق حتى يدعها: من إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر» وفي لفظ آخر: «وإذا عاهد غدر» (٢).

فإن قلت: إن أكثر هؤلاء يـرجع خـوفهم إلى سوء الخـاتمـة، فـها معنى الخاتمة، فاعلم أن سوء الخاتمة على رتبتين:

إحداهما أعظم، وهي أن يغلب على القلب والعياذ بـالله شـك، أو جحود عند سكرات الموت وأهواله، فيقتضي ذلك العذاب الدائم.

والثانية دونها، وهي أن يسخط من الأقدار، ويتكلم بالاعتراض، أو يجور في وصيته، أو يموت مصراً على ذنب من الذنوب.

وقد روي أن الشيطان لا يكون في حال أشد على ابن آدم من حال الموت، يقول لأعوانه: دونكم هذا، فإنه إن فاتكم اليوم لم تلحقوه.

قال الخطابي: وذلك أن يستولي على الإنسان حينئذ، فيضله ويحول بينه وبين التوبة أو يمنعه الخروج عن مظلمة؛ أو يُؤيسه من رحمة الله، ويكره إليه

⁽١) لقوله (難): (إن الله احتجر التوبة على كل صاحب بدعة) رواه النظبراني وغيره وسنده صحيح (مج).

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

الموت، فلا يرضى بقضاء اللَّه عز وجل.

والأسباب التي تفضي إلى سوء الخاتمة لا يمكن انحصارها على التفصيل، لكن يمكن الإشارة إلى مجامع ذلك، أما الختم على الشك والجحود، فسببه البدعة، ومعناها أن يعتقد في ذات الله تعالى، أو صفاته، أو أفعاله خلاف الحق، إما تقليداً، أو برأيه الفاسد، فإذا انكشف الغطاء عند الموت، بأن له بطلان ما اعتقد، فيظن أن جميع ما اعتقده هكذا لا أصل له.

وينبغي أن ننشد مع هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

ومن اعتقد في الله سبحانه وفي صفاته اعتقاداً مجملًا على طريقة (١) السلف من غير بحث (٢)، فهو بمعزل عن هذا الخطر إن شاء الله تعالى.

وأما الختم على المعاصي، فسببه ضعف الإيمان في الأصل، وذلك

⁽١) راجع مبحث وعقيدة أهل السنة، في الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ١٧ - ٢٠.

⁽٢) هذه العبارة من «مختصر منهاج القاصدين» ولا معنى لها وطريقة السلف في صفات الله تعالى فهمها من غير تأويل وتعطيل، ومن غير تشبيه وتجسيم. فإن من أول فقد عبد عدماً، ومن شبه فقد عبد صناً.

وقد في جاء أصل الاحباء ما ملخصه: «وكل من اعتقد في الله تعالى، وفي صفاته وأفعاله شيئاً على خلاف ما هو به، إما تقليداً، وإما نظراً بالرأي والمعقول، فهو في هذا الخطر، والنزهد والصلاح لا يكفي لدفع هذا الخطر. بل لا ينجي منه إلا الاعتقاد الحق. والبله فمعزل عن هذا الخطر واستدل بحديث: «أكثر أهل الجنة البله» وهو حديث منكر كما قال ابن عدي (ق 7/13).

وقد رد شارح العقيدة الطحاوية (٥١٤) على هذا الحديث: الذي أورده بلفظ: «اطلعت على أهل الجنة، فرأيت أكثر أهلها البله» فقال: فهذا لا يصح عن رسول الله (ﷺ)، ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأولي الالباب الذين أرشدتهم عقولهم وألبابهم الى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر. وقد ذكر الله سبحانه - أهل الجنة بأوصافهم في كتابه فلم يذكر في أوصافهم: البله الذي هو ضعف العقل. . .

يورث الانهماك في المعاصي، والمعاصي مُطفئة لنور الإيمان، وإذا ضعف الإيمان ضعف حب اللَّه تعالى، فإذا جاءت سكرات الموت، ازداد ذلك ضعفاً، لاستشعاره فراق الدنيا، فإن السبب الذي يفضي إلى مشل هذه الخاتمة، هو حب الدنيا، والركون إليها، مع ضعف الإيمان الموجب لضعف حب اللَّه، فمن وجد في قلبه حب اللَّه أغلب من حب الدنيا، فهو أبعد من هذا الخطر، وكل من مات على محبة اللَّه تعالى، قدم به قدوم البعيد المحسن المشتاق إلى مولاه، فلا يخفى ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم، فضلاً عها ما يستحقه من الإكرام.

ومن فارقه الروح في حال، خطر بباله فيها الإنكار على الله سبحانه في فعله، أو كان مصرًا على مخالفته، قدم على الله قدوم من قدم به قهراً، فلا يخفى ما يستحقه من النكال.

فمن أراد طريق السلامة، تزحزح عن أسباب الهلاك، على أن العلم بتقليب القلوب وتغيير الأحوال، يقلقل قلوب الخائفين. \

وإذا عرفت معنى سوء الخاتمة، فاحذر أسبابها، وأعد ما يصلح لها، وإياك والتسويف بالاستعداد، فإن العمر قصير، وكل نَفس من أنفاسك بمنزل خاتمتك، لأنه يمكن أن تخطف فيه روحك، والإنسان يموت على ما عاش عليه، ويحشر على ما مات عليه.

واعلم أنه لا يتيسر لك الاستعداد بما يصلح، إلا أن تقنع بما يقيمك، وترفض طلب الفضول، وسنورد عليك من أخبار الخائفين ما نسرجو أن يمزيل بعض القساوة من قلبك، فإنك متحقق أن الأنبياء والأولياء كانوا أعقل منك، فتفكر في اشتداد خوفهم، لعلك تستعد لنفسك.

ذكر خوف الملائكة والأنبياء عليهم السلام

قال اللَّه تعالى في صفة الملائكة: ﴿يَخَافُونَ رَبُّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ (النحل: ٥٠). وقى الى سبحانى في وصف أنبيائه: ﴿ إِنَّهُمْ كَانُواْ يُسَلِّرُ عُونَ فِي ٱلْخَيْرُتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُواْ لَنَا خَشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠).

وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كان يسمع لصدر إبراهيم عليه السلام إذا قام إلى الصلاة، أزيز من بُعدٍ خوفاً من الله عزَّ وجل.

وقيل: كان داود عليه السلام يعوده الناس يظنون أنه مريض، وما به إلا شدة الخوف من الله عزّ وجل.

وقال المسيح عليه السلام: يا معاشر الحواريين! خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ويباعدان عن الدنيا.

ذكر خوف نبينا صلى الله عليه وآله وسلم

عن عائشة رضي الله عنها قالت: «ما رأيت قط رسول الله عنها مستجمعاً ضاحكاً، حتى أرى لهواته (١) إنما كان يبتسم» (١) وكان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه، فقلت: يا رسول الله: الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرفت الكراهة في وجهك! فقال: «يا عائشة: ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ قد عذب قوم بالريح، وقد رآى قوم فقالوا: هذا عارض ممطرنا» (٣).

ذكر خوف أصحابه رضى الله عنه

روينا عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه كان يمسك لسانه ويقول: هذا الذي أوردني الموارد. وقال يا ليتني كنت شجرة تعضد ثم تؤكل. وكذلك قال طلحة وأبو الدرداء وأبو ذر رضى الله عنهم.

 ⁽١) اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق، أو ما بين منقطع أصل اللسان إلى منقطع القلب من أعلى
 الفم. جمعها: لهوات، ولهيات.

⁽٢) رواه البخاري.

⁽٣) رواه البخاري ومسلم.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع آية فيمرض فيعاد أياماً. وأخذ يوماً تبنة من الأرض فقال: يا ليتني كنت هذه التبنة. يا ليتني لم أك شيئاً مذكوراً. يا ليت أمي لم تلدني. وكان في وجهه خطان أسودان من اللكاء.

وقال عثمان رضي اللَّه عنه: وددت أني إذا مت لا أبعث.

وقــال أبــو عبيــدة بن الجــراح رضي اللّه عنــه: وددِت أني كنت كبشــاً فذبحني أهلي، فأكلوا لحمي، وحسوا مرقي.

وقال عمران بن حصين: يا ليتني كنت رماداً تذروه الرياح.

وكان مجرى الدموع في خد ابن عباس رضي اللَّه عنه كالشراك البالي.

وقالت عائشة رضى اللَّه عنها: يا ليتني كنت نسياً منسياً.

وقال على رضي الله عنه: والله لقد رأيت أصحاب محمد ، فيا أرى اليوم شيئاً يشبههم. لقد كانوا يصبحون شعثاً غبراً، بين أعينهم أمثال ركب المعزى، قد باتوا سجداً وقياماً، يتلون كتاب الله تعالى، يراوحون بين جباههم وأقدامهم، فإذا أصبحوا ذكروا الله عزّ وجل، وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم، والله لكأن القوم باتوا غافلين.

ذكر خوف التابعين ومَن بعدهم

قال هرم بن حيان: وددت والله أني شجرة أكلتني ناقة، ثم قذفتني بعراً، ولم أكابد الحساب يوم القيامة. إني أخاف الداهية الكبرى.

وكان علي بن الحسين إذا توضأ اصفرَّ وتغيَّر، فيقال: مالك؟ فيقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم؟

وكان محمد بن واسع يبكي عامة الليل لا يكاد يفتر.

وكان عمر بن عبد العزيز إذا ذكر الموت انتفض انتفاض الطير، ويبكي

حتى تجري دموعه على لحيته. وبكي ليلة فبكى أهل الدار، فلما تجلت عنهم العبرة قالت فاطمة: بأي أنت يا أمير المؤمنين. لم بكيت؟ فقال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى، فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغشى عليه.

وكان يزيد بن مرشد يبكي كثيراً ويقول: والله لو تواعدني ربي أن يسجنني في الحمام، لكان حقي أن لا أفتر من البكاء، فكيف وقد توعدني أن يسجنني في النار إن أنا عصيته؟!

فهذه مخاوف الملائكة والأنبياء والعبّاد والأولياء، ونحن أجدر بالخوف منهم، ولكن ليس الخوف بكثرة الدموع ولكن بصفاء القلوب، وكمال المعرفة، وإنما أمنا لغلبة جهلنا وقوة قساوتنا، فالقلب الصافي تحركه أدنى مخافة، والقلب الجامد تنبو عنه كل المواعظ.



كُناب الفقر والزهب. فضيلة الفق_ر

قال ﷺ: «قمت على باب الجنة فإذا عآمة من يدخلها الفقراء، إلا أن أصحاب الجد محبوسون» وذكر تمام الحديث (١) ومن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً (٢). ومن حديث عائشة رضي الله عنها قالت: «ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض» (٣).

وروي أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يدخل فقراء المؤمنين الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام»(٤).

وقال ﷺ: «ربّ أشعث مدفوع بالابواب، لو أقسم على الله لأبره»(٥).

آداب الفقير في فقره

ينبغي له أن لا يكون كارهاً لما ابتلاه اللَّه به من الفقر.

⁽١) و (٢) و (٣) رواه البخاري ومسلم.

⁽٤) رواه الترمذي وسنده حسن (مم) وليس معنى هذا أن الفقراء أفضل من الاغنياء فان من هؤلاء من يكون أفضل من الفقراء وأعلى درجة منهم في الجنة وإنما يسبقون بسبب كشرة أموالهم لتقديم الحساب، وكل ذلك بحاجة الى وقت وما ورد في فضل الفقر، فهو من أجل تقربة نفوس الفقراء بعد بذلهم الجهد.

⁽٥) رواه مسلم.

وأرفع من هذا أن يكون راضياً فرحاً، ويكون متوكلاً على الله سبحانه، واثقاً به. ومتى عكس الحال، وكان يشكو إلى الخلق، ولا يشكر الله تعالى، كان الفقر عقوبة في حقه، فلا ينبغي له إظهار الشكوى، بل يظهر التعفف والتجمل. قال الله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ (البقرة: ٢٧٣).

وينبغي للفقير أن لا يتواضع لغني لأجل غناه، ولا يرغب في مجالسته.

وينبغي لـه أيضاً أن لا يفتر عن العبادة بسبب فقره، ولا يمنع بـذل ما فضل عنه، فإن ذلك جهد المقل. روى أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله: أي الصدقة أفضل؟ قال: جهد المقل وابدأ بمن تعول(١).

آدابه في قبول العطاء

إذا جاءه مال بغير سؤال، ينبغي أن يلاحظ فيها جاءه ثلاثة أمور: نفس المال، وغرض المعطى، وغرضه في الأخذ.

أما نفس المال، فينبغي أن يكون خالياً عن الشبهات كلها، فإن كان فيه شبهة، فليحذر من أخذه.

وقد تقدم في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة، وما يجب اجتنابه، وما يستحب.

وأما غرض المعطي، فلا يخلو، إما أن يكون طلباً للمحبة، وهو الهدية، فلا بأس بقبولها إذا لم تكن رشوة ولم يكن فيها منة.

الثاني: أن يكون غرض المعطي الثواب، وهو الزكاة والصدقة، فعلى الفقير أن ينظر في صفات نفسه، هل مستحق أم لا؟ فان اشتبه عليه، فهو محل شبهة، وإن كان صدقة، فإن كان المعطي إنما يعطيه لدينه، فلينظر إلى

⁽١) رواه أبو داود وابن خزيمة في صحيحه والحكم وقال: صحيح على شرط مسلم.

باطنه، فإن كان مقارفاً لمعصية في السر، يعلم أن المعطي لو علم بذلك، لنفر طبعه ولما تقرب إلى الله تعالى بالصدقة عليه، لم يأخذه، كما لو أعطاه لظنه أنه عالم فلم يكن.

الثالث: أن يكون غرض المعطي الشهرة والرياء والسمعة، فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد، ولا يأخذه، لأنه إذا قبله يكون معيناً له على قصده الفاسد. وأما غرضه في الأخذ، فلينظر أهو محتاج إليه أو مستغن عنه، فان كان مستغنياً عنه لم يأخذه، وإن كان محتاجاً إليه، وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها، فالأفضل له الأخذ، لما ورد عن عمر رضي الله عنه، أن النبي على قال: «ما آتاك الله من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل، فخذه، ومالا فلا تتبعه نفسك»(١).

تحريم السؤال من غير ضرورة

اعلم أنه قد ورد في السؤال أحاديث في النهي عنه، وفي الترخيص فيه.

أما الترخيص: فكقوله ﷺ: «للسائل حق وإن جاء على فرس»(٢): وفي بعض الأحاديث: «ردوا السائل ولو يظلف محرق»(٣). ولمو كان السؤال حراماً، لما جاز إعانة المعتدي على عدوانه والإعطاء إعانة.

وأما أحاديث النهي عن السؤال: فروي ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقى الله عز وجل وليس في وجهه مزعة لحم» (٤٠)!. وفيها أيضاً: أنه ﷺ ذكر التعفف عن المسألة فقال: «اليد العليا هي المنفقة، والسفلى السائلة» (٥٠) وفي حديث ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ﷺ قال: «من سأل

⁽١) رواه البخاري ومسلم بنحوه.

 ⁽٢) هذا الحديث ضعيف، يبطله حديث: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة (قوة) سوي»
 الحديث رواه الترمذي وغيره وسنده حسن «مم».

⁽٣) رواه أحمد والنسائي وسنده صحيح «مج» والظلف حافر الداية.

⁽٤) رواه البخاري ومسلم والبخاري . (٥) رواه البخاري ومسلم .

وله ما يغنيه، جاء يوم القيامة ومسألته خدوش أو كدوح»(١). وفي المعنى أحاديث كثيرة.

حقيقة الزهد وفضيلته

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين. والزهد عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه. وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه، ولا مطلوباً في نفسه، لم يسم زهداً، كمن ترك التراب لا يسمى زاهداً.

واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال، وبذله على سبيل السخاء والقوة، واستمالة القلوب، وإنما الزهد أن يترك التكالب على الدنيا للعلم بحقارتها بالنسبة إلى نفاسة الأخرة.

ومن عرف أن الدنيا كالثلج يذوب، والآخرة كالدر يبقى، قويت رغبته في بيع هذه بهذه. وقد دل عملى ذلك قوله تعمالى: ﴿قُلْ مَتَنعُ ٱلدُّنْهَا قَلِيلٌ وَالْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ (النساء: ٧٧) وقوله: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقِ﴾ (النحل: ٩٦).

ومن فضيلة الـزهد قـوله تعـالى: ﴿وَلَا تَمُدُنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ إَمَا مَتَّعْنَـا بِـهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ (طه: ١٣١).

وكان بعض السلف يقول: النزهد في الدنيا يريح القلب والبدن، والرغبة فيها تكثر الهم والحزن.

اضرع إلى اللَّه لا تضرع إلى الناس واقنع بيأس فإن العز في اليأس واستغن عن كل ذي قربى وذي رحم ان الغنيُّ من استغنى عن الناس

⁽١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه والـدارمي وسنده صحيح والكدوح: الخـدوش والجروح.

درجات الزهد أو قسامه

من الناس من يزهد في الدنيا وهو لها مشتهٍ، لكنه يجاهـد نفسه، وهـذا يسمى: المتزهد، وهو مبدأ الزهد.

الدرجة الثانية: أن يزهد فيها طوعاً لا يكلف نفسه ذلك، لكنه يرى زهده ويلتفت إليه، فيكاد يعجب بنفسه، ويرى أنه قد ترك شيئاً له قدر لما هو أعظم قدراً منه. كما يترك درهماً لأخذ درهمين، وهذا أيضاً نقصان.

الدرجة الثالثة: وهي العليا أن يزهد طوعاً، ويزهد في زهده، فلا يرى أنه ترك شيئاً، لأنه عرف أن الدنيا ليست بشيء فيكون كمن ترك خرقة، وأخذ جوهرة، ولا يرى ذلك معاوضة، فإن ترك الدنيا إلى نعيم الآخرة، أحسن من خرقة بالإضافة إلى جوهرة. فهذا هو الكمال في الزهد.

واعلم أن مثل من ترك الدنيا، مثل من منعه عن باب الملك كلب على بابه، فألقى إليه لقمة من خبز فشغله بذلك ودخل، فقرب من الملك. أفتراه يرى لنفسه يداً عند الملك بلقمة ألقاها إلى كلبه في مقابلة ما قد ناله؟

فالشيطان كلب على باب الله عز وجل، يمنع الناس من الدخول، مع أن الباب مفتوح، والحجاب مرفوع، والدنيا كلقمة، فمن تركها لينال عز الملك، فكيف يلتفت إليها؟ ثم إن نسبتها، أعني ما سلم لكل شخص منها ولو عمر ألف سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة، أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا، لأن الفاني لا نسبة له إلى الباقي. كيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدرة؟

تفصيل الزهد فيها هو من ضروريات الحياة

والضروريات المهمات سبعة أشياء: المطعم، والملبس، والمسكن، وأثاثه، والمنكح، والمال، والجاه.

فأما الأول: وهو المطعم، فاعلم أن همة الزاهد منه ما يدفع به الجوع،

عما يوافق بدنه من غير قصد الالتذاذ. وفي الحديث: «إن عباد الله ليسوا بالمتنعمين» (١). وقالت عائشة رضي الله عنها لعروة: كان يمر بنا هلال، وهلال، وهلال، ما يوقد في بيت رسول الله في نار. قال قلت: يا خالة: فعلى أي شيء كنتم تعيشون؟ قالت: على الأسودين، الماء والتمر. والأحاديث في ذلك كثيرة مشهورة.

وقد كان كثير من الزهاد يخشنون المطعم، وكان فيهم من لا يطيق ذلك. فكان الثوري حسن المطعم، وربحا حمل في سفرته اللحم المشوي والفالوذج.

وفي الجملة، فالزاهد يقصد ما يصلح به بدنه، ولا يزيد في التنعم، إلا أن الأبدان تختلف، فمنها ما لا يحمل التخشن.

وقد يدخر بعض الناس الزاد الحلال بتقوته، فلا يخرجه من الزهد.

الثاني: الملبس، فالزاهد يقتصر فيه على ما يدفع الحر والبرد، ويستر العورة ولا بأس أن يكون فيه نوع تجمل، لئلا يخرجه التقشف إلى الشهرة، وكان أكثر لباس السلف خشناً، فصار لبس الخشن شهرة.

وقد جاء عن أبي بردة قال: أخرجت إلينا عائشة رضي الله عنها كساءً ملبداً وإزاراً غليظاً، وقالت: قبض رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم في هذين(٢).

وعن الحسن قال: خطب عمر رضي الله عنه وهو خليفة، وعليه إزار فيه اثنتا عشرة رقعة.

الثالث: المسكن.

⁽١) رواه أحمد والبيهقي عن معاذ بلفظ: «إيماك والتنعم فإن عباد الله ليسوا بمالمتنعمين، وسنده حسن «مج».

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

قال الحسن: كنت إذا دخلت بيوت رسول الله رسول الله، ﷺ، نلت السقف. وفي الحديث: إن الرجل يؤجر في نفقته كلها إلا في التراب(١).

وفي الجملة: إن كل ما يراد للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الزهد.

الرابع: أثـاث البيت. فينبغي للزاهد أن يقتصر فيـه على الضـروري، ومن خرج إلى كثرة العدد في الآلة، أو في نفاسة الجنس، خرج عن الزهد.

ولينظر إلى سيرة رسول اللَّه ﷺ، فمن حديث عمر بن الخطاب رضي اللَّه عنه قال: «دخلت على رسول اللَّه ﷺ وهو مضطجع على حصير، وإذا الحصير قد أثر في جنبه، فنظرت في خزانة رسول اللَّه ﷺ، فإذا أنا بقبضة من شعير، نحو الصاع(٢). وفي رواية البخاري: فواللَّه ما رأيت شيئاً يرد البصر.

وقال على رضي اللَّه عنه: تزوجت فاطمة ومالي ولها فراش إلا جلد كبش. كنا ننام عليه الليل، ونعلف عليه الناضح بالنهار، ومالي خادم غيرها، ولقد كانت تعجن، وإن قبضتها لتضرب جرف الجفنة من الجهد الذي بها.

ودخل رجل على أبي ذر رضي الله عنه، فجعل يقلب بصره في بيته. فقال: يا أبا ذر! ما أرى في بيتك متاعاً، ولا أثاثاً. فقال: إن لنا بيتاً نوجه إليه صالح متاعنا! فقال: إنه لا بد لك من متاع ما دمت ههنا. فقال: إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه.

الخامس: المنكح، لا معنى للزهد في أصل النكاح، ولا في كثرته. قال سهل بن عبد الله: حُبب إلى رسول الله على النساء (٣).

وكان على رضي الله عنه من أزهد الصحابة وكان له أربع نسوة وبضع عشرة سرية.

⁽١) رواه البخاري بنحوه بلفظ إن المسلم . . .

⁽۲) رواه مسلم.

⁽٣) ولفظ الحديث «حبب إلي من دنياكم الطيب والنساء، وجعلت قرة عيني في الصلاة». رواه أحمد والنسائي وسواهما وسنده حسن.

وكان أبو سليمان الداراني يقول: كل ما شغلك عن الله، من أهل، ومال، وولد، فهو مشؤوم(١).

السادس: المال: وهو ضروري في المعيشة. فالزاهد يقتصر منه على ما يدفع به الوقت. وكان في الصالحين من يتشاغل بالتجارة ويقصد بها العفاف.

وكان حماد بن سلمة إذا فتح حانوته وكسب حبتين، قام.

وكان سعيد بن المسيب يتجر في الزيت، وخلّف أربعمائة دينار، وقال: إنما تركتها لأصون بها عرضي وديني.

السابع: الجاه، ولا بد للانسان من جاه حتى في قلب خادمه، واشتغال الزاهد بالزهد يمهد له الجاه في القلوب، فينبغى أن يجذر من شر ذلك.

بيان علامات الزهد

قد تظن أن تارك المال زاهد، وليس كذلك، فإن تـرك المال، وإظهـار التخشن، سهل على من أحب المدح بالـزهد. فكم من عـابد قـد لازم معبده وقلل المطعم، وقوّاه على ذلك حب المحمدة، كما سبق ذكره في كتاب الرياء.

ولا بد من الزهد في فضول الأموال والجاه جميعاً، حتى يكمل الزهد في حظوظ النفس. فأول معرفة الزهد مُشكل.

وقد قال ابن المبارك: أفضل الزهد إخفاء الزهد، وينبغي أن تعوّل في هذا على ثلاث علامات:

الأولى: أن لا يفرح بموجـود، ولا يحزن عـلى مفقود، كما قال تعـالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَـآ ءَاتَنكُمْ ﴾ (الحديـد: ٢٣). وهذا علامة الزهد في المال.

الثاني: أن يستوي عنده ذامه ومادحه، وهذه علامة الزهد في الجاه.

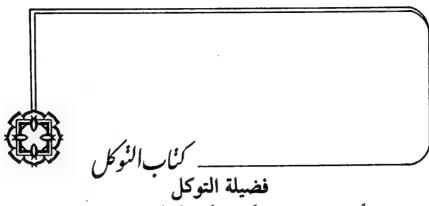
⁽١) ما أحسن هذا التعريف للزهد!

الثالث: أن يكون أنسه باللَّه، والغالب على قلبه حلاوة الطاعة.

فهذا ما أردنا ذكره من حقيقة الزهد وأحكامه.

وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء اللَّه تعالى.





قال اللَّه تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ (آل عمران: ١٢٢). وقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ (الطلاق: ٣).

وفي الحديث: أن النبي ﷺ ذكر أنه يدخل الجنة من أمته سبعون ألفاً لا حساب عليهم، ثم قـال: «هم الـذين لا يكتـوون، ولا يستـرقـون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون، (١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خاصاً وتروح بطاناً»(٢).

معنى التوكل

قد يظن بعض الناس أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن، وترك التدبير بالقلب، والسقوط على الأرض، كالخرقة، وكلحم على وضم، وهذا ظن الجهال، فإن ذلك حرام في الشرع.

⁽١) رواه البخاري ومسلم، ومعنى لا يسترقون لا يطلبون الرقية من غيرهم كيلا يعتادوا التواكل، فإن الفاظ الرقية معروفة فلا داعي لطلبها من الآخرين.

⁽٢) رواه الترمذي وابن ماجه وسنده حسن «مم، والخماص: الجياع، والبطان: الشباع.

تلد الزوجة من غير وقاع، فكل ذلك جنون. وليس التوكل في هذا المقام ترك العمل، بل التوكل فيه بالعلم والحال. أما العلم: فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام، واليد، والأسباب، وقوة الحركة وأنه الذي يطعمك ويسقيك.

وأما الحال، فهو أن يكون قلبك واعتمادك على فضل الله تعالى، لا على الغير والطعام، لأنه ربما جفت يدك، وبطلت حركتك، وربما سلط الله عليك من يغلبك على الطعام، فمد اليد إلى الطعام لا ينافي التوكل.

ومن يفارق الأمصار، ويخرج مسافراً إلى البوادي التي لا يطرقها الناس إلا نادراً، ولا يستصحب معه شيئاً من الزاد، فهذا كالمجرب على الله تعالى، وفعله منهي عنه، وحمله للزاد مأمور به، فإن رسول الله على لما سافر تزود واستأجر دليلًا إلى المدينة.

ومن يستقص في التدبيرات الـدقيقة في تفصيـل الاكتساب ووجـوهه، فمتى كان قصده صحيحاً وفعله لا يخرج عن الشـرع، لم بخرج عن التـوكل، لكنه ربما دخل في أهل الحرص إذا طلب فضول العيش.

وترك التكسب ليس من التوكل في شيء، إنما هـو من فعل البطالين الذين آثروا الراحة، وتعللوا بالتوكل.

قال عمر رضي الله عنه: المتوكل الذي يلقي حبه في الأرض ويتوكل على الله.

وفي التعرض للأسباب بالادخار، ومن وجد قوثاً حلالاً يشغله كسب مثله عن جمع همه، فادخاره إياه لا يخرجه عن التوكل، خصوصاً إذا كان له عائلة.

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، أن النبي رضي كان يبيع نخل بني النضير، ويحبس لأهله قوت سنتهم (١٠).

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

وكذلك لا ينقص التوكل لبس الدرع، وإغلاق الباب، وشد البعير بالعقال. قال الله تعالى: ﴿وَلْمَا خُذُواْ أَسْلِحَتَهُمْ ﴾ (النساء: ١٠٢). وجاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أعقلها وأتوكل، أو أطلقها وأتوكل؟ قال: أعقلها وتوكل(١). ويتوكل في ذلك كله على المسبب لا على السبب ويكون راضياً بكل ما يقضي الله عليه.

⁽١) رواه الترمذي عن انس وسنده حسن (مج).





<u>کناب محب التّر</u> والشوق لرؤیته والرضا بقضائه

اعلم أن المحبة لله تعالى هي الغاية القصوى من المقامات، فها بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، كالشوق، والأنس، والرضى. ولا قبل المحبة مقام إلا وهو من مقدماتها، كالتوبة، والصبر، والزهد، وغيرها.

واعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله ولرسوله فرض. ومن شواهد المحبة قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ الْمَعْوَاللَّهُ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ (المائدة: ٥٤). وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبّاً لِلَّهِ ﴾ وهذا دليل على إثبات الحسب للَّه، وإثبات التفاوت فيه.

وفي الحديث الصحيح: أن رجلًا سأل رسول الله عن الساعة فقال: «ما أعددت لها؟» قال: يا رسول الله: ما أعددت لها من كثرة صلاة ولا صيام، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال رسول الله عن المرء مع من أحببت». فها فرح المسلمون بعد الإسلام فرحهم بها(١).

بيان أن أجلَّ اللذات معرفة اللَّه والنظر إلى وجهه الكريم

اعلم أن لذة النظر في الآخرة تزيد على المعرفة في الدنيا. وقـد اقتضت

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

سنة الله تعالى أن النفس ما دامت محجوبة بعوارض البدن، ومقتضى الشهوات، وما يغلب عليها من الصفات البشرية، لا تنتهي إلى المشاهدة، بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة، كحجاب الأجفان عن رؤية الإبصار.

والقول في سبب كونه حجاباً يطول، فإذا ارتفع الحجاب بالموت، بقيت النفس وفيها نوع تلوث بالدنيا، فإذا دخل أهل الجنة الجنة وقد صفوا من الأكدار تجلّى لهم الحق سبحانه وتعالى.

قال بشر: إن معروفاً الكرخي لم يعبد اللَّه حباً في جنته، ولا خوفاً من ناره وإنما عبده شوقاً إليه(١).

بيان الاسباب المقوية لحب اللَّه تعالى وتفاوت الناس في الحب

اعلم أن أسعد الناس وأحسنهم حالاً في الآخرة أقواهم حباً لله تعالى، فإن الآخرة معناها القدوم على الله تعالى، ودرك سعادة لقائه. وما أعظم نعيم المحب، إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه، وتمكن من مشاهدته من غير منغص ولا مكدر، إلا أن هذا النعيم على قدر المحبة، فكلما ازداد الحب ازدادت اللذة.

وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن، لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة، وأما قوة الحب واستيلاؤه، فذلك ينفك عنه الأكثرون.

ومما يسبب قوة المحبة: معرفة الله تعالى، وإذا حصلت المعرفة تبعتها المحبة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا

⁽۱) إن هذا الكلام فيه مبالغة، وهو مخالف لسلوك الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين وصفهم الله سبحانه بقوله: ﴿انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويعبدوننا رغباً ورهباً﴾ (الأنبياء: ٩٠) كما وصف الملائكة بقوله: ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (النحل: ٥٠).

الفكر الصافي والذّكر الدائم، والتشمير في الطلب، والاستدلال عليها بأفعاله سبحانه. وأقل أفعاله الأرض وما عليها، بالإضافة إلى الملائكة وملكوت السموات(١).

أما السبب في تفاوت الناس في الحب.

فاعلم أن الناس مشتركون في أصل الحب، لكنهم يتفاوتون لتفاوت المعرفة فكثير من الناس ليس لهم من معرفة الله تعالى إلا الصفات والأسهاء التي قرعت أسماعهم. والعالم البصير يطالع في تفصيل صنع الله تعالى حتى يرى ما يبهر عقله، فتزداد عظمة الله في قلبه، فيزداد حباً له، وتجر هذه المعرفة التي هي معرفة عجائب صنع الله تعالى إلى بحر لا ساحل له.

بيان محبة اللَّه تعالى للعبد ومعناها

وأما مجبة الله تعالى للعبد، فاعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على ذلك، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَيٰينَ وَيُحِبُ ٱلْتَطَهِّرِينَ ﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُ ٱللَّهَ يُحِبُ ٱللَّهَ يُحِبُ ٱللَّهِ يَعْلَى مَن العلى الله الله الله الله ونبه على أنه لا يعذب من يجبه، لأنه رد على من ادعى أنه حبيبه بقوله: ﴿قُلْ فَلَم يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ﴾ (الماثدة: ١٨) وشرط للمحبة غفران الذنوب فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللّهَ فَآتَبِعُونِي يُحْبِبُكُمُ ٱللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ (آل عمران: ٣١).

ومن أقـوى علامات محبة الله للعبـد، حسن التدبـير لـه، يـربيـه من الطفولة على أحسن نظام ويكتب الايمان في قلبه، وينور لـه عقله، فيتبع كـل ما يقربه، وينفر عن كـل ما يبعـد عنه، ثم يتـولاه بتيسير أمـوره، من غير ذُل للخلق، ويسدد ظاهـره وباطنـه، ويجعل همـه هماً واحـداً، فإذا زادت المحبـة شغله به عن كل شيء.

⁽١) راجع كتاب التفكر في هذا الجزء لمعرفة كيفية التفكر في خلق اللَّه تعالى.

بيان علامات محبة العبد للَّه تعالى

وأما محبة العبد لله تعالى، فاعلم أن المحبة يدعيها كل أحد، فما أسهل الدعوى وأعز المعنى!

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بتلبيس الشيطان وخداع النفس إذا ادعت عبة الله تعالى، ما لم لأمتحنها بالعلامات، ويطالبها بالبراهين، فمن العلامات، حب لقاء الله تعالى في الجنة، فإنه لا يتصور أن يجب القلب عبوباً إلا ويحب لقاءه ومشاهدته، وهذا لا ينافي كراهة الموت، فإن المؤمن يكره الموت، ولقاء الله بعد الموت.

وفي السلف من أحب الموت، ومنهم من كرهه لأنه يـرى ذنوبـ فيحب أن يبقى ليتوب.

ومنهم من يرى نفسه في ابتداء مقام المحبة، فيكره عجلة الموت قبل أن يستعد للقاء اللَّه تعالى، وهذا كمحب يصله الخبر بقدوم حبيبه عليه، فيحب أن يتأخر قدومه ساعة ليهيء له داره، ويعدل له أسبابه، فيلقاه كها يهواه: فارغ القلب عن الشواغل، خفيف الظهر عن العوائق، فالكراهة بهذا السبب لا تنافي كمال المحبة. وعلامة هذا: الدؤوب في العمل، واستغراق الهم في الاستعداد.

ومنها أن يكون مؤثراً ما أحبه الله تعالى على ما يجبه في ظاهره وباطنه، فيجتنب اتباع الهوى، ويعرض عن دعة الكسل، ولا يزال مواظباً على طاعة الله تعالى متقرباً إليه بالنوافل.

ومن أحب اللَّه فلا يعصيه ولذلك قال ابن المبارك:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في القياس بديع ليو كان حبك صادقاً لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

إلا أن العصيان لا ينافي أصل الحبة، إنما يضاد كمالها، فكم من

إنسان يجب الصحة ويأكل ما يضره، وسببه أن المعرفة قد تضعف، والشهوة قد تغلب، فيعجز عن القيام بحق المحبة، ويدل على ذلك حديث نعمان أنه كان يؤتي به إلى رسول الله على فيحده إلى أن أتى به يوماً، فحده، فلعنه رجل وقال: ما أكثر ما يؤتي به! فقال: رسول الله على: «لا تلعنه، فإنه يجب الله ورسوله»(١). فلم تخرجه المعصية عن المحبة، وإنما تخرجه عن كمال المحبة.

ومن العلامات أن يكون محباً لذكر الله تعالى، لا يفتر عنه لسانه، ولا يخلو عنه قلبه، فإن من أحب شيئاً أكثر من ذكره بالضرورة، ومن ذكر ما يتعلق به.

فعلامة حب الله حب ذكره، وحب القرآن الذي هو كلامه، وحب رسول الله ﷺ.

قال اللَّه تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ آللَّهَ فَآتَبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ آللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ (آل عمران: ٣١).

وقـال بعض السلف: كنت قد وجـدت حلاوة المنـاجـاة، فكنت أدمن قراءة القرآن، ثم لحقني فترة فانقطعت، فرأيت في المنام قائلًا يقول:

إن كنت ترعم حبي فلم هجرت كتابي أما تدبرت ما في همن لطيف عتابي

ومنها أن يكون أنسه بالخلوة، ومناجاة الله تعالى، وتلاوة كتابه، فيواظب على التهجد، ويغتنم هدوء الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق، فأقل درجات الحب التلذذ بالخلوة بالحبيب، والتنعم بمناجاته.

وقد قال بعضهم:

كانت لقلبي أهواء مفرقة فاستجمعت مذرأتك العين(٢) أهوائي

⁽١) رواه البخاري ومعنى يحده: يقيم عليه الحد.

⁽٢) أي رأت نعم اللَّه وعنايته بعباده وأنه مصدر الخيركله.

ومنها أن يكون شفيقاً على المسلمين، رحياً بهم، شديداً على أعدائه، كما قال تعالى: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ (الفتح: ٢٩) ولا تأخذه في اللَّه لومة لائم، ولا يصرفه عن الغضب له صارف، فهذه علامات المحبة، فمن اجتمعت فيه فقد تمت محبته، وصفا في الآخرة شرابه. ومن امتزج بحبه حب غير اللَّه، ينعم في الآخرة بقدر حبه، فيمزج شرابه بشيء من شراب المقربين، كما قال عز وجل: ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴾ (الانفطار: ١٣) إلى قوله تعالى: ﴿ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيتٍ عَنْتُومٍ ، خِتَنْمُهُ مِسْكُ وَفي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ المُتَنْفِسُونَ، وَمِزَاجُهُ مِن تَسْنِيمٍ ، عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا الْلُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين: ٢٥ - ٢٨) فقوبل الخالص بالصرف، والمشوب بالمشوب. ﴿ فَمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ ﴾ (الزلزلة: ٧ - ٨).

ومنها أن يكون في حبه خائفاً تحت الهيبة والتعظيم، فإن الخوف لا يضاد المحبة، ولخصوص المحبين مخاوف في مقام المحبة ليست لغيرهم، وبعضها أشد من بعض، فأولها خوف الإعراض، وأشد منه خوف الإبعاد.

(١) بيان الرضي بقضاء اللَّه

قال بعض الصالحين في علامات المحبة أبياتاً:

لا تخدعن فللحبيب دلائل منها تنعمه بحرّ بلائه ومن الدلائل أن يُرى متبساً ومن الدلائل أن يرى متفهاً

ولديه من تحف الحبيب وسائل وسروره في كل ما هو فاعل والقلب فيه من الحبيب بلابل لكلام من يحظى لديه السائل

وقال غيره:

ومن الدلائل حزنه ونحيبه ومن الدلائل أن تراه مسافراً

خوف الكلام فها له من عادل نحو الجهاد وكل فعل فاضل

ومن السدلائل زهده فيها يسرى ومن السدلائل أن تسراه بساكيساً ومن السدلائل أن تسراه مسللًا ومن السدلائل أن تسراه راضياً

من دار ذلك والنعيم الزائل أن قد رآه على قبيح فعائل كل الأمور إلى المليك العادل عمليكه في كل حكم نازل

وقد قيل:

فها لجرح إذا أرضاكم ألم

أوحى اللَّه تعالى إلى داود عليه السلام: يا داود! إنـك لن تلقاني بعمق هو أرضى لي عنك، ولا أحط لوزرك، من الرضى بقضائي.

ونظر على بن أبي طالب رضي الله عنه إلى عدي بن حاتم كئيباً، فقال: يا عدي: مالي أراك كئيباً حزيناً؟ فقال: وما يمنعني وقد قُتل ابناي، وفقئت عيني. فقال: يا عدي: من رضي بقضاء الله جرى عليه وكان له أجر، ومن لم يرض بقضاء الله جرى عليه وحبط عمله.

ودخل أبو الدرداء رضي اللَّه عنه على رجل يموت وهو يحمد اللَّه. فقال أبو الدرداء: أصبت، إن اللَّه عز وجل إذا قضى قضاء أحب أن يُرضي به.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أن الله تعالى بقسطه وعلمه جعل الرّوج والفرح في اليقين والرضى، وجعل الهم والحزن في الشك والسخط.

وقال علقمة في قوله عز وجل: ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ﴾ (التغابن: ١١) قال: هي المصيبة تصيب الرجل، فيعلم أنها من عند الله، فيسلم لها ويرضى.

وقال أبو معاوية الأسود في قوله تعالى ﴿ فَلَنُحْبِيِّنَّهُ حَيْوةً طَيِّبَةً ﴾ (النحل: ٩٧) قال: الرضي والقناعة.

وفي «زبور داود» عليه السلام: هل تـدري من أسرع النـاس مراً عـلى الصراط؟ الذين يرضون بحكمي وألسنتهم رطبة من ذكري.

وقال داود عليه السلام: يا رب! أي عبادك أبغض إليك؟ قال: عبد استخارني في أمر، فخرت له، فلم يرض.

وقال عمر بن عبد العزيز: ما بقي لي سرور إلا في مواقع القدر.

وقيل له: ما تشتهي؟ فقال: ما يقضي اللَّه عز وجل.

وقال الحسن: من رضي بما قُسم له، وسعه، وبارك الله له فيه، ومن لم يسعه، ولم يبارك له فيه.

وقال عبد الواحد بن زيد: الرضى باب الله الأعظم، وجنة الدنيا، ومستراح العابدين.

وقال بعضهم: لن يرى في الآخرة أرفع درجات من الراضين عن الله تعلى على كل حال، فمن وهب له الرضى، فقد بلغ أفضل الدرجات. وأصبح أعرابي وقد مات له أباعر كثيرة، فقال:

لا والذي أنا عبد في عبادت لولا شمات أعداء يوي إحن (١) ما سرني أن إبلي في مباركها وأن شيئاً قضاه الله لم يكن

واعلم أن الدعاء لا يناقض الرضى، وكذلك كراهة المعاصي ومقت أهلها وأسبابها، والسعى في إزالتها.

أما الدعاء، فقد تعبدنا الله تعالى به، وقد أثنى الله تعالى على بعض عباده بقول ه (يَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً (الأنبياء: ٩٠) ودعاء رسول الله على وغيره من الأنبياء معلوم.

وأما إنكار المعاصي وعدم الرضى بها، فقد تعبدنا الله تعالى بها، وذم الراضي بها، وكذلك بغض الكفار والفجار، والإنكار عليهم، وشواهد ذلك في القرآن والأخبار كثيرة جداً.

⁽١) الاحن الاحقاد.

وواجب على كل عبد محب لله أن يبغض من أبغضه الله عز وجل، ويعادي من عاداه وأبعده عن حضرته، وإن اضطر بقهره وقدرته إلى معاداته وخالفته، فإنه بعيد مطرود، والمبعد عن درجات القرب ينبغي أن يكون بغيضاً إلى جميع المحبين، موافقة لمحبوبهم، بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بإبعاده. وبهذا يتقرر جميع ما وردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله، والتشديد على الكفار، والتغليظ عليهم. مع الرضا بقضاء الله تعالى.

ومما يتعلق بالمحبة، قيل: أوحى الله سبحانه إلى داود عليه السلام: لو يعلم المدبرون عني كيف انتظاري لهم، ورفقي بهم، وشوقي إلى تسرك معاصيهم، لماتوا شوقاً إليَّ، ومحبة لي!

يا داود! هذه إرادتي في المدبرين عني، فكيف إرادتي في المقبلين عليَّ؟!





_كناب النية والإخلاص الصدق فضيلة النية

قال الله تعالى: ﴿وَآصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبُّهُم بِالْغَدُوةِ وَالْعَثْنِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ (الكهف: ٢٨) والمراد بتلك الإرادة هي النية، وقال سبحانه: ﴿اللهِ آلدِّينُ آخَالِصُ (الزمر: ٣) وقال ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات، ولكل امريء ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه (١). وفي حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله في غزوة تبوك. قال: «إن بالمدينة أقواماً ما قطعنا وادياً، ولا وطئنا موطئا يغيظ الكفار، ولا أنفقنا نفقة، ولا أصابتنا محمصة إلا شَركونا في ذلك، وهم بالمدينة قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله وليسوا معنا؟ قال: «حبسهم العذر» (٢) فشركوا بحسن النية، وقال ﷺ: «يبعث كل عبد على ما مات عليه (١) وفي حديث أبي هريرة: «من تنزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي عليه فهو زان، ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق» (٤).

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽۲) رواه البخاري مختصراً وأبو داود.

⁽٣) رواه مسلم.

⁽٤) رواه أحمد وابن ماجه. وبمناسبة الكلام على النية فان مصنف الاحياء، كثيراً ما يـذكر حـديث ونيـة المؤمن حـير من عمله ويبني عليـه الاحكـام، وهـو حـديث ضعيف كـما قـال الحـافظ العراقي».

تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية

اعلم أن الأعمال تنقسم إلى ثلاثة أقسام: طاعات ومعاص ومباحات. (فأما المعاصي) فلا تتغير عن موضعها بالنية ، أعني أن المعصية لا تنقلب طاعة بالنية كالذي يغتاب إنساناً مراعاة لقلب غيره، أو يطعم فقيراً من مال غيره، أو يبني مدرسة أو مسجداً بمال حرام، وقصده الخير، فهذا كله جهل، والنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلماً وعدواناً ومعصية، بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع، شر آخر، فإن عرفه فهو معاند للشرع، وإن جهله فهو عاص بجهله، إذ طلب العلم فريضة على كل مسلم. والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع، فكيف يمكن أن يكون الشر خيراً؟! هيهات، ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى: ما عصي الله تعالى بمعصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئاً أشد من الجهل؟ قال: نعم، الجهل بالجهل. وهو كها قال، لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم. فمن بالجهل. وهو كها قال، لأن الجهل بالجهل يا أبل ما أطبع الله تعالى به العلم، ورأس العلم: العلم بالعلم، كها أن رأس الجهل الجهل بالجهل، وقد قال تعالى: (النحل: ٣٤).

نعم للنية دخل في المعاصي، وهو إذا انضاف إليها قصود خبيثة، تضاعف وزرها، وعُظم وبالها.

(القسم الثاني الطاعات): وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها، أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله لا غير، فإن نوى الرياء صارت معصية، وأما تضاعف الفضل فبكثرة النيات الحسنة، فإن الطاعة الواحدة يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة، فيكون له بكل نية ثواب، إذ كل واحدة حسنة تضاعف كل حسنة بعشر أمثالها كها ورد، ومثاله القعود(۱) في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات كثيرة حتى يصير من

⁽١) إذا كان غير مكلف بعمل . . . ومعنى تعلق القلب بالمسجد التفكر بالجماعة وصلاتها، وليس معناه السكني فيها وترك العمل .

فضائل أعمال المتقين:

(أَوْلَهَا): أَن يعتقد أنه بيت اللَّه وأن داخله زائر اللَّه.

(ثانيها): أن ينتظر الصلاة بعد الصلاة فيكون في صلاة.

(ثالثها): الترهيب بكف السمع والبصر والأعضاء، عن الحركات والترددات.

(رابعها): عكوف الهم على الله، ولزوم السر للفكر في الأخرة، ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاعتزال إلى المسجد.

(خامسها): التجرد لذكر اللَّه أو لاستماع ذكره والتذكر به.

(سادساً): أن يقصد إفادة العلم بأمر بالمعروف ونهي عن منكر، إذ المسجد لا يخلو عمن يسيء في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل، فيأمره بالمعروف ويرشده إلى الدين، فيكون شريكا معه في خيره الذي يعلم منه، فتتضاعف خيراته.

(سابعاً): أن يستفيد أخاً في الله، فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخره، والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله.

(ثامنها): أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضي هتك الحرمة، فهذا طريق تكثير النيات، وقس به سائر الطاعات، إذ ما من طاعة إلا وتحتمل نيات كثيرة، وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له، فهذا تزكوا الأعمال وتتضاعف الحسنات.

(القسم الثالث المباحات): وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات كالتطيب مثلاً، فإنه بقصد التلذذ والتنعم مباح، وأما إذا نوى به اتباع سنة رسول الله عليه وترويح جيرانه ليستروحوا

بروائحه، ودفع الرائحة الكريهة عن نفسه التي تؤدي إلى إيذاء مخالطيه، وزيادة فطنته وذكائه، ليسهل عليه درك مهمات دلأنه بالفكر، فهذا وأمثاله من النيات الحسنة التي لا يعجز عنها من غلب طلب الخير على قلبه مما ينال بها معالى الدرجات، وأما من قصد بالطيب إظهار التفاخر بكثرة المال أو رياء الخلق للذكر بذلك أو ليتودد إلى قلوب النساء الأجنبيات أو لغير ذلك، فهذا يجعل الطيب معصية ويكون في القيامة أنتن من الجيفة، والمباحات كثيرة لا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ما عداه. ولهذا قال بعض السلف: «إني لأستحب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكلي وشربي ونومي ودخولي للخلاء».

وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من مهمات البدن، فهو معين على الدين، فمن قصد من الأكل التقوى على العبادة، ومن الوقعاع تحصين دينه وتطييب قلب أهله والتوصل به إلى ولد صالح يعبد الله تعالى بعده كان مطيعاً بأكله ونكاحه.

فضيلة الاخلاص وحقيقته

قال الله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْرُوا إِلاْ لِيعبدُوا اللّه مخلصين له الدين ﴾ (الحج: ٣٧) وقال: ﴿ أَلاَ لِلّهِ آلَدِينُ آ خُالِصُ ﴾ (الزمر: ٢) وقال تعالى: ﴿ إِلاّ الَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَآعْتَصَمُواْ بِآللّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلّهِ ﴾ (النساء: ١٤٦) وقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَلِحاً وَلاَ يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ وَقال تعالى: ﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَلِحاً وَلاَ يُشْرِكُ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحْدَا ﴾ (الكهف: ١١٠) وعن على رضي الله تعالى عنه «لا تهتموا لقلة العمل واهتموا للقبول وجاء في الحكم: «أخلص العمل يجزك منه القليل» وقال يعقوب المكفوف: المخلص من يكتم حسناته كما يكتم سيئاته.

واعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمي خالصاً، ويسمى الفعل المصفي المخلص إخلاصاً،

والإخلاص يضاده الإشراك فمن ليس مخلصاً، فهو مشرك، إلا أن الشرك درجات، وقد جرى العرف على تخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب، فإذا امتزج قصد التقرب بباعث آخر من رياء أو غيره من حظوظ النفس فقد خرج عن الإخلاص، ومثاله أن يصوم لينتفع بالحمية الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب، أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من عدو له(١)، أو يصلي بالليل لغرض دنيوي، أو يتعلم للعمل، أو يعود مريضاً ليعاد إذا مرض، أو يشيع جنازة لتشيع جنازة أهله، أو يفعل شيئاً من ذلك ليعرف بالخير ويذكر به، وينظر إليه بعين الصلاح والوقار، فمها كان باعثه التقرب إلى الله تعالى ولكن انضاف إليه خطوة من هذه الحظوات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الإخلاص، وخرج عن أن يكون خالصاً لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك.

فضيلة الصدق ودرجاته

قال اللَّه تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَنهَدُواْ آللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٢٣) وقال النبي ﷺ: «إن الصدق يهدي إلى البر، والبر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند اللَّه صديقاً، وإن الكذب يهدي الى الفجور، والفجور يهدي الى النار، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند اللَّه كذاباً ، (٢).

والصدق درجات (الأولى صدق اللسان) وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق، وكمال صدق القول الاحتراز عن المعاريض، فقد قيل: في المعاريض مندوحة عن الكذب(٣)، ويجوز الكذب في التحذير

⁽١) بخلاف من نوى على المناسك التجارة والتشاور مع المسلمين في شؤون سياسية واقتصادية وغيرها، فهو واجب لقوله تعالى: ﴿ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم اللَّه. . ﴾ الآية .

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) لقد نسب هذا الكلام الى رسول الله وهو غير صحيح وقد حدد صلى الله عليه وآله وسلم المواقف التي باح فيها الكذب، فلا يجوز تجاوزها والتوسع فيها وإلا وقع في الاثم.

من الظِلمة، وفي قتال الأعداء، والاحتراز عن اطلاعهم على الأسرار، فمن اضطر الى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيها يأمره الحق بـه ويقتضيه الدين، فإذا نطق بـه فهو صـادق وإن كان كـــلامه مفهـــأ غـر مــا هو عليه، لأن الصدق ما أريد لذاته بل للدلالة على الحق، والدعاء إليه، فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه، نعم في مثل هـذا الموضع ينبغي أن يعدل إلى المعاريض ما وجد اليه سبيلا، كان رسول الله على إذا توجه الى سفر ورَّى بغيره (١)، وذلك كي لا ينتهي الخبر الى الأعداء فتفسد خطته، وليس هذا من الكذب في شيء، قال رسول الله على: «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيراً أو نمى خيراً (٢) ورخص في النطق على وفق المصلحة في ثلاثة مواضع: من أصلح بين اثنين، ومن كان له زوجتان (٣)، ومن كان في مصالح الحرب؛ والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعي فيه إلا صدق النية وإرادة الخير، فمهما صح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادتـه صار صــادقاً وصديقاً كيفها كان لفظه، ومن الصدق أت تراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناجي بها ربه كقوله (وجهت وجي للذي فطر السموات والأرض) فإن قلبه إن كان منصرفاً عن الله تعالى، مشغولًا بأماني المدنيا وشهواته فهو كذب، وكقوله: (إياك نعبد) وكقوله (أنا عبد الله) فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقاً، ولو طولب يوم القيامة بالصدق في قوله: أنا عبد اللَّه لعجـز عن تحقيقه، فـإنه إن كـان عبداً لنفسه أو عبداً لدنياه أو عبداً لشهوات لم يكن صادقاً في قول، وكل ما تقيد العبد به فهو عبد له، كما قال على: «تعس عبد الدينار وتعس عبد الدرهم وعبد الخميصة(٤)، سمي كل من تقيد قلبه بشيء عبداً له، وإنما العبد الحق لله عز وجل من أعتق من غير الله تعالى، واشتغل بالله وبمحبته وتقيد ظـاهره

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

⁽٢) رواه البخاري ومسلم.

⁽٣) كأن يدعى حب من لا يحبها.

⁽٤) رواه البخاري.

وباطنه بطاعته فلا يكون له مراد إلا اللَّه تعالى.

(الدرجة الثانية): الصدق في النية والإرادة. ويرجع ذلك الى الإخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية.

(الثالثة): صدق العزم: وهو الحزم فيه بقوة. والصادق فيه هو الذي تصادق عزيمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد، بل تسخو نفسه أبداً بالعزم المصمم الجازم على الخيرات، كمن يقول: إن رزقني الله مالاً تصدقت بشطره، وإن أعطاني الله ولاية عدلت فيها، ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق. فصدق هذه العزيمة هو سخاء نفسه بما نوى.

(الرابعة) في الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم يتفق الوفاء بالعزم، وهذا يضاد الصدق فيه، ولذلك قال اللّه تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُولُ مَا عَنهَدُواْ وَهِذَا يَضَاد الصدق فيه، ولذلك قال اللّه تعالى: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُولُ مَا عَنهَدُواْ اللّهَ عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٢٣) عن أنس أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدراً مع رسول اللّه على فشق ذلك على قلبه وقال: أول مشهد شهده رسول اللّه على غبت عنه! أما واللّه لئن أراني اللّه مشهداً مع رسول اللّه على ليرين ما أصنع، قال فشهد أحداً في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال: إلى أين؟ فقال: وإها لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد أين؟ فقال: واها لريح الجنة إني أجد ريحها دون أحد، فقاتل حتى قتل فوجد أي جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة، فقالت أخته: ما عرفت أخي إلا بثيابه (۱)، فنزل هذه الآية: ﴿ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَنهَدُواْ اللّه عَلَيْهِ ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

وقال مجاهد(٧): رجلان خرجا على ملأ من الناس قعود، فقالا: لئن

⁽١) وهو عند البخاري مختصر ورواه الترمذي وقال: حسن صحيح.

⁽٢) رواه مجاهد والحسن بدون سند.

رزقنا اللَّه تعالى مالا لنصدقن فبخلوا به فنزلت: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَنْهَـٰذَ ٱللَّهَ لَئُنْ ءَاتَنْنَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُــونَنَّ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ، فَلَمَّا ءَاتَنْهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُواْ بِهِ وَتَوَلُّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ، فَأَعْفَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْم ِ يَلْقَوْنَـهُ بِمَا أَخْلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُواْ يَكْذِبُونَ﴾(التوبة : ٧٥_٧٧) فجعل العزم عهداً وجعل الخلف فيه كذباً والوفاء به صدقاً.

(الخامسة) الصدق في الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به، فمن وقف على هيئة الخشوع في صلاته لأن يرائى غيره، ولكنه في الباطن قائم في السوق بين يدي شهوة من شهواته فهو كاذب بلسان الحال في عمله غير صادق فيه، فالصدق هو استواء السريرة والعلانية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره.

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا فإن خالف الإعلان سراً فماله على سعيه فضل سوى الكد والعنا فيها خالص المدينار في السوق نافق ومغشوشه المردود لا يقتضى المنا

ثم درجات الصدق لا نهاية لها، وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض، فإن كان صادقاً في الجمع فهو الصدِّيق حقاً.



_كُنْ بِالْمُحَاسِبِ وَالْمُرَاقِبِ مُ بيان لزوم المراقبة

قال الله تعالى: ﴿ وَنَضِع ٱلْمَوْزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيْمَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَل أَتَيْنًا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَسِبِينَ ﴾ (الأنبياء: ٧٤) وقال تعالى: ﴿ وَوَضِعَ ٱلْكِتَابُ فَتَرَى ٱلْجُرِمِينَ مُشْفِقِينَ بِمّا فِيهِ، وَيَقُولُونَ يَنُويْلَتَنَا مَالِ هَلْدَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَلَهَا، وَيَقُولُونَ يَنُويْلَتَنَا مَالِ هَلْدَا ٱلْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلاَ كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَلَهَا، وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِراً وَلاَ يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً ﴾ (الكهف: ٤٩) وقال تعالى: ﴿ يَقُلُ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ يَوْمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرُواْ أَعْمَلَهُمْ ، كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (الزلال: كُلُّ شَيْءٍ مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ضَراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (الزلال: ٤٦ - ٨) وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَهُ ﴾ (الزلال: ٤٦ - ٨) وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَوْهُ ﴾ (الزلال: ٤٦ - ٨) وقال تعالى: ﴿ وَمَا عَمِلْتُ مِنْ مُنْ عَلَى اللهُ مَنْ عَلَى اللهُ مِنْ عَلَى اللهُ مَنْ عَلَى اللهُ مَا عَمِلَتْ مِنْ مُنْ عَلَى اللهُ وَمَا عَمِلَتْ مِنْ مُومِ وَقَالَ لَوْ أَنْ اللّه يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَا حُدَرُوهُ ﴾ (البقرة: ٤٤) وقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُونُ أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَا حُدَدُرُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٣) وقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُونُ أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَا حُدَدُرُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٣) وقال تعالى: ﴿ وَاعْلَمُوا أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَا حُدَدُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٣) وقال دُولُولُ أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْدَدُرُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٣) وقال دُولُولُ أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فَي أَنفُسِكُمْ فَاحْدَدُرُوهُ ﴾ (البقرة: ٢٣) وقال دُولُولُ أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فَا فَي أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا فَا فَا عَمِلُولُ أَنْ اللّهُ يَعْلَمُ مَا اللّهُ يَعْلَمُ مَا فَا فَا عَلَا اللّهُ الل

استدل بذلك أرباب البصائر أن الله تعالى لهم بالمرصاد، وأنهم سيناقشون في الحساب، ويطالبون بمثاقيل الذر من الخطرات واللحظات، فتتحققوا أنهم لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة، وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات، ومحاسبتها في الخطرات واللحظات،

فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خف في القيامة حسابه، وحضر عند السؤال جوابه، وحسن منقلبه ومآبه، ومن لم يحاسب نفسه دامت حسرته، وطالت في عَرصات القيامة وقفاته، إلى الخزي والمقت سيئاته، فحتم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها، وخطراتها فإن كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها، يمكن أن يشرق بها كنز من كنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد، فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى ما يجلب الهلاك، خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل.

بيان مشارطة النفس

إذا أصبح العبد وفرغ من فريضة الصبح، ينبغي أن يفرغ قلبه لمشارطة النفس فيقول لها: مالي بضاعة إلا العمر، ومها فني فقد فني رأس المال ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح، وهذا اليوم الحديد قد أمهلني الله فيه وأنسأ في أجلي وأنعم علي به، ولو توفاني لكنت أتمنى أن يرجعني إلى الدنيا يوما واحداً حتى أعمل فيه صالحاً، فاحسبي أنك قد توفيت ثم رددت فإياك أن تضيعي هذا اليوم فإن كل نفس من الأنفاس جوهرة لا عوض لها، فلا تميلي الكسل والدّعة والاستراحة، فيفوتك من درجات علين ما يدركه غيرك، وتبقى عندك لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الغبن وحسرته لا يطاق، وقد وأشار به إلى الغبن والحسرة، وقال اللّه تعالى: ﴿وَيُومَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْخَمْعِ وَالسَان والبطن والفرج في أوقاته، ثم ليستأنف في أوقاته، ثم ليستأنف في أوصية في أعضائه السبعة، وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل فيوصيها بحفظها عن معاصيها.

(أما العين) فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بمحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار. ثم إذا صرفها عن هذا لم يقنع به

حتى يشغلها بما فيه تجارتها وربحها، وهو ما خُلقت لـه من النظر إلى عجائب صنع اللّه بين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء، والنظر في كتاب الله وسنة رسوله ومطالعة كتب الحكمة للاتعاظ والاستفادة.

وهكذا ينبغي أن يفصِّل الأمر عليها في عضو عضو، لا سيم اللسان والبطن.

(أما اللسان) فلأنه منطلق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة، وجنايته عظيمة بالغيبة، والكذب، والنميمة، وتزكية النفس، ومذمة الخلق والأطعمة والطعن، والدعاء على الأعداء، والمماراة في الكلام، وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان، فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق للذكر والتذكير، وتكرار العلم والتعليم، وإرشاد عباد الله الى طريق الله، وإصلاح ذات البين وسائر خيراته.

(أما البطن) فيكلفه ترك الشره، وتقليل الأكل من الجلال واجتناب الشبهات، ويمنعه من الشهوات، وهكذا يشترط على النَّفس في جميع الأعضاء، واستقصاء ذلك يطول. ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها، ثم يستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تكرر عليه في اليوم والليلة وكيفية الاستعداد لها بأسبابها، وكذا فيمن يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس، وقلما يخلو يوم عن مهم جديد وواقعة جديدة تحتاج إلى أن يقتضي حق اللَّه فيها، فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والانقياد للحق في مجاريها ويحذرها معبة الإهمال، ويعظها كما يوعظ العبد الأبق المتمرد، فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستعصية عن العبودية، ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿وَذَكِرْ فَإِنَّ ٱلذِّكُرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها ﴿وَذَكِرْ فَإِنَّ ٱلذِّكُرَىٰ تَنفَعُ ٱلمُؤْمِنِينَ﴾

فضيلة المراقبة

روى أن جبريل عليه السلام سأل النبي صلوات الله عليه عن

الإحسان فقال: «أن تعبد اللَّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يـراك»(١) وقد قال تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَـا كَسَبَتْ﴾ (الرعـد: ٣٣) وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَمرَىٰ﴾ (العلق: ١٤) وقال تعـالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (النساء: ١) وقال تعالى: ﴿وَإِلَّـذِينَ هُمْ لَأِمَانَـاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَاتِهم قَائِمُونَ ﴾ (المعارج: ٣٢ و٣٣) وسئل بعضهم عن قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ﴾ (البينة: ٨) فقال معناه لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده.

وسئل بعض الصالحين: بم ينال العبد الجنة؟ فقال: بخمس: استقامة ليس فيها روغان، واجتهاد ليس معه سهو، ومراقبة اللَّه في السر والعلانية، وانتظار الموت بالتأهب له، ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل:

اذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل خلوت ولكن قل عليّ رقيب ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب وأن غداً للناظرين قريب

ألم تــر أن الــيــوم أســرع ذاهــب

حقيقة المراقبة

المراقبة هي ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه. ويعني بها حالة القلب يثمرها نوع من المعرفة، وتثمر تلك الحالة أعمالا في الجوارح وفي القلب، أما الحالة فهي مراعاة القلب للرقيب وملاحظته إياه، وأما المعرفة فهو العلم بأن اللَّه مطلع على الضمائر عالم بالسرائر، رقيب على أعمال العباد، قائم على كل نفس بما كسبت، وأن سر القلب في حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف. ثم للمراقب في أعماله نظران: نظر قبل العمل، ونظر في العمل، أما قبل العمل فلينظر إلى همه وحركته، أهى للَّه خاصة أو لهوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى ينكشف له ذلك بنور الحق، فإن كان للَّه تعالى أمضاه، وإن كان لغير اللَّه استحيا من اللَّه وانكف عنه ثم لام

⁽١) رواه البخاري ومسلم.

نفسه على رغبته فيه وهمه به، وميله إليه، وعرَّفها سوء فعلها وأنها عدوة نفسها، وأما النظر الثاني للمراقبة منذ الشروع في العمل، فذلك يتقديم كيفية العمل ليقضي حق الله فيه، ويحسن النية في إتمامه، ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه.

وهذا ملازم له في جميع أحواله، لأنه لا يخلو إما أن يكون في طاعة أو في معصية، أو في مباح، فمراقبته في الطاعات بالإخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحراسة النفس عن الآفات، وإن كان في معصية، فمراقبته بالتوبة والندم والإقلاع والحياء والاشتغال بالتفكير، وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب، ثم بشهود المنعم في النعمة وبالشكر عليها، ولا يخلو العبد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الصبر عليها، ونعمة لا بد له من الشكر عليها.

بيان محاسبة النفس بعد العمل

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُواْ اتَّقُواْ اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مًّا قَدَّمَتْ لِغَدِ ﴾ (الحشر: ١٨) وهذه إشارة إلى المحاسبة على ما مضى من الأعمال، وقال تعالى: ﴿ وَتُوبُواْ إِلَى اللَّهِ جَمِعاً أَيَّةَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (النور: وقال تعالى: ﴿ إِنَّ وَالتُوبة نظر فِي الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَئِنْفُ مِّنَ الشَّيْطَنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مَّبْصِرُونَ ﴾ اللَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَئِنْفُ مِّنَ الشَّيْطَنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مَّبْصِرُونَ ﴾ (الأعراف: ٢٠١) وقال النبي ﷺ: ﴿ إِنِي لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة (١٠) وقال النبي ﷺ: ﴿ إِنِي لأستغفر الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن اليوم مائة مرة (١٠) وقال عمر رضي الله عنه: حاسبوا أنفسكم قبل أن تعاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا. وقال مالك بن دينار: رحم الله عبداً قال لنفسه: ألست صاحبة كذا، ثم ذمها ثم خطمها، ثم لنفسه: ألست صاحبة كذا، ثم ذمها ثم خطمها، ثم ألزمها قائداً: كتاب الله تعالى فكان قائداً له. إذا علمت هذا فينبغي أن بكون للمرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع بكون للمرء في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ويحاسبها على جميع

⁽١) ذكره الترمذي في اليوم سبعين مرة وهو صحيح (مج).

حركاتها وسكناتها، كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة، أو شهر، أو يوم، حرصاً منهم على الدنيا، وكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيها يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبد الآباد؟! ما هذه المساهلة إلا عن الغفلة وقلة التوفيق، ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين الزيادة من النقصان، فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره، وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل، فكذلك رأس مال العبد في دينه: الفرائض وربحه النوافل وخسرانه المعاصي، وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه الأمارة بالسوء، فيحاسبها على الفرائض أولاً، فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليها ورغبها في مثلها، وإن فوتها(١) من أصلها طالبها بالقضاء. وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل، وإن ارتكب معصية اشتغل بعقوبتها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه، وليتكفل بنفسه من الحساب ما يتولاه غيره في صعيد القيامة.

توبيخ النفس ومعاتبتها

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك وهي غالباً أمارة بالسوء ميالة إلى الشر، فرارة من الخير، وأمرت بتزكيتها وتقويمها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالقها، ومنعها عن شهواتها وفطامها عن لذاتها، فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة، رجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل في زمرة عباد الله راضية مرضية، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها، قال الله تعالى: ﴿وَذَكِرْ فَإِنَّ آلذِّكُورَى تَنفَعُ آلُوْمِنِينَ ﴾ (الذاريات: ٥٥) وسبيلك أن تُقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها أنها أبداً تتعزز بفطنتها وهدايتها ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق، فتقول لها: يا نفس ما أعظم جهلك! تدَّعين الحكمة والذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً؟ أما

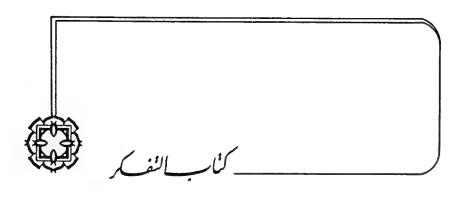
⁽١) بسبب عذر: نوم أو نسيان.

تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار، وأنك صائرة إلى إحداهما على القرب، فمالك تشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن البعيد ما ليس بآت، أما تتدبرين قوله تعالى: ﴿آقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِهِم مُّذَتْ إِلَّا آسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنبياء: ١-٣).

ويحك يا نفس، إن كانت جراءتك على معصية اللَّه الاعتقاد أن اللَّه لا يراك، فها أعظم كفرك، وإن كان مع علمك باطلاعه عليك، فها أشد وقاحتك وأقل حياءك!

ويحك يا نفس، لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له، فبأي جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه؟ أفتظنين أنك تطيقين عذابه: هيهات هيهات! جربي نفسك إن أهلهاك البطر عن أليم عذابه، فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام، أو قربي أصبعك من النار، ليتبين لك قدر طاقتك، أم تغترين بكرم الله وفضله، فمالك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا بما لا يقضي إلا بالدينار والدرهم، فمالك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل، فلم لا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز، أو يسخر عبداً من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب، أفتحسبين أن الله كريم في الأخرة دون الدنيا. وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها، وأن رب الأخرة والدنيا واحد، وأن ليس للانسان إلا ما سعى!

	•		
		•	
•			
			•



قد أمر الله سبحانه بالتفكر والتدبر في كتابه العزيز، وأثنى على المتفكرين بقوله: ﴿ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ آلسَّمَ وْتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ مَا لَلله كَرِين بقوله: ﴿ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ آلسَّمَ وْتِ وَٱلْأَرْضِ يَتَفَكّرُونَ ﴾ هَلْذَا بَلْطِلاً ﴾ (آل عمران: ١٩١) وقال: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَينتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ ﴾ (الرعد: ٣). وعن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله عنه: تفكر في آلاء الله ولا تفكروا في الله هذا وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: تفكر ساعة خير من قيام ليلة. وقال وهب ابن منبه: ما طالت فكرة امريء قط إلا فهم، وما فهم إلا علم، وما علم إلا عمل. وقال بشر الحافي: لو تفكر الناس في عظمة الله لما عصوه. وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ الناسِ في عظمة الله لما عصوه. وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ الناسِ في الله على الله على الله على الله على القول الفريابي في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ الناسِ في علمة الله لما عصوه. وقال الفريابي في قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ الناسِ فَا عَلْمَ الله عَلَى الله عَلْمَ الله عَلْمُ الله الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله الله عَلْمُ الله الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ الله عَلْمُ

وكان سفيان من شدة تفكره يبول الدم! وقال أبو بكر الكتاني: روعة عند انتباهه من غفلة، وانقطاع عن حظ نفساني، وارتعاد من خوف قطيعة، أفضل من عبادة الثقلين(٢).

بيان مجاري الفكر وثمرته

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدِّين، وقد يجري في أمر يتعلق

⁽۱) رواه ابن عمر وسنده حسن «مج».

⁽٢) لعله يريد النفل منها!

بغيره وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين، وشرح ذلك يطول. فلينظر الانسان في أربعة أنواع: الطاعات، والمعاصي، والصفات المهلكات، والصفات المنجيات، فلا تغفل عن نفسك، ولا عن صفاتك المباعدة عن الله، والمقربة إليه، فينبغي لكل مريد أن تكون له صحيفة يثبت فيها جملة الصفات المهلكات، وجملة الصفات المنجيات، وجملة المعاصي والطاعات، ويعرض ذلك على نفسه كل يوم. ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة، فإنه إن سلم من غيرها، وهي: البخل، والكبر، والعُجب، والرياء، والحسد، وشدة الغضب، وشره الطعام، وشره الوقاع، وحب المال، وحب الجاه.

ومن المنجيات عشرة: الندم على الذنوب، والصبر على البلاء، والرضى بالقضاء والشكر على النعاء، واعتدال الخوف والرجاء، والزهد في الدنيا، والإخلاص في الأعمال، وحسن الخُلق مع الخَلق، وحب الله تعالى، والخشوع. فهذه عشرون خصلة، عشرة مذمومة، وعشرة محمودة، فمتى كُفي من المذمومات واحدة، خطّ عليها في صحيفة، وترك الفكر فيها، وشكر الله تعالى على كفايته إياها. وليعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه، ثم يقبل على التسعة الباقية. وهكذا يفعل حتى يخط على الجميع، وكذلك يطالب نفسه بالاتصاف بالصفات المنجيات، فإذا اتصف بواحدة منها، كالتوبة والندم مثلاً، خطّ عليها واشتغل بالباقى، وهذا يحتاج إليه المشمّر.

فأما أكثر الناس من المعدودين في الصالحين، فينبغي أن يثبتوا في صحفهم المعاصي الظاهرة، كأكل الشبهات، وإطلاق اللسان بالغيبة والنميمة، والمراء، والثناء على النفس، والإفراط في موالاة الأولياء، ومعاداة الأعداء، والمداهنة في ترك الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه. وما لم تطهر الجوارح من الأثام، لا يمكن الاشتغال بعمارة القلب وتطهيره.

وكل فريق من الناس يغلب عليهم نوع من هذه الأمور، فينبغي أن

يكون تفقدهم لها وتفكرهم فيها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخلو في غالب الأمور من إظهار نفسه بالعلم، وطلب الشهرة، وانتصار الصيت إما بالتدريس، أو بالوعظ. ومن فعل ذلك فقد تصدى لفتنة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون، وربما ينتهي العلم بأهل العلم إلى أن يتغايروا كها يتغاير النساء. وكل ذلك من رسوخ الصفات المهلكات في سر القلب التي يظن العالم النجاة منها، وهو مغرور فيها.

ومن أحسّ من نفسه هذه الصفات، فالواجب عليه الانفراد والعزلة (١)، وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى. فقد كان الصحابة يتدافعون الفتاوى، وكل منهم يود لو أن أخاه كفاه. وعند هذا ينبغي أن ينفي شياطين الإنس، فإنهم قد يقولون: هذا سبب لا ندراس العلم، فليقل لهم: دين الإسلام مستغن عني، ولو مت لم ينهدم الإسلام، وأنا غير مستغن عن إصلاح قلبي. فليكن فكر العالم في التفطن لخفايا هذه الصفات من قلبه، نسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وأن يوفقنا لما يرضاه عنا.

قد تقدم أن النبي على قدال: «تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله ولا تفكروا في الله هذاته سبحانه ممنوع منه، وذلك أن العقول تتحيّر في ذلك، فإنه أعظم من أن تمثله العقول بالتفكير، أو تتوهمه القلوب التصوير:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ (الشورى: ١١).

فأما التفكر في مخلوقات اللَّه تعالى، فقد ورد القرآن بالحثّ على ذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَاوِتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَافِ ٱلنَّالِ وَٱلنَّهَادِ، لقوله تعالى: ﴿قُلْ وَٱلنَّهَادِ، لَأَيْتِ لَأَوْلِي ٱلْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ١٩٠) الآيات. وقوله: ﴿قُلْ انْظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرض ﴾ (يونس: ١٠١).

ومن آيات اللَّه تعالى: الإنسان المخلوق من نطفة، فيتفكر الانســان في

⁽١) على أن يكون ذلك وقتياً ريثها ينجو ويشفى من الغرور والرياء، ثم يترك الانفراد والعزلة.

⁽۲) تقدم تخريجه قبل قليل.

نفسه فإن في خلقه من العجائب الدالة على عظمة اللَّه تعالى، ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وهو غافل عن ذلك. وقد أمر اللَّه تعالى الانسان بالتدبر في نفسه فقال: ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ ﴾ (الذاريات: ٢١). وقد تقدم في كتاب الشكر الكلام على بعض خلق الإنسان فليُطلب هناك.

ومن آياته: الجواهر المودعة في الجبال، والمعادن من الذهب والفضة والفيروزج ونحوها، وكذلك النفط والكبريت والقار وغيرها. ومن آياته: البحار العظيمة العميقة المكتنفة لأقطار الأرض، التي هي قطع من البحر الأعظم، المحيط بجميع البر. ولو جمع المكشوف من الأرض، من البراري، والجبال لكان بالإضافة إلى الماء كجزيرة في بحر عظيم. وفي البحر عجائب أضعاف ما نشاهده في البر!

وانظر كيف خلق اللؤلؤ، ودوّره في صدفه تحت الماء. وانظر كيف أنبت المرجان في صم الصخور تحت الماء، وكذلك ما عداه من العنبر وأصناف ما يقذفه البحر، وانظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء، وسيرها في البحار تسوقها الرياح وأعجب من ذلك الماء، فإنه حياة كل ما على الأرض من حيوان ونبات، فلو احتاج العبد إلى شربة ماء. ومنع منها، لبذل جميع خزائن الدنيا في تحصيلها. ولو ملك ذلك، ثم شربها ومُنع خروجها، لبذل جميع خزائن الأرض في إخراجها. للا يغفل العبد عن هذه النعمة.

ومن آياته: الهواء وهو جسم لطيف لا يُرى بالعين، ثم انظر إلى شدته وقوته، وانظر إلى عجائب الجو، وما يظهر فيه من الغيوم والرعد والبرق والمطر والثلج والبرد والشهب والصواعق، وغير ذلك من العجائب. وانظر إلى الطير تسبح بأجنحتها بالهواء كما يسبح حيوان البحر في الماء. ثم انظر إلى الساء

⁽١) بل (٣٣٣) الف مرة تقريباً كها يقول عنم الفلك الحديث!

وعظمها وكواكبها وشمسها وقمرها، وما فيها كوكب إلا ولله تعالى فيه حكمة في لونه وشكله وموضعه. وانظر إلى إيلاج الليل في النهار، والنهار في الليل، وانظر مسير الشمس، كيف اختلف في الصيف والشتاء والربيع والخريف.

وقد قيل: إن الشمس مثل الأرض مائة ونيفا وستين مرة، وإن أصغر كوكب في السهاء مثل الأرض بمرات، فإذا كان هذا قدر كوكب واحد فانظر إلى كثرة الكواكب، وإلى السهاء التي فيها الكواكب، وإلى إحاطة عينك بذلك مع صغرها والعجب منك أنك تدخل بيت غني مزخرف مموّه بالذهب فلا ينقطع تعجبك منه ولا تزال تذكره وأنت تنظر إلى هذا البيت العظيم، وإلى أرضه وسقفه وعجائبه وأمتعته وبدائع نقوشه، ثم لا تلتفت إلى نحوه بقلبك، ولا تتفكر في بناء خالقك! فلقد نسيت نفسك وربك، واشتغلت ببطنك وفرجك! فها مثلك في غفلتك إلا كمثل نملة تخرج من بيتها الذي حفرته في حائط قصر الملك، فتلقى أختها فتتحدث معها في حديث بيتها، وكيف بنته وما جمعت فيه، ولا تذكر قصر الملك ولا من فيه!

فهكذا أنت في غفلتك، في تعرف من السياء إلا ما تعرفه النملة من سقف بيتك. فهذا بيان معاقد الجُمل التي يجول فيها فكر المتفكرين، والأعمار تقصر، والعلوم تقلُّ عن الإحاطة ببعض المخلوقات، إلا أنك كلها استكثرت من معرفة عجائب المصنوعات، كانت معرفتك بجلال الصانع أتم، فتفكر فيها أشرنا إليه ههنا مع ما قدمناه من الإشارة إلى كتاب الشكر. فمن نظر في هذه الأشياء من حيث إنها فعل الله وصنعه، استفاد المعرفة بجلال الله تعالى وعظمته. ومن قصر النظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض، لا من حيث ارتباطها بمسبب الأسباب شقي. نعوذ بالله من مزلة أقدام الجهال، ومن الركون إلى أسباب الضلال. ولا وجه للتفكر فيها لا نراه من الملائكة والجن، فلذلك عدلنا عنه الى ما نراه والله أعلم.





_ کنّاب ذکرالموت وما بعب ده فضل ذکر الموت

ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «أكثروا من ذكر هاذم اللذات»(١).

وعن عبد الله بن مطرف قال: إن هذا الموت قد نعُّص على أهل النعيم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لا موت فيه.

واعلم أن المنهمك في الدنيا المكبّ على غرورها المحب لشهواتها، يغفل قلبه لا محالة عن ذكر الموت فلا يذكره، وإذا ذُكِّر به كرهه ونفر منه، أولئك هم الذين قال الله فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ آلمُوْتَ الَّذِي تَفِرُّ ونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَفِيكم ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَلِم الْفَيْبِ وَالشَّهَلَاةِ فَيُنَبِّئُكُم عِا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الجمعة: ٨) ثم الناس، إما منهمك وإما تائب مبتديء، وإما عارف منته أما المنهمك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشتغل بمذمته، وهذا يزيده ذكر الموت من الله بعداً، وأما التائب فإنه يكثر من ذكر الموت لينبعث به من قلبه الحوت من الله بعداً، وأما التوبة، وأما العارف فإنه يذكر الموت دائماً لأنه موعد للقائه بحبيبه، والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب.

ثم إن أنجع طريق في ذكر الموت أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الـذين مضوا قبله. فيتذكر موتهم ومصارعهم تحت التراب، ويتـذكـر صـورهم في

⁽۱) رواه النسائي وابن ماجه والترمذي وقال حـديث حسن غريب: بـل هو حـديث صحيح ولـه شواهد كثيرة ومم، وقد ورد بلفظ هاذم أي قاطع ومعنى هاذم أي كاسرٌ.

مناصبهم وأحوالهم، ويتأمل كيف محا التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وخلت منهم ماسجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم، وأنه مثلهم وستكون عاقبته كعاقبتهم، فملازمة هذه الأفكار مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى، هو الذي يجدد ذكر الموت في القلب فيستعد له ويتجافى (۱) عن دار الغرور، ومها طاب قلبه بشيء من الدنيا، ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد من مفارقته نظر ابن مطبع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسنها ثم بكى فقال: والله لولا الموت لكنت بك مسروراً، ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور، لقرت بالدنيا أعيننا، ثم بكى رحمه الله تعالى.

فضيلة قصر الأمل

قال رسول الله على لعبد الله بن عمر: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل» (٢) وكان ابن عمر يقول: «إذا أصبحت فلا تنظر المساء وإذا أمسيت فلا تنظر الصباح، وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لسقمك». وعن علي رضي الله عنه رفعه (٣): إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق، وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا، وسبب طول الأمل حب الدنيا والأنس بها والجهل باستبعاد الموت فجأة، ولا يدري أن ذلك غير بعيد، فإن الموت لا وقت له من شباب وشيب وكهولة، ومن صيف وشتاء وخريف وربيع، ومن ليل ونهار، فلا يُقدر وشيب الجنائز، فها أغفله وما أجهله! فسبيله أن يقيس نفسه بغيره، ويعلم أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويُدفن في قبره، ولا علاج لذلك إلا الإيمان باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب. فمها حصل له باليوم الآخر، وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب. فمها حصل له

⁽١) يبتعد.

⁽٢) رواه البخاري.

⁽٣) لا اظن يصح رفعه الى النبي ﷺ.

اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا، فإن حب الخطير هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير.

المبادرة الى العمل وحذر آفة التأخير

عن النبي على أنه قال: «اغتنم خساً قبل خس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك»(١) وقال على: «نُعمتان مغبون فيها كثير من الناس: الصحة والفراغ»(١) أي إنه لا يغتنمها، ثم لا يعرف قدرهما الا عند زوالها. وكان الحسن يقول في موعظته: المبادرة فإنما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل. رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه. ثم قرأ هذه الآية: ﴿فَلاَ تَعْجَبُلْ عَلَيْهِمْ إِنَّا نَعُلاً لَمُمْ وَاقَ أَهلك، آخر العدد خروج نفسك، آخر العدد وأقل أهلك، آخر العدد دخولك في قبرك.

وسبب التأخير هو الأنس بالدنيا وشهواتها والتسويف، فلا ينزال يسوِّف ويُوْخر ولا يخوض في شغل إلا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى. وهكذا على التدريج يُؤخر يوماً بعد يوم ويُفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تخطفه المنية في وقت لا يحتسبه، فتطول عند ذلك حسرته، وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف! يقولون واحزناه من سوف، والمسوِّف المسكين لا يدري أن الذي يدعوه إلى التسويف اليوم هو معه غداً، وإنما يزداد بطول المدة قوة ورسوخاً، ويظن أنه يتصور أن يكون للخائض في النديا فراغ قط، وهيهات فها يفرغ منها إلا من اطرحها:

فسا قضى أحد منها لبانت وما انتهى أرب إلا إلى أرب نسأله تعالى أن لا يجعل لنا بعد الموت حسرة إنه سميع الدعاء.

⁽١) رواه الحاكم والبيهقي وهو صحيح الاسناد (مج).

⁽٢) رواه البخاري.

بيان سكرة الموت والاعتبار بالجنائز وزيارة القبور

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد المسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت بمجردها، لكان جديراً بأن يتنغص عليه عيشه، ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته، وحقيقاً بأن يطول فيه فكره ويعظم له استعداده، لا سيها وهو في كل نفس بصدده - كها قال بعض الحكهاء: «كرب بيد سواك لا تدري متى يغشاك». واعلم أن الجنائز عبرة للبصيرة، وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة، فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قسوة، لأنهم يظنون أنهم أبداً إلى جنازة غيرهم ينظرون، ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يُحملون أو يحسبون ذلك، ولكنهم على القرب لا يقدرون، ولا يتفكرون أن المحمولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون، فبطل حسبانهم وانقرض على القرب عمول على القرب عمول على القرب على القرب عمول على القرب عمول على القرب عمول على القرب عمول على القرب في غد أو بعد غد. قال ثابت البناني: كنا عليها على القرب وكأن قد. ولعله في غد أو بعد غد. قال ثابت البناني: كنا نشهد الجنائز فلا نرى إلا متقنعاً باكياً، فهكذا كان خوفهم من الموت.

والآن لا ننظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم يضحكون ويلهون، ولا يتكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته، ولا يتفكر أقرانه وأقاربه، إلا في الحيلة التي يتناول بها بعض ما خلفه، ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه، وفي حاله إذا حُمل عليها، ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب، حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر والأهوال التي بين يدينا، فصرنا نغفل ونلوهو بما لا يعنينا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه الغفلة.

(فمن آداب حضور الجنازة) التفكر والتنبه والاستعداد^(١).

(وأما زيارة القبور) فهي مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار، وقد

⁽١) وكذلك الصمت وعدم رفع الصوت بذكر أو قراءة أو غير ذكل مما يفعله كثير من العامة وقد صح هذا القول بهذا عن بعضالصحابة وله حكم المرفوع.

كان رسول الله على عن زيارة القبور، ثم أذن في ذلك بعد (١)، وأما النساء فلا يفي خير زيارتهن بشرها، يكثرن الهجر على رؤوس المقابر ولا يخلون في الطريق عن كشف وتبرج، وهذه عظائم؛ والزيارة سنة فكيف يُحتمل ذلك من أجلها، نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة ترد أعين الرجال عنها، وذلك بشرط الاقتصار (١) على السلام والدعاء، وترك اللغو.

والمستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر(٢) القبلة مستقبلاً لوجه الميت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يقبله، فإن ذلك من عادة النصارى! قال نافع: كان ابن عمر رأيته مائة مرة أو أكثر يجيء إلى القبر فيقول: السلام على النبي، السلام على أبي بكر، السلام على أبي، وينصرف، وكان بعض البلف إذا وقف على باب المقابر يقول: آنس الله وحشتكم ورحم غربتكم، وتجاوز عن سيئاتكم وقبل حسناتكم. فالمقصود من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه، فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء للميت ولا عن الاعتبار به، وإنما يحصل هل الاعتبار بأن يتصور في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه، وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به، ويستحب تفرقت أجزاؤه، وكيف يبعث من قبره وأنه على القرب سيلحق به، ويستحب الثناء على الميت وأن لا يذكره إلا بالجميل. قال على القرب سيلحق به، ويستحب قد أفضوا إلى ما قَدَّموا»(٣).

ذكر ما بعد الموت من البرزخ وأهوال القيامة

كما أن للموت شدة في أحواله وسكراته وخطراً في خوف العاقبة، كذلك الخطر في مقاساة ظلمة القبر وديدانه، ثم لمنكر ونكير وسؤالها، ثم

⁽۱) لفظ الحديث كما رواه أنس (كنت نهيتكم عن زيارة القبور الا فـزوروها، فـانها ترقق القلب، وتدمع العين، وتذكر الآخرة، ولا تقولوا هجراً) اخرجه الحاكم بسنـد حسن، وهو صحيح (مج) حسن.

⁽٢) هذا عند السلام، أما عند الدعاء للميت، فان الزائر يقف مستقبلا القبلة لا القبر اتفق على ذلك الأثمة الاربعة رحمهم الله تعالى.

⁽٣) رواه البخاري.

لعذاب القبر وخطره إن كان مغضوباً عليه، وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من نفخ الصور والبعث يوم النشور، والعرض على الجبار، والسؤال عن القليل والكثير ونصب الميزان لمعرفة المقادير، ثم جواز الصراط، ثم انتظار النداء عند فصل القضاء: إما بالاسعاد وإما بالإشقاء.

فهذه أحوال وأهوال لا بد لك من معرفتها، ثم الإيمان بها على سبيل الجزم والتصديق، ثم تطويل الفكر في ذلك لينبعث من قلبلك دواعي الاستعداد لها، وأكثر الناس لم يدخل الإيمان باليوم الآخر صميم قلوبهم، ولم يتمكن من سويداء أفئدتهم، وبدل على ذلك شدة تشميرهم واستعدادهم لحر الصيف وبرد الشتاء، وتهاونهم بحر جهنم وزمهريرها مع ما تكتنفه من الصاعب والأهوال، بل إذا سئلوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم، ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم وقال لصاحبه الذي أحره: صدقت، ثم مد يده لتناوله كان مصدقاً بلسانه ومكذباً عمله.

وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان، فمثل نفسك وقد بعثت من قبرك مبهوتاً من شدة الصاعقة ساخص العين نحو النداء، وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم، وقد أزعجهم الرعب مضافاً إلى ما كان عندهم من الهموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصَّورِ فَصِعِقَ مَن فِي السَّمَنواتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَآءَ اللَّهُ مُن نُفِخَ فِيهِ أَخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ اقِيَامٌ يَنظُرُونَ ﴾ (الزمر: ٦٨) وتفكر في الخلائق وذلهم وانكسارهم واستكالنتهم انتظاراً لما يُقضى عليهم من سعادة أو شقاوة، وأنت فيها بينهم منكسر كانكسارهم متحير كتحيرهم، فكيف حالك وحال قلبك هنالك، وقد بُدّلت الأرض عير الأرض والسموات، وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض واشتبك الناس، وهم حفاة عراة مشاة، وازدهوا في الموقف شاخصة أبصارهم، منفطرة قلومهم.

فتأمل يا مسكين! في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه، والخجل

والحياء من الافتضاح عند العرض على الجبار تعالى، وأنت عار مكشوف ذليل، متحير مبهوت منتظر ما يجري عليك القضاء بالسعادة أو الشقاوة، وأعظم بهذه الحال فإنها عظيمة، واستعد لهذا اليوم العظيم شأنه، القاهر سلطانه، القريب أوانه ﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ مَلْ القريب أوانه ﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ مَلْ القريب أوانه ﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ مَلْ الله القريب أوانه ﴿يَوْمَ تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ مَلْ الله الله الله المناس سُكَارَى وَمَا هُم يَسكنرَى وَلَكواكب من هوله قد انتشرت، والنجوم الزواهر قد انكدرت، والشمس قد كُورت، والجبال قد انتشرت، والعشار قد عُطلت، والوحوش قد حُشرت، والبحار قد سُجرت، والنفوس إلى الأبدان قد زُوِّجت، والجحيم قد سُعرت، والجنة قد أزلفت.

وقد وصف اللَّه بعض دواهي يوم القيامة. وأكثر من أساميه، لتقف بكثرة أساميه على كثرة معانيه، فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب، بل الغرض تنبيه أولى الألباب، فتحت كل اسم من أسماء القيامة (١)، سر، وفي كل نعت من نعوتها معنى. فاحرص على معرفة معانيها.

فالويل كل الويل للغافلين، يُرسل اللّه لنا سيد المرسلين، ويُسزل عليه الكتاب المبين، ويخبرنا بالصفات من نعوت يوم الدين، ثم يعرف غفلتنا ويقول: ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ إِنِ غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ، مَا يَأْتِيهِم مّن ذِكْرٍ مّن رَبِّهِم خُددُ إِلّا آسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ لاَهِيةً قُلُوبُهُمْ ﴾ (الأنبياء: ١-٣) ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: ١) ﴿ إِنَّهُمْ يَرُونَهُ بَعِيداً وَنَرَاهُ قَرِيباً ﴾ (المعارج: ٦و٧) ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيباً ﴾ (الأحزاب: ٦٣) ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملاً، فلا نتدبر معانيه ولا ننظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميه، ولا نستعد للتخلص من دواهيه. فنعوذ باللّه من هذه الغفلة إن لم يتداركنا اللّه بواسع رحته.

⁽١) راجع كتاب «مشاهد القيامة في القرآن».

صفة السؤال

ثم تفكر يا مسكين! بعد هذه الأحوال فيها يتوجه عليك من السؤال شفاهاً من غير ترجمان فتسأل عن القليل والكثير والنقير والقطمير، فبينها أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عظائمها، إذ نزلت ملائكة من أرجاء السهاء إلى موقف العرض على الجبار فيقومون صفاً صفاً، محدقين بالخلائق من الجوانب، وينادون واحداً بعد واحد، فعند ذلك ترتعد الفرائص وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار، ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق. وقبل الابتداء أعمالهم على الجبار، ولا يكشف سترهم على ملأ الخلائق. وقبل الابتداء وأيقن قلب كل عبد بإقبال الجبار لمساءلة العباد، وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواه، وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه، فيبدأ سبحانه بالأنبياء ﴿وَيُومٌ يَجْمَعُ آللَّهُ ٱلرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلَّمُ الْخَيُوبِ ﴿ (المائدة: ٩٠٩) فيا لشدة يـوم تذهل فيه عقول الأنبياء من عله علم عله على مده الهيبة، ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاهاً عن قليل عمله وكثيره. وعن سره وعلانيته، وعن جميع جوارحه وأعضائه.

فكيف ترى حياءك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك، وأياديه ومساويك، فإن أنكرت شهدت عليك جوارحك، وأنت بقلب خافق وطرف خاشع وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، فكم من فاحشة نسيتها فتذكرها، وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فانكشف لك عن مساويها، فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه. وبأي لسان تجيب، فبأي قلب تعقل ما تقول، وفي الحديث: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة من عند ربه حتى يُسأل عن أربع خصال: عن عمره فيها أفناه، وعن شبابه فيها أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيها أنفقه، وماذا عمل فيها علم»(١).

⁽١) رواه الترمذي وقال: هذا سنده غريب. واسناده صحيح (مم).

الميزان وتطاير الكتب إلى الشمائل والايمان ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَـوَذِينُهُ فَهُـوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَذِينُهُ فَأُمَّهُ هَاوِيَةٌ وَمَآ أَدْرَ لَكَ مَاهِيَهُ نَارٌ حَامِيَةٌ ﴾ (القارعة: ٦ ـ ١١).

صفة الخصهاء ورد الظالم

اعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه، ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله، وخطراته ولحظاته، وإنما حسابه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل أن يموت توبة نصوحاً، ويتدارك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى، ويرد المظالم حبة بعد حبة، حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب، وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده، وهذا يقبض على ناصيته، وهذا يقول: ظلمتني، وهذا يقول: استهزأت بي، وهذا يقول: حاورتني فأسأت جواري، وهذا يقول: عاملتني فغششتني، وهذا يقول: أخفيت عيب سعلتك عني، وهذا يقول: كذبت في سعر متاعك، وهذا يقول: رأيتني محتاجاً وأنت غني فيا أكرمتني، وهذا يقول: وجدتني مظلوماً وكنت قادراً على دفع الظلم عني فيا راعيتني.

فبينها أنت كذلك، وقد أنشبت الخصهاء فيك محالبهم، وأنت مبهوت متحير من كثرتهم، إذ قرع سمعك نداء الجبار جل جلاله ﴿ ٱلْيُوْمَ تُجُوزَىٰ كُلُّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ ٱلْيَوْمَ ﴾ (غافر: ١٧) فعند ذلك ينخلع قلبك وتتذكر ما أنذرك الله على لسان رسوله حيث قال: ﴿ وَلاَ تَحْسَبَنَّ ٱللَّه غَنْفِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّنْلِمُونَ إِنَّمَا يُوَجِّرُهُمْ لِيَوْم تَشْخَصُ فِيهِ ٱلأَبْصَارُ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُ إِنَّهُمْ طَرْقَهُمْ وَأَفْتِدَ تُهُمْ هُوَآءٌ ﴾ (إبراهيم: ٢٤ و٤٣) فيا أشد ترحك (١) اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم، وما أشد حسراتك في ذلك اليوم، إذا وُقف بك على بساط العدل وكشف عن فضائحك ومساويك،

⁽١) حزنك.

فاحذر من التعرض لسخط الله وعقاب الأليم. واستقم على صراطه المستقيم. فمن استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الأخرة ونجا، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا، وأثقل ظهره بالأوزار وعصى، تعتّر في أول قدم من الصراط وتردى.

القول في أهوال جهنم وقانا اللَّه عذابها

يا أيها الغافل عن نفسه! المغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا المشرفة على الانقضاء والزوال، دع التفكر فيها أنت مرتحل عنه. واصرف الفكر إلى موردك فإنك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قال سبحانه: ﴿وَإِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَسْهاً مُقْضِياً ثُمَّ أَنْتَجَى اللَّذِينَ اتَّقَواْ وَنَدَر وَمِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُها كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَسْهاً مُقْضِياً ثُمَّ أَنْتَجَى اللَّذِينَ اتَّقُواْ وَنَدَر وَمِن مِنكُمْ إِلاَّ وَارِدُها كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَسْهاً مُقْضِياً ثُمَّ أَنْتَجَى اللَّذِينَ اتَقُواْ وَنَدَن وَمِن الطَّلِمِينَ فِيها جِثِياً ﴾ (مريم: ٦٩ - ٧٠) فأنت من المورد؛ على يقين، ومن النجاة في شك، فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد، فعساك تستعد للنجاة منه، وتأمل في حال الخلائق وقد قاسوا من داهي القيامة ما قاسوا، فبينها هم في كربها وأهوالها وقوفاً ينتظرون حقيقة أنبائها وتشفيع شفعائها، إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب، وأظلت عليهم نار ذات لهب، وسمعوا لها زفيراً يُفضح عن شدة الغيظ والغضب، فعند ذلك أيقن المجرمون بالعطب، وجثت الأمم على الركب. حتى أشفق البريء من سوء المنقلب.

فهناك تسوق الزبانية المجرم إلى العذاب الشديد وينكسونه في قعر الجحيم، ويقولون له: ﴿ وَفُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴾ (الدخان: ٤٩) فأسكن داراً يخلد فيها الكافرون، ويوقد فيها السعير: شرابهم فيها الحميم، ومستقرهم الجحيم. شدّت أقدامهم إلى النواصي، واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي، ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها: يا مالك! قد نضجت منا الجلود، يا مالك! أخرجنا منها فإنا لا نعود. فتقول الزبانية: هيهات لات حين أمان، ولا خروج لكم من دار الهوان، فاخسؤوا فيها ولا تكلمون. فعند ذلك يقنطون، وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون. ولا

ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف، يدعون بالويل والثبور (١)، وتغلي بهم النار كغلي القدور، وتهشم بمقامع الحديد جباههم، فينفجر الصديد من أفواههم، وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون.

فكيف لو نظرت إليهم وقد اسودت وجوههم أشد سواداً من الحميم، وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم، وكُسرت عظامهم، ومُزقت جلودهم، ولهيب النار سار في بواطن أجزائهم، وحيّات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم. هذا بعض جملة أحوالهم، وانظر إلى تفاوت الدركات، فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً، فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت، فمنهم منهمك مستكثر كالفريق فيها، ومن خائض فيها إلى حد محدود، فكذلك تناول النار لهم متفاوت، فإن الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفها كان، بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه، إلا أن أقلهم عذاباً لو عرضت عليه الدنيا لافتدى بها من شدة ما هو فيه. فيالحسرة هؤلاء وقد بلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من الدنيا ولذاتها.

فانظر يا مسكين في هذه الأهوال. والعجب منك حيث تضحك وتله و وتشتغل بمفرحات الدنيا، ولست تدري بماذا سبق القضاء في حقك. (فإن قلت): فليت شعري ماذا موردي وإلى ماذا مآلي ومرجعي، وما الذي سبق به القضاء في حقي، فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها، وهو أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك، فإن كلاً ميسر لما خُلق له، فإن كان قد يسر لك سبيل الخيرات فأشر فإنك مبعد عن النار، وإن كنت لا تقصد خيراً إلا وتحيط بك العواثق فتدفعك ولا تقصد شراً إلا ويتيسر لك أسبابه، فاعلم أنك مقضي عليك، فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة المطر على النبات، ودلالة الدخان على النار، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ وَإِنَّ ٱلْفُجَارَ مستقرك من الدارين.

⁽١) الملاك.

صفة الجنة وأصناف نعيمها

اعلم أن تلك الدار التي عرفت همومها وغمومها يقابلها دار أخرى، فتأمل في نعيمها وسرورها، فإن من بُعد من إحداهما استقر لا محالة في الأخرى، فسق نفسك بسوط التقوى لتنال الملك العظيم، وتسلم من العذاب الأليم، فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نضرة النعيم يُسقَون من رحيق مختوم جالسين على منابر الياقوت، متكثين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار، مطردة بالخمر والعسل، محفوفة بالولدان(١) مزينة بالحور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن(١) إنس قبلهم ولا جان، ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نضرة النعيم، وهم فيها اشتهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون، ومن ريس المنون.

فيا عجباً لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا تحل الفجائع بمن نزل بفنائها، كيف يأنس ويتهنأ بعيش دونها، والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان، مع الأمن من الموت والجوع والعطش وسائر أصناف الحدثان، لكان جديراً بأن يهجر الدنيا بسببها، وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتنغص من ضروراته كيف وأهلها ملوك آمنون، وفي أنواع السرور مُتّعون، فم فيها كل ما يشتهون وإلى وجه الله الكريم ينظرون، وينالون بالنظر من الله مالا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان، ومهما أردت أن تعرف صفة الجنة فاقرأ القرآن فليس وراء بيان الله تعالى بيان، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَلَمْنَ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنّتَانِ ﴾ (الرحمن: ٤٦) إلى آخر سورة الرحمن، واقرأ سورة الواقعة وسورة الإنسان وغيرها من السور، ففيها ما يدلك على أن ثمة ما لا عين

⁽۱) يشير إلى قوله تعالى ﴿ يطوف عليهم ولدان مخلدون ﴾ لا يؤشر عليهم الزمن، فيبقون على حالتهم لخدمة أهل الجنة فان الخادم إذا كان مسناً يستحي منه في تكليفه بالخدمة. وهذا من تمام نعيم الجنة.

⁽٢) هن أبكار.

رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر كها ورد في الأثـر، ويكفي من الاطلاع على جملتها ما بينا، وقد ورد في تفصيـل صفتها كثـير من الأخبار المدونة في الأسفار الكبار.

اللهم إنا نسألك الجنة وما قرّب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل، ونستغفرك من كل ما زلت به القدم، أو طغى به القلم، يا واسع المغفرة يا أرحم الراحمين.

انتهى الجزء الشاني والأخير بحمد الله وفضله، والحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات.



كلمة شكر

لا بد، «وقد انتهى كتاب»: «تهذيب موعظة المؤمنين» بعون الله وتوفيقه، من نقدم جزيل الشكر إلى الأخ الفاضل، والكاتب المجاهد الأستاذ محمد عيد العباسي (أبو عمار) لما بذله من جهد في المشاركة في تحقيق أحاديث هذا الكتاب، والتعاون في تصحيح تجاربه، فجزاه الله تعالى خيراً، أجر ما يبذل لنصرة الإسلام والدعوة إليه.

كما نشكر في الوقت نفسه الأخ الغيور الصيدلي محمد ياسين الآغا (أبـو ياسر) لمشاركته في تصحيح هـذه التجارب أيضاً، ونسألـه سبحانـه أن يتولى مكافأته، ويكتب له الأجر والثواب.





من كتاب تهذيب موعظة المؤمنين

كتاب رياضة النفس في علاجها وإصلاحها ٢١٩
كتاب آفات اللسانكتاب آفات اللسان
كتاب ذم الدنيا
كتاب ذم البخل وذم حب المال
کتاب ذم الجاه والرباء
كتاب ذم الكبر والعجب
کتاب ذم الغرور
كتاب التوبة
كتاب الصبر والشكر
كتاب الرجاء والخوف
كتاب الفقر والزهدكتاب الفقر والزهد
كتاب التوكلكتاب التوكل
كتاب محبة الله
كتاب النية والإخلاص والصدق ٤٤٩
كتاب المحاسبةُ والمراقبة
كتاب التفكر
كتاب الموت وما بعده
كلمة شكر